أ.د. صالح بلعيد

الاهتمامُ بلغة الأُمّة

-العِبْرَة من الفرنسيّين-

منشورات مخبر الممارسات اللغوية

2016

أ.د. صالح بلعيد

الاهتمامُ بلغة الأُمّة -العِبْرَة من الفرنسيّين-

مخبر الممارسات اللغوية في الجزائر

تصفيف وإخراج دار الأمل

ISBN 978-9961-9786-2-7

صالح بلعيد

الاهتمامُ بلغةِ الأُمّةِ

-العِبْرَة من الفرنسيّين-

منشورات مختبر الممارسات اللغوية في الجزائر
2016

حقوق الطَّبع محفوظة لمختبر الممارسات اللُّغويَّة

ردمك: 7 – 2 – 9786 – 9961 – 978

الفهرس العامّ

ــ المُقدّمة: 7
ــ أهداف الكتاب: 49
1 ــ تحديدات لغوية في معاني: لغة الأمّة: 67
2 ــ العملُ على ترقيّة اللّغة الفرنسيّة بطول النّفس: 91
3 ــ النّموذج الفرنسي النّاجح: 117
4 ــ تأسيسُ المُؤسّسات العلميّة: 137
5 ــ تأسيسُ قُطب الفرنكفونيّة: 153
6 ــ مُخطّطاتُ الفرنكفونيّة: 171
7 ــ مَخاطرُ الفرنكفونيّة: 179
8 ــ الفَرْنَسَةُ La francisation: 197
9 ــ السّياسةُ اللّغويّة الفرنسيّة خارج فرنسا: 209
10 ــ تجنيدُ فرنسا للنُّخَب الوطنيّة في البلاد المُستعمَرَة: 223
11 ــ القهرُ اللّغويّ الفرنسيّ: 235
12 ــ شرطُ الإدماج المُجتمعيّ الأوربي: 239
13 ــ النُّخبة الوطنية وقابلية الرّكوع: 245
14 ــ تدريس العربية الفُصحى باللّهجات: 269
15 ــ طرح أسئلة التّعدّدية اللّسانية: 309
16 ــ التّدريسُ باللّغات الأجنبيّة: 317
17 ــ ما هي العِبَرُ التي تُستنبَط من التّجربة الفرنسيّة النّاجحة؟..... 321
18 ــ الاعتبار+ مشاريع النّهوض: 361
ــ الخاتمة: 375

لُغَتـــــي

أنا لُغتي
أنا مُعلّقة، مُعلّقتان، عَشْر
أنا لُغتي
أنا ما قالتِ الكلماتُ
أنا ما قلتُ للكلماتِ
كنْ جَسَدي، فكنتُ لنبْرِها جَسَداً
هذه لُغتي ومُعجزتي، عَصا سِحْري
حَدائقُ بابل، فَلْسَفَتي
ومَعْدَني الثّقيل، ومُقدّس العربيّ في الصَّحْراء
يعبُد ما يسيل من القوافي
كالنّجوم على عباءته
ويعبُد ما يقول
فَلْتنتصرْ لغتي على الدّهر العدو
على شلالاتي
عليَ، على أبي، وعلى زوالٍ لا يزولُ
هذه لُغتي ومُعجزتي. عَصَا سِحْري.

الشّاعر: محمود درويش.

عن الربيع بن سليمان قال:

قال لي الشافعي: يا ربيعُ! رِضا الناسِ غايةٌ لا تُدرَك!

فعليكَ بما يُصلحُك فالْزِمْه؛ فإنّه لا سبيلَ إلى رِضاهم!

واعلم أنّه مَن تعلّمَ القرآنَ جلَّ في عيون الناس.

ومَن تعلّمَ الحديثَ قَويتْ حُجته.

ومَن تعلّمَ النّحوَ هِيبَ.

ومَن تعلّمَ العربية رقَّ طبعُه .

ومَن تعلّمَ الحسابَ جزل رأيُه.

ومن تعلّمَ الفِقهَ نَبُل قدرُه.

ومَن لم يَصُنْ نفسَه؛ لم ينفعْه علمُه. ومَلاك ذلك كلّه التّقوى.

يقول أحدُ المعاصرين:

إنّ اللّغةَ العربيةَ هي لغةُ الإسلام الرّسمية، ومن ثم فهي لغة المسلمين الدينية الرّسمية، ولهذه اللّغة على الأمّة الجزائرية حقّان أكيدان، وكلّ منهما يقتضي وجوب تعلّمها، فكيف إذا اجتمعا:

1ــ حقّ من حيث إنّها لغة دين الأمّة، بحكم أنّ الأمّة مُسْلمة.

2ــ حقّ إنّها لغة جنسها، بحكم أنّ الأمّةَ عربيةُ الجِنس، ففي المحافظة عليها محافظةٌ على الجِنسية والدين معاً.

المُقدّمة

إنّ هذا الكتاب يأتي ضمن سلسلة المؤلّفات التي أنتجناها، وقد تخصّصت في تناول موضوعات **المواطنة اللّغوية**/ La citoyenneté linguistique وكان قصدُنا منها أن تكون مَصْدراً ومَرْجِعاً للباحث الجزائري والعربي، أو للباحث عن ترقية لغة الأمّة/ اللّغة الأمّ/ اللّغة الرّسمية/ اللّغة الوطنية؛ والتي لا يحصل الأمن والانسجام الجمْعي بدونها، والمسألة اللّغوية تدخل في باب (الأمن اللّغوي= الأمن العامّ). وهذه السلسلة هي:

1 ــ في المواطنةِ اللّغوية وأشياء أخرى...

2 ــ (يزَعُ بالحاكمِ ما لا يزَعُ بالعالِم...).

3 ــ لماذا نجحَ القرارُ السّياسيُ في الڤيتنام، وفَشِلَ في...؟

4 ــ في المسألةِ الأمازيغية.

5 ــ العربيةُ في خَطَر.

6 ــ المازيغيةُ في خَطَر.

7 ــ في الأمنِ اللّغوي.

8 ــ هكذا رَقَّى الفرنسيون لغتَهم، فهل نعتبر؟

9 ــ اللّغةُ الجامعة.

10 ــ في التّربويات والإسلاميات.

وهذا الكتاب عِقد مُكمّل للسلسلة، وبخاصّة لكتاب عنوانه (**هكذا رقّى الفرنسيون لغتهم، فهل نعتبر؟**) وقد ظهر في الأوّل من يناير 2014م، ضمن منشورات مختبر المُمارسات اللّغوية في الجزائر، بجامعة مولود معمّري بتيزي–وزو. وهذه صورة الغلاف:

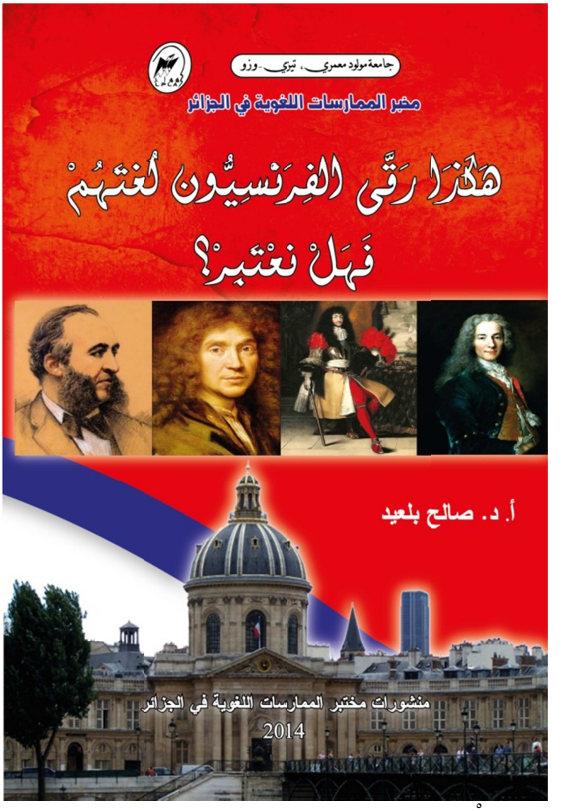

وإنّ هذا الكتاب عِقْد مُتلاحق من خلال المادة العلمية التي كان بعضُها في الكتاب السابق، وقد نمتْ معلوماتُه وكبُرتْ، وتلاحقتِ الإضافاتُ، وحصلتِ التّحسيناتُ، وزادتِ المُراجعاتُ، وهذا مَطْلوب في كلّ الحالات، وليس من الاستثناءات. ولذلك كان من الضروري أن يحدُث تغيّير في العنوان، وعهدنا فيها أن يخرجَ على حساب الطّبعة الثّانية لا غير؛ بحيث إنّ الجديدَ الذي يحمله هذا الكتاب يُضيف كثيراً عمّا وُجد في الكتاب السابق، إنْ لم نقُل يتجاوزه في بُعده العامّ والخاصّ. ولذلك حقّ علينا تغيّير العنوان إلى (**الاهتمامُ بلغةِ الأمّةِ –العِبْرة من الفرنسيين–**) تَمَشّياً والمادة العلمية الجديدة والمَزِيدة. بالفِعْل اقتنعْنا أن يقعَ تغيّيرُ العنوان بسبب الإضافات، وتحصيل حاصل أن يكون التّلاقي بين المَحْمُول والمُسمّى واقعاً، ويَتَجَلَّى في العنوان ظاهراً؛ باعتبار الكتاب يُقرأُ من عُنوانه كاملاً.

وإنّنا نزعم، بأنّ هذا الكتابَ (**الاهتمامُ بلغة الأمّة – العبرةُ من الفرنسيين**–) قد يفِي المستقصيَ بشكلٍ مُرْضٍ في قضية فِكرٍ وفي توجُّهات وفي تخطيطات وفي خطَر الفرنكفونية، هذا من جهّة، ومن جهّة ثانية، يتجلّى في عمل حيّ يستحقّ الإشادة والتقدير، ونريد منه الاعتبار؛ لما قامَ به الفرنسيون من إكبار، تجاه لغتهم لتكون لغةَ اقتدار، وهذا في جانب العمل على أن تنال الفرنسية الريادة والعلمية وأن يكون لها أتباعٌ في العالم، وأما ما له علاقة بالاحتواء الثّقافي أو التوجيه الإيديولوجي، فقد صُغناه في هذا الكتاب ليكون مَعْلماً يجبّ الحذر منه، وعدم التماهي في بريقه، ولا العيش في خصوصه، وأن نأخذ الفائدة من عمومه.

وفي هذا الكتاب هناك مرامٍ أُخَر يجدها الباحث أو القارئ، وقد يكفيه عَناءَ العودة إلى المَظانِ الأخرى، ونكون قد أنقصْنا عليه الكثير من الفُضُول؛ لما يحمله الكتابُ من مراجع حول الاهتمام بلغة الأمّة/ اللّغة الأمّ/ اللّغة الرّسمية. وبالفعل وقع التّركيز على عَمَل الفرنسيين تجاه اللّغة الفرنسية باعتبار الفرنسية (**لغة الأمّة الفرنسية**) وهي اللّغة الأمّ الجامعة، وكان فِعْلُهم نبيلاً، إنْ لم نقلْ: إنّ له الفَرادةَ في العالم؛ لما أسْداه الفرنسيون من الاهتمام بلغتهم الفرنسية، ولما قدّمَهُ الفرنكفوليون والفرنكفونيون من خدمات للغتهم عن قُرب أو عن بُعد، وذلك ما جعلَها تنالُ موقعَها الوطني، ويكون لها الإشعاعَ في العالم؛ ومن ذلك اعتبرْناها تجربةً فذّةً تستحقّ لقب (النّموذج النّاجح). وغرضُنا من كلّ ذلك استكناهها خريطةَ طريقٍ تُتَّبعُ في الاهتمام بترقية اللّغة العربية؛ والعربية (**لغة الأمّة/ اللّغة الأمّ/ اللّغة الرّسمية**) ليحصلَ لها المقامُ عند العرب والمُسلمين، ولتعودَ إلى وضعها الإشعاعي كما كانت قبل عصور الاستعمار.

وفي هذا الكتاب –الذي بين أيديك أيّها الباحثُ– وقعَ الاحتجاجُ كثيراً بدولة (**الجزائر**) وهي لا تنتمي إلى قُطب الفرنكفونية، ولكنَّ الفرنسيةَ تشتعل فيها وتتقدّمُ وتشير الدراسات الحديثة بأنّ (الجزائر) تأتي في الرُّتب الأولى من حيث استعمالُ الفرنسية في العالم. فماذا يعني هذا في بلد غير فرنكفوني؟ قد يعني أنّ دولةَ

(الجزائر) تتسامح في لغة الأمّة/ اللّغة الرّسمية، أو هي في طريق التّراجع، أو أنّ (لغة الأمّة) تُعاني بعض التّراخي في هذا البلد، وأنّ مصيرَها مجهول، أو أنّ دولةَ (الجزائر) المُناضلة تُراجِع مواطنتَها اللّغوية في اتّجاه لا تحملها مواثيقُها... وفي الحقيقة، فإنّ ما ينطبق على (الجزائر) ينطبق على الغالبية من الدُّول العربية التي تنتمي إلى قُطب الفرنسيين أو قُطب الإنكلوساكسونيين، إلاّ في بعض الخلافات النّسبية، ومن هنا، تأتي (**المغرب**) في الرُّتبة الثانية التي يقع الاستشهادُ بها، وسوف نمرّ على بعض المقتطفات ذات العلاقة بالموضوع، والتي يتطلّبها المقام. ولماذا (المغرب/ المملكة المغربية) بالذات؟ لأنّ (المغرب) عرف قفزاتٍ نوعيةً في إطار التّعريب في ستينيات القرن الماضي، وسبق أن وضع مؤسّسات علمية للتعريب وأصبحت مؤسّسات معرّبة منذ سنوات الستينيات؛ من مثل معهد الدراسات والأحاث للتعريب، وكذلك تلك المؤسّسة التابعة لجامعة الدول العربية (مكتب تنسيق التعريب) ويصدر المعاجم الموحّدة، وهي القاعدة التي تحتاجها اللّغة العربية. وبالفعل شهدت العربية استعمالاً نوعياً في المدارس وفي الجامعات المغربية، ولكنّ انتماءه إلى قطب الفرنكفونية، ربّما كان السبب في ردّات الفعل ضدّ العربية وبخاصّة في الألفية الثالثة التي صعد فيها تيار (المُزوغة) الذي يحقد على العربية بقوّة، وهو تيار مُضاف إلى تيار الفرنكفونية، ومُضاد للعروبة، إن لم نقول إنّهما تضامنا لدحْر العربية في المغرب، هذا من جهة،ومن جهة ثانية؛ فإنّ النّخبة المغربية تتشبّث بالفرنكفونية على أنّها البيت الذي يحميها ويُنجيها من التخلّف، ولا تقدّمَ دون اللّغة الفرنسية، فهناك من يعبد الفرنسية إلى حدّ نسيان لغة الأمّة المغربية. وهذه هي العقدة الثّقافية التي يتركها ويركبها أو يعتقدها هذا التيار الفرنكفوني المغربي، وهو خَطَر على كلّ الشعوب التي تنضوي تحته، بحيث لا يترك لها حرية الخروج عمّا سطّره فكر الفرنكون، وباقي الأقطاب أو اللّغات لا مجال لها ولا قيمة.

يجب الإقرار – من البداية– بأنّ قُطبَ الفرنكفونية أخطرُ من قطب/ تجمّع الكمنويلث، وبخاصّةٍ أنّ الفرنكفونيةَ في الماضي تعتمد على القوّة العسكرية، وفي الحاضر تعتمد على الاستثمار في الإعلام المُوجّه؛ وذلك ما جعلَ الفرنسيةَ في إفريقيا تنال مواقعَ مُتقدّمة، وبلاد (الكونغو) نموذج حيّ لذلك، وفي (لبنان) نجد الفرنسيةَ لها تواجد قوي عند مُعظم اللبنانيين، وفي بلاد المغارب لها الحضور الفاعل، وفي (الجزائر) تُعدّ اللّغة الأجنبية الأولى في الاستعمال بل اللّغة الأولى في غير الرسمي، ولها تأثير مُتميّز؛ ويلعب المهاجرون في ذلك دورَ الناقلين الفِعْليين وكلّ ذلك تحت تأثير الإعلام والانجذاب والتّبعية والعلمية. ولذلك نرى تلك الحشود الجزائرية تقصد يومياً (فرنسا) لأغراض تهمُّها؛ ومنها الأغراض التّعليمية بسبب الانجذاب اللّغوي. ونعلم بأنّ الجالية العربية رقم واحد (1) في فرنسا هي الجالية الجزائرية، وتمتدّ هجرةُ الشباب الجزائري في وقتنا الحالي إلى (كندا مقاطعة كيبيك/ Québec) وهي مُقاطعة ناطقة بالفرنسية، وهذا كلّه مَكْسب كبير بالنّسبة للفرنسية كلغة استعمال، أو لغة تعليم، أو لغة تعلّم، أو لغة تشيُّع. وفي كندا الآن لا تزال المعركة اللّغوية التي يُديرها الفرنكفونيون حول تصدّر اللّغات، فطفتْ علي السطح ظاهرةُ اللّغة العربية باعتبارها اللّغة الأكثر أهمية من حيث الطلب عليها في مدارس Québec/ كيبيك... وضع اللّغة العربية لا يرقي إلى المشكلة، ولكن إلى مستوي الظاهرة الثّقافية... ومردّها ارتفاع أعداد المهاجرين العرب الناطقين باللّغة العربية، وهؤلاء يُطالبون الحكومة الفيدرالية في تمكين أبنائهم تدريس ما يشدّهم إلى مواطنتهم، وهي اللّغة العربية، وهذا مَطلب شرعي تُقرّه الحقوقُ العالميةُ وبخاصّة حقَّ الطفل في التعلّم بلغته الأمّ.

ومع ذلك، فإنّ هذه الجاليات العربية، ومنها الجزائرية تقع تحت تأثير وسائل التّواصل في بلد المهجر، وقد لا تُحقّق المدارس التي تُدرّس العربية رغبتَهم إلاّ بصعوبة، وفي ذلك تلعب المساجد دوراً في ربط الصغار بوطنهم عن طريق تعليم العربية في الكُتّاب على الطريقة الحديثة. ومن هنا، نعلم بأنّ الإعلام سواء في

الخارج أو في الداخل يشكّل قوّة تأثير كبيرة، وهذا مُقرّ به في الخارج، وأنت ضيف على بلد له قوانينه وخصوصياته اللّغوية، والإعلام له هامش كبير، وله من الحرية ما له لدرجة أنّه يعمل على التأثير في المستمع والمشاهد بقوّة، هذا من جهة، ومن جهة أخرى، فنعلم أنّ أوربا وأمريكا الشمالية يشكّل فيها الإعلام قوّة توجيه كبيرة، وقد فتحت له كلّ الأبواب، ومن ذلك فقد ألغى الحدودَ، وفتحَ الأبوابَ وقلعَ السقوفَ، فهو يلاحق الجميع في كلّ مكان، فما هو الحلّ؟ هذا ما نجحت فيه فرنسا في نشر الفرنكفونية في بلدنا الجزائر؛ رغم أنّها لم تُنشئ قناةً فرنكفونيةً مثلما فَعلتْ في المملكة المغربية بتلك القناة MEDI1TV، وتنال القناةُ رضا المغاربة، كما تمتدّ مَساربُها إلى كثير من الدُّول العربية والآسيوية ولم ننجُ منها فنحن نلتقطها ونتابعها باهتمام. ولذا لا نعدم اشتعال الفرنسية في الجزائر، كما لا يمكن أن نخفي توسّع الفرنسية على حساب العربية في المملكة المغربية، والتي نجد فيها عدداً مَهُولاً من المدارس الفرنسية التي تزرع الفرنسية بشكل مُستفيض والمغاربة في رضا، ويشهدون ما تُعانيه العربية من انتكاسات بما لها من تبعلت ثقافية قبِلتْ بها النّخبةُ، أو فرضت عليها دون أن تقول: لا للتطبيع مع الفرنكفونية. وذات القول يقال في تونس التي تعيش فيها الفرنسية نفس الازدهار، وهذا كلّه بسبب الإعلام الفرنكفوني الذي يُسخّر إمكانياته من أجل التوسّع. وبذلك نجد فرنسا في الوقت الحاضر تستقطب الكفاءات المغاربية، وتضعهم في الإعلام الثّقيل، فهم الذين يعملون الآن في قناة France 24 وعن طريقهم تكسب الجمهور المتلقي وإذاعة Monté Carlo وإذاعة هولندا، ويُضاف إليها سلسلة من القنوات الإذاعية المحلية للجاليات العربية، وبخاصة الجاليتين: الجزائرية والمغربية. ويُضاف إلى هذا السلاح الرابع مُعَسْكر من تلك الفضائيات النشيطة من مثل: TV5 Monde ــ La 5eme ــ BFM TV/ arté... وهناك قنوات كثيرات تخصّ تعلّم الفرنسية من مثل: Histoire/ Encyclopédie/ Animaux/ Télétoon... أرمادة من الإعلام تبثُّ دفقاتها الكبيرة والقويّة دون توقّف 24/24، وفيها كلّ ما له علاقة بالفرنسية

والحضارة اللاتينية. وذات الفعل تقوم به الفرنكفونيةُ المعاصرةُ في الصين؛ بتلك القناة CCTV français التي تعمل على تبليغ الفرنسية للشعب الصيني العملاق وتعمل فرنسا على أن يكون لها نفوذ في آسيا الحُبلى بالبَشَر، ولم تفعلُ هذا الفِعل في الجزائر، ولكن تركت فِكْراً انجذابياً مُتعلّقاً باللّغة الفرنسية، والذي يبقى تابعاً لغوياً، وتجسّدت مقولةُ العسكري الجنرال (دو گول) **للفرنسية تأثير أكبر من تأثير العسكر.**

وما تزال الفرنكفونية تفعل فعلَها عن طريق الإعلام، فتأتينا الوسائلُ المعاصرةُ والتي نشتريها بأموالنا غير مُعرّبة، وتأتي عن طريق وسيط تجاري فرنسي أو فرنكفولي، فيبيع لنا أجهزةً لا تعمل بنظام ولا بأحرف اللّغة العربية: تلفاز/ جوال/ آلات منزلية... فتحتّم عليك أن تتعلّم الفرنسية أو تحفظ بعض مسكوكاتها من أجل قضاء المصالح المرسلة/ التشغيل والاستعمال، فما العمل؟ يمكن أن نضرب مثالاً بسيطاً من الجوّال/ المحمول/ الموبايل/ الهاتف النقّال... فلا يوجد شخص لا يملكه وعندما نبحث فيه نجده مستورداً من شركات غير فرنسية، ولكنّه جاءنا عن طريق فرنسا. فرنسا تشتري البضاعة التي تعمل على نشر الفرنكفونية، وتشتري ما كان مُوجّهاً إليها، فلا تُغذي الأجهزةَ باللّغة العربية، ولا تدخل البرمجيات العربية إلى الذكاء الصناعي، بغية استعمال الفرنسية فقط. وتصوّروا كم من المستعملين لهذه الأجهزة يتواصلون بها في استعمالهم sms بصورة دائمة، بحروف لاتينية وكلام عربي، فكم كسبت فرنسا من مستعملي حروفها، ونحن لا ننتبه إلى هذه المسألة بل هي من الدهاء الفرنسي، ومن غباء المغاربة الذين يستعملون الوسيط الفرنسي حتى في مُعاملاتهم الخاصّة. وهذا الفعل ليس من الدهاء فقط، بل يدخل في إطار الفرنسة التي تخطّط لها الفرنكفونية منذ إنشائها، فهي تستغلّ كل ما وسعها الجهد وتتحيّن أية وسيلة لنشر الفرنسية. وهنا تكمن خطورة الفرنسية الداعمة للفرنسة في أنّها تعمل على تشكيل هوية الفرد وصياغتها وما يمكن أن يمثّله من خطر محدق على مصير الأمّة. فاللّغة قدرة في إدارة الصراع الإيديولوجي، والسيطرة

على مصير الأمّم ومقدراتها عن طريق السيطرة والتحكّم في عقول أبنائها، وتوجيه رؤاهم وميولهم النفسية.

وعندما تناقش هذه المسألة، أو ما يقرب إليها في بلادنا، ننظر إليها على أنّها من سقط الأشياء، لأنّ نظرتنا قاصرة، وعقولنا مستلبة، ولا ننظر إلى مردودها في لاحقٍ من الزمان، سواء علينا أو على منظوماتنا الفكرية، ونقول: هذا لا يُقدّم ولا يُؤخّر، ونترك الزمان يفعل فعله. وبذلك نرى ذات التّوجّه ظاهراً في وسائل الإعلام المحلية، وبشكل سافِر في تلك الصحف الفرنسية التي تُوزّع يومياً، ويلحق بها تلك القنوات الخاصّة التي ظهرتْ مُؤخّراً، من مثل: الجزائرية ــ جزائر news ــ جرجرة ــ البلاد ــ Zair - KBC د ــ L'indeX ــ beur ــ NN ــ الأجواء ــ NUMEDIA news وقنوات أخرى تخصّ Shopping tv مثل قناة (الهُقار) وفي كلّ هذا المَخاض الجديد نرى وجودَ العربية الفصيحة بشكل مُحتشم، مع ما نسمع من ذلك التّلهيج والتّهجين المُبرمجيْن بشكل دقيق، فغابتْ ترقيةُ اللّغةِ العربية وهذا ليس بالأمر الجيّد، ولكن لا ننكر تواجدَ الفصيحة في القنوات العامّة، وفي بعض القنوات الخاصّة مثل: النّهار ــ الشروق ــ الوطن. ومع ذلك، فإنّ اللّهجاتِ والتّلهيج في القنوات الأخيرة تظهر بقوّة في بعض البرامج ذات العلاقة بميدان العربية الفصحى من مثل: البرامج التّربوية ــ البرامج الثّقافية ــ البرامج العلمية وهنا الخلل؛ حيث يَعيب المشاهدُ على هذه القنوات كثرةَ البرامج الناطقة باللّهجات وما يتبعه من الأخطاء الكتابية، فلا يعمل المُدقّقُ اللّغويُ عملَه، أو لا يوجد فيها المُدقّق اللّغوي/ الإملائي أصلاً. أخطاءٌ مُصاحِبة للمنطوق؛ وبخاصّة في التّرجمة أو في لافتات الإشهار، وما نأسف عليه؛ هو أنّ أصحابَ هذه القنوات الخاصّة ليس همّهم ترقية اللّغة العربية/ لغة الأمّة بقدر ما يريدون كَسْب الجمهور الشُّباني الذي تَستهويه الأغاني والرّقص والكُرَة، واستعمال لغة (**الفافا**) بصورة كثيرة، أليس ذلك هو التّردّي والتبعية الفكرية في بُعد من أبعاده.

قنوات كثيرات تزرع الخليط/ الهجين اللّغوي، ولا تعمل على الرّقي اللّغوي فهل يمكن بهذا أن نُجسّد خريطة طريق وطنية تُعطي لكلّ لغة مَحلَّها المُناسب وهذا هو الغائب عندنا، فكأنّ القنوات الخاصّة بعيدة عن الرّقابة، فتعمل ما يحلُو لها في التّواصل اللّغوي. وبذا نرى مَصائبَنا عظيمةً جرّاء هذا التّردّي وجرّاء اللّغة (الفرنسية) التي عملتْ على زرع الاستهزاء بالعربية، ونحن نغضّ الطرف عن اشتعالها في دولة (الجزائر) ونَنْسى ما تحمله من احتقارٍ وإهانةٍ ومُزاحمةٍ للعربية الفصيحة. وعسى أنّني خطبتُ في قومي، وأقول ما قالَه السّابقون، ولكن دون أن أُضيفَ مُصيبةً إلى مَصائبهم:

خَطبتُ فكنتُ خطباً لا خطيباً ماذا أُضيفُ إلى مصائبنا العظام

كما يُؤسَفُ له أنّ دولة (الجزائر) بما لها من رصيد تاريخي لا تزال لم تخرجْ من عُقدة ضرورة/ وجوبِ استعمال اللّغة الفرنسية؛ باعتبارها مَكْسباً لا مَحيدَ عنه فأصبح شبابُنا بها يلهجون ويُعلّقون ويُثيرون قلاقل في بعض الأحيان، حيث يعتزّ البعضُ منهم بالفرنسية أيَّما اعتزاز، ولا يتخاطبون في ما بينهم إلاّ بها، وإذا أخذوا **العِبْرَةَ** من الفرنسيين ربّما يتغيّرون ويُغيّرون سلوكَهم اللّغوي. والفرنسيون يقولون: **من دخلَ بيتَنا؛ فعليه أن يتكلّمَ لغتنا الفرنسية فقط، ومن كان في أرضنا فعليه أن يكونَ معنا بلغتنا الفرنسية ولا نريد لغتَه الأجنبية**. فما لأبناء الجزائر لا **يعتبرون** ولا يستوعبون التّاريخ، بل لا يُراجعون ما قالَه السّلفُ:

ما للجزائر فينـــــا لم تراعِ إلاّ اليـــراعا
تجفو الكــرامَ، ونحنو على اللّئام اتّضـــاعا
ما للأناسي فيـــها يأبون إلاّ الخـــداعا
إن صادفوا فادعـــاء أو صـــاحبوا فانتفـــاعا

...

وما في الجزائر إلاّ نوائب يجري بها الدهر كالمجنون
يُهان بها عظماء النّفوس ويُكرم فيها عبيدُ البطـــون

تأسّفنا على الوضع اللّغوي الذي آلتْ إليه دولةُ (الجزائر) المُعاصرة، وكيف تنالُ الفرنسيةُ مَقاماتِ العربيةِ، وتستحوذ الفرنسيةُ على كلّ الساحات، وأخشى أن تتطوّرَ الأمورُ إلى ما هو أسوأُ، حيث قد يأتي زمانٌ لا يُسمَح لك بالتّحدّث أو استعمال العربية في بلد (الجزائر) أو ربّما تُصنّف ضمن الإرهابيين، وهذا ما حدثَ للأستاذ الجامعي الباحث (جمال ضو) الذي عادَ من الغُربة، وكان يظنّ أنّ اللّغةَ العربيةَ استعادتْ وضعَها في بلاده، وأنّ (الجزائرَ) مُستقلّة منذ (53) سنة، فيجد استعمالَ العربيةَ في كلّ المرافق العمومية، وفي المؤسّسات الوطنية، ولا تُزاحمها الفرنسيةُ التي كانت بالأمس تُهينُها، ولكن للأسف خاطبتْهُ مُضيفةُ الطائرة بالفرنسية، وقال لها: أنا جزائري، فخاطبيني بالعربية، وأين محلّ اللّغة العربية في الطائرة الجزائرية؟ فنالَ جزاءَه التّعسّفي من قِبَل جيل جديد، جيل درَسَ العربيةَ في المدرسة الجزائرية، ولكن بعض هذا الجيل تنكّر لأصالته ولغته؛ وكان الأحرى على هذا الجيل أن يُحافظ على هُويته اللّغوية أو على الأقلّ ألاّ يتسامح في مواطنته اللّغوية. هذا الوطني الغيور (الباحث) دُبّرت له مَكيدةٌ بأنّه من الإرهابيين، فلم يركب في تلك الطائرة وجنى عليه قولُ الحقّ؛ بأنْ استُجوِبَ وَوُضِع اسمُه في قائمة المَطْلوبين والخطيرين.

ومثل اختلاق هذا الوضع المسيء للمواطن لا يحْدث في فرنسا، بل إنّ كلّ من يُنافح من أجل اللّغة الفرنسية؛ فإنّه يُشجَّع ويُكافَأ على أنّه احترمَ ومجّدَ وقدّسَ الفرنسية، بل يتضامن معه كلُّ الفرنسيين، ويصنعون منه المجد والتاريخ، مهما كانت جنسيته، وكان فعلُهم ظاهراً في أولئك الملوك الذين أسّسوا للفرنسية بتلك الهيمنة والفرْض والإجْبار، ولا يزالون في ذاكرتهم الجماعية أنّهم من الأمجاد؛ لأنّهم فرضوا لغة تجمعهم. ولهذا وقع التّركيزُ على فِعْل الفرنسيين؛ لما للفرنسية من مَقام عندهم، مهْما تغيّر الجيلُ، فالمسألة اللّغوية لا ترتبط بالمُجايلة التي تقبل بها، ومن يأتون من الأجيال لا يقبلون بها أو يتغيّرون، فهذا ليس مَطروحاً البتّة. وإنّ الأجيال الفرنسية الجديدة تُحافظ وتتمسّك بقوّة في لغتها باستعمالها والعمل بها

وتعمل على تجسيد توظيف خصائصها باستمرار لتترقّى، مع ما تعرفه الفرنسيةُ من تنازُلات علمية في العالم المُتقدّم، ولكنّهم لا يتراجعون ولا يراجعون فِعْل السابقين. وبذلك قد نستوعب فِعْلَهم العظيمَ في خدمة لغتهم، ونأخذ أفعالَهم أمثلةً للاهتمام باللّغة العربية/ لغة الأمّة/ اللّغة الأمّ.

إذاً وقع التّمثيل والتّخصيص بـــ (La langue française/ اللّغة الفرنسية) لما لها من خُصوصية فرنسية عالية، ولما لها من تقديس عند الفرنسيين والفرنكفونيين حتى وصلتِ الفرنسيةُ إلى ما هي عليه من تواجد في كلّ المَحافل الدولية، وفي كلّ القارات، ولها وسائلُ إعلام قوية. ولهذا كانت تجربتُها في النجاح مِثالية، ولتكن لنا **عبرة** –نحن العرب– في ضرورة الاهتمام باللّغة الأمّ/ لغة الأمّة/ اللّغة الرّسمية **(اللّغة العربية).**

وإنّه لا يستقيمُ لنا الحالُ والمقامُ، ونحن نتجاهل فِعْلَ الاهتمام بالعربية، **فهل يُمكن أن نُعتَبَر من الأمم المُتقدّمة والمُتحضّرة** والتي تُحافظ على مُواطنتها وهل نتّعظ من فِعْلِ الأجداد الذين أَعْلَوْا هذه اللّغة (اللّغة العربية) منذ نزول القرآن الكريم، بل كانت لها السيادةُ في شبه الجزيرة العربية قبل نزول القرآن. بالفعل كانت لها السيادةُ والريادةُ منذ الفتح الإسلامي إلى عصر الضّعف ومن بعد ذلك حصلتِ الانتكاسةُ، فتخلفتِ اللّغةُ العربية بتخلّفنا، فلماذا تَخلَّفْنا وإلى الآن؟ **أليست العِبرة بأن نعودَ إلى فِعْل الأجداد لنكونَ**، وأجزم بأنّنا لا نكون؛ إلاّ بالاهتمام بلغتنا وبهُويتنا اللّغوية، لأنّه **لم يُسجّل التّاريخ أنّ أمّةً ما ارتقتْ باللّغة الأجنبية.**

وإنّنا نرى، بأنّ عملَ الفرنسيين تجاه لغتهم كان جبّاراً، وسيُفيد كلَّ من يريد الاهتمام بلغته، ويتّبع المنهجَ الفرنسي خريطةً للتّرقي اللّغوي، من حيث إنّ الفرنكفونية عملت بالتّخطيط المنهجي الطويل المدى؛ بدءاً من القرن VX الميلادي ثمّ تكاملت الأعمالُ العلميةُ في تلك الخطوات الإجرائية العلمية التي كانت تُحَضَّر في إطار القومية الأوربية، وقد جسّدها الملِكُ (François l/ فرانسوا الأوّل) عام 1539، والذي فَرَضَ فرنسية الملوك أولاً في الأختام وما له بالسيادة الوطنية في

المراسيم، ومن ثمّ فرضها في كلّ مَحاكم مملكة فرنسا، وبدأ يُؤسّس لها في استعمالها في الكنائس والأديرَة، حتى وصلت إلى المدارس الابتدائية، وذلك كلّه بسبب أولئك المُفكّرين العِظام الذين حملوا فكْرَ الفرنسية الذي تشُعّ على الجميع ووراءها الحصول على الحقوق؛ وصولاً إلى الديمقراطية "ولئن صحّ أنّ وراء هيمنة الفرنسية في تلك الأزمنة سياسة لغوية واعية، فقد بيّن الدارسون أنّ أهميةَ هذا اللّسانُ في تلك الفترة كان مَردّها إلى ما أنجزه المُفكّرون والكُتّاب الفرنسيون أو الفرنكفونيون منذ القرون الوسطى إلى الثّورة الفرنسية عام (1789) من أنواع الإبداع في ميادين الأدب والفكر والعلوم والمعارف. ومن أمثال هؤلاء الأعلام ريني ديكارت (1596–1650) وجان جاك روسو (1712–1778) وكلود بيرنار (1813–1878) فقد أثّر هؤلاء في كثير من شعوب العالم بأفكارهم في الثّورة والديموقراطية وحقوق الإنسان ما جعل الفرنسيةَ تتقدّم في لغة القانون وفي الدبلوماسية وفي العلاقات الدولية بامتياز، واللّغة المُثلى هي التي تُجسِّدُ في مُخيال كثير من الناس مجموعة من القِيَم العديدة، ومنها إيديولوجية الخلاص والإحسان والسعادة والحرية والانقلاب والثّورة والتّسامح والعدل والتّضامن والديموقراطية. بل صارت هذه اللّغة حاملةً لقيمة ثقافة الثّقافات وثقافة الثّقافة (Cassen (2001) ص ص 86–89) وقد انتشرت هذه الأفكار إلى منتصف القرن العشرين، فجعلت من فرنسا قوّةً عُظمى سادت ثقافياً دول أوروبا الوسطى والبلقان والبلدان الحديثة في أمريكا الوسطى والجنوبية، كما انتشر التعلّقُ باللّسان الفرنسي وأفكاره ونمط الحياة الفرنسية، وكانت النتائج الاقتصادية لهذه الظاهرة بالغةَ الأهمية (Cassen (2001) ص ص 84–85)[1]". وتتواصلُ تلك الهيمنة عن طريق الفرْضُ وإلى الآن، وبمُقتضيات قانونية كثيرة، وبتشريعات برلمانية مُتلاحقة، وكان الفعلُ

1 ــ ولي اللّه كندو "السياسة اللّغوية لدى الأمم الحيّة" مجلة التّخطيط والسّياسة اللّغوية. الرياض: 2015، مركز الملك عبد الله بن عبــد العزيــز لخدمة اللّغة العربية السنة الأولى، العدد الأول ص 106– 107.

المعاصرُ قانون وزير الثّقافة (Jacques Toubon/ چاك توبون) وهو قانون مُستوحى من فلسفة النّزعة الجاكوبينية للتّحكّم في كثير من مَناحي الحياة الفرنسية بالتي هي **أحسن**؛ وإلاّ بالتي هي **أخشن**؛ لأنّ مبدأ اليعاقبة –الذين فرّوا من قهْر الإنكليز– العيشُ في حكم ثوري، والعمل على التغيّير، وعلى تجسيد فكر ثوري تصحيحي من خلال الثّورة على الأوضاع الاجتماعية في أورپا، وكانت المُحارِبَةُ (Jean-D' arc/ چان دارك) مِثالَهم النّموذجي، وفي ذات الوقت بدأ التّفكير في **تجسيد الخصوصية السلتية/ Celtique** بقيام الأمّة الفرنسية تحت شعار Etat-Nation، وهذا تحت مركزية الدولة الفرنسية التي بدأت تظهر في أورپا؛ كنموذج مثالي مستقلّ عن الرومان، وبالعمل على قيام سلطة **اللّغة الوحيدة**؛ لغة النّبلاء التي أضحت في ما بعد (لغة Île-de- France). وكان ذلك جُزءاً من الثّقافة الفرنسية التي تعمل على إعلاء لغتها؛ بما أُوتيتْ من قَبُول أو إرغام، فلا **حريةَ** في التّعدّي على المواطنة اللّغوية، ولا **عدالة** بين اللّغة الرّسمية واللّغات المحلية، ولا **إخاء** مع من لا يقبل بالفرنسية لغته.

وكان في البداية مفهوم Etat-Nation يتجسّد في الدولة الحديثة أو الدولة الحيّة وأطلقوا عليها مفهوم **(الأمّة الحيّة/ Etat- vivante)** وهي أمّة قوية بما تملك من ثروة ولغة وتاريخ واستعمار الآخر، ويُضاف إليها ما تملكه من قوةٍ بالغةٍ في الاقتصاد والسياسة والجيش "ومما ينطبق عليه مفهوم الأمّة الحيّة في عصرنا الراهن دول على غرار الولايات المتّحدة الأمريكية وفرنسا واليابان والصين والهند والبرازيل ونحوها؛ فهي دول بعضُها بلغت من التّنمية في مختلف العلوم والتّكنولوجيا درجات العُلا، وجمعت إلى ذلك قوّة بالغة في الاقتصاد والسياسة والجيش، ولكنّها رغم ذلك لا تزال تسعى إلى التّنمية والمعرفة والعلم سعياً. وقد سلكَ بعضُها الآخر منذ عهد قريب سُبُل التّنمية والحضارة، وحققت فيهما قَفْزات

وأشواطاً صارت بها منافسة للدول العظمى في الهيمنة والسيادة[1]" وهكذا نرى فكرة الفرنسيين كبيرة في التّخطيطات اللّغوية الطويلة المدى، لتحقيق شعارهم الكبير بأنّ **قوّة اللّغة من قوّة الأمّة؛** فالأممُ القويةُ تشدّ من أزر لغتها، وكلّما قويت أمّةٌ قويت لغتُها، وزادت انتشاراً.

ولهذا، كان لا بدّ من الوقوف كثيراً في مسألة المركزية الفرنسية باعتبارها المركز/ Epicentre، وما نقرأ عنها من التحكّم في دواليب الدولة، رغم ما نعرفه عن فرنسا من حرية، ولكن لكلّ حرية قواعد وحدود. وقد كتب (سالم الكواكبي) مقالاً في هذا المجال عنوانه: اليعاقبة الجُدد والدولة/ الأمّة، وقال: "في المباراة النّهائية لكأس فرنسا في كرة القدم، والتي حضرها الرئيسان الفرنسيان الحالي (فرنسوا هولاند) والسّابق (نيكولا ساركوزي) وجرَت قبل أيام في باريس، تقابل فريقان من مقاطعة البروتاين الفرنسية (شمال غرب). وأمام عشرات آلاف من الحضور وملايين من المُشاهدين على التلفزة، أثبتت الدولة الفرنسية، على الرُّغم من كلّ أزماتها الاقتصادية والسياسية، أنّها قوية ومُتماسكة، وتحمل الثّقة المُريحة في مُكوّناتها، وفي طريقة تعامُلها المركزية مع هذه المُكوّنات، على الرُّغم من بعض الحفيف الإعلامي النادر حول النّزْعات الانفصالية، لدى بعض المُقاطعات ذات الثّقافات المتميّزة.

إنّ الدولةَ الفرنسية شديدة المركزية نسبياً، على الرُّغم من الصلاحيات المُقدّمة للمجالس الجهوية ومجالس المحافظات. ويُعْتَمَد فيها مبدأُ الدولة اليعقوبية. نظرية فلسفية/ إدارية انطلقت إثر الثّورة الفرنسية سنة 1789، نسبة إلى نادٍ تأسّس إبّانها في دير سابق للرهبان اليعاقبة في باريس. وأساس هذه الفكرة هو الدولة المركزية المستندة إلى مُؤسّسة إدارية مُتماسكة وقوية والمُتنافية حتْماً وحُكماً، مع فكرة

---

1 ــ ولي اللّه كندو "السّياسة اللّغوية لدى الأمم الحيّة" مجلة التّخطيط والسّياسة اللّغوية. الرّياض: 2015، مركز الملك عبد الله بن عبد العزيــز لخدمــة اللّغة العربية السنة الأولى، العدد الأول ص 102.

الفيدرالية، القائمة على أساس تجمُّع ثقافاتٍ أو دياناتٍ أو مُجتمعات مُختلفة، ضمن إطار الدولة.

وعلى الرُّغم من أنّ هذا المبدأ كان مُلائماً لمرحلة الثّورة التي اشتدّت، من خلالها الرهانات والمخاوف، إلاّ أنّه أصبح حديثاً مُرتبطاً بفكرة الدولة المركزية. ووصمَ أيضاً، في مراحل تاريخية سابقة، بأنّه ديكتاتورية الحرية أو الديكتاتورية الثّورية. وأضحت العبارةُ مُرادفةً لصفة الدولة الباريسية استناداً إلى اسم العاصمة الفرنسية، حيث تتركّز السُّلطات فيها، وفي رجالاتها بعيداً عن أيّة فيدرالية، أو نوع من الاستقلالية الإدارية للمقاطعات الفرنسية المختلفة.

المباراة النّهائية، إذن، جرت في باريس، وفي احترامٍ رمزي لمبدأ اليعقوبية حتى في الرياضة، على الرُّغم من أنّها تجمع فريقين من خارجها عملياً. وفي مشهد الافتتاح، وقبل نزول اللاعبين إلى أرض الملعب، أخرجَ الحضورُ (70 ألف مُتفرّج) في المُدرجات أعلامَ مقاطعتهم، ليلوِّحوا بها في مَنظر فرَحٍ شعبيٍ غامرٍ. ولم يخرج علم فرنسي واحد في أكبر ملاعب فرنسا. وكانت كاميرات التلفزة تتابع المُدرّجات حيناً، وتلقي بنظرات خاطفة على السدّة الرئيسية التي جمعت الرؤساء والوزراء والمسؤولين الذين كانوا وبوضوح شديد، مُرتاحين من أعباء العمل والتّوتر السياسي السائد باريسياً خصوصاً بعد نتائج الانتخابات البلدية، وتعيين الحكومة الجديدة.

بدأت، إثر ذلك، الموسيقى تصدح في أرجاء الملعب، فوقفَ الجميعُ احتراماً للنّشيد الذي عُزف حيّاً على أرضه. وللوهْلة الأولى، يمكن الاعتقادُ بأنّهم وقفوا للنشيد الوطني الفرنسي (المارسييز) نشيد الثورة، نشيد اليعاقبة، إلاّ أنّه وخلال لحظات، توضّح أنّ الفرقة الموسيقية تعزف النشيد القومي لمقاطعة البروتاين ذات الثّقافة السلتية. وأنّ المُغنية المشهورة القادمة من هذه المقاطعة تغني النّشيد باللّغة المحلية، وأنّ المدرّجات كانت ترقص مع تموّج عشرات الألوف من الأعلام المحلية التي رفعها مَن كانوا يتابعون الغناء بوضوح مع المغنية المركزية، باللّغة

المحلية نفسها أيضاً. وطبعاً، ومن دون تركيز شديد، مرّت الكاميرا على السّدة الرئيسية التي تمثّل نموذج الحضور الرّسمي، وكان الجميع يُتابع، بهدوء وارتياح وقوفاً، هذا المشهد. حتى إنّ رئيسَ الاتّحاد الفرنسي لكرة القدم، وهو القادم أيضاً من المقاطعة نفسها، ظهر وهو يغني النّشيد القومي مع الآلاف. وعند الانتهاء من هذا النّشيد، انتقلت الفرقة لتعزف النّشيد الوطني الفرنسي، نشيد الثّورة الفرنسية. وكان مجموع الحضور، بسدته الرئاسية وبمدرّجاته الشّعبية، قد ظلّ واقفاً بخشوع وشاركوا في غناء كلماته الأسطورية.

انتهى المشهدُ، وجلس الحضورُ بعد التّصفيق للنشيدين، ولم يُعلّق أحد من الصُّحافيين، أو المُتابعين، في اليوم التالي، ولا الذي تلاه، على ما يمكن لقادمٍ من بلادٍ ضعيفة البناء والتّكوين والانتماء أن يُعبّر عنه إزاء مثل هذا الموقف .فلم يُدن أحد النزعة الانفصالية انتماءً أمام هذا التوزّع الموسيقي والغنائي. ولم يعبّر أحد عن امتعاضه من تقدّم النشيد القومي على الوطني. ولم تتشنّج الأقلام إزاء رفع أعلامٍ تُشير بوضوح إلى هُوية مُكوّن وطني، مختلف بلغته وبثقافته وبموسيقاه ولكنّه ينتمي، من دون لُبس أو مُواربة، إلى هذه الدولة/ الأمّة بسلبها وبإيجابها. فالدولة القوية المتماسكة والمتمكّنة، لا تخشى على وحدتها من التّعبيرات الثّقافية والقومية المختلفة، بل وتشجّعها، لأنّها قامت على أساس عقد اجتماعي واضح المعالم، وصريح الأطراف. أما الدول القائمة على نظريات شوفينية وعنصرية وإيديولوجيات إقصائية، دينياً أو فكراً، فهي عدوّ لدود وطبيعي لكلّ مِثْل هذه المظاهر.

مقاطعات عدّة في فرنسا تحمل تراثاً ثقافياً مُختلفاً، مع تنوّع لغوي محلي تنتمي إلى الدولة اليعقوبية، من دون أيّ شعور بالنّقص. بعض التّحركات التي تدّعي الانفصالية في جزيرة كورسيكا المتوسطية لا تتعدّى حدودها كونها مناوشات مافياوية، لتحسين ظروف اقتصادية، لا أكثر ولا أقلّ. خصوصاً عندما نرى أنّ جزْءاً أساسياً ومُهماً من الآلة الإدارية المركزية المُعقّدة مُنحدرٌ من هذه الجزيرة.

عندما تفشل العنصريات أو التّعصّبات أو الانغلاقات أو الاقصاءات في بناء الدولة يكون من السّهل تجريم الآخر الخارجي، أو الداخلي. أما الاعتراف بالتّنوّع على مختلف أشكاله فهو الدعامة الأساس لبناء الوطن[1]". ومن وراء هذا الشاهد، فقد أعجبنا فِعْل الفرنسيين من خلال مبادئ الثّورة الفرنسية، ومن تلك الملامح الثّورية في ظلّ الثّورة الفرنسية، وفي ما جسّده الفرنسيون السّابِقُون، وحافظ عليه الفرنسيون اللاحِقُون، وأنّه لا تنازل للقضايا المحلية على حساب القضايا الوطنية وقد نختلف في الخُصوصيات لكن لا يقع الاختلاف في ما أجمع عليه السّابقون. ومن وراء ذلك وقع النّقل أو الاستنساخ في تلك العبارات المركزية ورموزها الثّقافية، والممثّلة في نشيدها الوطني القديم La Marseillaise، وقِيَم الثّورة الفرنسية: Liberté /Egalité /Fraternité، وقد أصبحت شعارات مركزية للاضطرابات الرئيسية الأخرى ذات التّغيير الإيجابي في التاريخ الحديث، ويُضاف إليها قِيَم مُؤسّسات الثّورة فلا تزال تُهيمن على السياسة الفرنسية إلى هذا اليوم. ويقول المؤرّخ الفرنسي (فْرانْسوا ألارد): "تألفت الثّورة لقمع ما يُعرف بالنّظام الإقطاعي وتحرير الفرد والتّوزيع العادل لمِلكية الأرض، وإلغاء امتيازات النّبلاء وإنشاء المساواة وتبسيط الحياة... تختلف الثّورة الفرنسية عن الثّورات الأخرى في كونها ليست فرنسية فقط، بل تهدف إلى إفادة البشرية جمعاء". وهكذا على الصعيد العالمي ساهمت الثّورة الفرنسية في الإسراع بصعود الجمهوريات والديمقراطيات وأصبحت نقطة محورية لتطوير كلّ الأيديولوجيات السّياسية الحديثة، وأدّت إلى انتشار الليبرالية والراديكالية والقومية والاشتراكية، ونُصرة المرأة، وتطبيق العلمانية من ضمن مفاهيم أخرى عديدة. شهدت الثّورة أيضاً وِلادةَ الحرب الشاملة من خلال تنظيم موارد فرنسا وحياة مواطنيها نحو هدف الغزو العسكري بعض وثائقها المركزية مثل إعلان حقوق الإنسان، وتوسيع مجال حقوق الإنسان ليشمل المرأة

1 ــ موقع google بتاريخ 14 مايو 2014.

والعبيد مما أدّى حركات التّحرير من العبودية والاقتراع العامّ في القرن التالي. وفي ظلّ هذا فنرى فرنسا المركزية دولة وأمّة، لها مُؤسّسات، ولها لغة تحترمها ولا تخضع للمساومة. فالفرنسيون مع **اللّغة الجامعة/ لغة الأمّة الفرنسية** فقط ولا مُساومة في مُراجعة فِعْل الملوك المُمَجدّين للامّة الفرنسية، والمُؤسّسين للنهضة الحديثة... **وهل سيكون ذلك عِبْرةً** لنا في الاهتمام بالعربيّة التي هي قدرُنا الجيِّد والمِفضال؟ وهي لغة الأجداد، ولغة الأمّة، ولغة القرآن، وهل نتّعظ أيّها العرب في مبدأ هذا الكلام؛ **بأنّ اللّغة الوطنية الجامعة/ لغة الأمّة لا تخضع للمُساومة أو للتّراجع؟** وأنّ الدولة الوطن، أو دولة المركز لا بدّ له من هُوية لغوية واحدة، تحدّد أبعاد الهُوية، ويمكن الاحتجاج في هذا المجال بما يكتبه الذين يُنافحون عن مركزية الدول القومية والتي أوردته الشّابكة:

On appelle **"Etat-nation"** un **Etat** qui coïncide avec une **nation** établie sur un territoire délimité et définie en fonction d'une identité commune de la population qui lui confère sa légitimité. C'est un concept politique qui est la rencontre d'une notion d'ordre **politique et juridique** (l'Etat) et d'une notion d'ordre **identitaire** (la nation). Il se caractérise par une autorité fondée sur une souveraineté émanant de citoyens qui forment une communauté **à la fois politique et culturelle** (ou ethnique).

Premier Etat-nation moderne, en défiant les seigneurs féodaux qui contrôlaient le royaume. La mission de cet Etat-nation fut d'éduquer la population et d'élever son niveau de vie, au nom d'un « bien commun » à tous sur lequel le monarque doit veiller, conception révolutionnaire qui rompait avec la tripartition traditionnelle (le chevalier, le clerc et le paysan), dans laquelle chaque ordre avait un « bien propre » soumis au monarque.

Le concept de gouvernement « par le peuple et pour le peuple » avait été auparavant présenté au Concile de Bâle (1431) par le grand savant, historien et humaniste chrétien Nicolas de Cuse (1401-1464). Dans sa *Concordantia Catholica*, Cuse exhorte les chrétiens à abandonner leurs illusions sur la « gloire » de l'Empire romain et à reconnaître que celui-ci rejetait l'idée que l'homme est créé à l'image de Dieu (*imago Dei*), et aide Dieu dans Sa création par sa créativité et son agapè (amour charitable). Moralement dégénéré, l'Empire romain

avait semé les graines de sa propre destruction. Cuse présente le fruit de ses propres recherches, prouvant que la Donation de Constantin (un document du IXème siècle affirmant que l'empereur Constantin aurait cédé le pouvoir temporel de l'Empire à la papauté) est un faux. Il montre comment l'Eglise s'est laissée corrompre par cette fausse cession du pouvoir impérial romain et soutient que l'Etat-nation doit se fonder sur le principe d'un Roi qui tient sa légitimité de l'effort qu'il met à réaliser le bien de tous et à enrichir la nation. Pour bâtir cette « République », cette « chose commune », il doit nécessairement recueillir le consentement du peuple, et non imposé d'en haut une volonté arbitraire.

Louis XI et René II : Les grands protagonistes de la bataille pour l'Etat-nation français furent la papauté, le roi Louis XI et son premier secrétaire Philippe de Commynes, René II, duc de Lorraine, allié incertain mais habile de Louis, et la maison financière des Médicis notamment Laurent de Médicis[1].

وهكذا نرى فِعْلَ الفرنسيين في مسألة الدولة –الأمّة قد بدأت تُبنى عندهم منذ الملك (لويس IX) بِسَنّ قوانين تحمي مركزيةَ فرنسا كدولة لها مُؤسّسات في ظلّ المُحافظة على الخصوصية الفرنسية من المسْخ الذي قد يأتي من الرومان. فهذا ليس تَحيُّزاً أو انْغِلاقاً بقدر ما هو تسييج لخصوصيات الفرنسيين. وما يمكن أن يُستنتج من النصّ أنّ الإمبراطورية الرومانية المُهيمنة جعلت ردَّ فِعْل الفرنسيين يحتّاطون من ضياع الخصوصية، فنتجت القوميةُ الفرنسيةُ الخاصّة؛ ذات التوجّه المحلي، وهذا ليس بالبدعة في العالم، إنْ لم نقُل إنّها المحافظة على الإنية الفرنسية، بعدما كان السّعي حثيثاً لتبنّي القوميات في أوربا.

وعَوْداً إلى الوَهَن الذي علِق بنا، فهل يمكن أن يُفعلَ الفعلُ ذاتُه عندنا باستكناه الإيجابيات الفرنسية فقط، وتكون لنا غيرة على خصوصياتنا اللّغوية؛ باعتبارها المانعة للمسخ، وهي المجسّدة لنكون، فإنْ لم تظهر الخصوصيةُ اللّغوية، فلا وجودَ لنا ولا نكون. وهنا النّقطة الأساس بالنّسبة للقارئ العربي الذي قد يعمل فيه مُحتوى

1 ــ موقع google البحث في Etat-Nation بتاريخ 12 أكتوبر 2015.

هذا الكتاب فِعْلَ الخميرة، وقد يُعيد النّظرَ في بعض المُسلّمات الخاطئة، بل قد تتكوّن لديه قاعدة المآلات المُستقبليّة بخصوص مُستقبل العربيّة، لغة الأمّة العربية علّه وعلّنا نعمل على احتذاء مِنوال الفرنسيين الذين أقاموا الدنيا من أجل عيون اللّغة الفرنسيّة/ لغة Voltaire التي يجب أن تسودَ وَحْدَها دون غيرها من اللّهجات المحلية، ودون التنازل للأجنبيات. ومن هنا، علينا أن نُدافع على هذا القَدَر الجميل بمنهجيّة وعلميّة ونقدّم الجهدَ لتكون لغةَ العصر الحاضر، كما كانت اللّغةَ العالمية والعلميّةَ في ما مضى من الزّمان، والمسألة ليست من الصّعوبة بمكان؛ إذا عقَدْنا العزائمَ وشُدّت الهِممُ، وتلازمَ الفكرُ مع القرار.

وإنّه يمكن أن أعتبرَ الكثيرَ من الأفكار التي وردتْ في هذا الكتاب من المواد الخامّ التي لم يُكتَب عنها بشكل مُستفيض، وربّما ذلك ما يُغني الفُضول وأزعم أنّ القارئَ سوف يجد القولَ الجديدَ، بعيداً عن المَكْرور، ولا نعدم بتاتاً ما هو من التّكرار المَقْبول، وقد تطلّبهُ المقامُ، وأحياناً يدخل في باب وَخْزِ الضمير؛ لعلّ قلوبَ بعض العرب تثورُ، أو تتحرّك تلك الأخشاب المُسْنّدة والتي لا ضميرَ لها البتّة، بل أراها تُعيق عملياتِ السّير إلى الأمام في كلّ مرّة. كما يدخل بعضُ التّكرار في باب الشّرح الذي يُزيل الغموض، كما قال Paul Recoeur "كلّما ازدادَ الشرحُ سَهُل الفهمُ".

وكما يُلاحظ القارئُ – في هذا الكتاب– الطّرحَ المُعاصرَ لخدمة العربيّة التي تحتاج إلى مُنتجي أفكار، بَدَلَ المُنافحة في الفراغ، وفي استرجاع التّاريخانيّة التي لا تُؤْكِل الخبزَ، بل تتركه يعيش في تاريخ (كان أبي) وهذه من الخِصال التي لا تُورّث إلاّ التّخلّف، فكمْ تخلَّفْنا، فهل كَتَبَ علينا القدرُ أن نكون كذلك مُتخلّفين؟ يمكن أن نقول: إنّ بعضاً من نُخبتنا كانت وراء سبب أزمتنا اللّغوية، وبخاصّة في بلاد المغارب، فهم الذين يلهثون للحاق بركب الحضارة عن طريق اللّغة الفرنسية دون غيرها من اللّغات، وفي نظرهم بأنّ العلمَ لا يقطر إلاّ من الفرنسية، وهي اللّغة التي

لا يجب التسامح فيها مهما حصلت النتائج السلبية من استعمال اللّغات الوطنية وبدون الفرنسية نبقى عُماةً صُماةً، ودون نوافذ على العالم والعلم.

ولهذا يجد القارئُ لهذا الكتاب بعض الكلام الذي يدخل في باب ردّ الفعل على عدم إنصاف العربية في مواطنها، وتسامح المعنيين فيها، وإلى جانب هذا الخطاب المكشوف أو العنيف **عنف الفرنسية** في أوطاننا، هناك خطاب المنافحات، وذلك من مُتطلّبات بعض الفقرات، التي توظّف في بعض المقامات من مثل صِيَغ **العِبَر والاعتبار**، فرأيت أن ألمح بمُلَح من الأدب، وإمتاعاً لذوي الألباب؛ لأنّ النّفس مَلُول، والقلوب تملُّ كما تملُّ الأبدان، فلا بدّ من ابتغاء بعضٍ من الوُجدانيات، ومن هنا نقول: إنّ طبيعةَ هذا الموضوع تتطلّب من الباحث ألاّ يتجرّد من خطاب عاطفي في بعض المَقامات؛ حيث اللّغةُ من نفس البشر، ومن وُجدانه، واللّغة تحمل العاطفةَ، كما تحمل العقلَ، كما أنّ البشرَ يمزجون بين العقل والعاطفة؛ فأحياناً تُصيب العاطفةُ ما لا يُصيبه العقلُ، وتنال العاطفةُ مُرادَها، قبل أن ينالَ العقلُ موقعَه، ولكنّنا نعتبر ذلك يدخل في خطاب الأُنس، وهو نوع من المستوى اللّغوي الثاني الذي يُستعمَل في الخطاب الأدبي.

ومع كلّ ذلك، فقد كتبنا هذا الكتاب؛ وِفق النّصوص والمراجع التي عُدنا إليها ولم يكن ذلك عن هَوًى في وجداننا خصصْناه، أو تَشَيُّع لموضوعٍ مُغْرِض قصدْناه أو بدافع الهجوم على اللّغة الفرنسيّة أردْناه؛ بل بغرض استلهام تجربةٍ رائدة تبنيْناها، تجربة ناجحة في اهتمام الأمّة الفرنسيّة أردْناها لتكون عبرة لمن يبغي الاهتمام باللّغة الأمّ، **ويا حبّذا لو نأخذُها عبرةً ونتّعظ منها**، ونعمل على خدمة لغتنا العربية/ لغة الأمّة، وبتلك المنهجيّة والحماس الفرنسيّ الفيّاض. وفي ذات الوقت لا نُجَمِّل القبيحَ الذي قامت به فرنسا تجاه إلغاء المواطنة اللّغوية في البلاد المستعمَرَة والعمل على مَسْح الشخصية العربية في بلاد المغارب، وكيف تسعى إلى الآن فَرْض الفرنسية بديلة عن العربية، مع ما تُخطّط له من قلاقل في أوطاننا؛ لبقاء هيمنة الفَرْنَسية في بلداننا التي خرجت منها مدحورة، ولكن لا تزال آثارها الثّقافية

باقية، فكيف السبيلُ إلى الخلاص منها كلغة الكولون، لغة التعدّي على المواطنة في بعدها الثّقافي.

وإنّنا على درايّة وافيّة بالموضوع من حيث أسسُه ورموزُه، بعدما تجمّعتْ لدينا المادّةُ العلميّةُ التي هي بين يديك أيّها القارئُ؛ وبصورة نأمل أن ترضيَكَ وتشبعَ نهمَكَ؛ كما نأمل أن تُلبيَ رغبتَك كباحث يبحث عن المَعلومة الصحيحة وأن تروقَ لك وتُضيفَ، وقد تُصحّح بعضَ الأمور التي كانت من المُسلّمات. ونزعم أنّ المادةَ في صميم الموضوع، وقد ألمّتْ بجوانب شتّى، والباحث/ القارئ يختار ما يسعى إليه، ولا ينكر حقَّ الباحث/ القارئ، بل لا يبخس البضاعةَ ولو غير مُزْجاة.

أيّها القارئ؛ مرةً ثانيةً، نزعم أنّك سوف تجد الجهدَ المبذولَ من أجل الإلمام بالموضوع؛ حتى نُفيدَك بكلّ المُحتويات في عناصرها العامّة والفرعيّة، وقد حاولْنا اعتمادَ الموضوعيّةَ –وهي سمة من سمات البحث العلمي– للوصول إلى وصف وبيان الحيثيات، ومن ثمّ تحليلها ونقدها، والخلوص إلى **عِبَرٍ**، وهذا هدف نسعى إلى تحقيقه؛ بغيّة التّغيّير إلى ما هو إيجابيّ. ولا نخفي على القارئ أنّنا اسْطَعْنا الوصول إلى المصادر الأمّ باللّغتين: العربيّة والفرنسيّة، كما رجعنا إلى كتابات الباحثين الذين حملوا على أكتافهم هذا العلم، وُصولاً إلى الحقيقة فقط، وعُدنا في بعض المَقَامات إلى بعض الشّهادات والأقوال التي تُدعّم الموضوع بالواقعات، وإلى الملاحظات التي نراها في واقع الحال من التّطبيقات، وهي تتجلّى في عمل المُؤسّسات، أو تظهر في الخُطب والمُمارسات، لدى المَسؤولين، أو عند الأفراد المُهتمّين بالموضوع. ولقد تَوَخَيْنا الحَذَرَ من الرُّجوع إلى مُغْرِضات الموضوع؛ كي لا تركبنا الإيديولوجيّةُ؛ باعتبار الموضوع لا يخلو من إيديولوجيّة.

ونعلم بأنّ الموضوع حَسّاس جداً، وبخاصّةٍ عندما يَمُسّ عُمقَ المسألة اللّغويّة؛ وعلى الخصوص في بلاد المَغارب، وما للفرنسية من مَوقع عند النّخبةِ الوطنيةِ المَغاربيةِ، وعلى وجه الخصوص لمّا تكشف بالتّحليل الواضح عن مواطن العَوْرات، ومن ثمّ يصل بنا التّحليلُ إلى استكشاف مواضع ضعف الآداءات، وسوء

النيّة في بعض التّأخيرات، ويُكشَف عن مُتسببي التّعطيلات. وهكذا فهذا الكتابُ يثير القضايا الخطيرة، وبعضها من القضايا العالقة، ومن ثمّ يُقدِّم العلاجَ المناسبَ الذي قد لا يُرضي بعض الفئات التي لا تريد أن تُمَسَّ في مَصالحها اللّغوية ونقصد تلك الفئات التي تُمجّد الفرنسيّةَ، وترى الفرنسية والفرنسَةَ أمراً ضرورياً للعيش في الحداثة، وهم يُريدوننا أن نكونَ مَشْتَلةً للفرنسية فقط، وتدافعَ عن هُويّة الفرنسيين أكثر من الفرنسيين، وهؤلاء لا يريدون للعربيّة/ لغة الأمّة/ اللّغة الرّسمية أن تسودَ في أوطانها.

ومن خلال أفعالهم لا نسكت عن طمس الحقيقة، بل كان علينا الكشف عن سوء النيّة، في ما قامت به الفرنكفونيةُ في الماضي، وما تُخطّط له في الحاضر ونُشخّص الواقعَ اللّغويَ الذي مُسّت معالمُه من قبل ذواتنا، ونقول لهم: عليكم الحذرَ، وأن تقفوا موقفَ إعادةِ الاعتبار للمواطنة اللّغوية في بلادكم لا موقف النكران لذواتكم. ولكن قد لا يعجبهم هذا الكلام، فيعملون على تصنيف صاحب الكتاب، ويقولون: هذا كلام عُدوانيّ على اللّغة الفرنسيّة وليس من العِلميّة في شيء. وهذا شخص عُروبيّ بعثيّ لا يَفهمُ شيئاً. وهذه أقوال تخصّ (بلعيد) وهو في كلّ مرة يُعيد. (بلعيد) سَكَنَتْه حرفةُ التّمجيد ويريدوننا أن نكون من الأعراب والعربُ أعرابٌ لا يهمّهم حتى الإعراب، كما أنّنا لسنا في بلد العُربان، وهذا كلام ليس لها محلّ الآن، فاخرجْ يا (صالح) من هاجس الأمن اللّغوي الذي ركبك في كلّ الأماني، ومن لغة البدوي التي لا تؤهّلك للمدني؛ باعتبار أنّ الفرنكفونية لها نظرات ثقافية بحتة، يجب أن تعرفها قبل أن تتحدّث عنها البتّة. وسوف يقولون بالتّرويج بأنّ الفرنكفونية حضارة، وإنّها تيار أو منظّمة متنوّعة متعدّدة اللّغات؛ لأنّ عضويتها لا تقتصر على البلدان الناطقة جزئياً أو كلياً بالفرنسية فقط، فهي تضمّ أيضاً بلداناً غير فرنكوفونية راغبة في التّعاون التّربوي والتّعليمي والثّقافي والتّقني والعلمي. كما أنّ بعض الدول الأعضاء تسودها ثنائية وأحياناً ثلاثية لغوية... فيجب الخروج من التّضييق يا صاحب الكتاب، إلى رحابة الفكر والقبول بثقافة

الآخر. نعم قد يكون معنى الفرنكوفونية البسيط مجرّد التحدّث بالفرنسية أو الرجوع إلى الاستفادة من الثّقافة الفرنسية؛ لكنّها تحمل دلالة أخرى سياسية وإيديولوجية تفيد مجتمعات الناطقين بالفرنسية؛ سواء أكانت لغتُهم الأمّ أم لغة اختاروها لغايات تعليمية أو إدارية أو غير ذلك، أياً كانت انتماءاتُهم العرقية والدينية.

ولذا عندما نثبت في هذا التوضيح، تُسلّط علينا كلّ مُصطلحات العُنف والتّخلّف والظّلاميّة، ونعرف أنّه كلّما ظهرت الحقيقة مُرّة تذهب الجماعةُ الضديةُ إلى سلّة المُصطلحات الجاهزة القبيحة؛ لجمع تلك الكلمات المُتضادة فيصبّونها على كلّ من يُخالفهم الرأي، رغم ما يدّعونه من قبول الرأي المخالف. ومع ذلك، فأنا/ نحن نقولها.

نقول بأنّ بعضاً من تلك النُّخبة الوطنية تجهل الكثير من فِعْل الفرنكفونية أو تتنكّر لماضيها إنْ كانوا من النُّخبة الذين عاشوا الحَدَث الفرنسي، أو من النُّخبة المعاصرة التي لا تقرأ التاريخَ بعيون الحقيقة، وتخفي بأنّ **الفرنكفونيّة اغتصابُ لسان أوطان، ومسخُ لشخصيّة أجناس، وتعدٍ صارخٌ على البلدان وتزويرُ للذّاكرة الجماعيّة... ولا نكران بأنّ الفرنكفونيّة استعمار مُعاصر مُغلّف بالثّقافة والحضارة الغربيّة، كما لا نكرتن بأنّ الفرنكفونية لها وصايتها على الشّأن السياسي في العالم بالنّسبة للدول الأعضاء، فضلا عن مساعدة الأعضاء على تنظيم الانتخابات واستيعاب بعض مشاريع التّنمية الاقتصادية. ومأساتنا المعاصرة –نحن الجزائريين– تكمن في عدم إعطاء اللّغة العربية/ لغة الأمّة/ اللّغة الرّسمية مكانتها كلغة وطنية؛ تعود إلى وطنها بعد التّهجير الذي امتدّ 132 سنة من عمر الاستعمار، وتجاهلها القصري والمتعمّد سنوات بعد الاستقلال. وما ينطبق على الجزائر ينطبق على كلّ الوطن العربي الذي أراه يركع تحت ركح الأنْكَلَزَة أو الفرنْكَة.** وهكذا يُرهَن مصيرُنا لهاتين اللّغتيْن؛ ونحن خُلقنا أحراراً، ولنا لغتنا التي تملك المواصفات العلمية والعالمية ونحن ننكر ذلك؛ وهي تلك العربية التي ركَعَتْ لها اللّغاتُ وبتلك الثّقافة العربية الأصيلة نالت الانتشار وانتصرت على كثير من

اللّغات والثّقافات، ويقول (Jacques Berque/ چاك بيرك) "لقد خاضت الثّقافةُ العربيةُ معركةَ العُصور، وخرجتْ منها ظافرةً؛ بفضل اللّغة الفصحى" **إذاً فَلِمَ هذا التّجاهُلُ؟**

وعهْدنا في هذا العمل أن لا نقول: إنّ القافلةَ تسير/La caravane passe؛ فنحن نُخاطب النُّخبةَ الوطنيةُ وفي كلّ البلاد العربية، ونحترم من يقرأ لنا، وربّما تَفْهم بعض النُّخبة الهمَّ الذي نحمله، وفي ذات الوقت ندعو إلى العقلانية في علاج المسألة اللّغوية، فهي قضيتُنا جميعاً، ولا بدّ أن نُعالجَها جميعاً بمنطق الاهتمام بالشّأن العامّ؛ واللّغة الوطنية/ لغة الأمّة شأنٌ عامٌّ بامتياز، ولكي لا تنقلبِ الأمورُ إلى أضدادها، وهذا ما لا نريدُه أن يكون في بلدنا الجزائر، وفي البلاد العربية التي لم تأتِ هكذا؛ إلاّ بعد تلك الدماء الزّكيات الطّاهرات، كان علينا استكمال مسارنا التنموي بلغتنا؛ كي يكون التّحرير مُتكاملاً لا مَنقوصاً: تحرير سياسي واقتصادي وثقافي.

وبالنّسبة لنا، فقد رسمنا خريطةَ الطّريق، وكانت مُسَطَّرَة منذ أن حَمَلْنا أمانةَ خدمة الشّأن العامّ/ خدمة العربية/ لغة الأمّة/ اللّغة الرّسمية، وإنّنا نستهدف الإصلاحَ اللّغويَّ ما اسطعنا إلى ذلك؛ لأنّها خدمةَ للمواطنة اللّغوية والهُوية –في العالم– وهُويّتها الأساس هي اللّغة العربية. وعلينا أن نكونَ عِلْمِيّين ومُنافحين ومَنطقيين لهذه اللّغة الشّريفة التي قدّسها الله؛ بأن أنزلَ كلامَه بها دون غيرها من لُغات العالم، وسوف نتدبَّر المنهجيّات الحديثة التي تُنير لنا دروبَ النّجاح، ونقترح الأفكارَ التي نراها في الصّواب، ونقدّمها لصاحب الأمر؛ علّه يصنع القرار، وهذا ما تنتظره العربيّة من سَدَنَتِها الأحرار.

وأما ما يُثار من زَوْبَعات القول في فناجين القهوة، فهي زَبَدٌ سيذهب جُفاءً بالمرّة، وأما ما ينفع العامّةَ؛ فليسَ في الجُفاء البتّة، ولا في النّقد الغُثاء، بل هو في الصّدق والثّناء، والعمل البنّاء، وقول الحقّ السواء، والتّفاني على خدمة الشّأن العامّ؛ وهو موجود عند المُخلصين من الخواصّ والعوامّ. والمُخلصون لا ينقطعون

وهم الذين يرثون الأرض، وهم الذين يُعمّرونها، وصوتهم هو الذي يبقى ويسُود وهم الذين يُمجّدون المصالح المُرسلَة؛ والتي لا تنقطع ما دام الخيرُ لا ينقطع.

وفي هذا المقام، كان علينا المنافحة بقول الشاعر الإنكليزي (رديارد كبلنج) الذي أعجبنا كثيراً، وجاء ذلك في قصيدة له موسومة **(إذا أنت تستطيع)** وهي تُناسب المقام، ونريد إدراجَها في هذه المُقدَّمَة. فالقصيدة الشعرية جوابٌ صريحٌ لكلّ مُتحامل، ولكلّ من لا يعمل، ولكلّ من ينتقد فقط. فإذا (كنتُ أستطيع) ونزعم أنّنا **(أستطيع)** فنحن لا نهتمّ بالقدح، فهو سمّة الحاسدين، ولا نلتفت إلى النّكران؛ فهي سمّة الجاحدين، ولا إلى الذمّ؛ فهي سمّة الضّعفاء، ولا إلى التّصنيف؛ فهي سمّة الخاملين، ولا إلى الإساءة، فهي سمّة الحقيرين. فأنا/ فنحن (أستطيعُ) فكيف لنا أن ننْزِل إلى مستوى الإساءة، فالكبير يبقى كبيراً ويعلُو عندما يعترف بأنّه صغير؛ مثلُه مثل الذي يعمل، ولكنّه قد يقع في الخطأ، وتلك سمّة البشر.

(أنا أستطيعُ) على غرار القصيدة الشعرية الغرّاء، والتي نراها صرخةَ صبرٍ لكلّ من يسعى إلى النِّديّة، وإلى العمل دون التّحامل على الآخرين بالنيّة وإلى كلّ صَبُور يريد الوصولَ بالهمّة، ولم يصل بسهولة، وأمَلُه أن يصلَ ولو بصعوبة ويعملَ على التّغيّير، إضافة إلى ما يمكن أن نُعدّها من المواعظ التي يمكن إسداءها لكلّ من يتحمّل ويحترق في سبيل الآخرين، ويطمح أن يُحدث التّغيّير، ولا شكّ أنّ الصّبرَ وطولَ المدّة كفيلان بإحداث التّغيير، وبتحقيق المآرب. وأما الواهمون فلا نُجيبهم إلاّ بالقول الحَسَن، وعسى أن يفْهموا المَقصدَ، ويُعيدوا النّظرَ؛ لأنّ المسألة اللّغويّة في أوطاننا العربيّة مقطوعٌ فيها وسيأتي زمانٌ تعود فيه العربيّةُ إلى مواقعها، فالقضيّة قضيّة وقت ليس إلاّ. إذاً، لماذا يقع التّعطيل؟ فالعربيّة قادمةٌ مهْما تأخّرَ قطارُها، وعلينا أن نُعدّ لها عُشّها.

يقول الشّاعر: رديارد كبلنج. عن: محمد شفيق.

إذا أنتَ تستطيعُ

إذا ما حفــظتَ الوعــيَ والقوم ضيّعوا ولاَمُــوكَ عن جهلٍ وظلمٍ ونكــرانِ
إذا لم تثقْ فيــك الجمــوعُ وإنّما وثقتَ ولــم تُظهِــــر لهــم أيَّ عــــدوان
إذا لم يَخُنــكَ الصّبــرُ ما طــالَ عهدُه وســـــرتَ بآمــالٍ وجهدٍ وإيمـــــان
إذا نَقَلوا عنــك الأكاذيبَ حينما صَدَقْتَ ولــم تَحفــلْ بــكــذبٍ وبُهـــتــان
إذا لم تقابلْ بُغضُهم بنظيره ولم تتشامخْ فــوق خصــــــمٍ وأقــــــران
تمرُّ بك الأحلامُ وهي مثيــرةٌ فترمقها لــكــــن بمقلــةِ يقْــــــظــان
وتصبــو بــك الأفكــارُ والفكرُ شارد فتــــــردعه (والعقل أعظم ميزان)
إذا ما أتــاك الــحظُّ لم تكُ حــافــلاً وإن حــــلّ مكروهٌ فما أنت بالوني
إذا قلــتَ حقــاً، ثــمّ قــالوا بِضــدّه ولم تــكُ عــن قولٍ صريحٍ بِنــدمان
إذا نظــرتْ عيناك صَرْحاً بَنَيْــتَهُ فهَدَّ ولم تيــــأسْ وعُــدتَ لبُنْــيــان
إذا مــا فقــدتَ الكــلّ (صفقة خاسر) وقمــتَ بلا شكوى لتعويضِ خُسران
إذا حملتْ أعصابُك الحــــزنَ والأسى ولم يبقَ غيرُ الحزم في جسمك الفاني
وأظهــرتَ للأحــداث عَــزْما وهــمّة ولم ترتجــعْ بل جُزْتَها غيرَ حــيران
إذا أنتَ لــم تنــسَ الفضيلــةَ بينــما يحيطُ بك المحتالُ والنّذل والجــاني
إذا أنت عــاشرتَ الملــوكَ ولــم تُحِد عن الشّعــب في كِبْر وبغيٍّ وطغيان
إذا أنــت لــم تجعــلْ بنفســك مَنفــذاً لتشهيــر أخصــامٍ وتمليق خــــلاّن
إذا لــم يكــن للنّاس عنــدك شاغــلُ وجارَيْتَهــــم لكــن بعدلٍ وإحــسان
ولــم تنفــق السّــاعاتِ باللّهــو عالماً بأنّ حيــاءَ المــرء سبق بمــــيدان
هنــالك مَلِــكُ الأرض يأتيــكَ صاغراً وتُدعــــى حقيــراً –يا بُني– بإنسان

هي قصيدة عَصْماءُ؛ أُنتجتْ في بِلاد العاملين، بلاد الحقّ، ولا يُعلى على الحقّ وهي بِلاد القانون والعدل، فأمّة كافرة عادلة تهون أمام أمّة مسلمة غير عادلة، ومن هنا سادُ الغربيون وسادت لغاتهم، فهل يمكن لنا أن نكونَ بما وَهَبَنا اللهُ من هذه اللّغة التي لم نَفِها حقّها؟ وهل يمكن أن تعود لنا السّيادةُ كما كان أوائلُنا يَسُودون؟

وهل يمكن أن نتحدّث عن التّغيّير في ظلّ اللاتغيّير؟ ألاَ يبعث اللهُ في كلّ مئةِ عامٍّ من يُجدّد لها دينَها، ونحن نقول: ألا يبعث الله من يعيد للعربية حيويتها، وبه يجعل مَسؤوليها مُعيدين لاعتبارها، ويكون المَبعوثُ مرجعيّةً في علومها، فهل هناك من يعمل على الاستفاقة والتّغيّير في مَصيرها؟

وإنّ هذا الكتاب؛ سوف يَكشفُ المستورَ من وراء دُعاة الفرنكفونيّة أو الازدواجيّين الجُدَد الذين يُظهِرون ما لا يُضمِرون، وفي أنفسهم أغراضٌ لا تخدم الانسجامَ الجمعيّ، وهذا ما تنكره بعضُ نخبتنا الفرنكفوليّة المُذنِبة، ولا تُشير إليه؛ لأنّه الحقيقة، والحقيقة تجرح صاحبَها كما يُقال. ونزعم بأنّ هذا العملَ علميّ؛ يقف على أرجلِ الحقّ المُدافعة عن العربيّة التي تئِنُ من الجِراح الدّاخليّة، وتفتح ذراعيها لأولادها لاحتضانهم، ولكنّ البعضَ لها من النّاكرين فهل يستقيم الظلُّ والعودُ أعوجُ، أو كما قال ذلك الشّاعر:

ألقاهُ في اليمِّ مكتوفاً، وقالَ لهُ: إيّاكَ إياكَ أنْ تغرقَ في الماء

إنّ بعضاً من نُخبتنا المَغْرورة غارقةٌ في الانجذاب نحو لغة العدو، على أنّها الرِّفاه والخلاص من التّخلّف، فَتَتَمَاهَى في الدّفاع عن شيء ليس لها بدعوى أنّ اللّغةَ الفرنسية بريئةٌ من الإيديولوجيّة، وأنّ العلم ينبع منها، فلا غنى عنها بما لها من وقع في نفوسنا... بعضٌ من نُخبتنا الفرنكفونيّة تَتَمَاهَى وتَتَعَامَى عن الحقيقة التي تُحبّها العامّةُ، وهي تعمل جاهدةً لتحقيق ما عجزتْ عنه سّلطةُ العدو العسكريّة بالأمس. بعض من هذه النُّخبة هي سبب التعطيل في التنمية البشرية، والتنمية البشرية باب للتنمية العامّة.

بالأمس نُقرّ أنّه العدو، وكان يُشهِّرُ بندقيتَه، ويقول: عليكم اتّباعَ ما أقول وعليكم الخضوعَ، ولا تستعملوا إلاّ لغتي. والآن ما العمل؟ المُستعمِر لا يُشهّر بندقيته الحديديّة، بل يُشهِّر سلاحاً أخطر هو سلاح (اللّغة) بما تحمله من طاعة وإذلال وخنوع وخضوع وسكوت عن كلّ الحقوق، ولا يفهم المستعمرُ إلاّ أن تَحفظ وتُردّد: Oui /Oui /Oui. ولا يكون ذلك إلاّ الأخذ بلغته، وهي لغة التّواصل والعِلْم، وقد

زيّنها أصحابُنا، وقبلنا بها كزينة تُخرجنا من التّخلّف ولم ندرِ أنّنا مَجَدْناها منذ الاستقلال، فهل تقدّمنا أو حضّرتنا، وهل حضّرت بُلداناً أمثالنا؟ وكان على النّخبة الوطنية المُطيعة أن تعودَ إلى وعْيها، وتفعل مثلما تفعل النّخب في العالم، فنحن لا ننكر اللّغةَ الفرنسية في ذاتها، ولكن ننكر استعمال الفرنسية في بلادنا، فماذا نفعل إذاً بلغاتنا، وبماذا نتميّز إذا لم يظهر ذلك في لساننا؟ ولكن ذلك هو القهر اللّغوي الاستتباعي الذي تقوم به فرنسا في كلّ مكان تحُطّ به، فنحن لم نَنْجُ من ذلك وبخاصّة عندما يعمل أصحابُنا على تجسيد الفعل الاستتباعي، وتلك هي المُصيبة التي تأتينا من ذواتنا.

ذلكمْ هو الفِعْل الذي قامت به فرنسا في كلّ مُستعمراتها، فكانت تُركّز على استقطاب أولادَ الحُكّام والأعيان، وأولادَ شيوخ القبائل، وتُرسِلُهم إلى فرنسا وتُنظّم لهم رحلاتٍ؛ يَزُورون العواصم الغربية، فَيَرَوْن ويُبهَرُون، ومن ثمّ يُعْمَوْن وينغمسون في حضارة فرنسا، ومن ثمّ يَكْفُرون بهُويتهم. نعم تلك سياسة فرنسا التي تعتمد على تكوين أطفالنا بِغرَض تسييرهم وهم صغار؛ حيث هم بعيدون ومُنقطعون عن بيئتهم وحضارتهم، في إطار طَمْس هُويتهم. وهذا ما أيّده (حمدان خوجة) في وصفه لفعل رئيس المجلس الفرنسي في الجزائر، إذ يقول: "بهذه المُناسبة جمع السّيدُ (كادي دوڤو) المجلسَ البلدي وكنتُ عُضواً فيه... لتهنئة الجنرال (كلوزيل) بالعودة سالماً، وعلى إثر الزّيارة أخبرنا بالتّقارير التي وصلته وقال –بأنّ عملاً على راحته وللتّدليل على الثّقة للحكومة الفرنسية– يجب أن نجمع على الأقلّ (50) طفلاً من أبناء الأعيان يُبْعَثون لفرنسا ليتعلّموا اللّغة... أيّد شيخ البلدية هذا الطلب، واقترح أن يُشرَع في تنفيذه، وقال: إنّ رَفْضَ إرسال الأطفال إلى فرنسا يُعتَبَر خُروجاً عن طاعة الفرنسيين[1]". وبالفعل ذلك ما أنتج انشطاراً

1 ــ حمدان خوجة، المرآة، تح وتقديم: العربي الزُّبيري. الجزائر: 1975، الشّركة الوطنية للنّشر والإشهار، ص 54.

لغوياً لدى الجزائريين، فشهدت الجزائرُ المستقلّةُ نخبةً تعلّمت الفرنسية، وأصبحت تُدافع عنها، ونَسَيت العربيةَ، بل تنكّرت لها، **لماذا هذا؟** لأنّ القوة الفرنسية فرضت التّعليم بالفرنسية فقط، وهذا هو أسلوب إقلاع الجزائري من محيطه "وكان التّعليم أيام الحكومة الفرنسية استعماراً بحتاً لا يعترف باللّغة العربية، ولا يقوم بوجودها أيّ حساب، فاللّغة الفرنسية هي وحدها لغة التّدريس في جميع مراحل التّعليم[1]". إنّ فرنسا تعمل على تكوين النّخبة عن طريق هؤلاء الأطفال الذين سوف يُصبحون لسانَها، وقد نجحت في صُنع البعضِ منهم، وما تزال آثارُهم في واقعنا الثّقافي والاجتماعي؛ بحيث لا تزال المسألةُ اللّغويةُ تُطرَح عندنا، وما نزال في حركة التّعطيل، بل يجب الإقرارُ بأنّ ذلك كان سبباً في انشطار نخبة (الجزائر) إلى تيارين مُتخالفيْن:

1 ــ تيار فرنكفوني: يرى ضرورةَ اندماج الجزائر في قُطب الفرنسية/ الفرنكفونية، ويُعلّل ذلك بأنّ الفرنسيةَ فقط هي لغة النّجاح الاجتماعي، فهي الأفضل، بدل البحث عن حُلولنا الاجتماعية في العربية الفقيرة، فهي لا تُؤكِل الخبزَ. ويركّز هذا التّيار الجديد القديم على فرنسة/ ازدواجية المدرسة الجزائرية. ويقولون بأنّ "العربية أبانت عن هَشاشَتِها، وكانت السّببَ في مأساة المدرسة الجزائرية، وارتجال سياسات التّعريب، وأدّى ذلك إلى دخول هذه المؤسّسة في الأزمات اللامتناهية[2]". بالفعل قطعت الجزائر جُزءاً هاماً في استراتيجية تطبيق التّعريب، وتُرجمت الاستراتيجية بربط اللّغة العربية بالثّورة الثّقافية، وما صاحبَها من حماس وتجنُّد من قبل الطلاب الجامعيين في خَرْجات تطوّعية، وفي إطار الثّورة الثّقافية المُصاحبة للثّورتين: الصّناعية والزّراعية آنذاك، وما كانت تُخطّطه القيادة السّياسية، وما كان عليه الشّعبُ الجزائريُ من حماس تجاه هذه القضايا

1 ــ أحمد توفيق المدني، جغرافية القطر الجزائري. القاهرة: 1963، مكتبة النّهضة، ص 13.

2 - Haddab Mustapha, Education et changements soucio-culturels : les Moniteurs de l'enseignement élémentaire en Algérie. Alger : 1979 office des publications universitaires.

العربية، وقضايا الانتماء، وحبّ بلاد القدس فلسطين حتى في أحلك الهزائم. ولكن بقيت النّخبة المُفَرْنَسَة تنظر لكلّ تلك التّطوّرات الثّقافية بعين الرِّيبة والشكّ، وكانت تنتظر فترة سقوط رموز ذلك الحَراك، ومع ذلك بدأت تُظهِر المعارضةَ بشكل علَني أحياناً "وقد لاقى هذا التّيار مُعارضة من قبل المُثقفين بالثّقافة الفرنسية. وهؤلاء على الرّغم من قلّة عددهم نسبياً بالنّسبة إلى مجموع السّكان؛ فإنّ تأثيرَهم كبيرٌ بالنّظر إلى أنّهم يُسيطرون على دوائر الدَّولة والمؤسّسات وأجهزة التّعليم والإعلام. وقد حاولتْ وضع العراقيل في وجه استمرار خطّة التّعريب؛ بحجّة أنّ العربية لا تتّسع للثّقافة الحديثة المُعاصرة، ومن الصّعب إيجاد مَراجع علمية أو اقتصادية مكتوبة لها، وطرحوا كبديل عن التّعريب الكامل التّعريب الجزئي لبعض أقسام التّعليم حتى المرحلة الثّانوية، مع الإبقاء على فرنسة الجامعة والإدارات[1]". وبذلك تلاشت أفكار= العربية سيّدة في الجزائر: العربية= لا ترضى لها ضرّة. العربية= لغة الهُوية والأصالة. العربية= لا يُعلى عليها. التّعريب الشّامل= مع نهاية 1999...

2 ــ تيار وطني: لا يرى بديلاً عن التّعريب؛ فهو الحلّ الأمثل للمجتمع الجزائري، ولِحلّ كلّ النّزاعات الاجتماعية. ولكنّه تيار مغلوب على أمره يتمنّى الأماني المُعجزات، وهو ضعيف خامل في تلبية المَهمّات؛ همّه التّباكي والتّواكل على التّراثيات، وتفكيره في شؤونه وخبزه مُتواصل، ولا يبدي أيّ ردّ فعل مُتكامل وليس مُستعداً للتّضحية، وتلك هي المُصيبة. وقوله معروف: أنا وأنا، أنا وبعدي الطوفان، أنا لا يهمّني الشّأن اللّغوي مهما كان... وينسى أنّ المسألةَ اللّغويةَ من الأمن العامّ؛ لأنّها سبيل من سُبُل الانسجام الجمعي الهامّ ودونها يخضع المجتمع للتّوترات وطرح الماضَويات، ويكون ذلك مَدخلاً للفِتَن النائمات. وهنا كان لا بدّ

1 ــ مجلة معلومات "ذاكرة الثّورة الجزائرية". بيروت: 2012، عدد (ذاكرة الثّورة الجزائرية) رقم 103، ص 41-42.

من التّركيز على التيار المُعرّب، فنريد أن يخرجوا من تواكلهم، نريد أن يلقوا بحبات الأشجار في الأرض، ويلتمسوا الأسباب ومن ثمّ يتوكّلون، ونريد منهم الثّبات للوصول إلى النّصر الاستحقاقي، فلا يجب أن يَقَعُوا في اليأس قبل الامتحان في البأس، لا يجب أن يضعفوا أمام الغطرسة اللّغوية في مجتمعنا الذي فُرضت عليه أنماط قلب الوقائع، وطمس الحقائق، وتشويه التاريخ، وكم من فئة قليلة غلبت فئةً كبيرةً؛ بالعمل والثبات وصولاً إلى النصر المُحقّق. واللّه غالب على أمره، وأنّ الأرض يرثها عباديَ الصالحون.

وهكذا، ففرنسا تستقطب التّيارَ الفرنكفوني، وتُكوّنه ليُصبح نخبةً يقود الدّهماء والغوغاء، وتُشبِّعه بالثّقافة الفرنسية، ولا يقول بعد ذلك إلاّ ما تقوله الفرنسية. إنّه تيار صُنِع ويُصنَع في قوالب نمطية، ويُردّد ما قرأه دون تمحيص وهكذا أُمْلِيَ عليه. وهنا مَكمَن الخطورة في سياسة فرنسا الحضارة التي تختلف عن سياسة الاستعمار الهولندي أو البرتغالي أو الإنكليزي أو الأمريكي. فرنسا الحضارة استعمارٌ ثقافيٌ بامتياز، أو استعباد وهجران واحتواء من الدرجة الأولى، وهذه هي فرنسا الفرنكفونيّة، وفي أساسها حاملة إيديولوجية كولونيالية وهي امتداد للاستعمار القديم بصيغة ثقافيّة، وهذا تعريفها وهدفها "أما الفرنكفونيّة فنقصد بها تلك الحركة الإيديولوجية التي تسعى إلى فَرْنَسَة المُجتمعات التي خضعت في مرحلة من مراحل تاريخها الحديث للاستعمار الفرنسي لغةً وثقافةً. فالفرنكفونيّة بهذا المعنى هو ذلك الإطار المُؤسّسي الذي ينحصر فيه النّظام التّربوي، والمشروع الثّقافي واللّغوي داخل الدّول التي أُخضعت لانعكاسات التّوسّع الكولونيالي، وأُلحقت خلال حقبة من تاريخها ضمن دائرة النّفوذ العسكري[1]" فما يمكن أن يُقال من تعليق في سرّ مَفضوح لمقاصد الفرنكفونيّة.

---

1 ــ زكريا محمّد الرّبّاني "الفرنكفونيّة والعلمية والهُويّة الإسلامية قراءة في التّناقض النيجري" أعمال ندوة. ليبيا: 1430 من ميلاد الرسول ﷺ/ 2000 إفرنجي ندوة (التّاريخ الإسلامي وأزمة الهويّة) منشورات جمعية الدّعوة الإسلاميّة العالميّة ص 230-231.

ولذا نقول بكلّ مَرارة، بأنّ فرنسا نجحت –بعد خروجها من البلاد المُستعمَرَة– في صُنع حواملَ داخليّةٍ تقوم مَقامها، وهي تلك الحوامل/ النّخب التي تقوم مقام العَسْكَر، وهذا باعتراف الباحثِين النّزيهِين، ومن خلال واقع مَعيش في بلاد المغارب، وهي "النّخب الوطنيّة السّياسيّة التي ستستلم الإدارة الفرنسيّة في المغرب العربيّ، وستقيم منها، أو في موازاتها دولة الاستقلال. وهذه النّخب هي التي ستهيّئ شروط السّيطرة الفرنسيّة على الاقتصاد الوطنيّ ضمن إطار ما عُرف في حينه باسم **(الاستعمار الجديد)**. وهي التي ستحرص على حماية مرجعيّة اللّسان الفرنسيّ في الإدارة العامّة، وفي نظام التّعليم، كما في الصّحافة والإعلام! وبكلمة؛ هي التي ستنوبُ منابَ فرنسا في البلاد، لتُمدّد إقامتَها فيه بعد أن عجزت وسائلُ العُنف العسكريّ الاستعماري في تأمين ذلك التّمديد[1]. ويا ليتَ نخبتَنا تدرك مُستقبلَ ما تخُطّطُ له فرنسا؛ التي لا تنظر إلى المُمْكن، وكلّ ما هو مُمْكن فهو في نظرها مُحقّق، بل تنظر إلى ما يصعب تمكينه، وليس مُحقّقاً، ولكنّه سيتحقّق بالمُوالين، أو بأهالي المُوالين. وهذا ما يمكن أن نطلق عليه **بالاستعمار اللّغوي الفرنسي**؛ وهو انجذابية إلى اللّغة الفرنسية وبريقها الذي لا يزال يُعشعِش في أذهان بعض فئات المجتمع، وبخاصّة النُّخبةَ الناطقةَ بلغة واحدة، وهي الفرنسية السّاحرة؛ لأنّ (النُّخبة) مُنغلقة على الفرنسية فقط، ولا تنظر للعالم إلاّ من زاوية هذه اللّغة؛ فكأنّ العالمَ مُختصَرٌ فيها، ولا يبقى إلاّ بها. فلقد افتقدت نُخبتُنا المفرنسة الهُويةَ اللّغويةَ ولبست لباسَ الغير علّها تكون، وهو بخسٌ ذاتيٌ؛ فتسعى بكلّ قواها للانفصال عن الأصالة. نخبتُنا تفضّل الهِجرة والاهتجار؛ لأنّ الغربَ أغراها، فهي قد جهّزت حقائبَها وتنتظر في المطار لتطيرَ إلى فرنسا، وإلاّ سوف تركب بواخرَ الموت لتنقلَها إلى الضفة الأخرى، والآخر يُسْحرها، وتستأجر لغتَه وتترجّاه أن يقبل طلبَها، وبذلك

1 ــ عبد الإله بلقزيز، الفرنكفونيّة إيديولوجيا، سياسات. تحدٍ ثقافيّ– لغويّ، ط1. بيروت: 2011 مركز دراسات الوَحْدة العربيّة، ص 8.

أصبح الأجنبيُ يُملي ما يُريد، والنُّخبة تقبل دون مناقشة ما يُريد، ولا ترى إلاّ بعين الآخر ما يريد. لقد افْرَنْجَجَ لساننا في المَتْجَر وفي المقهى، واستُلبتْ نخبةُ النّفوذ والقرار وأصحاب رؤوس الأموال... فحصلتْ أزمةٌ في المواطنة اللّغوية؛ فالأزمة أزمة ألْسُن، وأزمة الفرنسية المَعْبودة فكيف نتدبّرُ الأمرَ؟

إنّ تملّكَ اللّغات الأجنبية حتميةٌ ثقافيةٌ وعالميةٌ، والوسيلةُ إلى ذلك هو تعلُّمُها والتّرجمةُ منها وإليها، فلا مجالَ للرّفض، وما هو مطروح هو الاستيعاب اللّغوي والتّرجمة من ذلك الاستيعاب، وهو سبيل إلى فَهْم اللّغات وثقافات أخرى خارج الفرنسية، مع فُرَص للتملّك أو للتّرك والتّهذيب، فأن نكونَ تُبّعاً؛ فتلك هي المُشكلة التي يجب أن نرفضَها، ولكن بكلّ أسف نحن مَغْلوبون على أمرنا؛ بتغلّب لغاتِ الغير علينا، فلغاتُنا تَسْقُط بضعفنا وانهزامنا في نِحل الأجنبي، وفي تقليده في زيّه ومأكله ولباسه، وأما لغته فنحن له من العابدين، وبها نعمل على سقوط لغتنا؛ لأنّنا من التّابعين، وكما قال ابن حزم الأندلسي: "**إنّما يفيد للغة الأمّة وعلومَها وأخبارها قوّة دولها ونشاطُ أهلها. وإنّ اللّغة يسقط أكثرُها بسقوط أهلها، ودخول غيرهم عليهم**". وهكذا تضعف اللّغةُ العربية جرّاء وضعها كلغة دونية في السُّوق اللّغوية وذلك ما يُسهِم في تغيير بنياتها الصِواتية والصّرفية والمعجمية، فلم نعمل بصيغة النّفعية كما يعمل الآخرون، فتملّكُ اللّغات عند الغربيين تُغني التّرجمة، وتملّكُ اللّغات عندنا تَعني التّبعية، وتلك هي المصيبة التي لا نعلم بها.

علينا أن نتدبّرَ أمرَ لغاتنا؛ بالبحث في بعث النَّفَس والحياة في برامجنا ومشاريعنا، وإدخال الحماس إلى باحثينا وطلابنا، وأن نَعِيَ بأنّ إقامةَ المعرفةِ تحتاج إلى الاستفادة من التّجارب المُتراكمة، وهذه سمّة الحضارة، كما تحتاج إلى الانفتاح على الآخر، وفي ذات الوقت يجب العلمُ بأنّ هناك حالاتِ عنفِ الإدارة والمؤسّسات؛ والتي تخلق نوعاً من الدّعوة إلى التّخلّي عن اللّغة الأمّ/ لغة الأمّة والتّعامل التّفضيلي للغات الأجنبية، بل واشتراط امتلاك الفرنسية في التّوظيف وذلك عبارة عن موتٍ غيرِ مُعلن للعربية وللغات الوطنية، ووضعية ناتجة عن

استصغار اللّغات الوطنية، بفعل سكوت الدَّولة عن تصرّفات مُمثّليها في الإدارة وعن تلك القرارات الرّمزية باسم الدَّولة، وهذا ما يُلمس في مُمثلي الكثير من الدّول العربية في الخارج؛ من اشتراط إتقانهم الإنكليزية/ الفرنسية دون اشتراط التحّكم في العربية، بل واشتراط على ممثلي الدُّول الأجنبية إتقانَهم الإنكليزية/ الفرنسية في المقام الأوّل. وفي التّعيينات المحلية والخارجية التي لا يُنظر إلى المُعرّب مهْما أُوتيَ من قوّة لغوية وتَضلُّعٍ في العربية، بل التّأشيرة هي الإنكليزية/ الفرنسية دون غيرها من اللّغات الأجنبية. وهذا عبارة عن تَلَف تدريجي للغات البلد: العربية/ المحليات. وهذا ما لا تقوم به الأمم الحيّة، ونحن نعلم بأنّ إتقانَ لغة البلد فَرْضُ عَيْن، وليس فَرْضَ كِفاية، فكيف بِمُسيِّر أو مسؤول عربي لا يعرف من لغته إلاّ **السلام عليكم**، ويتعثّرُ لسانُه في لغته، أليست هذه هي الغُربة اللّغوية أو المَنفى في لغة الوطن، وذلك ما جعل المُسيّر أو المَسؤول عندنا يقع في أخطاء لغته دون اهتمام يُذكر، ولا **يَعتبِر** للأمر، بينما يتحفّظ ويتحرّز ذات المُسيّر أو المَسؤول من الوقوع في أخطاء الإنكليزية/ الفرنسية، فسوف تُشنّ عليه حربٌ قائمة، وهذا ما يقرأه في دروس الفرنسية؛ بأنّ الخطأَ عيبٌ وشيمة، فهل **نعتبر** أن يكون ذلك في أدبيات اللّغة العربية، بل أن **نعتبر** من تلك المقالات التي تعمل على التّصحيح اللّغوي في اللّغة الفرنسية بقولها: Dites, ne dites pas/ قلْ ولا تقلْ.

إنّ هذا التيَهان والخطأ كان سببه الإصلاح التّربوي الضعيف في كلّ الدول العربية؛ والذي لم يعطِ المواطنة اللّغوية حقّها من الاستعادة، ولم ينفتح على التّعدّد اللّغوي الأجنبي بمفهوم الفائدة من اللّغات الأجنبية؛ فَحَصَرَ نفسَه في الاهتمام بالشكليات، ولم ينظر إلى المنهج والمنهاج في بابهما المتعلّق بالتخطيط، ولم يقدّم الحلول المستعجلة، ولم ينظر للحلول البعيدة. وفي باب اللّغات، فلم يخرج عن الاهتمام باللّغتين: الإنكليزية والفرنسية فقط، ونظرَ إليهما على أنّهما اللّغات العلمية والعالمية التي يقطر منهما العلم دون غيرهما من اللّغات، ومن لا يعرف الإنكليزية أو الفرنسية فلا يعرف العالمَ. وبخصوص الدّول المغاربية فإنّها اقتصرت على

الفرنسية فقط، وهذه نقطة الضعف في الإصلاح التّربوي في بلاد المغارب؛ إصلاح تناسَى أنّ الفرنسيين الآن يتحوّلون إلى الإنكليزية، وأنّ الفرنسيةَ مُهدّدة في الاتّحاد الأوربي، وأنّ حدودَها مُستعمراتُ فرنسا القديمة، وفي العالم العربي لا تتعدّى بلادَ المغارب دون ليبيا، والتّواصل بها شبه محدود، وهي لغة غير عولمية فلمَ لا نخرج من شرنقة الفرنسية إلى التفتّح على لغات الأقطاب؛ وهي كثيرات ولغات لها من العلم الكثير، ولمَ لا نخطّط لأجيالٍ مُتعدّدي اللّغات الأجنبية، لا أحادي اللّغات. أليس مُتعباً أن نجد أقسامَ التّرجمة لا تخرج من لغتيْن أجنبيتيْن أليس من العيب ألاّ نجد في بلادنا من لا يعرف لغة شرقية؟ أليس من الهزيمة ألاّ نتواصل علمياً في ما بيننا – نحن العرب– بسبب قوّة الإنكليزية في المشرق العربي، وقهر الفرنسية في المغرب العربي؟

ومن هنا نقول: لوْ أنّ الإصلاحات التّربوية العربية **أكّدت أهميةَ التّحكّم في العربية في المقام الأوّل**، ومن ثمّ عملت على إيجاد وَضْعيات التّحكّم في اللّغات الأجنبية، وسنّت سياسةً تربيةً بحسب القُطبية العلمية؛ لَخَرَجْنا من الهزيمة والتّبعية اللّغوية الأحادية؛ لأنّ العلمَ لا يوجد في الإنكليزية/ الفرنسية فقط، بل هناك لغات لا يُستغنى عنها في بعض العلوم، ولو حصل كلّ ذلك لما وصلنا إلى الطّريق المَسْدود. وفي هذا المقام؛ وكي لا نبخس حقَّ لغاتنا كان لا بدّ من التّحكّم في اللّغات الوطنية في كلّ البلاد العربية؛ وهي المواطنة الحقيقية التي يريدها المواطن العربي، وكلّ هذا لا يتمّ في ظلّ غياب السّياسة اللّغوية العربية التي تُنزل اللّغات المَحال المناسبة، مَتْبوعة بسنّ سياسة تربوية تُنزل العربيةَ في المنهاج والمنهج وفق علم اللّسانيات التّطبيقية. ولا يأتي مُتكاملاً بنقص التّخطيط أو غيابه، ونعرف أنّ ذلك يُؤدّي إلى ضعف التّواصل البَيْني في المقام الأوّل، ومن ثمّ يجعلنا لا نتحكّم جيداً في اللّغات الأجنبية، فهل أسْمَعْنا من يهمّه الأمر؟

ومرةً ومراراً، فإنّه من الضّروري بمكان التّحكّم في اللّغات المَحلية؛ باعتبارها من لغات الوطن العربي، واستعمالهما من اللازم وليس من الخيار والأجمل من هذا

أن تكونا حاضرتين (العربية + المحليات) في كلّ المجالات وبذلك تتعزّز صلابةُ الصرح الهُوياتي للوطن، وهذا ما تمثّل في تلك الثّنائية القديمة الرَّشيدة، ودون مشكلة تُذكر، وهو تنوّع لغوي قديم تركَ مَزْجَ اللّغتيْن وتناوبها واقتراضها وتداخل أصواتها، فكانت ظاهرة اتّصال حقيقي في المشهد اللّساني المحلي والعربي، ولا مفرّ منه الآن.

وبخصوص بلدان المغارب، فإنّ العربية + المازيغية لغاتٌ وطنية مُتساكنة مُتصاهرة؛ كلٌّ أخذت وظيفة بما تحمله من علم وحضارة ودين واستعمال، فلم يحصُلِ القهرُ أو الفرضُ، ولكنّ معرفتَنا للغة الأمّ/ لغة الأمّة/ اللّغة الرّسمية (العربية) ضعيفةٌ؛ فنتدرّج لنكون بدون لغة Ni lingue إذ تقلّصَ حجمُها في الاستعمال وفي الإعلام وفي الجامعة، وحصلَ تفضيلُ لغة أجنبية عليها وتقلّصت وظائفها الإدارية. ومعرفتنا بلغة أمّ (المازيغية) أضعف، أو هي معرفة سلبية بفعل عوامل نفسية في المقام الأول، وبفعل التّوجيه السّلبي في عدم الإقرار بثقافتنا كمُعطى احتشامي على أنّها لغة بربرية أُحْفورية لا فائدةَ منها، ثمّ حصلت هيمنةُ الفرنسية على وضعنا اللّغوي، فذلك ما زادَ في الغُربة اللّغوية غُربةً، وفي الطنبور رنّة. فلم نكن مثل الشّعوب المتقدّمة التي تمتلك اللّغة الكونية للوصول إلى المعارف الكونية، ولم نكن نتحكّم في اللّغات الوطنية التّداولية Lingua franca للتواصل البيني من حجم كبير؛ ولم نكن مثل أولئك الذين تَكْبُر فيهم اللّغة الأمّ أو حجمُ لغة المنشأMother Tongue فأعلَوا منها. وذات الفعل يجب أن يحصل في بلاد المشرق؛ حيث يجب الاهتمام باللّغات الوطنية من: الآشورية الكنعانية والقبطية والسومارية... وجعلها لغات يعتزّ بها، ويعمل على ترقيتها، وتكون هذه اللّغات محلّ اعتزاز وطني، ولكن ليست على حساب تلك اللّغة التي جمعتنا، وهي العربية. كما لا يعني أنّ الاعتزاز بها هو البقاء في تاريخها، بل أن تكون محطّة تاريخية يُستَلْهَم منها الفكر اللّغوي الأثيل.

لقد أغفلنا ما يتعلّق بالسّيادة والكرامة والمواطنة، وتَناسيْنا بأنّ الاعتزاز باللّغات الوطنية مكسبٌ عظيمٌ، وأنّ توظيفَ اللّغة الجامعة (العربية) عُملةٌ صعبةٌ؛ فكلّما وقع استعمالُها وقعَ عليها الطلب، وجنى أصحابُها الفوائد المادية مثل الإنكليزية التي تُجني لأصحابها ما يفوق 12 مليار دولار سنوياً، وفوائد انتشار الإنكليزية تدرّ على مُعلّميها أموالاً كبيرة. وهكذا ما يزال ربيعُنا فرنسياً؛ فيلقٌ من الإعلام الفرانكفوني الذي تجاوزت يومياته (53) جريدة في مقابل العربية 69[1] هذا في (الجزائر) على سبيل المثال؛ وهي دولة غير فرنكفونية، فكيف الحالُ لو كانت دولةً فرنكفونيةً؟

إنّ الميزانَ اقتربَ للمساواة بين اللّغتين في مجال الإعلام، في الوقت الذي تنصّ عليه مراسيم إنشاء اليوميات/ الأسبوعيات بغير العربية يكون لصالح الجاليات الأجنبية، وتكون نسخة لليومية/ الصحيفة المُعرّبة، فأين القانون وأين محلّه من التّطبيق، فهل نملك هذا الجمهور الأجنبي الذي يقرأ كلّ هذا العدد من الجرائد الفرنسية؟ بالفعل نملك جمهوراً من القرّاء؛ وهم من المواطنين الذين تختمر فيهم الفرنسية، وتفعل فعلها النّوعي، وهذا بسبب غياب السياسة اللّغوية الرشيدة، ونقص التخطيط اللّغوي في السياسة التّربوية، كما أنّ اللامبالاة في استعمال العربية كان بسبب غياب وازع الاعتزاز اللّغوي، وهذه نقيصة تسجّل على الكثير من المُعرّبين الذين لا يهمّهم أمرَ حُسْن استعمال العربية، بل أن تعود العربية إلى موطنها فقط. ومن ذلك نرى الضعف اللّغوي يعلِق بالعربية، ونرى التعلّق واضحاً باللّغات الأجنبية.

---

1 ــ وزارة الاتّصال، مديرية الإعلام، بتاريخ: 11 أفريل 2013.

أليس في هذا العدد الكبير من الجرائد التي تصدر في بلاد غير فرنكفونية مبالغة وخروج عن المألوف؛ حيث لا نجد هذا العدد حتى في الدُّول التابعة للفرنكفونية. ويعني هذا أنّ نصف المجتمع الجزائري يملك الفرنسية، وهذا شيء جيّد، ولكن –في الحقيقة– ليس ذلك مَوْجُوداً في الواقع، بل إنّ الفرنسية في الجزائر لا تخرج من حدود العاصمة، وفي بعض الولايات القريبة من العاصمة، وهذا يعني تنخيب للمجتمع؟ ألا يؤدّي هذا في القريب على أن يخلق الانفصام بين المجتمع، بل يبدأ بين وَلَدَيْنِ (2) من أسرة واحدة بسبب الخلاف اللّغوي؟ وهنا نطرح ملف الإصلاح التّربوي الذي لم يعمل على توقيف العُنف الفرانكفوني الذي يريد إخضاع كلّ السّاكنة لمنطق لغته فقط، وهذا نوع من التّجريد من المواطنة اللّغوية؛ يجرّد النّاس من لغتهم ويهدم ثقافتهم، وهذه نقطة الضعف الكبيرة التي تغطي كلّ مَحاسن الإصلاحات التّربوية. فغياب الفصل في المسألة اللّغوية في الإصلاحات أدّت إلى تغييب كلّ الحقوق، بل إلى خلْق بُؤَرٍ لغويةٍ لا تستكين، وما كان من حقّ المُخطّطين والمُسّيرين **تناسِي المسألة اللّغوية؛ وهي مِنْ الأمنِ العامّ.**

وفي الحقيقة، إنّ الفرنسية استأسدَتْ بعد استقلال الدُّول المغاربية، وأضحتْ عندنا إيديولوجية لتحقيق مصالح أجنبية واقتصادية؛ بغرض الإلحاق والسّيطرة أليس هذا نوع من أسباب الأزمة؛ أزمة في اللّغات الوطنية، أزمة في التّعليم وأزمة في الإدارة وأزمة في الاقتصاد؛ أزمة حقوق لغوية مغيّبة، ودستور لا يُطبّق، أزمة في خطاب مُعلن وسياسة مُخالفة مُبطّنة... فإلى أين المصير؟ بالفعل لم يحصل ما كان مُنتظراً من الإصلاح التّربوي، بغياب الجودة والنّجاعة، فأخرجَ الإصلاحُ تلاميذَ يجهلون كلّ اللّغات، فما هو هذا الإصلاحُ الذي لم يصل إلى المرغوب؟ وهل نُعدّه إصلاحاً أم طَلاحاً؟ علماً أنّ الإصلاح التّربوي في العالم المتقدّم لا يحصل بالسرعة، بل يتطلّب

تخطيطاً ووقتاً أطولَ لتفادي النّكسات، ومن ثمّ لا يتمّ تعميمُه إلاّ بعد تجربته على نطاق مَحدود، فإنْ أبانَ عن نسبة النّجاح، وتجاوزت 80% يمكن أن يقبل ويُعمل به، في انتظار التّقويم الدائم لتصل نسبة النّجاح إلى 100%.

هذا هو المُنطلق في الإصلاح التّربوي، ولكن تغيب عنّا الكثير من المعطيات ولا نستفيد من النّجاحات التي تحصل لدى الأمم، بسبب ما تقوم به فرنسا من الفرنسة وتعمية عيوننا، ولا ننظر إلى العالم إلاّ من خلال لغتها التي جعلتها لغة انجذابيّةً، حتى صار لها العمقُ الداخلي فينا، وهذا حقُّها، وما ننكره على أنفسنا أن نكونَ بيادق في يدّها؛ نقوم مقامَها، وننافحَ أكثر من مُنافحاتها، ونرتفعَ أكثر ممّا ترتفع، ونخلقَ الكلامَ الجذّاب الذي يُزيّن الوهمَ والخيال، ونُجَمّلَ القبيحَ، ونُقدّمَه على أنّه المُنقذ من الوهن، بل هو الغائب في فكرنا، وإذا توخّيناه نُصيب، وإذا ابتعدنا عنه نَتيهُ. وأكثر من هذا إنّ بعضاً من نُخبتنا تتنكّر لهُويّتها اللّغويّة، وتعدُّها من سَقْط المتاع، وتذوب في الفرنكفونيّة على أنّها جزء من دمنا، فهي الحياة، وهي الحضارة، وهي التّفتّح ولا لغة تُعادلها... كلام طائر جميل، يحلو بحسن النّظم وجودة الإلقاء لو كان في الصّواب.

ونحن لا ننسى أنّ فرنسا الكولونياليّة عملتْ ما عملتْ في مُستعمراتها من **نهْبٍ ومَسْخٍ وسُخْرةٍ واستِتْباعٍ**، وسطّرتْ مذهبَ اقتداء المغلوب بالغالب، وهذا ما كان مُخطّطاً في أدبياتها، فهل تُدرك النّخبةُ الوطنيّة هذا الأمر، ففرنسا ما كانت تكتفي من مُستعمراتها بما يطلبه منها سائر مِلَل الاستعمار ونِحَله: نَهْب الثّروة، وجَلْب العمالة الرّخيصة، وتأمين السّوق للسّلع الرّأسماليّة، وتوفير مَواطئ قَدَم للجيوش البريّة والبحريّة، وقاعدة بشريّة تُستخدم لأداء السُّخْرَة العسكريّة في جيش المُحتلّ... كانت فرنسا تطلب أكثر من ذلك بكثير، ولا تَشْبع في طلباتها، بل وصلَ

بها الأمرُ إلى "إنجاز **جراحةٍ ثقافيّةٍ ولغويّةٍ تستتبع المستعمَر للمستعمِر**، وتأتي بِمَعاول الهدْم على استقلال شخصيّته وكيانه فتدفعه إلى اقتداء الغالب والإذناب له والتّماهي معه، وفقدان القدرة على وعيه لذاته إلاّ في علاقته الانجذانيّة به! فعلتْ ذلك بنجاح –عزيز الأشباه والنّظائر– في (أفريقيا السّوداء) مُستثمرة بُناها القبليّة والاجتماعيّة الانقساميّة المفتتة، وغياب عوامل التّوحيد الثّقافي واللّساني في الأغلب الأعمّ من مجتمعاتها، ثمّ جرّبت تكرار ذلك النّجاح في الجزائر ابتداءً، ثمّ سائر بلاد المغرب العربي تالياً[1]". ومن هنا نقول: بخصوص الفرنكفونية، نجحت فرنسا في استتباع بعض النُّخب العربيّة المغاربية لتقول: "إنّ التّحررَ من الاستعمار لا يستتبع الحقدَ والكراهيّةَ للدّول التي كانت مُستعمَرة. فالتّعامل مع هذه الدّول، وفي طليعتها الدّولة الفرنسيّة، ينبغي أن يتمَّ على أساس الاحترام والتّعاون العقلانيّ والمصالح المُتكافئة". **قول الرّئيس (الحبيب بورقيبة).** فماذا نقولُ أمام هذه الحقائق أيّتها النُّخبة العربيّة؟ أليستِ نُخبتنا السّياسيةُ الإنكليزية/ الفرنكفونيّة هي التي أعطتْ مشروعيّةَ القبول بالوضع اللّغويّ الموروث، والتّعامل مع لغة العدو على أنّها قَدَر؛ علينا قبولَه والسّيرَ في فلك الأنكلزة/ الفَرْنَسَة وإلاّ سوف ننقرض.

لسْنا هنا في موقعِ المُحاسبة أو الوَعْظ، بقدر ما نريد القولَ بأنّ لبعض النُّخبة الوطنيّة العربيّة دوراً في التّعطيل الذي تشهده المسألةُ اللّغويّةُ، وهو تعطيل **للتّنمية** العامّة في ذات الوقت، رغم أنّ هذه المسألة مفصول فيها بعديد من الحُجج والبراهين، وكلّ الأمم التي فصلتْ في المسألة اللّغوية لم يمسّها ضرر المستعمر إلاّ تلك الأمم التي مسّها ضررُ الفرنكفونية، التي تعمل على خلق مُدافعين من

---

1 ــ عبد الإله بلقزيز، الفرنكفونيّة إيديولوجيا، سياسات. تحدٍ ثقافيّ– لغويّ، ط1. بيروت: 2011، مركز دراسات الوَحْدة العربيّة، ص 19.

الذوات الوطنية، وبهم تنال ما تريد، وتفعل ما تريد، وتخطّط لما تريد. فلو أنّ النُّخبة العربيّة كان لها موقف وطنيّ من لغتها؛ لما وصلْنا إلى شبه انسداد في التّنمية وفي لغتنا العربية. وبالفعل لقد أدّى ذلك باللّغة العربيّة إلى لغة مَعطُوبة في العِلْم وفي التّواصل؛ نتيجة عدم تدريسها في العلوم، وعدم استعمالها الرّسمي، فهي تتآكل في الاقتصاد، وتنهار في الوظائف، ولا تجد مكاناً في القطاع الخاصّ. ولكن سوف يُسجّل التّاريخُ بأنّ كلّ التّعطيل والتّشكيك؛ يعود إلى بعض تلك النّخبة المغاربية التي لم تُسجِّل تاريخَها أنّها نخبةٌ مُضيفة، بل نخبة شبه مُتخاذلة، ولم تُجارِ تطلّعاتِ مجتمعاتها بِكلّ أَسَفٍ.

أهداف الكتاب

هي فاتحة أوليّة؛ نطرحُ فيها بعضَ الهُموم اللّغويّة[1]، وهي هموم الأمّة العربية في نقص احتضان لغاتها، وعدم عمل الأمّةُ العربيةُ على ترقية لغاتها بما لها من إمكانيات مادية وبشرية؛ حيث تستطيع الرّفعَ من قيمتها والاعتزاز بها بسهولة وبخاصّة أنّ النوايا مُتوفّرةٌ، والفكرَ مُنتجٌ، والطاقاتِ مُبدعةٌ. ويبدو لي بأنّنا إذا قُمنا بتجسيد فعل الاهتمام لا نكون نُكراناً بين الشّعوب التي تهتمّ بلغاتها وتُمجّدها، ولنا **العبرةُ** في: مالْطا/ فَنْلندا/ هَنْغاريا/ اليُونان/ المَجَر/ كوريا/ إِسْلَنْدا... وهذه الأمم الصّغيرة، ولها لغاتُها، ولم تُفكّر يوماً في الهجرة إلى لغات أجنبية، رغم أنّ بعض اللّغات المذكورة يَعرِف ناطقوها بأنّها ضعيفة في العِلم، وليست من لغات الحضارة، ولا هي من اللّغات الدّولية، ولا هي مَطلوبة في سوق الاستعمال، ولا هي من اللّغات التي تُنتج العِلمَ، ومع ذلك فهم يَرَوْن فيها الكمالَ، ويروْن فيها الشّخصيةَ الوطنية، وينشدون الوصولَ إلى مقام اللّغات المُنتجة للعلوم. وهذا هو الهمّ الكبير الذي يجب أن نحمله جميعاً للتّفكير في قضايانا اللّغوية، ولتكنْ لنا **العبرةُ** من تلك الدُّول التي نالت الريادة بلغتها، وأصبحت ناجحة بلُغاتها. وهذا هو الهمّ الكبير الذي حملْناه منذ وَعَيْنا بعض التّسيّب اللّغوي، وعسى –من وراء ذلك– أن نصلَ إلى تقديم الحلول والوَصْفات التي تَقينا من صِدامات الحداثة المُعاصرة في بعض صُوَرها الإلغائية، وبخاصّة التفكير في التراجع أو التهاون في اللّغات الوطنية.

وفي هذا الكتاب –ومن خلال الهمّ الكبير– نستهدف من ورائه ثلاثة أهداف فرعيّة، وهي:

---

1 ــ سَبَقَ أن طرحْنا الكثيرَ من تلك الهموم في كتابنا: **هموم لغويّة**. الجزائر: 2012، منشورات مختبر الممارسات اللّغويّة بالجزائر، جامعة تيزي–وزو.

1 ــ هدفٌ عامّ: يتحدّث هذا الكتاب عن دور الفرنسيّين الفعليّ في ترقيّة لغتهم وعمّا قدّموه من: تخطيط، وتعليم، وقوانين، وتحفيز، وبذل أموال وتجنيد وطني عامّ... بُغية أن تكون للغة الفرنسيّة الرّيادةُ والانتشارُ. وبالفعل عمل الفرنسيّون بكلّ قوّة من أجل عُيون اللّغة الفرنسيّة لتكونَ **(صاحبة الجلالة ولغة المُقدّس)** والتي لا يُعلى عليها، بل يُطلَب وُدُّها من قبل أهلها، ومن غير أهلِها، فَلَهَا كلُّ الأولويّات. وعلى كلّ فرنسيّ أو مُحِبّ للفرنسيّة العملُ على تعلّمها وتعليمها، وكسب المُتعاطفين معها، والتّفاني في نشرها في الخارج؛ بكلّ ما أُوتيَ من جَهْد.

2 ــ هدفٌ خاصّ: يستهدفُ تنويرَ الرّأيِّ العربيّ بما تحمله الثّقافة الفرنسيّة من نُكران للّغات التي تُنافِسُها في العلميّة، وفي الانتشار الخارجيّ، وفي ذات الوقت يُوضِّح لنا هذا الهدف للقارئَ ما تحمله الثّقافة الفرنسيّة من حِقْد وعَداءٍ للّغات البلاد المُستعمرَة؛ فالثّقافة الفرنسيّة كولونياليّة إقصائيّة؛ تعمل على التّدجين وتسخير الآخر، وسَحْق شخصيّته ثقافياً، ومن ثمّ اقتصادياً. وهذا الهدف قد يكون درْساً للفرنكفوليّين العَرَب الجُدد، وبخاصّة المغاربةَ الذين يَعْبُدون فرنسا حُسْن عِبادة. فيكشف الهدفُ عن قناع فرنسا في منهجيّة التّعامل مع اللّغات الوطنيّة باسم الازدواجيّة المنبوذة؛ فيُحَمِّلوننا على أن نكون مُزدوجي/ مُتعدّدي اللّغات، **وهم ليسُوا كذلك.**

3ــ هدفُ وعيّ ووعظ: يروم هذا الهدف وَخْز الضّمير المغاربيّ أو اللّبنانيّ أو الإفريقي أتباع الفرنكفونيّة، علّهم يستفيقون، أو ربّما يُعيدون النّظر في ما كانوا ينتظرون من الفرنسيّين على أنّهم يُفضّلونهم أو يُباهون بهم الأمم لجمال عيونهم، لا وألفُ لا، بل لأنّهم يستعملون الفرنسيّة ليس إلاّ، ولو لم يكن ذلك كذلك، لما عَدُّوهم من البشر أصلاً. وكما قلنا: ربّما قد يُثير فينا هذا الهدفُ الاعتبارَ من الفِعْل الذي قام به الفرنسيّون تجاه خِدمة لغتهم، نستفيد منه في أُطُرِه العلميّة لا في أُطُره التّبخيسيّة والاحتقاريّة للّغات الآخرين؛ أي هل يمكن أن **تحصل لنا الغيرةُ – نحن العرب**– من هذا الفعل لنُخلِصَ للغة العربيّة، أُسْوة بفعل الفرنسيّين تجاه لغتهم.

وهذه الأهداف الثّلاثة الفرعية؛ لا تعمل كلّها في صالح العربيّة، فهناك هدفٌ وحافزٌ مَعنويٌّ؛ وهو العمل بمنهجيّة الفرنسيّين العلميّة، والتّخطيط والمُتابعة والمُراجعة في كلّ حال، وهذا هدف وعملٌ جيّد وجبّار؛ ويُسَجَّل لصالح الفرنسيّين فإذا استفدْنا منه، نكون قد كَسَبْنا تحريكَ الضّمير العربيّ؛ لعلّه يُعيدُ النّظرَ في ما هو فيه من تهاونٍ أو تسامحٍ أو لا مُبالاة تجاه العربيّة.

وفي كلّ هذا، لا يفوتُنا الحديثُ عن مُحدّدات النّظام اللّغويّ، وعن بعض التّحديّات؛ والتي نقترح لها بعضَ الحلول البديلة، وينبغي أخذُها في الحسبان في تصحيح أوضاع العربيّة، وإحلالها مَنْزلتها اللائقة بها، ليكونَ لها التّماسكُ والانفتاحُ على ثقافات السّابقين. وهذه من الأشياء التي تحتاج إلى تدبير جديدٍ وإلى مَنهج سديدٍ، وإلى تحْريك الهِمَم في حسن التّدبير؛ لنقول: إنّه حان الأوانُ أن نكونَ في مستوى هذه اللّغة الشّريفة والمُقدّسة، وهي قَدَرُنا، فلا مَهْرَبَ منها، بل كان يجب الوعيُ بأنّها لغةُ الحقّ والقانون والدّساتير العربيّة، وأشدَّ اللّغات تأثيراً في كلّ لغات العالم، وأقدمَ اللّغات، بل وأقوى لغة ساميّة، ولها الرّتبة الرّابعة عالمياً من حيث عددُ المُتكلّمين.

والعربيّة هي عُروبة اللّغة واللّسان، "فليست العربيّة بدمٍ ولا عِرْقٍ ولا لونٍ ولا أبٍ ولا أمٍّ، فمن تكلّم بالعربيّة فهو عربي" كما قال شيوخُنا القدامى. وللعربيّة مُستوياتٌ مثلما هو مَوجود في كلّ اللّغات، وللعربيّة خُصوصيّاتٌ مثلما هو مَوجودٌ في كلّ اللّغات، وللعربيّة حَمولةٌ ثقافيّةٌ، كما أنّ لكلّ لغة حَمولةً ثقافيّةً، فلا يجب أن ننظرَ إلى العربيّة على أنّها نَكِرَة بين اللّغات، بل هي لغة طبيعيّة، وأُمّ اللّغات وهذه الأخيرة صفةٌ حميدةٌ لا تُوجد في لغة من لغات العالم.

يجب تأكيدُ دورَ اللّغة في أيّ مجتمع، فليست مُحايدةً بما تحمله من ثقافة وتوجيه وتأطير، فاللّغة هي نظام ونَسَق حامل للديوان الثّقافيّ وناشر له، وأداةُ تواصل ولكنّها تحوي قيمةً فكريّةً مُعبّرةً عن جوهر تلك القيمة، فهي تتعدّى الوعاء الحامل للأصوات والكلمات والنّحو، فتحمل "... الوجود والهُويّة من حيث إنّها حاضنةٌ

لعوامل الارتباط العضويّ بين الماضيّ والحاضر والمستقبل ومصدرُ تحديد الملامح الأساسيّة المُعبّرة عن طبيعة وخصوصيّة المجتمع والأمّة، فهي عُنصر شَحْنٍ ومُؤسّسةِ اتّصالٍ، وعامل فاعل في **توحيد أفراد الأمّة**، وفيها يتمّ تمفصل جميع جموع الخصائص المُميّزة للشّعوب[1]". ومن هذا المنطلق كان علينا –نحن العرب– السّعي بما أُوتِيْنا من قوّة ومالٍ لنتحكّمَ في لغتنا، ونُعلّمها لغيرنا، وكان علينا كذلك أن نعيَ موقعَ اللّغة العربيّة الهُويّاتيّ والحضاريّ، فهي التي تضمنُ التّواصلَ والانسجام بيننا بشكل أوْسع، وبدونها تحصل الفُرْقةُ، ومن ثمّة الضّياع ونعي كذلك بأنّ العربيّةَ لم تضعَف ولم تتراجَع ولم تتخلّف في ذاتها، وإنْ حصلَ لها التّأخيرُ فبسبب أهلها، فالعرب هم الذين تراجعُوا وتَسَامَحُوا في لغتهم، وحصلَ لهم التّأخّرُ والتّخلّفُ، وبالطّبع يحصلُ الضّعفُ والتّأخيرُ في لغتهم، بل ربّما ينطبع فيهم، ويبقى سِمّتهم التي لا تفارقهم.

ولذا لا ننكر أنّ العربيّةَ في وقتنا الحالي تعيشُ التّخلّفَ بسبب **الحَجْر/ الحَظْر Inhibition**، وبسبب **المنع Prohibition** الذي وقع عليها، فهي غير مُستعملة فكيف للغة وقعَ تسييجُها بالحَديد أن تكون عِلميّةً؟ وكيف للغة يشتكي أصحابُها من نقص/ تشتّت المصطلح وهي لا تستعمل؟ أضفْ إلى ذلك ما يُلصَق بها من تحقيرٍ وتَرْكٍ، وعدم اعتزاز، حتى أضحت لا تُنافِس اللّغاتِ العِلميّة في التّراث، ولا في الإنتاج العِلميّ المعاصر، ولا في الإعلام، ولا في التِّقانة، كما لا يمكن أن نغفل الضّعفَ في إدارة المسألة اللّغويّة في البلاد العربيّة، وضعف تسيير مُؤسّسة المدرسة، وضعف أداء المُعلّم، وضعف الكتاب المدرسيّ واضطراب في المصطلح، وغياب التّشريع الصّارم، وضعف التّنسيق العربيّ، ونقص المعاجم العصريّة، ودون الحديث عمّا له علاقة بالمحتوى

1ــ عبد الكريم غلاّب "أزمة المفاهيم وانحراف التّفكير". مجلة الوَحْدة. لبنان: 1998، مركز دراسات الوَحْدة العربيّة، ص 37.

الرّقمي/Le continu Numérique... وهذه من العوامل التي تؤدّي إلى هُجران اللّغة العربية، ومن ثمّ إلى موت كلّ لغة تُعاني هذه العَدَميات. علماً أنّ عوامل موت اللّغة العربية بدأت تظهر في بلاد العرب من خلال:

"1 ــ انخفاض الوعيّ اللّغويّ باللّغة العربية.

2 ــ الانبهار باللّغات الأجنبيّة.

3 ــ الارتباك في تعليم اللّغة العربيّة.

4 ــ تأثير المدارس الأجنبيّة.

5 ــ غياب السّياسة اللّغويّة[1]".

وهذه العوامل موجودة بنِسَبٍ مُتفاوتة في كلّ الدّول العربيّة، إن لم نقلْ إنّها ظاهرة بشكل علنيّ في كثير منها، فما العمل؟ فهل يعني أنّنا نتسامح في هذه اللّغة ونتركُها للزّمان يفعل فِعْلَه، أو نَدَعُ المسألةَ اللّغويّةَ في يدّ العابثين، أو نقرأُ المستقبلَ بعيون الماضي، وننكرُ كلَّ انفتاحٍ وتقدّمٍ ومُسايرةٍ للواقع المُعاصر. هنا الإشكاليّة التي تحتاج إلى علاج. فعلينا رفْع الحَجْر عن تعليم اللّغة العربيّة وتعلُّم ثقافتها ورَفْعَ المُضايقات النّفسيّة التي تلحق مُستعمليها في بلادها، ورَفْعَ الحواجز اللّسانيّة في تدريسها، والعملَ على تلجيم الإعلام الذي يَلْصِق بها القُصورَ، وعند ذلك يمكن أن يقعَ تصنيفُها، ويقع تقابلُها باللّغات العلميّة، وإلاّ لا يصحُّ التّقابلُ بين لغة مُنتجة مُتطوّرة يقوم أهلُها على خدمتها ولغة مَهجورة مَنبوذة، وتُصنّف بين اللّغات الميّتة ولا يقوم أهلُها على خدمتها بِقَدْر ما يقومون على مُهاجمتها.

لا ننكر أنّ اللّغةَ العربيّةَ/ لغةُ الأمّة/ اللّغةُ الرّسمية في وقتنا الحالي لها علامات إيجابيّة عبر النّشر العلميّ الإلكتروني الذي بدأت تُنافس فيه بعضَ اللّغاتِ المُتقدّمة وأنّ موقعَها في الشّابكة في تزايُدٍ دائمٍ، وعدد مُستعمليها ودارسيها في صُعود

---

1 ــ أحمد بن محمد الضبيب، مُستقبل اللّغة العربيّة، ط1. السّعوديّة: 2014، مركز الملك عبد الله بن عبد العزيز لخدمة اللّغة العربيّة (سلسلة: ندوات رقم 3) ص 39 ــ 44.

مُدهش، وفي الاهتمام العالميّ بها بسبب ما يُعرف الآن بالتّوترات العالميّة، وبما لصق بالإسلام من **(إسلاموفوبيا)** ومن أفكار خاطئة، ولكنّها برّاقة وخاطفة وبطبيعة الحال يُلصق ذلك باللّغة العربيّة، ويُضاف إلى ذلك ما يلحقها من أهلها من تَهَاون وتَسَامُح ولا مُبالاة، وعدم الدّخول في الحوار العاليّ المستوى لتوضيح ما يلصق بهتاناً من إرهاب؛ إرهاب على الإسلام، وعلى اللّغة العربيّة؛ علماً أنّ الإرهابَ والتّطرّفَ مَوْجودان في كلّ المُجتمعات، وما تعيشه الأمّةُ العربيّة من صراعات كان بسبب الاستعمار الذي لا يزال يُغذي النّعراتِ، ويُوقظ الفِتَنَ النّائمات... ومن هنا لا يجب أن نُغيّبَ دورَ وسائل الإعلام العربيّ الذي لا يزال بِدائياً في تعامله مع المسألة اللّغويّة، وأشهد أنّه لم يكن في المُستوى المَطلوب؛ ليجليَ الحقيقةَ كما هي، لا أن ينقلَ الحالاتِ الشّاذةَ التي عَفَا عليها الزّمانُ، ويقيم بها وعليها الدّنيا، ومن وراء كلّ هذا أراه لا يزال في بياتٍ طويلٍ لا نهارَ له.

ولقد آنَ الأوانُ أن نقولَ: إنّ الرّهانَ كلّ الرّهان على المُبدعين بالفصيحة ونترك مجالَ اللّغة الفُصْحى (اللّغة القُدْمى)؛ لأنّ زمانَها قد ولّى، ولكنّ اللّغةَ الفصيحةَ قائمةٌ فينا؛ فهي في دروسنا، وفي إعلامنا، وفي مناقشاتنا، وعلى هؤلاء المُبدعين أن يتمكّنوا منها، ويُبدعوا فيها وبها، وينقلوها إلى العالميّة، وإلى الاعتراف بها في دُوَل الشّمال، وفي ذات الوقت أن يكون المُعرّب وغير المُعرّب على وعيٍ تامٍّ بأنّه **لم يحصل أنّ شعباً ارْتَقَى بغير لغته**، وهذا ما كشفته الدّراساتُ والأبحاثُ التي جرَت في العالم، بل هذا ما أبانتْه التّجاربُ العالميّةُ، وعلى العربِ أن يعملوا على الإقناع بالحُجّة العلميّة؛ بأنّ اللّغة العربيّة هي الماضي والحاضر والمُستقبل، فأن تكونَ عليك أن تستظهرَ من تكونُ ولا تكون إلاّ بلغتك، وفي ذات الوقت هذا ما يُعطي لنا حقّ التّميّز والمحافظة على الذّات العربيّة، وعلى هُويّتنا الثّقافيّة، واللّغة بالطّبع هي الحامل والباعث والنّاقل لخصوصياتنا، **فهل نعتبر؟**

وفي هذا المجال، علينا أن نقولَ بأنّ اللّغاتِ الوطنيةَ فقط هي الطّريق للنّهضة وهي التي تُسهِم في إنجاز النّقلة السّريعة، وإنّها أحدُ الأوجه الرئيسة لتَدارُك الفجوة

المعرفيّة والتّنمويّة، ومُواكبة التّطوّر المُعاصر. واللّغات الوطنيّة فقط هي الرّمز والسّيادة والتّماسك المجتمعي، وهي التّراث والحضارة، وهي لسانُ حال الإبداع والتّواصل المعرفي والثّقافيّ، كما تشمل اللّغات الوطنية أبعاداً حقوقيّة وديمقراطيّة وتكريس حقّ الاختيار مهما كان نوعُه. واللّغات الوطنيّة فقط هي أداة الشّحن الحضاري، وصاحبة المخزون التّراثي، وظاهرة اجتماعيّة وتاريخيّة تتطوّر وتنمو بتعدّد الأوضاع العامّة للمجتمع. فلا تتحقّق هذه الأشياء إلاّ في اللّغات الوطنيّة التي تسود في مجتمعها برمزيتها الخاصّة "لقد نجحتِ المجتمعاتُ المُتقدّمةُ في تبنّي مبدأ السّيادة اللّغويّة؛ بوضعها عقيدةً مُقدّسةً لا تقبل التّشكيك فيها والتّعدي عليها. يتجلّى ذلك في اعتبار اللّغة الوطنيّة رمزاً لسيادة البلد؛ مثل العَلَم، وبقيّة معالم السّيادة التي تتبنّاها اليوم جميع دول العالم. وهذا ما نُلاحظه في الاتّحاد الأوربي الذي يضمّ أكثر من عشرين دولة تحترم فيه بالتّساوي لغة أكبر وأصغر الأعضاء كَمَالْطا، إذ اللّغة لدى كلّ واحدة منها هي رمز السّيادة[1]". فلمْ تفكّر هذه الشّعوب الضّعيفة ذات يوم أن تتخلّى عن لغاتها؛ بدعوى أنّها من الشّعوب المُتخلّفة والحاصل أنّ لغتَها ضعيفةٌ، ولكن لم يحصل ذلك باعتبار اللّغة رمزاً بها تكون وبدونها لا تكون. وهذه الشّعوب تحترم معالمَ السّيادة الرّمزيّة المُمَثّلة في:

1 ــ الاستعمال الكامل للغة الوطنيّة على المُستويين: الشّفوي والكتابي.

2 ــ احترام اللّغة الوطنيّة والاعتزاز بها، والغيرة عليها، والدّفاع عنها.

3 ــ معارضة استعمال لغة أجنبيّة بين مواطني تلك المجتمعات.

4 ــ الشّعور العفويّ القويّ لدى المواطنين بالأولويّة الكبرى لصالح استعمال اللّغة الوطنيّة في مجتمعاتهم.

1ــ سلمان بونعمان، النّهضة اللّغويّة وخطاب التّهيج الفرنكفوني في نقد الاستعمار اللّغوي الجديد حالة المغرب، ط1. بيروت والسعوديّة: 2014، مركز نماء للبحوث والدّراسات، ص 19.

5 ــ مراقبة ذاتيّة تجعل المواطنين يتحاشَوْن استعمالَ الكلماتِ الأجنبيّة مع وجود سياسات متواصلة لترجمة المصطلحات والكلمات الأجنبية المُستجدة.

6ــ اقتران اللّغة الوطنيّة بتحديد هُويّة الأفراد والجماعات في تلك المجتمعات[1]".

فهل بعد هذا من كلام يمكن أن يُقال، إذا كانت هذه الشّعوب تنظر إلى مكانة لغتها التي لا تكون إلاّ بها، فهل يمكن أن نكون –نحن العرب– بغير لغتنا، أم ماذا نريد عندما نتنصّل من لغتنا، فهل من مُجيب؟ أليس جَرْيُنا وراء اللّغات الأجنبيّة نقومُ مقامَ حُرّاس التّخلّف، ونعملُ على تأبيد التّبعيّة. أليس المطلوبُ منّا تفكيك أنساق الاستبداد والفساد والتّبعية، وكسب رهان الاستقلال المبني على حُرمة المُقدّسات. أليس المطلوبُ منّا فكّ الارتباط مع التّغريب الثّقافي، والاحتراز من الافتراس اللّغويّ... يجب الاعتراف بأنّنا نعيش مع استقلال مَنقوص؛ بسبب افتقادنا للسّياسة اللّغويّة والثّقافية التي تَصُون الانفصامَ، وإنّنا بحاجة إلى سياسة لغوية تُسهم في تماسك الهُويّة، وفي حماية السّيادة، وفي فكّ الارتهان في التّبعيّة والتّغريب.

وعوداً إلى صُلب الموضوع، فنجد أنفسَنا أمام **لغة فرنسيّة راقيّة**، لم يحصل لها هذا الرّقي والتّرقي إلاّ بعد عملٍ دؤوب، وعَبْرَ زمنٍ طويل، دامَ أكثرَ من ستّة (6) قرون من التّرقيّة العلميّة، وبمعاضدة القوانين والمراسيم، والأمْرِيات، والحماس الجماهيريّ، والتّجنيد الوطنيّ... ولقد استطاع الفرنسيّون أن يُجسِّدوا في اللّغة الفرنسيّة العِلْميّةَ، وبذلك أخذت طريقاً جديداً في التّرقيّة، فخرجت من اللاتينيّة الميّتة، وانسلخت عن أرومتها، وتميّزت عن اللّهجتيْن: الإسپانيّة والإيطاليّة وأصبح لها وضعُ هندو–أوربي لاتيني حديث. وعبر تلك القرون الخوالي، أضحت الفرنسيّةُ لغةً علميّةً عالميّةً، وحصل لها الانتشارُ بالقوّة وبالفعل، ولم يكن ذلك ليكون؛ لولا ذلك الكفاح الطّويل الذي خاضه الفرنسيّون؛ آخذين **مسارين:**

---

1 ــ محمد الذّوادي، الازدواجيّة اللّغويّة الأمّارة: ارتباك الهُويّة وتصدّعها– المغرب– في المغرب والمشرق، ط1. تونس: 2013، منشورات تبر الزّمان، ص 194.

1ــ **مَسَار الدّاخل؛** الفرنسيّة لغةُ منطقة جزيرة فرنسا Île -de -France ولا مجالَ فيها للمحليّات، ولا تُنافسها الأجنبيّات "ومنذ الثّورة ترسَّخَت فكرةُ أنّ اللّغات– اللّهجات غير المعيارية ناقصة ودونية، وأسوأ من هذا أنّها تحمل سمات غير مرغوب فيها، بل أفكاراً إيديولوجية مُهدّدة للثورة يجب اقتلاعها[1]" وهم الذين أخذوا موقفاً من البداية بخصوص اللّهجات، بالرّفض التامّ والنّهائي، وقد صدر بيانٌ من مجلس الثّورة الفرنسية يقول: "أيّها المواطنون؛ ليدفع كلّ منكم تسابقٌ مُقدّسٌ للقضاء على اللّهجات في جميع أقطار فرنسا؛ لأنّ تلك اللّهجات رواسب من بقايا عهود الإقطاع والاستعباد[2]". اللّغة الفرنسية لا ترضى الضرّة، هناك لغةٌ فرنسيّةٌ جامعةٌ واحدة لا غير، فلا يجوز أن يكون لها النّد أو لغة محليّة تُنافَس في الدّاخل، وهي تلك اللّغة التي تشكّلت في نموذج الدولة–الوطن، وعبرها اتّضحَ المقامُ في: **لغة واحدة– أمّة واحدة– دولة واحدة.** ومن ذلك تَشَكَّلَتْ "الأمّة الفرنسية بتشكّل لغة وطنية من لهجة الأويل Langue d'oil بإرادة الملك فرانسوا الأوّل على حساب اللّهجات الأخرى[3]" وحيث كانت البدايّة من منطقة باريس الضيّقة، ومن ثمّ وقعَ تعميمُها عبر فرنسا الواسعة، وحصل ذلك بالقوّة والفِعْل، وهذا ما حدث في كامل أوربا، وكان لا بدّ أن يحصل لتتمَّ لهم الغلبةُ لغوياً، وكانت القوةُ ظاهرةً، والقهرُ حاصلاً، والتّصفيةُ مضمونةً؛ لكلّ من يتنكّر للغة الوطنية؛ **اللّغة الجامعة/ لغة الأمّة.**

1/1ــ توظيف الفرنسية للحمة الداخلية: إنّ الفرنسيين في البداية كانوا يَعُون بأنّ سلاحَ اللّغة ذو حدين: حيث يمكن أن تُوظّف للُحْمة المجتمع، كما يمكن أن

---

1 ــ عبد القادر الفاسي الفهري، السّياسة اللّغوية والتّخطيط مَسَارٌ ونماذج، ط1. الرياض: 2014 مطبوعات مركز الملك عبد الله بن عبد العزيز لخدمة اللّغة العربية ص 17.

2 ــ عن موقع الجمعية الدولية لمترجمي العربية. http/www.atinternational. org/forums/index

3 ــ عبد القادر الفاسي الفهري، السّياسة اللّغوية والتّخطيط مَسَارٌ ونماذج، ص 7.

تُستعمل في تفتيت المجتمع ومن ذلك، فعلى مسار الداخل قالوا: لا للهجات. وهنا طرحوا **سؤال التنّمية** الذي لا يكون إلاّ **باللّغة الجامعة**. فاللّغة الجامعة مفصولٌ فيها، وعليها تتركّز كلُّ النّشاطات الاقتصادية، وتقع عليها التّنمية الشّاملة التي تأتي بالنّفع العامّ، وتفضي إلى تنمية القدرات الذهنية وترفع من المستوى التّعليمي والخبرة والثّقافة والوعي. وبذلك فعلَ الفرنسيون فعلاً نبيلاً، وعلى مدار العقود السّالفة بالتّركيز على:

ــ رأسمال بشري: استثمار في البشر عن طريق التّربية والتّعليم؛

ــ رأسمال معرفي: عن طريق الاستثمار في التِّقانات والمُنتجات؛

ــ توطين المعرفة: وهذا بالابتعاد عن استيراد التكنولوجيا إلاّ لدواعٍ جدّ دقيقة؛

ــ تماسك المجتمع: وقد استغلوا هذا على مستوى التّعليم بكلّ فروعه لا يكون إلاّ بالفرنسية، والإعلام الذي يعضد المجتمع في نشر لغته، والمحيط ككلّ يعمل على حسن استعمال اللّغة الفرنسية.

2/1 ــ تعميم الفرنسية في الداخل: وهكذا كان الفرنسيون يفعلون ويقولون: ليس هناك من وسيلة لتعميم المعرفة، وتطوير سلوك المجتمع الفرنسي إلاّ باستعمال اللّغة الفرنسة/ اللّغة الوطنية/ لغة الأمّة. وكما يقولون كذلك بأنّ التّنمية لا تحصل إلاّ بتماسك اجتماعي، والمجتمع المُنسجم لغوياً هو الأقوى وغير المُنسجم يُصبِح مُنحلاً، ويُساعد على خلق جوٍّ من التّبعية. وكلّما حدث انسجامٌ وتناغمٌ بين النّاس ازداد تحقيق التّنمية والوحدة اللّغوية، وارتفعت نسبةُ الانسجام المجتمعي. والمجتمع المُنسجم لا بدّ أن تجمعه **لغةٌ واحدةٌ**؛ لأنّه من الصّعب تحقيق تنمية شاملة ونهضة علمية في مجتمع مُتعدّد اللّغات، وكذلك لا يمكن أن يكون في المجتمع لغات وطنية لها نفس المقام للغة المُوَحِّدَة ويرون بأنّه لا بدّ من وضع تراتُب لغوي بينها، فلا يمكن أن تقعَ التّسويُة بين لغة لها تاريخ وحضارة وإرث علمي، ولغة لا تاريخ لها فإذا قبلنا بهذا؛ فإنّنا لا نُقيم فَرْقاً بين وزن **البعوضة والفيل**، أو **بين البطّ والبطيخ**. وإنّه لا يمكن أن نتصوّرَ بأنّ التّعدّديةَ اللّسانيةَ تحصل من ورائها صراعات في

فضاء الاستعمال، ألا يخلقُ الإثنياتِ من العَدَم، ألا تتصارعُ اللّغاتُ في الإدارات والمَحال والسّاحات العامّة؛ لأنّه لا يمكن أن يُعطى لكلّ اللّغات نفس الحقوق والمساحات، وكما يقول (Jean Louis Calvet جان لوي كالفي) هناك اللّغة الفيل La langue éléphant واللّغة الذبابة La langue moustique ولهذا لا يمكن التّسوية بين اللّغات بتاتاً؛ حتى لو كانت من اللّغات الرّسمية في بلد واحد.

3/1ــ المحافظة على التّراتب اللّغوي: يرى الفرنسيون بأنّه من العلمية أن تنزل كلّ اللّغات منزلتها حسب مقامها في المجتمع فقط، ومن يُروّج للتّساوي بين اللّغات الوطنية، فهو يُروّج لديماغوجية عمياء بعيدة عن الواقع؛ حيث اللّغات ليست على درجة واحدة من الكفاءة والتّجربة، وبالتّالي ليست كلّ اللّغات صالحة للقيام بكلّ الوظائف. ولذا وقع تركيزهم على **اللّغة الجامعة** المفروضة؛ وهي التي تُمثل المشترك المجتمعي؛ بناءً على تراكمات حضارية وتاريخية، وتتوفّر على الاستجابة للهُوية والتّنمية. وهذا ما يُلمس كذلك في الولايات المتّحدة الأمريكية التي هي مُتقدّمة جداً، فنجد الخمسين (50) ولاية لها لغة مُشتركة، ولا جدالَ فيها، ولم ينصّ عليها الدُّستور، فهي **لغة الفيل** ولغة الأقوى من بين اللّغات المحلية للمهاجرين من مختلف القوميات، ولم تضع أمريكا المسألةَ اللّغويةَ مَحلّ مُناقشة أو تداول، والكلّ يسير بصورة عفوية ضمن إطار قوّة الدولة الأمريكية بقوة لغتها الإنكليزية "... إنّ دستور الولايات المتّحدة وقوانينها لا تنصّ على رسمية اللّغة الإنجليزية، ولكن مكانة اللّغة وقوّتها لا تستمدان من نصوص التّشريعات بقدر ما تنبعان من الممارسة والفعل وسياسة الدّولة اللّغوية المُعلنة أو المُضمرة؛ فمنذ سنة 1906 وحتى اليوم يتطلّب منْح الجنسية الأمريكية من المرشّح مهارة معيّنة في استعمال اللّغة الإنجليزية. وأنّ الحكومة الأمريكية تنفق سنوياً مبلغ 1,5 بليون (ألف وخمسمائة مليون) دولار على التّربية اللّغوية؛ يُخصّص معظمه لإحلال اللّغة الإنجليزية محلّ لغات الأقليات. ومن نتائج ذلك مثلاً؛ أنّ لغات الهُنود الحُمر آخذة في الانقراض؛ بحيث لم يبق منها حالياً إلاّ نصفها، ويتوقّع المختصّون أنّه من

خلال الخمسين سنة القادمة لا يبقى منها على قيد الحياة سوى 20 لغة[1]". وهذا المثال حيّ تقوم به أمريكا دون التّنصيص على الرّسمية، وتحصيل حاصل بأنّ اللّغة الوطنية فوق كلّ القوانين. وفي مقام آخر يمكن أن تحصل التّنمية باللّغة الأجنبية، ولكن لا يحصل النّهوض، ولا يحصل التّكافؤ الوطني بل تسود النّخبويةُ وهذا ما هو حاصل في الهند التي تعمل باللّغة الإنكليزية فمع ما تملك "أكبر نظم التّعليم العالي في العالم، إذ إنّ عدد جامعاتها أكثر من 600 وعدد كلياتها يتجاوز 33000 وهي تُوفّر التّعليم لأكثر من 20 مليون طالب. بيدَ أنّ النّسبةَ المئويةَ للهنود الذين هم في سنّ الانتساب إلى الكليات والذين يُتابعون دراستهم بعد إنهائهم المرحلة الثّانوية مُنخفضة مُقارنة بعددهم في دول أخرى. وإنّ نسبة إجمالي المُسجّلين في التّعليم العالي تُعادل في الهند 17,9 في المئة، وفي الصين 26,8 في المئة، وفي الولايات المتّحدة 94,8 في المئة[2]" ولماذا هذا الانخفاض في الهند، ولم يكن يحدث في الصين مثلاً؛ وهي أكثر من الهند سُكاناً؛ لأنّ الهند تُدرِّس بلغة غير لغتها، فالتّعليم عندها نُخبوي، ولغته غير الهندية، عكسه في الصين والولايات المتّحدة، فهو تعليم وطني، وباللّغات الوطنية، وتكاد تنعدم النّخبوية إلاّ في إطار التفوّق الذي يُسجّله المخترع أو الباحث مهما كانت أصولُه.

ونعود إلى فرنسا؛ حيث يرى الفرنسيون بأنّ الفرد كلّما زاد رصيده المعرفي نمواً واتّساعاً في لغته؛ ارتفع نصيبُ لغته في الداخل وفي الخارج؛ لأنّ الرأسمال المعرفي يُقدَّر بنمو التّعليم والثّقافة والوعي، وهذا النّمو لا يتحقّق إلاّ عن طريق اللّغة الوطنية المُشتركة القادرة على تعميم التّعليم، وإنتاج المعرفة، ونقلها وتبسيطها وتوطينها، وتعميق جذورها في المجتمع. ويرى الفرنسيون كذلك بأنّ المعرفةَ لا

---

1 ــ علي القاسمي، السّياسة الثّقافية في العالم العربي. بيروت: 2012، مكتبة لبنان ناشرون، دار صايغ، ص 82.

2 ــ مؤسّسة الكويت للتّقدّم العلمي، مجلة العلوم. الكويت: 2015، المجلد 31 العدد: 2/1، ملف (التّعليم في العصر الرقمي) ص 13.

تُستورد، بل يمكن استيراد بعضها، وما دام أنّ العلم لا يُستورد كلُّه، فإنّه عالةٌ على الآخرين، أو في حُكم غير الموجود. فالمعرفة إذاً تُستنبتُ في بيئتها، وفي عقول أبنائها، أضف إلى ذلك أنّهم يُدركون بأنّ استيراد المعرفة جدّ مُكْلِف، والمَعرفة مُتطوّرة، ومُوزّعة على كثير من اللّغات والبلاد، فأيّة معرفةٍ تُستورَد؟ ومن أيّة لغة؟ ومن أيّ بلد؟

4/1 ــ تدريس الفرنسية في الداخل: لقد ركّز الفرنسيون على التنمية البشرية والتي لا تكون بغير الفرنسية، ومن هنا، فهم يدرّسون الفرنسية لأولادهم، ولغير أولادهم. ركّزوا على هؤلاء البشر الذين يُولِّدون المعرفةَ، ويستنبتونها في بيئتها الفرنسية لا غير، ولا يعني إعلان القطيعة في استيراد المعرفة، بل أن يحصل النّقل بصورة سطحية، وفي الأمور التي هي من التّقانات الاستعجالية. وكذلك فعلوا وما يزالون يفعلون، فنجحت تجربتهم، بل كانوا نماذج في استنبات العلم في بيئتهم الفرنسية التي كانت مهد ثورة/ حضارة البخار.

2ــ **مَسَار الخارج؛** الفرنسيّةُ لغةٌ علميّةٌ يجب أن يكونَ لها الحضور في الخارج، وتنال التّوسّعَ والانتشارَ في كلّ القارات؛ وذلك هو الضّمان لأن تكون لغةَ العالم والعِلْم، ولا يحصل لها ذلك إلاّ بتضافر مجموعة عوامل مُتعاضدة ومُتداخلة؛ بدءاً من التّخطيط اللّغويّ والتّربويّ الذي عَلِقَ بذهن النّخبة الفرنسيّة، إلى تلك

العوامل المُكمِّلَة: الاقتصاديّة، القانونيّة، السياسيّة الاجتماعيّة، الثّقافيّة... فأضحت الفرنسيّةُ لغةً عِلميّةً بامتياز. وإليكم بعض التّفصيل في هذه العوامل المُتكاملة التي أوصلتْها إلى موقع العلميّة والعالميّة:

1/2ــ تأسيس قطب عالمي باسم (الفرنكفونية) وإعطاء تسييره الداخلي للفرنكوفونيين. ويكون الرئيس الفرنسي دائماً هو الرئيس الشرفي.

2/2ــ تأسيس شبكة المدارس الفرنسية في الخارج، وفي المقاطعات والأقاليم ما وراء البحار.

3/2ــ إجراء دورات تدريس الفرنسية في الخارج في كلّ البلاد التي تطلب ذلك.

4/2ــ استقطاب مُبدعي الدول التي نالَها الاستعمارُ الفرنسي؛ باستثمار إبداعهم في مجال الفرنسية على أنّ لها الامتداد في المكان.

5/2ــ الإغداق المادي على كلّ من يتشبّع بفكر اللّغة الفرنسية، واستقطابه في المُؤسّسات الفرنسية، ومَنْحِه بعض الأوسمة أو الألقاب العلمية.

6/2ــ إعطاء الأولوية لتلك الفئات الطلابية التي كوّنتها في بلادها، أو في البلاد المستعمَرَة، والذين أبْدَوْا استعداداً لقبول فكر التشيّع لفرنسا الأمّ.

6/2ــ فتْح المراكز الثّقافية في كلّ العالم، والعمل على تدريس الفرنسية في أقاصي الكرة الأرضية، ولا تهمّ الكتلة المادية مهما ارتفعتْ.

8/2ــ تمجيد التّربويين الأجانب/ الفرنكفونيين الذين يبحثون في الطّرائق الجديدة لتعليم الفرنسية لغير أهلها.

9/2ــ تجنيد وسائل الإعلام والقنوات الخاصّة من أجل هدف واحد وهو نشر الفرنسية خارج حدود فرنسا.

10/2ــ منح جوائز بأسماء المُبدعين الفرنكفونيين، لكلّ كم يبحث في الأدب الفرنسي، أو يُبدع في الفرنسية.

11/2ــ ترشيح رجال الفرنكفونية إلى جوائز عالمية من مثل: أوسكار – جائزة رئيس الجمهورية الفرنسية – عضوية الأكاديمية الفرنسية...

وإذا جاز لنا أن نتوقّف قليلاً، فإنّه لا بدّ من التأكيد على دور شبكة تعليم الفرنسية في الخارج، وتُعَدّ النموذجَ الناجحَ؛ حيث نجد فيها أكثر من (480) مدرسة ابتدائية ومتوسطة وثانوية؛ موزّعة في (130) بلداً، وتضمّ زهاء ثلاثمائة وعشرة آلاف (310000) تلميذ، من بينهم مائة وخمسة عشر ألف (115000) تلميذ فرنسي، وقرابة ثلاثة عشر ألف (130000) خريج حاصل على الشهادة الثانوية كلّ سنة، وأزْيَد من ستة آلاف وخمسمائة (6500) موظف مثبّت في جهاز التّعليم الوطني من المُغتربين أو المُقيمين، وعشرين ألف (20000) موظف بموجب عقد توظيف محلي، وخمسين (50) لغة أجنبية يتمّ تدريسها. وتقدّم هذه المدارس تعليماً فرنسياً وفقاً لمعايير التّعليم الوطني. كما تقوم هذه المؤسّسات المؤهّلة على قيم شاملة ومنها التّسامح والانفتاح والإنسانية وتكافؤ الفرص وتنمية الروح النّقدية وغيرها. كما تُهيئ هذه المُؤسّسات التلاميذَ لنيل شهادة المرحلة المتوسّطة والشهادة الثانوية. كما يتيح التواصل التّربوي للتلاميذ داخل الشبكة الانتقال في أية مرحلة تعليمية من مؤسّسة مؤهّلة إلى مؤسّسة مؤهّلة أخرى عامّة أو خاصّة، خاضعة لوزارة التّعليم في فرنسا دون تقديم امتحان دخول. وتعمل هذه الشبكة على تسهيل انتماء المدارس الابتدائية والمتوسّطة والثانوية الفرنسية إلى شبكة دولية حيّة وانفتاحها على التنوّع الثّقافي واللّغوي في تعزيز هذه المؤسّسات، فتقدّم تعليماً مُثرياً على نحو خاصّ.

وهكذا نرى هذه الشبكة المتنوّعة الجذابة المنفتحة، وكأنّي بها تريد تجسيد تلك القداسة للغة الفرنسية الحالية التي تُعرف بلغة النّخبة في بلدان أوروبا ولغة وظائف المجال الدبلوماسي، عند تلاك الشعوب التي استقلت من الفرنسية؛ إلاّ أنّ سلطة اللّغة لم تستطع الخروج من هيمنتها. إنّ شبكة اللّغة الفرنسية كبيرة ومَهُولة، ونجد فيها كلّ هذا العدد وهم من المغتربين الذين تستقطبهم من كلّ القارات، وبهم تفتخر فرنسا بما تملك من هذه الجيوش الخارجية؛ حتى أصبحت لغتُها يتحدّث بها حوالى مئتي مليون (200) شخص في العالم كلغة ثانية مكتسبة بجوار لغتهم الأصلية؛ وتنتشر دراسة اللّغة الفرنسية في العديد من الدول على نطاق واسع، وتعتبر أبرز الدول المستعملة للغة الفرنسية بعد فرنسا كل من: كندا، بلجيكا، سويسرا لكسمبورج، موناكو... إضافة إلى الكونغو في إفريقيا، وينتشر عدد المتحدثين باللّغة الفرنسية سواء كانوا ناطقين أصليين بها أو يتحدّثونها كلغة ثانية في خمسة وأربعين (54) دولة في العالم؛ مما يجعلها ثاني أوسع اللّغات انتشاراً في العالم بعد اللّغة الإنكليزية.

وأما مقام الفرنسية في بلاد ما وراء البحار، فلا تزال في عنفوانها في بعض الدول وفي المقاطعات والأقاليم départements d'outre-mer /territoires d'outre-mer أو (DOM-TOM وهي مجموعة من الأقاليم المختلفة تحت الإدارة الفرنسية خارج القارة الأوروبية. وتختلف هذه الأقاليم أو التّجمعات السكانية من حيث النّظام القضائي، ودرجة الحُكم الذاتي فيها، بينما جميعها تشترك بوجود ممثلين لها في البرلمان الفرنسي (ما عدا المناطق التي لا يوجد بها سكان دائمين) ولها الحقّ في اختيار مرشحي البرلمان الأوروبي. تشمل المقاطعات والأقاليم ما وراء البحار الفرنسية على جزر في المحيط الأطلسي والهادي والهندي، وإقليم في شاطئ أمريكا الجنوبية، كما تشمل على جزء من أنتاركتيكا، وبعض الجُزر

المُحيطة بها. و"يبلغ سكان هذه المناطق حوالي 2,624,505 في يناير 2009. وتختلف الأقاليم والمقاطعات من وجهة النظر القانونية والإدارية، فتطبّق أحكام الدستور والقوانين الفرنسية (القانون المدني، قانون العقوبات، والقانون الإداري والقوانين الاجتماعية وقوانين الضرائب) في المقاطعات الناطقة بالإنكليزية : Department كما هو الحال في البرّ الفرنسي الرئيسي، ومع ذلك يمكن تكييف بعض القوانين والأنظمة المحدّدة في وضع المقاطعات الخاصّة. أما في الأقاليم ما وراء البحار الفرنسية والإنكليزية Territories : فالمبدأ هو عكس ذلك، حيث تحكم تلك الأراضي قوانين الحكم الذاتي التي تسمح لها وضع قوانينها الخاصّة بها مع وجود استثناءات في مجالات محدّدة (مثل الدفاع، والعلاقات الدولية والتّجارة الدولية، والعُملة، والمحاكم والقانون الإداري) على النّحو المنصوص عليه في النظام الأساسي للحكم الذاتي[1]" بالإضافة إلى كلّ ما تقوم به فرنسا من أجل فرض الفرنسية أمام الاتّحاد الأوربي، بجوار ما تعرفه من صراعات في نيل المراتب الأولى في الاتّحاد الأوربي، رغم ما تعرفه من تقهقُر أمام: الألمانية والإسبانية. وهذا كلّه بيان على الاهتمام الذي تبذله الدولة الفرنسية للغتها في فرضها على المهاجرين، على من يستفيدون من شروط الإدماج وأهمّ شرط في وقتنا الحالي هو إتقان اللّغة الفرنسية.

وعلى العموم، فإنّ مسارَ الاهتمام بالفرنسية في الخارج مُتعدّد، ويتمّ كلّ ذلك وفق تخطيط قديم مُستحدث؛ تُراعي فيه الأبعادَ التوسّعية للغة الفرنسية: البُعد المكاني، والبُعد الزماني، وسنّ القوانين، وخلق النظريات، مع اعتماد طول النفس لنيل المرغوب.

---

1 ــ معلومات مُستقاة من موقع google، بتاريخ 17 أكتوبر 2015 (بتصرّف).

وفي ظلّ هذا المسار تعمل الأكاديمية الفرنسية على تنشيط حركات توسيع الفرنسية بحمايتها من اللّغات الأخرى، وتسنّ سلسلة من النظريات التّعليمية الميسّرة، وتنتج تلك الكتاب التعليمية، ويتمّ توزيعها في العالم بالمجان، والمهمّ في كلّ ذلك هو أن تنال الفرنسية مواقع ثابتة، إن لم تكن لها الصدارة. بالإضافة إلى تلك النشاطات الإنتاجية التي تقوم بها كلّ المؤسّسات الفرنسية في صالح لغة الفرنسيين في الترجمة، وفي إقامة الندوات، وفي تنشيط حركات التبادل الثقافي وفي تمكين المكتبات في العالم من الحصول على المنتوج اللّغوي الفرنسي بالمجان، وكذلك ما تعرفه مراكز التعليم المكثّف للفرنسية من حراك لا ينقطع في أيام العمل أو في العُطَل.

1ـ تحديدات لغوية في معاني: لغة الأمّة

سبقَ لنا أن فصّلنا الأمر في هذه التّحديدات[1]، ولكن مُتطلّبات هذا الكتاب يستدعي منّا بعض الإعادة المُقتضبة لتوضيح المفاهيم، والوقوف عند بعض المصطلحات ذات العلاقة **بلغة الأمّة**، ونتداولها في ظاهرها صواب، وفي مدلولها خطأ، بل هناك من يلعب على وَتَرِ السامعين بتلك المُصطلحات، وهي لا تعني المدلول الحقيقي. كما نجد تفريعاتٍ كثيرةً عن هذا المصطلح الذي قد يأخذ مفاهيمَ إضافيةً عند بعض الباحثين. وفي هذا المقام، نريد استعراض مصطلحات ذات العلاقة؛ بُغية الوصول إلى تحديد علمي في معاني ومُتفرّعات مُصطلح: **لغة الأمّة.**

1/1ــ لغة الأمّة عند الفرنسيين: كان منطلقهم في البداية من منطلق الغربيين الذين يعبدون لغتهم، فهذا (فيخته) يقول: إنّ الذين يتكلّمون بلغة واحدة يشكّلون كياناً واحداً متكاملاً ربطته الطبيعة بوشائج متينة وإن تكن غير مرئية. وهذا (هيردر) يقول: "إنّ قلب الشعب إنّما ينبض في لغة الشعب، وروح الشعب تكمن في لغة أسلافه، وهي الوعاء الذي استودعه الشعب كلّ ما أنجزه من نفائس الفكر وذخائر الأعراف والفلسفات والعقائد[2]". وبذا نرى التركيز على المقوم الأساس في لغة الأمّة هي لغة الشعب، وهي لغة الهوية، ففي بوتقتها ينصهر الاعتداد بالذات الحاضرة، مع الاعتزاز بالانتماء إلى روح الماضي، ومن خلالها يجري تشكيل المستقبل. هي تلك اللّغة الجامعة التي أجمعت عليها الأمّة الفرنسية من حيث هي لغة Etat-Nation منذ عهد الملوك، ومن ثمّ أضيف لها من جسّده اليَعاقبة من إضافات، وبها عملوا على تأسيس دولة مُستقلّة عن سلطة الكنيسة. وفي أثناء

---

1 ــ ينظر كتابنا، علم اللّغة النّفسي. الجزائر: 2008، دار هومة للطّبع والنّشر والتّوزيع.

2 ــ ع/ فيصل الحفيان "اللّغة والهُوية إشكالية المفاهيم وجدلية العلاقة" مجلة التسامح. عُمان: 2004، العدد 5، ص 52.

التطاحن الحاصل في أوربا جسّدوا مصطلح الدولة– الأمّة، بناءً على خروجهم عن العرف اللّغوي من اللاتينية القديمة، وعدم الإقرار بلغة الإيطاليين التي كانت لغةَ العلوم في القرون الوسطى، وهذا بمسار تجسيد لغة الملوك والنّبلاء التي تختلف عن اللاتينية، وترفض التّطابق مع الإسبانية والإيطالية، باعتبارهما من اللّغات المنبثقة عن اللاتينية القديمة. وجاء كلّ هذا في إطار الحَرَاك الذي عرفته الدول الأوربية في البحث عن **تجسيد القوميات الوطنية**. وكان شعار هم التميّز والفرادة.

إنّ الفرنسيين وظّفوا مصطلح (الأمّة الفرنسية) ضمن دعوتهم الإصلاحية الشاملة، وضمن ما عرف في ما بعد مرحلة التأسيس بالدعوة إلى فكرة (فرنسا الكبرى) وتردّدت هذه المقالات عند عظماء الفرنسيين في إطار العصبية الغربية لإذعان كلّ النفوس لمنطق عظمة فرنسا. وهذا بتوظيف عصبية الجنس والدعوة إلى التميّز العرقي. وإنّ هذا المفهوم وجد أنصاراً ودعاة، واتَّضح أكثر في كتابات الفرنسيين الداعين إلى الاحتكام إلى الوطن والوطنية، وحقّ الشعب قدره، وإلى سلطة السياسة في بُعديْها: الروحية والزمانية. ولا يخفى أنّ الأمّة الفرنسية لها سلطتان لا يتمّ نظام الاجتماع بدونهما، ولا تحصل السعادة إلاّ بهما، بل لا تتكوّن الأمم والشعوب إلاّ بإحداهما أو كلتيهما؛ لأنّ معنى الشعب/ المجتمع أو الأمّة المتمدنة، أفراد من صنف واحد، وأصناف متعدّدة تجمعها وتضمّها رابطة توحّد المتعدّد بوحدة الاعتقاد والعمل، أو وحدة الحكم والنظام ولا معنى للسلطتين إلاّ بما به قوام هاتين الوحدتين من القوانين الاعتقادية والأدبية، والشرائع العملية والقضائية. وهذا ما يظهر في وقتنا الحالي بأنّ الأمّة الفرنسية هي تلك الأمّة التي تنسب للوطن، أفراده الذين ربطتهم ذكريات الماضي، ومصالح الحاضر، وآمال المستقبل. والنّسبة للوطن توجب احترام علم تاريخه والقيام بواجباته من نهضة علمية، واقتصادية، وعمرانية والمحافظة على شرف اسمه، وعلوّ مقامه. فمن لا يحافظ على شرف وطنه ولا سمعة لمن لا سمعة لأمّته.

ومن خلال فِعل الفرنسيين نرى التأكيد على اللّغة الجامعة، وهي المحور الرئيس لصراع الوجود وصراع الهويات، فبقاء لغة الأمّة حيّة للأمّة وهويتها واندثار اللّغة هو اندثار للأمّة وحضارتها، فصراع اللّغة هو صراع البقاء والفناء. ولا يتجسّد إلاّ عبر الاعتزاز باللّغة؛ وهو اعتزاز بالوطن. فاللّغة انعكاس مباشر لجذور المرء عبر التاريخ بما فيها من آلام وآمال، وبما كان أو يكون من انتصارات أو انكسارات. ومنها وبها تستمدّ الشعوب حياة القلوب والعقول، وكأنّنا بهم يذكروننا بقول من يقول: "وما ذلّت لغة شعب إلاّ ذلّ ولا انحطّت إلاّ كان أمرها في ذهاب وإدبار، ومن هنا يفرض الأجنبي المستعمر لغته فرضاً على الأمّة التي يستعمرها ويركبهم ويشعرهم عظمته فيها ويستلحقهم من ناصيته، فعليهم أحكاماً ثلاثة في عمل واحد. أما الأوّل فحبس لغتهم في لغته سجناً مؤبّداً، وأما ال ثاني فالحكم على ماضيهم بالقتل محواً ونسياناً، وأمالا الثالث فتقييد مستقبلهم في الأغلال التي يصنعها فأمرهم لأمره تبع[1]". ذكرنا هذا ليعلم القارئ أنّ فرنسا أرادت التنصّل عن الإيطالية والإسبانية فعملت على التميّز بلغاتها التي تعود جذورها إلى **السلتية** وتفتخر بها أفضل من اللّغة الأمّ وهي اللاتينية القديمة. ومن ذلك لا يحصل لها التميّز الهامّ إلاّ بما تكسبه من مستعملين، ولا يكون ذلك إلاّ عن طريق الاستعمار اللّغوي الذي يأخذ مجاري كثيرة. وهي همّة فرنسية قديمة ولا تزال، وتورّث للفرنسيين مهما اختلفت رؤاهم، ولكنّها تلتقي في **الفرنسية المعبودة.**

فإذا استنطقنا هذه الهمّة الفرنسية تجاه مفهومها للوطن/ الأمّة، نقرّ بأنّه يعبدون الوطنية الفرنسية، ويُنزلونها منزلة عالية، ويرتّبونها رتبة ذات دعامات شاملة وهذا ما يمكن أن يجدها الإنسان في صورته وخيره وسعادته في بيته ووطنه الصغير، وكذلك يجدها في أمته ووطنه الكبير، ويجدها في الإنسانية كلّها وطنه

1ــ هاني إسماعيل محمد "دور تعليم اللّغة العربية لغير الناطقين بها في ترسيخ الهوية العربية رؤية استشرافية" مجلة آفاق الثقافة والتراث. الإمارات العربية المتحدة: 2015، مركز جمعة الماجد للثقافة والتراث، العدد الحادي والتسعون، ص 40.

الأكبر. وإذا كانت الأمّة/ الوطن عند الفرنسيين هي الصورة الشاملة للوطن والمواطن، وعلاقته بوطنية وبالساكنة، فإنّ مفهوم الأمّة عن الجزائريين تجاوز هذين البُعدين.

2/1ــ مفهوم لغة الأمّة عند العرب: يمكن تحديد (لغة الأمّة) من منظورنا الحضاري؛ حيث وردت كلمة (أمّة) في القرآن الكريم (49) مرّة، منها (43) آية مكية، والبقية مدنية، كما وردت كلمة (أُمَم) (11) مرّة منها (10) آيات مكية، وآية واحدة مدنية، مع ملاحظة أن لفظ (أمّة) في الآيات المكية إنّما يعود إلى الأمم الكافرة التي كذبت أنبياء الله ورسله قبل الإسلام، وقد ورد ذكرها من باب العظة والاعتبار لمشركي قريش كما في قوله تعالى: ﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَعْدِهِمْۖ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍۭ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُۖ وَجَٰدَلُواْ بِٱلْبَٰطِلِ لِيُدْحِضُواْ بِهِ ٱلْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْۖ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴾ غافر 5. وعلى العموم، فإنّ كلمة (أمّة) جاءت في القرآن الكريم بمعانٍ متعددة. ولا نجد في القرآن الكريم كلمةَ (الأمّة) بصيغة التّعريف بـــ (أل). وإليكم بعض النّماذج للآيات الحاملة كلمة (أمّة):

﴿ رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ البقرة 128

﴿ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْۖ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْۖ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ البقرة 134

﴿ كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُواْ فِيهِۚ وَمَا ٱخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ بَغْيَۢا بَيْنَهُمْۖ فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَا ٱخْتَلَفُواْ فِيهِ مِنَ ٱلْحَقِّ بِإِذْنِهِۦۗ وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ البقرة 213

﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ آل عمران 104

﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ ۗ وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم ۚ مِّنْهُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴾ آل عمران110.

وتفيد المعاني التي تحملها الآيات دلالة: الدين/ الإمام/ الزمن/ العُصبة/ المجموعة/ الجماعة/ القوم... وبذلك يمكن القول إنّه ليس هناك معنى محدّداً لكلمة (أمّة) بل وحتى لو قبلنا الوجه الجماعي كمعنى لهذا المصطلح، فليس من السهل اعتباره معنًى سياسياً؛ نظراً لعدم تحديد هوية هذه الجماعة أو مدى اشتراكها في صفات معيّنة أو لغة مثلاً. وقد أشار القــرآن الكــريم إلى العرب على أنّهم أمّة ﴿ كَذَٰلِكَ أَرْسَلْنَٰكَ فِىٓ أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهَآ أُمَمٌ لِّتَتْلُوَا۟ عَلَيْهِمُ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِٱلرَّحْمَٰنِ ۚ قُلْ هُوَ رَبِّى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ ﴾ الرعد 30. كما ميّز القرآن أمّة المسلمين من غيرها من الأمم. والذي يهمّنا من وراء هذا؛ البحث عن عناصر تكوين الأمّة باعتبارها هي الجامع المجتمعي والممثّلة في **وحدة المعتقد، وحدة الهدف، وحدة السلوك**. وهذه من الوحدات التي تعمل على الانسجام التامّ بين أفراد الأمّة، ومن هنا، فإنّ معنى (الأمّة) تختلف عن مفهوم (الشعب) أو (المجتمع) ولذلك هناك من يضيف أبعاداً أخرى لمكوّنات الأمّة. وكنا نريد أن نستعرض للقارئ كلاماً جيّداً بهذا الخصوص للباحث (مخلص الخطيب) الذي كتب مقالةً في خصوص معنى الأمّة، وقد دفعه انتماؤه المخلص إلى العروبة... وتوصّل إلى أنّ لفظة (الأمّة) تحمل معاني ستّة تطلق بمعناها المتداول في أيامنا هذه، وهي:

"1ــ معنى المدة الزمنية في مثل قوله تعالى ﴿ولئن أخّرنا عنهم العذاب إلى أمّة معدودة ليقولنّ ما يحبسه﴾ هود 8. وفي مثل قوله تعالى ﴿وقال الذي نجا منهما وادّكر بعد أمّة أنا أنبئكم بتأويله﴾ يوسف 45.

2 ــ معنى الرجل العظيم الذي يعتبر وحيد عصره، في مثل قوله تعالى ﴿إنّ إبراهيمَ كان أمّةً قانتاً لله حنيفاً ولم يكُ من المشركين﴾ 120 النحل.

3 ــ معنى الجمهرة من الناس الذين لا يتجاوز عددهم العشرات، وذلك في مثل قوله تعالى ﴿ولما ورد ماءَ مدين وجد عليه أمّة من الناس يسقون﴾ القصص 23.

4 ــ معنى المذهب العقدي المشترك أو العادة الموروثة المتبعة لدى جماعة من الناس، وذلك في مثل قوله تعالى ﴿إنا وجدنا آباءنا على أمّة وإنّا على آثارهم مُهتدون﴾ الزخرف 22.

5 ــ معنى الجماعة التي تشترك في صفات واحدة أو في أصل واحد، وقد تكون من الحيوانات والطيور كما هي من البشر، وذلك في مثل قوله تعالى ﴿وما من دابة في الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلاّ أمم أمثالكم﴾ الأنعام 38.

6ــ معنى الجماعة من الناس الذين يجمعهم فكر واحد وعقيدة واحدة مشتركة تتغلغل في سلوكهم فتخلق لديهم عادات وتقاليد مشتركة نابعة من فكرهم العقدي المشترك، بِغَض النظر عن أصولهم العرقية، وذلك في مثل قوله تعالى ﴿كنتم خيرَ أمّة أُخرجتْ للناس تأمرون بالمعروف وتنهوْن عن المُنكر﴾ آل عمران 110".

ويشير الباحث (مخلص) أثناء شرحه هذه المعاني الستة للفظة (الأمّة) حيث "نجد فيها ما يشير إلى النظرة الواحدة المشتركة... وآيات تمدح الأمّة الإسلامية بما فيها من أخلاط كثيرة من أصول عرقية متعددة؛ يجمعها الفكر الإيماني الواحد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. وأيّ نظام سياسي واجتماعي وثقافي أعظم من نظام مبنيّ على أساس الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؟ وفي كلّ ذلك يحصل باللّغة التي يحصل فيها نقل مفاهيم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وهي لغة القرآن الكريم". والذي يهمّنا في هذا المجال، **هل اللّغة عنصر من عناصر تكوين الأمّة؟** وهذه النقطة التي نريد شرحها؛ لأنّ المجتمعات المتماسكة تربط بين اللّغة والأمّة؛ فالأمّة واللّغة أمران متلازمان، والذين يتكلّمون اللّغة الواحدة تربطهم قوانين الطبيعة بروابط عديدة، فتجعل منهم وحدة غير قابلة للانفصام، وتقوم أساسًا

على دعائم أساسية أهمها: وحدة الفكر والعقيدة التي تصنعها وحدة اللّغة، بجانب وحدة الضمير والوجدان ويصنعه وحدة التاريخ" وهذا ما يتجسّد في فكر الإصلاحيين المعاصرين من أمثال (رشيد رضا) "الذي يؤكّد العلاقة الوطيدة بين اللّغة وواقعها الاجتماعي؛ إذ اللّغة تحيا بحياة الأمّة، وحياة الأمّة إنّما تكون بعلُومِها وصناعاتها عبر اللّغة كأداة للتواصل، والاشتغال بلغة الأمّة وآدابها فضيلة في نفسه ومادة من مواد حياتها، ولا حياة لأمّة ماتت لغتُها، ولذا كان جميع من دخل في الإسلام يشعر بأنّه صار أخًا لجميع المسلمين، وأنَّ أمَّته هي الأمّة الإسلامية، لا العربية ولا الفارسية ولا القبطية ولا التركية. ومن هنا، فإنّ (رشيد رضا) يشير إلى أنّ معرفة العربية من ضروريات معرفة الإسلام؛ لأنّ الله أمرنا أن نتدبّر القرآن الذي لا تقوم معجزتُه وحجّته إلاّ بفهمه، ولا يمكن فهمه إلاّ بفهم العربية الفصحى، وما لا يتمّ الواجب إلاّ به فهو واجب". ولذا من البديهي أنّ وحدة الأمّة العربية لا تتمّ إلاّ بوحدة **اللّغة الجامعة**، وهي لغة الأمّة العربية، ولغة دينها الحنيف، فهي واجبة، بل هي المُعبّر عنهم، وهي لغة العُصبة والجِنسية والتميّز والبقاء، ولهذا كان يجتهد مسلمو العجم في خدمة هذه اللّغة، ويعدّونها لغتهم؛ لأنّها لغة القرآن التي تقوم بها حجّته، وهم من أمّة القرآن كالعرب دون فرق. ومن هنا نقول كما قال (حسين يازيجي) بأنّنا خسرنا مرتين: مرّة حين تخلّت الدولة العثمانية عن العربية، ومرّة حين احتوى الحرف الأجنبي اللاتيني كتابة اللّغات الآسيوية. فقد خسرنا لغات راقية، وخسرنا جيوشاً من الناطقين بها، فهم يشكّلون الآن ثقلاً كبيراً بشرياً كبيراً في العالم، فماذا نقول في تلك البشر في: ماليزيا والهند وبنغلاديش وإندونيسيا. ولا يعني هذا كلّه الدعوة إلى العصبية العربية، أو إلى عصبية الجاهلية وهي محرّمة، وقد منعها الإسلام، وشدّد في منْعها، بل يعني ذلك العمل على توسيع العربية وإعادتها إلى عصر إشعاعها وانتشارها في العالم. وها هي بعض النعرات تستغلّ ضعف العلم والدين في المسلمين بضعف اللّغة العربية، حتى قام بعضُ الأعاجم في هذه السنين الأخيرة يدعون إلى ترجمة القرآن بلغتهم والاستغناء عن

القرآن العربي؛ زاعمين أنّ الإسلام دين ليس له لغة، وغلا بعضُ هؤلاء في بُغْض العربية، فدعا مسلمي قومِه إلى الأذان والصلاة والخطبة بلُغتهم، وقد أجمع المسلمون بالعمل على إقامة هذه الشعائر الإسلامية بلغة الإسلام العربية إلى اليوم... وهذه كلّها من الأمور التي لا تمتّ للعربية أو للعرب بصلة، والمهمّ في الأمر أنّ الرابط بين **الأمّة هو اللّغة**. ولذلك نرى لزوم تعلّم واستعمال العربية للمحافظة على مصطلح (الأمّة العربية). ولهذا نجد السلف الصالح يقيمون الحجّة على **وجوب تعلّم العربية**، فهي من الدين وكانوا يحذرون الدولتين التركية والإيرانية من عاقبة ترك اللّغة العربية، وعاقبة مردود ذلك على الأمّة، وإنّ التّفريق الذي نراه اليوم في المسلمين باختلاف اللّغات هو من سيئات السياسة ومفاسدها الكبرى، وإذا لم ترجع الدولتان العثمانية والإيرانية إلى السعي في تعميم اللّغة العربية، وكنّا أن يمتدّ هذا إلى بلاد (السند) التي كانت فيها العربية سائدة ذات زمان، ولكن الآن هي غائبة، ونروم أن يقع الاستثمار في تعليم العربية لتلك الحشود الكبيرة في آسيا عامّة.

وعوداً إلى الموضوع، فإنّ الأمّة في العادة لها لغة مشتركة، ومن خلالها يحصل التناغم بين أفرادها، وهذه اللّغة تكون قاسماً مشتركاً تجمعهم، وهي اللّغة الجامعة سواء في ماضيها القديم، أو في حاضرها؛ شرطَ أن تخضعَ للضوابط التي سنّوها من خلال العلاقات المشتركة. وفي العادة تكون هذه الضوابط لا تخرج عن أن:

ــ تكون جامعةً ومُشتركةً ومَفهومةً ومُستعملةً؛

ــ تكون لغةَ الأكثرية، ووقع التّصديق عليها بصورة طبيعية عن طريق التوريث الجمعي؛

ــ تكون لغة العامّة عن طريق: إجماع/ انتخاب/ برلمان؛

ــ ينصّ عليها الدستور أو المواثيق، أو قد لا ينصّ عليها؛

ــ تكون في الغالب اللّغةَ الرّسميةَ.

3/1ــ مفهوم الأمّة عند رجال النّهضة: يربط رواد النّهضة مفهوم الأمّة بالوطن؛ وهم يرون بأنّ **الحقّ فوق كلّ أحد، والوطن قبل كلّ شيء.** بهاتين الجملتين منذ نيف وعشر سنين توَّجْنا جريدة (المنتقد) الشهيدة، وجعلناهما شعاراً لها تحمله في رأس كلّ عدد منها. هذا أيام كانت كلمة الوطن والوطنية كلمة إجرامية لا يستطيع أحد أن ينطق بها، وقليل جداً من يشعر بمعناها. وإن كان ذلك المعنى دفيناً في كوامن النفوس ككلّ غريزة من غرائزها، لا سيّما في أمّة تنسب إلى العروبة، وتدين بالإسلام مثل الأمّة الجزائرية ذات التاريخ المجيد. أما اليوم وقد صارت كلمة الوطن والوطنية سهلة على كلّ لسان، وقد يقولها قوم ولا يفقهون معناها، وقد يقولها آخرون بألسنتهم ولا يستطيعون أن ينتسبوا لها في المكتوب من رسمياتهم، ويفزع منها من يتخيّلون فيها ما يعرفون في وطنياتهم، وينكرها آخرون زعماً منهم أنّها ضد إنسانيتهم وعمومياتهم. فكان حقا لقراء (الشهاب) علينا أن نقول لهم كلمة مختصرة نبيّن بها حقيقة هذه الكلمة وأقسامها وأقسام الناس إزاءها ومن أيّ قسم نحن من تلك الأقسام. ويبدو لنا من الضروري العودة إلى تلك المقالة التي دبّجها (عبد الحميد بن باديس) أيام الخلافات في مفهوم الأمّة الجزائرية وكان كلّ فريق من أصحاب الأحزاب، وقال فيها: "إننا نحن فتّشنا في صحف التاريخ وفتّشنا في الحالة الحاضرة، فوجدنا **الأمّة الجزائرية المسلمة** مُتكوّنة موجودة كما تكونت ووُجِدت كلّ أمم الدنيا، ولهذه الأمّة تاريخها الحافل بجلائل الأعمال ولها وحدتها الدينية واللّغوية. ولها ثقافتها الخاصّة وعوائدها وأخلاقها، بما فيها من حسن وقبيح، شأن كلّ أمّة في الدنيا. ثم إنّ هذه **الأمّة الجزائرية الإسلامية** ليست هي فرنسا، ولا يمكن أن تكون فرنسا، ولا تريد أن تصير فرنسا، ولا تستطيع أن تصير فرنسا ولو أرادت. **بل هي أمّة بعيدة عن فرنسا كلّ البُعد في لغتها وفي أخلاقها وفي عنصرها، وفي دينها،** لا تريد أن تندمج. **ولها وطن محدود معيّن هو الوطن الجزائري بحدوده الحالية المعروفة.** إذاً الأمّة الجزائرية وُجدت بحدودها التي تبعد عن فرنسا، وبخصائصها: الاجتماعية واللّغوية والسياسية والاجتماعية

فلا يمكن أن تكون فرنسية ولو أرادت، والأغلبية لا تريد. وإن كان ينظر نظرة أعمق إلى الأمّة العربية فنحن جزء منها، ويقول: "نعم **إنّ لنا وراء هذا الوطن الخاصّ أوطاناً أخرى عزيزة علينا هي دائماً منّا على بال،** ونحن في ما نعمل لوطننا الخاصّ نعتقد أنّه لا بدّ أن نكون قد خدمناها، وأوصلنا إليها النفع والخير من طريق خدمتنا لوطننا الخاص" ويواصل قائلاً. "وأقرب هذه الأوطان إلينا هو المغرب الأدنى والمغرب الأقصى اللذان ما هما والمغرب الأوسط إلاّ وطن واحد لغة وعقيدة وآداباً وأخلاقاً وتاريخا ومصلحة ثم الوطن العربي والإسلامي ثم وطن الإنسانية العامّ. ولن نستطيع أن نؤدي خدمة مثمرة لشيء من هذه كلّها إلاّ إذا خدمنا الجزائر. وما مثلنا في وطننا الخاص –وكل ذي وطن خاصّ– إلاّ كمثل جماعة ذوي بيوت من قرية واحدة. فبخدمة كلّ واحد لبيته تتكوّن من مجموع البيوت قرية سعيدة راقية. ومن ضَيّعَ بيته فهو لما سواها أضيع. وبقدر قيام كلّ واحد بأمر بيته تترقّى القريةُ وتسعد، وبقدر إهمال كلّ واحد لبيته تشقى القرية وتنحط". وإذا ذكرنا هذا، فإنّنا نعني أنّ مفهوم الأمّة ليس ضيّقاً، أو لا يتعدّى الأوطان المجزّأة، بل يتعدّى هذا إلى ربط الأجزاء التي تؤدّي إلى التكامل، وهي: التاريخ + اللّغة + الجغرافية + الحبّ + الخدمة العمومية. وهذا هو المفهوم الذي تحدّث عنه (جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده، ورشيد رضا وسيد قطب، ومالك بن نبي...) فتجسّد المفهوم في:

1/3/1ــ تعريف بتحديد المكوِّن: يقول السيد قطب: "إن التصوُّر الإسلامي يقطع الوشائج والصلات التي لا تقوم على أساس العقيدة والعمل. ولا يعترف بقربى ولا رحم إذا أنبتّت وشيجة العقيدة والعمل ويُسقط جميع الروابط والاعتبارات ما لم تتصل بعروة العقيدة والعمل... وهو يفصّل بين جيل من الأمّة الواحدة، وجيل

إذا خالف أحد الجيلين الآخر في عقيدته، بل يفصّل بين الوالد والولد والزوج والزوج إذا انقطع بينهما حبل العقيدة[1]".

2/3/1ــ تعيين باعتبار المكوِّن: ويواصل الشرح في مفهوم الأمّة عن طريق التمثيل بصدر سورة التوبة، حيث يتعرّض إلى ما تعرّضت له السورة من أحكام "نهائية في العلاقات بين الأمّة المسلمة وسائر الأمم في الأرض كما تضمنت تصنيف المجتمع المسلم ذاته، وتحديد قيمه ومقاماته، وأوضاع كلّ طائفة فيه وكلّ طبقة من طبقاته، ووصف واقع هذا المجتمع بجملته وواقع كلّ طائفة منه وكلّ طبقة وصفا دقيقاً".(الطبقات التي نعنيها في المجتمع المسلم ليست طبقات اجتماعية بالمعنى الصغير المفهوم الآن من الطبقية، ولكنّها الطبقات التي تقوم على قيم إسلامية بحتة كالسابقين من المهاجرين والأنصار، وأهل بدر، وأصحاب بيعة الرضوان ومن أنفق من قبل الفتح ﴿ إِنَّ هَـٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُونِ ﴾ [الأنبياء: 92]".

3/3/1 ــ مفهوم بتعيين المخالف: وهو شكل من أشكال تمييز العناصر المتشابهة فيعمد (قطب) إلى تخليص مفهوم الأمّة الإسلامية من بين المفاهيم السائدة حول الأمم الأخرى، ويفردها بالوصف من طريق إيراد خصائص تلك الأمم، وذكر حقيقة العلاقة بينها وبينهم، فيقول: "إنّ المعركة بين الأمّة المسلمة وبين أعدائها هي قبل كلّ شيء معركة هذه العقيدة. وحتى حين يريد أعداؤها أن يغلبوها على الأرض والمحصولات والاقتصاد والخامات، فإنّهم يحاولون أولا أن يغلبوها على العقيدة، لأنّهم يعلمون بالتجارب الطويلة أنّهم لا يبلغون مما يريدون شيئاً والأمة

1 ــ سيد قطب، في ظلال القرآن، ط34. بيروت– القاهرة: 1425هـ/2004م، دار الشروق ج1، ص113.

المسلمة مستمسكة بعقيدتها، ملتزمة بمنهجها، مدركة لكيد أعدائها... ومن ثم يبذل هؤلاء الأعداء وعملاؤهم جهد الجبارين في خداع هذه الأمّة عن حقيقة المعركة[1]".

وأما نظرته إلى ما بين الأمّة العربية والإسلامية، فلا يراها إلاّ مسألة إخراج أمّة من أمّة، أصبحت الأولى منسوخة والثانية ناسخة، فلها الحكم وعليها العمل يقول: "ومن أراد المُجادلة والمُماحلة، فليقل لنا أين كانت هذه الأمّة قبل أن «يخرجها» الله بكلماته وقبل أن ينشئها الله بقرآنه؟ إننا نعرف أنها كانت في الجزيرة العربية! ولكن أين كانت في الوجود «الإنساني»؟ أين كانت في سجل الحضارة البشرية؟ أين كانت في التاريخ العالمي؟ أين كانت تجلس على المائدة العالمية الإنسانية؟ وماذا كانت تقدم على هذه المائدة، فيعرف باسمها ويحمل طابعها؟ لقد «نشأت» هذه الأمّة نشأتها بهذا الدين ونُشئت تنشئتها بهذا المنهج القويم، وقادت نفسها وقادت البشرية بعد ذلك بكتاب الله الذي في يدها، وبمنهجه الذي طبع حياتها... لا بشيء آخر... وأمامنا التاريخ! وقد صدقها الله وعده وهو يقول للعرب: ﴿لَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ كِتَٰبًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ ۖ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [الأنبياء: 10] فبسبب من هذا الكتاب ذكرت هذه الأمّة في الأرض، وكان لها دورها في التاريخ وكان لها «وجود إنساني» ابتداء، وحضارة عالمية ثانياً.. ذلك بينما يريد جماعة من الحمقى أن يرفضوا نعمة الله هذه على **الأمّة العربية** ويجحدوا فضل الله في أن جعل كلمته الأخيرة لأهل الأرض قاطبة في العرب وبلسانهم... ومن ثم جعل لهم وجوداً وذكراً وتاريخاً وحضارة". ونخلص من وراء كلّ هذا، لنقول: إنّ آصرة التجمّع في الإسلام هي العقيدة. وأنَّ الأمّة في الإسلام هي المؤمنون بالله منذ فجر التاريخ. في كلّ أرض، وفي كلّ جيل. وليست الأمّة مجموعة الأجيال من القدم، ولا المتجمعين في حيّز من الأرض في جيل من الأجيال، كما أكّده كلّ رجالات النهضة. ومن

1ــ سيد قطب، في ظلال القرآن، ج1 ص354.

هنا، نقول: إنّ مفهوم الأمّة عندنا يختلف في الماضي وفي الحاضر عن الأمّة في نظر الفرنسيين، وإن كان هناك بعض القواسم المشتركة.

4/1 ــ لغة الأمّ La langue de la mère /Langue maternelle وهي لغة المنشأ التي يفطر عليها الإنسان في بيته الأول، ويُطلق عليها كذلك **اللّغة الأهلية** وهي لا تُتعلّم أبداً، حيث تُكتسَب بالفطرة. وهذه اللّغة يَستبطِن الطفلُ نظامَها اللّغوي بفعل الاحتكاك المُتواصل، ويُنتِج بها أنماطاً بفِعْل قُدرته اللّغوية الفطرية، انطلاقاً من النّموذج المِثالي، وقد تكون هي اللّغة الأمّ/ اللّغة الأصل، وقد تكون لهجة، أو لغة مَحلية، وقد تكون مَكتوبة، وقد لا تكون. وفي واقعنا العربي نجد لغةَ الأمِّ ليست هي لغة الأمّة ذاتها، أو صورة مُطابقة تماماً؛ لأنّ لغةَ الأمِّ عبارة عن المستوى الأدنى للّغة الأمّة، وفي بعض البلاد العربية نجد لغةَ الأمِّ تختلف اختلافاً جِذرياً عن لغة الأمّة، وذلك في بلاد المغارب مثلاً.

5/1 ــ اللّغة الأمّ Langue mère: سُميت اللّغةُ الأصل بلغة الأمّ نسبةً إلى الأمّ، وما ترمز إليه من عَطفٍ وأَمانٍ وأَصالةٍ وجُذورٍ، فحنان الأمّ لِوَلدها فطريٌ وحبّ الولد للغته فطرية، والولد عندما يفطم يعرف لغته التي يستطيع أن يُضحّيَ من أجلها كما يُضحّي على أمّه الغالية.

هذه تقدمة بسيطة للتسمية التي أخذتها اللّغةُ الأصلية، وهي تلك اللّغة التي قد تكون لغة الأمّ/ اللّغة الأصلية، أو قد تكون اللّغة الرّسمية التي وقعَ الإجماعُ عليها أو عن طريق الاستشارة الوطنية (الاستفتاء) ونصّ عليها الدّستور، كما هو الحال في الدُّول العربية، عدا (موريتانيا) التي يُقرّ دستورُها على أنّ **العربية والفرنسية** هما اللّغتان الرّسميتان.

وبهذا، يمكن أن يكون للبلد الواحد أكثرُ من اللّغة الأمّ (الرّسميات) ولها وظائف إدارية على وجه الخصوص، إلاّ أنّ الدّول في الإعلام والتي اعتمدت تعدّد الألسنة الرّسمية لها أنظمة سياسية مَناطِقية مثل: جنوب إفريقيا/ سويسرا/ بلجيكا/ إسپانيا/ كندا... ونجد النّظام السياسي فيها على شكل مُقاطعات ذاتية مُستقلّة مَحلياً، أو فيها

النّظام الكونفدرالي، أو ولايات لغوية لها حُكم ذاتي. ولذا، فاللّغة الأمّ لها وضعٌ اعتباريٌ مُتميّز عن اللّغات المحلية أو الأجنبية ولها طابعُ الحماية القانونية بفعل المُؤسّسات التي تقوم على تأهيلها وتعميمها. **ونخلص بأنّ اللّغة الأم؛ هي اللّغة الجامعة، وهي لغة الأمّة، وهي المشتركة فهي العربية في البلاد العربية**، دون غيرها من اللّغات. ويمكن استعراض تلك الفروق بين:

لغة الأمّ واللّغة الأمّ

لغة الأمّ	اللّغة الأمّ
تُكتسَب من الأسرة.	تُكتسَب من الأسرة ومن التّلفاز ومن المجتمع ومن المدرسة.
عامية/ محلية، وطنية.	لغة مهذّبة/ فصحى.
اكتسابها طَبْع.	اكتسابها تطبُّع.
لغة وظيفية مَحلية.	لغة مَحلية علمية إدارية رسمية.
مُستواها دارج أو لغة وطنية.	لغة مُستواها أعلى من الدارجة.
لها أطلس لغوي محدود.	أطلسها اللّغوي واسع.
ثقافتها محدودة.	ثقافتها واسعة.
لغة غير معيارية.	لغة معيارية.
لسان غير مُهيْمن لا يحتفظ بتكامل نسقه إلاّ في الجماعة التي تُستعمل فيها تلك الأنساق.	لسان مُهيمن مُسيطر وشرعي يكتسب شرعيته من الفئة العريضة لمستعمليه وللقوانين الحامية له.
ناطق هذا اللّسان في مواجهة اللّسان الجماعي يعدِل دائماً عن لسانه.	ناطق هذا اللّسان لا يعدِل عن لسانه إلاّ تنازلاً للغات الأجنبية.

وإضافة إلى هذا، هناك فروقٌ لغوية يجب الانتباه إليها:

ــ **اللّغةُ الأمُّ:** التّعريف هنا بالألف واللاّم، وهو أقوى من غيره، وأُكّد بالوصف. والمعرّف أقوى من المنكّر، والتّعريف عامّ ومعروف، ولا يحتاج إلى سَنَد تكميلي.

ــ **لغةُ الأمِّ:** التّعريف هنا بالإضافة، هو أدنى من التّعريف بالألف واللاّم ويدخل في مُسوّغات الابتداء بالنكرة، والنّكرة أضعف من المعرفة؛ لأنّها تحتاج إلى سَنَد تكميلي.

كما يُضاف في هذا المقام تلك التّعريفات المصطلحية التي ينظر إليها كلّ باحث، وحسب النّظرة الآنية/المستقبلية التي يستهدفها؛ فالعالم اللّساني له تعريفه والسّياسي له تعريفه، والمُجاهد له تعريفه، وشيخ الكُتّاب له تعريفه... وتأخذ هذه التّعاريف في العادة الأبعادَ التّربويةَ أو السّياسيةَ أو العلميةَ، ولتأكيد النّظرة المُراد تبليغها من وسيلة اللّغة.

وفي دراسة قُمنا بها سنة 2004، وفيها قدّمنا تعريفاً للغة الأمّ من وجهة المعنيين كما يلي:

1 ــ التّعريف التّقليدي: وهي لغة الأمّ المُربّية Langue maternelle أي تلك اللّغة التي يسمعها من أمّه في البيت في المراحل الأولى من الاكتساب اللّغوي.

2 ــ التّعريف المنشئي: تلك اللّغة التي يسمعها في محيطه العامّ، وتشمل لغة أهل الدار والتّلفاز والألعاب اللّغوية التي يتعامل بها.

3 ــ التّعريف السّياسي: هي لغة الدستور، وتعلو فوق كلّ الآداءات التي يتواصل بها المجتمع. وهي اللّغة الرّسمية، باعتبارها رمزاً للوحدة الوطنية.

4 ــ التّعريف الديني: هي لغة الدين، وتملك سلطة الأنموذج، وتُمارس نُفوذاً لا يتوفّر لباقي اللّغات.

5 ــ التّعريف الشّعبوي: لغة المساواة وتكافؤ الحظوظ، وهي كلّ لغة تواصل في البلد.

6 ــ التّعريف اللّساني: ننقل قول الأستاذة الفرنسية Louise Dabène والتي تقول: "هي تلك اللّغة التي يتلقّاها في المحيط المدرسي مهما تكن الوضعية الشّرعية لتلك اللّغة، والتي يعيش فيها التّلميذ[1]" وقد مثّلت لذلك باللّغة العربية في الجزائر[2]". وما ينطبق على الجزائر ينطبق على الدول الحديثة التي خرجت من الاستقلال ومعها تَرِكة لغة المستعمر، فهي تنوء بِحَمْل هذه التّرِكَة التي تبقى في نظر الكثير ترِكَةً ثقيلة يجب التّخلّصُ منها، مثل التّخلّص من أهلها المُتسلّطين/ المُستعمِرين/ الكولون، فهي تكملة للاستقلال السياسي في عمومه.

6/1 ــ اللّغةُ الرّسميةُ: هي لغة يُنصُّ على استخدامها في الدستور، وغالباً ما تكون هي لغة التّعليم ولغة التّأليف والثّقافة، ووسيلة التّعامل الرّسمي والاجتماعي (اللّغة الأمّ). وتأتي – في العادة – اللّغةُ الرّسميةُ من الأبعاد الكبرى للتوجّهات الوطنية لطموحات الشّعب، وفي بعض البلاد تأتي عن طريق الاستفتاء. ورسمية اللّغة تأتي من التّخطيط اللّغوي الذي تنصّ عليها الأبعادُ الوطنية في مَراميها الكبرى. وهي في العادة لغةُ الإدارة والخطاب الرّسمي ولغةُ كلّ المُعاملات الوطنية والدّولية، ولها مُؤسّسات تعمل على ترقيتها، ولها دستور يعمل على حِمايتها من الانزلاقات. لا تخضع اللّغة الرّسمية للتّصويت حالة ما رُسمت بشكل من الإشكال بل تحصل أحياناً بعض المراجعات والتّعديلات التي لا تمسّ بجوهر اللّغة وبكيفياتِ تطبيقها وتعميمِ استعمالها.

7/1 ــ اللّغةُ الثانيةُ: يُطلق مصطلح (اللّغة الثانية) على أوّل لغة يتعلّمها الطفل في المدرسة بعد مرحلة الطفولة، ومع هذا، فإنّ الخلاف قائم بين من يرى أنّ اللّغة الثانية تُطلق على (اللّغة الأجنبية) وهناك من يُطلقها على العربية الفصحى بالنّسبة

---

1 - Repère sociolinguistique pour l'enseignement des langues. Paris : 1994, Hachette livre.

2 ــ صالح بلعيد "اللّغة الأمّ، والواقع اللّغوي في الجزائر، عمل جماعي. الجزائر: 2004، دار هومة للطّبع والنّشر والتّوزيع، ص 5ــ8 (بتصرّف).

للمجتمعات العربية المُتعدّدة اللّغات (اللّغة الأمّ) وقد سبقَ للطفل أنْ أخذَ لساناً غير اللّسان العربي، وهناك من يرى أنّ العربية الفصحى هي اللّغة الأمّ، وليست لغة أجنبية؛ باعتبار أنّ الطفل يتعلّم أولَ لغة هي العربية؛ لأنّ الدارجة/ المازيغية لا تُتعلّم بل تُكتسب. وهذا ما تنحو إليه أكثر الدراسات المعاصرة، ومن هنا فإنّ اللّغة الثانية –على العموم– تُطلق على أوّل لغة أجنبية تُتعلّم خارج اللّغة الرّسمية، أو الوطنية.

ولإزالة الغموض في تحديد معنى اللّغة الثانية، أرى أن يكون المنطلق من محيطنا الجزائري الذي نبحث فيه المُعطيات التالية:

- التّحديد العلمي **للغة الأمّ:** هل هي العربية الدارجة، أو المازيغية.
- هذه اللّغة الأمّ يجب أن تكون مُكتسبة، حسب المُختصّين، لا تأتي لغة الأمّ من التعلّم.
- هل اللّغة العربية هي اللّغة الأمّ؟ إذا كان ذلك كذلك؛ فإنّ اللّغة الثانية هي اللّغة الفرنسية.

هل المازيغية هي اللّغة الأمّ؟ إذا كان ذلك كذلك؛ فإنّها تتعلّم الآن في المدارس فمن هي اللّغة الثانية قياساً لها؟ هل العربية، أو اللّغة الأجنبية؟

- هل الدارجة هي اللّغة الأمّ؟ إذا كانت هي اللّغة الأمّ، فمعنى أنّ اللّغة الثانية هي العربية/ المازيغية.

عرف الباحثون تعلّم اللّغة الثانية بأنّه خَلْق مجموعة جديدة من العادات؛ أي العادات السلوكية التي تشكّلت في الطفولة، ولا بدّ وأن تتدخّل في تشكيل عادات جديدة "قامت المادة التّعليمية التي نتجتْ عن عمليات التّحليل اللّغوي على مجموعة من الافتراضات؛ تمّ مناقشة بعضها بالتّفصيل في وقت سابق من هذا الفصل، وتلك الفرضيات هي:

1ــ التّحليل المقارن يقوم على نظرية لغوية، تَدَّعي أنّ اللّغةَ مجموعة من العادات وأنّ تعلُّم لغة أجنبية يعني تعلُّم مجموعة جديدة من العادات.

2 ــ مصدر الخطأ الأساسي في إنتاج اللّغة الثانية عند المتعلِّم هو اللّغة الأمّ.

3 ــ يمكن التحسّب للأخطاء في التعلّم والإنتاج اللّغوي إذا ما لاحظْنا الفروقَ بين اللّغة الأمّ واللّغة الهدف.

4 ــ بقدر الاختلافات تكون الأخطاء التي ستحدث.

5 ــ الشيء الذي يجب أن يفعله المتعلِّم في تعلُّم لغة أجنبية وهو تعلّم الفروق ويمكن أن يتجنّب التّشابهات ويهملها؛ لأنّ لغته الأولى ستوفّرها عليه.

6 ــ السهولة والصعوبة في تعلّم لغة ما تنبعان من التّشابهات والاختلافات بين اللّغة الأمّ واللّغة الهدف[1]". وهذه المُعطيات التي يجب أن تتحدّد تحديداً علمياً، وبعد ذلك نفهم أبعاد كلّ لغة، وسوف تتّضح معنى اللّغة الثانية.

8/1 ــ الدارجة/ اللّهجة Dialecte: والدارجة دوارج/ دارجات، ولقد كان مُنطلقُها من الفروق الفردية بين مُتكلّم وآخر، وهذه الفروق تتفشّى في إقليم معيّن لتصبحَ طابعاً يُميّز لهجته عن سائر الأقاليم المجاورة. والدارجة هي لهجة جغرافية أو اجتماعية أصابَها التّحريفُ، ونزلت عن مستوى الفصحى، والفرق بينها وبين الفصحى في المكانة الاجتماعية التي تَحْظى بها، فهي مُستوى بسيط تأتي وِفقاً لمواقف كلامية في مجال الحياة اليومية، تختلف عن الفصحى، ولا يقف في العادة أبناء الجماعة اللّغوية من الدارجة/ العامية موقف الاحترام، ولذا لا تستخدم في الكتابة الرّسمية، ولا في الحياة الثّقافية؛ لأنّها لغة بسيطة عادية يتفاهم بها الشّعب مُشافهة، وتختلف عن لغة الكتابة، وهذا ما يظهر في الثّنائية التي تعرفها الدول العربية (اللّغة العربية) Diglossie. حيث نجد مستويين من الخطاب هما:

- **مستوى الخطاب العالي:** يتمثّل في اللّغة الأدبية المكتوبة، وتستعمل في مقام الانقباض والتشخصُن، ولها بُعْد واسع للتواصل مع الغير، ومع كلّ ناطق بالعربية

---

1 ــ سوزان جاس+ لاري سلينكر، تعلّم اللّغة الثّانية، تر: محمد الشرقاوي، ط1. القاهرة: المجلس الأعلى للثقافة، المشروع القومي للترجمة، رقم 53، ص 63.

كما تستعمل في الخطاب الرسمي أحياناً، وفي مُخاطبة من هو أعلى مَقاماً أو مَنْ تحترمه.

- **مستوى الخطاب البسيط، أو الأدنى:** ويتمثّل في اللّهجة التي لا تكون عادة مكتوبة، ولها مَحالها الوظيفية البسيطة، ولها حدود ضيّقة.

وتجدر الإشارة بأنّ الأبحاث اللّغوية العربية المعاصرة، قد قصّرت في حقّ دراسة اللّهجات؛ فلم تخرج الأبحاث من طوْق الفصحى، فالأحرى بالباحثين أن يأخذوا العبرة من اللّغويين العرب القُدامى الذين جابوا الفيافي والجبال لمُشافهة سكان أعالي السافلة/ سافلة الأعالي، وسبق لأبي عمرو بن العلاء أن قال: "لا أقولُ قالتِ العرب إلاّ ما سمعتُ من عالية السافلة، وسافلة العالية" يريد ما بين نجد وجبال الحجاز؛ حيث قبائل أسد وتميم وبعض قبائل قيس. ويجب التّنبيه في هذه النّقطة بأنّه أحياناً يُطلق مصطلحُ اللّهجة على اللّغة كما كان يُطلق في القديم، فقد قالوا: لغة تميم ولغة هذيل؛ يقصدون لهجة تميم ولهجة هذيل، وهذا شاهدهم المعروف "روى الزُّبيدي قال ابن نوفل: سمعتُ أبي يقول لأبي عمرو بن العلاء: أخْبِرْني عمّا وضعته ممّا سمعته عربية أيدخل فيه كلام العرب كلّه فقال: لا، فقلت: كيف نصنع فيما خالفتك فيه العرب وهم حجّة؟ فقال: أعملُ على الأكثر، وأُسَمي ما خالفني لغات[1]". وإنّ الاهتمامَ باللّهجات يعني معرفة خصائص كلّ لهجة، ومعرفة درجة قُربها من الفُصحى ومعرفة الحدود الفاصلة بين الفُصحى والعامية، من أجل العمل على إيجاد وسائط التّواصل بينهما لتعودَ الدارجةُ إلى أمّها الفُصحى. ويجب التّنبيه كذلك إلى أنّ الخلاف قائم بين اللّهجة/العامية عن اللّهجة الفئوية Patois وهو مُصطلح فرنسي؛ يعني لهجة فئة اجتماعية مُحدّدة تحقّق من خلالها تمايزها لهجياً من سواها من الفئات، ويعني أيضاً احتواء هذه اللّهجة الفئوية كلمات لا تُفهم خارج

1 ــ أبو بكر محمد بن الحسن الإشبيلي الزّبيدي، طبقات النّحويين واللّغويين، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم، ط2. القاهرة: 1973، ص 34.

تلك الفئة. وقد تنجر عن اللّهجة مُواصفات لَهْجِية أخرى ناتجة عن انتماء جغرافي أو اجتماعي أو ثقافي، ولا تبتعد كثيراً عن اللّهجة الأمّ إلاّ في صِيَغ ومواصفات صوتية أو صرفية أو معجمية.

9/1ــ العربية الدارجة: هي مستوى تعبيري يتخاطب به العربُ عفوياً في الحياة العامّة، وهو مستوى غير انقباضي عند العرب القدامى؛ لأنّها تتّصف بالخفّة والاختزال، بل هي عربية فقدت بعض الخصائص الموجودة في الفصحى مثل الإعراب، ولكنّها ليست لغة جديدة/ أجنبية مثلما يجوز للبعض أن يُسميَّها قياساً على اللّغات المُتفرّعة من اللاتينية. فهم يروْن بأنّ الفرنسية مثلاً المُتفرّعة عن اللاتينية لغة جديدة، وهي إذاً أجنبية في منظور اللّسانيات. هذا صحيح في منظور قياس اللّغات المنبثقة عن اللاتينية؛ حيث لا تستخدم اللاتينية إلاّ في العبادات، وهي لغة غير مفهومة ومنقطعة عن اللّغة الأصل ولكن بالنّسبة للعربية الفصحى أو الدارجة فهُما غير مقطوعتين من بعضهما البعض؛ "فالفصحى لغة العبادات ولغة التّعامل اليومي والإداري، وقد يصدق هذا القول عند المسلمين الذين لا يستخدمون العربية الفصحى إلاّ في صلواتهم. وأما الدارجة فهي لغة التّعامل اليومي، وليست بعيدة عن الفصحى بحيث نجد فيها 80 % من المفردات هي هي في الفصحى[1]". وهل هذا يقلّل من قيمة اللّغة؟ ويرى الأستاذ (عبد الرحمن الحاج صالح) بأنّ اللّغات البشرية أوضاع اجتماعية؛ تصطلح عليها الجماعة، وتغيّر فيها بالزّيادة والنّقص. وكلّ اللّغات يصيبها التّحوّل الذي يأتي لأسباب الخفّة، فهو طبيعي جداً "فالتّحوّل اللّغوي عبر الزمان هو قانون طبيعي عام، ولا تفلت من ذلك أية لغة في

1 ــ ينظر: عبد الرحمن الحاج صالح "العاميات العربية ولغة التّخاطب الفصيحة" محاضرة أُلقيت في ملتقى المجلس الأعلى للغة العربية. الجزائر 4ــ5 جوان 2007 ملتقى: الفصحى وعامياتها مقال لم ينشر.

الدنيا منذ أن خُلق الإنسان، وقد بيّن ذلك اللّسانيون في زماننا، ودرسوا ظواهر التّحوّل الزماني دراسة وافية تقريباً[1]". والدارجة العربية هي لغة التّخاطب فهي أسرع تغيّراً عبر الزمان من غيرها لأنّها تستعمل بالمشافهة العفوية في أغلب الأحوال، وهذا ما أشار إليها كل من Ferguson / J . Fishman / J . Gumpaz وعدّوا هذا نوعاً من الازدواجية، ورأَوْا بأنّ هذا عادي؛ لأنّه يحصل في معظم أو في كلّ لغات الدنيا؛ شرْطَ ألا يكون الفرقُ شاسعاً بين مستوى الكلفة (المنقبض) وهو مستوى حديث الخاصّة/ النّخبة، أو لغة الكتابة والمستوى العامّ؛ حديث الطبقات الشّعبية البسيطة، وأن يحصل التّفاهم إلى حدّ بعيد بين المُستويين. وعلى الدراسات الحديثة أن تسعى لردم هذا الشّرخ بين المُستويَيْن، وتفعيل محو الأمية وجعْل الفصحى لغةَ التّخاطب العادية، وتأخذ مكان العامية، وعند ذلك تتجسّد المَقولة اللّسانية: **اللّغةُ وضعٌ واستعمالٌ لذلك الوضع.**

10/1ــ اللّغة الطبقية: يضمّ كلّ مجتمع عناصر بشرية مختلفة، وكلّ عنصر من المجتمع له ظروفه الخاصّة في التّنشئة اللّغوية الاجتماعية، لذا يستخدم كلّ عنصر اللّغة استخداماً مُستمِداً من البيئة والأعمال التي يُزاولها. وهكذا فلكلّ نشاط في المجتمع لغة تميّزه، ولكلّ مهنة أو صناعة لغة، ولكلّ الحِرْفيين لغة مشتركة ضيّقة يتعاملون بها في حدود معدودة وضيّقة، وهي لغة خارج اللّغة المشتركة "تشأت هذه اللّغات بفعل الانعزال الذي يحسّ به أفراد الجماعة اللّغوية الخاصّة عن المجتمع العامّ، وقد يكون هذا الانعزال من شأن الحِرْفة التي يعيشون منها، وقد يكون نتيجة إحساسهم بالعداء للنّظام العامّ، فهم يحاولون أن يَخْفوا أغراضهم تحت كلمات مُشوَّهة المعنى، أو مُشوّهة الصيغة، ولكنّها تؤدّي الغرض الذي صيغت من

1 ــ عبد الرحمن الحاج صالح "العاميات العربية ولغة التّخاطب الفصيحة" مقال لم ينشر.

أجله[1]" فاللّغة الطبقية هي مجموعة من العبارات والتراكيب اللّغوية التي تميّز جماعة من الناس يعملون في حِرْفة معيّنة، وتُسمى لغة الحِرْفيين من مثل: لغة الحدّادين/ لغة التجّار/ لغة البنّائين/ لغة الفنانين... وتسمى كذلك اللّغات الطبقية؛ وهي تلك اللّغات التي تستعملها الجماعات المُتحيّزة والطوائف أو العصابات وأصحاب المِهن. وإنّ هذه اللّغة لها ألفاظ خاصّة لا يدركها إلاّ أصحاب المِهْنة، أو من يعرف سرّ المهنة. وهذه اللّغات لم تلقَ العناية الكبيرة للنّظر في خصائصها ودراسة أسباب انتشارها وتطوّر ألفاظها. كما تعرف لغة هذه الطبقات باللّهجة ذات الطوابع المتميّزة فمن خصائص لغتها أنّها تُشوّه أصواتَ بعض الكلمات وقوانينها الصّرفية كما تستعير كلماتٍ من اللّغة العامّة، وتستعملها استعمالاً مجازياً، وتستمدّ كلماتٍ من اللّغات الأجنبية.

11/1ــ اللّغة المَحلية Langue régionale: هي (لغة أمّ) بالنسبة لأهلها ولها استعمال إقليمي، كما لها قابلية التحكّم بين ناطقيها؛ تُستعمل لأداء وظائف يومية في منطقة مُعيّنة، أو بين جماعة من الجماعات، وفي العادة تكون شفاهية وتخلو من الأدبية، ولكنّها لا تخلو من امتلاكها لعامل التّراث والثّقافة والفولكلور. ونجد اللّغة المحلية في بعض مقاطعات إسبانيا (كاتالانيا مثلاً) هي اللّغة الرّسمية جهوياً، وليس لها تمثيل (ترسيم) وطني، وهكذا الحالُ في كثير من المقاطعات في إفريقيا. وهذه اللّغات تسمى أحياناً لغات المناطق، وهي لغات فَرَضَت نفسها، أو وُجدت كلغات عامّة للتّفاهم في مناطق محدودة وتُسمّى لغات وطنية، وقد تُصبح اللّغة الوطنية لغة مشتركة أو رسمية إنْ حصلَ فيها إنتاجٌ علمي، وأُقرّت في الدستور. ولا نعني باللّغة الوطنية تلك اللّغة التي تتكلّمها فئة محدودة من الناس أو طائفة، فهي ليست

1 ــ عبد الصبور شاهين، في علم اللّغة العام، ط4. سورية: 1984، مؤسّسة الرسالة، ص 178.

Patois. وإنّ اللّغة الوطنية في عمومها لها امتداد جغرافي وبشري واسع، ولها سمات مشتركة بين اللّهجات المنبثقة عنها، والخلافات بينها طفيفة، وتكون الخلافات في مستوى الأصوات، وليس في الجانب التّركيبي.

12/1ــ اللّغة الأجنبية: وتُسمّى عند بعض الباحثين **اللّغة الثانية Langue seconde** وهي كلّ لغة أجنبية يتعلّمها الفرد بعد لغته الأصلية: لغة الأمّة/ لغة الأمّ/ اللّغة الأمّ. وتتميّز بأنّ لها مقاماً ثانوياً في تخطيط السياسة اللّغوية يُلتجأ إليها لتنمية التّفاهم الدولي، واكتساب المصطلحات الفنية والعلمية والمِهْنية كما تُحظى اللّغات الأجنبية بوضع مُتميّز على مستوى ديداكتيك اللّغات الأجنبية D L E وبوضع خاصّ تعليمياً؛ كونها تَسْتقي مادتها من مَصادر مُتعدّدة، وتبنّي أنظمةً وبرامجَ وطرائقَ تعليميةً معاصرةً. نالت اللّغاتُ الأجنبية في البلدان العربية حظوةً مُعتبرة لما لها من تقدّم تكنولوجي، ولما تنتجه من التّقنيات المُعاصرة، وكان لبعضها المقام الأسمى في الاستعمال اليومي أو الإداري (بلدان المغرب العربي) نظراً لارتباط ذلك بالفترة الاستعمارية التي غذّت الارتباط النّفسي بهذه اللّغة، ونجد الفئة النّخبة تدافع عن تواجُدِها وبقائِها في تدريس العلوم.

والخلاصة: إنّ اللّغة العربية في أوطاننا العربية هي اللّغة الأمّ؛ باعتبارها لغة الدساتير العربية، وهي لغة الإجماع، ومستوى من مستويات لغة الأمّ عند بعض الدول العربية. وبذا هي **لغة الأمّة.** وفي الجزائر، فإنّ لغة الأمّة هي العربية، وهي لغة متجذّرة وليست أجنبية كما يدَّعي الفرنكفونيون، فَمِثْلُها مثل المازيغية، وكما يقول (البشير الإبراهيمي) فيقول: "اللّغة العربية في القطر الجزائري ليست غريبة ولا دخيلة، بل هي في دارها، وبين حُماتها، وأنصارها وهي مُمْتدّة الجذور مع الماضي، مُشتدّة الأواخي مع الحاضر، طويلة الأفنان في المستقبل". وهكذا ينافح الشيخ (البشير) على المواطنة اللّغوية بما كانت تُخطّط له جمعيةُ العلماء المسلمين

بأنّ العربية هي ترجمان أفكارنا وخزانة أسرارنا، ومدوّنة أحكامنا، فلا يمكن الاستغناء عنها، وهي منّا ونحن منها، فهي في ذواتنا، ديناً ودنيا، ولا يجب أن نختلف في شأنها، ويقول: "... العربية لغة الأمّة وهي ترجمان أفكارها وخزانة أسرارها، وأنّ الأمّة الجزائرية ترى في اللّغة العربية زيادة على ذلك القدر المشترك، أنّها حافظة دينها، ومُصحّحة عقائدها، ومُدوّنة أحكاهما، وأنّها صلة بينها وبين ربّها، فهي لذلك عليها يد الضنانة، وما تودّ أن تبدّل بها لغات الدنيا، وإن زخرت بالآداب، وغاضت بالمعارف، وسهلت سُبُل الحياة، وكشفت عن مكنونات العِلم، فإنْ أخذت بشيء من تلك اللّغات؛ فذلك وسيلة إلى الكمال في أسباب الحياة الدنيا، أما الكمال الروحاني والتّمام الإنساني، فإنّها لا تنشده ولا تجده إلاّ في لغتها التي تكَوَّن منها تسلسلُها الفكري والعقلي، وهي لغة العرب".

2 ـ العمل على ترقيّة اللّغة الفرنسيّة بِطُول النّفس

كلّ لغةٍ في العالم تحتاج إلى تهيئة لغوية Aménagement linguistique وإلى حركةٍ لغويّةٍ دائمةٍ لا تتوقّف عن طريق الاستعمال ليحصل الإنتاج، وعن طريق تلك الحركة تَستقبلُ وتُعطي، تُهذّبُ وتُغيّرُ، تُضيفُ وتُنقِصُ، وفي كلّ حين تحتاج اللّغة إلى مَزيد من النّظر في العوامل الدّاخليّة والخارجيّة، وهذا في إطار تَضافُر جهود الباحثين المُخلصين، وقد تطول قُروناً، وتتطلّب **الصّبرَ وطولَ النّفس والتّخطيطَ العلميّ، والاستراتيجيّةَ البعيدة الآفاق.** والأهمّ من كلّ ذلك أن يكون العملُ بِجِدٍّ لا يَستكين، وببرنامج مُستبِين؛ باعتبار اللّغة حيّةً تتطوّر، وتحتاج إلى مدّها بأسباب الغذاء والنمّاء؛ حيث تعيشُ الحَراكَ الدّائمَ مع زحم الحال واللّغات ولذا يجب أن تُساير الحَدَثَ؛ بما يُوافق ذلك الزّحم والحَراك من جمع المادة اللّغوية وتعليم وتخطيط وعمل... ولهذا فاللّغة الكائنُ المُتحرّكُ تحتاج إلى العديد من الرّوافد التي تجعلها في مستوى ذلك التّغييّر وإلى جُهد أصحابها في تحريك العمليّات الدّاخليّة والخارجيّة. وهذا هو البرنامج العامّ الذي يعمل الفرنسيون على تحقيقه منذ زمان، بل يُعدّ البرنامجُ الفريدُ في العالم لما لَقِيَه من الاهتمام الجمعي الفرنسي حتى أصبح عقيدة وطنية لا يتنازل عنه أيّ فرنسي أبداً، وهذا باعتبار الفرنسية عقيدة لا بدّ من اتّباعها واحترامها كما صاغَها الفرنسيون الأوّلون، وهي الشدّ والتّمسّك بلغتها الفرنسية مهما حصل فيها من تعقيد "بالمستطاع اعتبار فرنسا الدّولة الأشدّ اهتماماً بالشّأن اللّغوي، والأكثر إنتاجاً للنّصوص التي تُنظّمه. وبالمستطاع بالتّالي اعتبار اللّغة الفرنسية في طليعة اللّغات التي تُحظَى بالرّعاية الرّسمية فضلاً عن حماية مُنظّمات المجتمع المدني لها. هاتان الرعاية والحماية تُكابدان مشقّة ناجمة عن موقف المنظّمات الأوربية الداعية إلى التّساهل والانفتاح والمُنافسة الحرّة بين اللّغات، كما تصطدمان بواقع الفرنكفونية التي يدعم انتشار اللّغة الفرنسية وترسيخها في البلدان المنتمية إلى المنظّمة العالمية للفرنكفونية، هذا من

ناحية، ويدعو من ناحية ثانية – وقد يكون مُناقضاً– إلى التنوّع الثّقافي والقانوني واللّغوي، وإلى احترام حقوق الإنسان والدفاع عن الأقليات بما يحمله تراثها من تقاليد ولغات.

أــ أوّل الغيث بوادر الحماية الرّسمية للفرنسية، في العصر الحديث، هو ما وَرَدَ في دستور الجمهورية الخامسة 1958/10/4 الذي نصّت مادته الثانية على أنّ "**لغة الجمهورية هي الفرنسية**" ولم يطرأ أيّ تغيُّر على هذا الواقع لدى تعديل المادة الثانية بالقانون الدّستوري الصّادر بالرقم 95–880 تاريخ 1995/8/4.

واللاّفتُ أنّ القانونَ الصادرَ بالرقم 94–665 تاريخ 1994/8/4 والمتعلّق "باستعمال اللّغة الفرنسية" حمل في مادته الأولى ما يبلور نظرة المشرّع الفرنسي إلى اللّغة بقوله، في المادة الأولى، ما ترجمته "انطلاقاً من أنّ الفرنسية هي لغة الجمهورية عَمَلاً بالدّستور، فهي مُكوّن أساسي لشخصية فرنسا وتراثها. إنّها لغة التّعليم، والعمل، والتّبادل، والخدمات العامّة. وهي الرابط المميّز للدول المُكوّنة للمجموعة الفرنكفونية".

ب – فضلاً عن الدّستور، وعن قانون العام 1994 حول حماية اللّغة الفرنسية ونشير، ولو بِصُورة عابرة إلى مجموعة أخرى من النّصوص القانونية والتّنظيمية والاجتهادية ذات العلاقة بالموضوع. ونعتمد التّسلسل التّاريخي معياراً للتّصنيف. من ذلك:

ــ القانون رقم 75–1349 تاريخ 1975/12/31 المتعلّق باستعمال اللّغة الفرنسية (ألغاه العام 1994).

ــ المرسوم تاريخ 6/2/ 1989 القاضي بإنشاء المجلس الأعلى للغة الفرنسية والمُفوضية العامّة للسهر على توسيع دائرة استعمال الفرنسية (مادة 9).

ــ قرار المجلس الدّستوري رقم 94–345 تاريخ 1994/7/29 حول القانون المُتعلّق باستعمال اللّغة الفرنسية. وقد أيّد هذا القرار مُعظم ما جاء في القانون.

ــ المرسوم رقم 95–240 تاريخ 1995/3/3 المتعلّق بكيفية تطبيق قانون العامّ 1994 والمتضمّن بصورة خاصّة تفصيلاً للعقوبات (أو الغرامات) التي تنزل بمخالفي أحكام القانون.

ــ التّعميم (Circulaire) تاريخ 1996/3/19 المتعلّق بقانون العامّ 1994 وعلى الأخصّ بنطاق تطبيقه.

ــ القانون رقم 91–516 تاريخ 1996/6/14 الرامي إلى إنشاء مكتب برلماني لتقييم التّشريع.

ــ التّقرير حول استعمال اللّغة الفرنسية المقدّم العامّ 1994 إلى البرلمان من قبل المُفوضية العامّة للغة الفرنسية وللغات فرنسا، تطبيقاً للمادة 22 من قانون 1994. وفي هذا التّقرير حصائل دالّة على نتائج تطبيق القانون من زاوية الإحصائيات والمُخالفات والقرارات القضائية واندماج المُهاجرين وسواها.

ت ــ من البيّن أنّ القانون المتعلّق باستعمال اللّغة الفرنسية الصادر 1994/8/4 (الحال محلّ قانون 1975/12/3) هو النصّ الأكثر ارتباطاً بموضوع حماية اللّغة الفرنسية. إنّ ما قبله كان عبارةً عن حجر الأساس، وما بعده كان خوْضاً في التّفاصيل المُستندة إلى أحكامه. ويقع هذا القانون في 24 مادة، وينظّم استعمال اللّغة الفرنسية في الحقول التالية:

ــ حقل الاستهلاك: حيث أوجبَ التّوجّه إلى المستهلك باللّغة الفرنسية في كلّ ما يعود إلى المعلومات والخدمات المقترحة (طرق الاستعمال، الفواتير الضمانات...) وأوجُه الدعاية المُرتبطة بها.

ــ حقل العمل: حيث أوجبَ استعمالَ الفرنسية في المُستندات اللاّزمة التي تُمكّن الأجيرَ من الانضمام إلى العاملين في المشروع (عقد العمل، النّظام الداخلي...).

ــ حقل التّعليم: حيث الفرنسية هي لغته ولغة الامتحانات والمباريات والأطروحات الأكاديمية "إتقان اللّغة الفرنسية، والإلمام بلغتين أخريين يُشكّلان جزءاً من الأهداف الأساسية للتّعليم".

ــ حقل الإعلام المرئي: حيث تُعتمد الفرنسية باستثناء الأعمال السينمائية المعروضة بصيغتها الأصلية.

ولم يغفل هذا القانون الإشارة إلى بعض العقوبات. كما راعى الأنظمة العائدة إلى اللّغات المحليّة حين اعتبر أنّ أحكامه لا تهدف إلى التّعرّض لها[1]".

وإذا كان لنا من تعليق حول هذه القوانين، فإنّه يحقّ للفرنسيين أن يَسُنّوا أرمادةً أخرى من القوانين التي تُحافظ على لغتهم، وتعمل على بقائها مُشعّة خارج فرنسا. وإنّ الفرنسيّين لم تَغِب عنهم الحالاتُ الهامّة في التّرقيّة، فعملوا على مجموعة من الصُّعُد بتقديم:

1 ــ مُرافعاتٍ في اللّغة الفرنسيّة: إنّ اللّغة الفرنسيّة لغةُ الشّعب الفرنسيّ ولغةُ ما وراء البحار، **و**لغةٌ رسميّة في 32 بلداً، ويتكلّم بها في العالم ما يقرُب من (500) مليون شخص كلغة عِلْم، وحوالي (160) مليون كلغة أُمّ. والفرنسيّة لغة في جميع وِكالات الأمم المُتّحدة، وفي عدد كبير من المُنظّمات العالميّة، وثالث لغة تُحكى في الاتّحاد الأوروبي. واللّغة الفرنسيّة فرعٌ من عائلة الهنديّة الأوربيّة، ولها مساحات استعماليّة خارج فرنسا، و"تبَعاً للاتّحاد الأورپي، فإنّ (129) مليون مواطن من الدّول السّبع والعشرين الأعضاء في الاتّحاد الأورپيّ يتكلّمون الفرنسيّة؛ أي بنسبة 26 % من أصل 740 198 497 وهو العدد الإجماليّ لمواطني الاتّحاد الأورپيّ، منهم (65) مليون مواطن؛ أي 12 % يتكلّمون الفرنسيّة كلغة أساسيّة و14 % يُعلنون أنّهم يتكلّمونها لغة ثانيّة، ممّا يجعلها ثالثَ أكبر لغة تُحكى كلغة ثانيّة في الاتّحاد الأورپيّ بعد الإنكليزيّة والألمانيّة، بالإضافة إلى ذلك؛ فإنّ ما قبل تنامِي دور اللّغة الإنكليزيّة في مطلع القرن العشرين، فإنّ الفرنسيّة كانت تُعتبَر اللّغة الأبرزَ والأوسعَ انتشاراً في المجال الدبلوماسيّ بين القوى الأوربيّة

1 ــ مؤسّسة الفكر العربي، لننهض بلغتنا مشروع لاستشراف مستقبل اللّغة العربية، ط1. بيروت: 2012، منشورات مؤسّسة الفكر العربي، ص 192–193.

والاستعماريّة ككلّ، وأيضاً كانت اللّغة الأوسعَ انتشاراً بين النّخب التّعليميّة في أوربا[1]". وفي نظر النُّخبة الفرنسيّة؛ فإنّ فرنسا هي اللّغة الفرنسيّةَ وهي **الجنسيّةُ والوطنُ**، على حدّ قول (Cassen) فمَنْ لا لغةَ تميّزُه؛ فهو عديم الجِنْسيّة والنّسَب فلا وطنَ يأْويهِ. ويمكن إجمال القول عندهم في إنّ اللّغة الفرنسيّة هي الرّحم الذي يصنعُ الفكرَ، ويغرسُ الشّخصيّةَ، ويُوطّدُ التآلفَ ويخلقُ الانسجامَ؛ بغض النّظر على أنّها وسيلة للتّفكير، ومُنتجة للمعاني ومُولّدة للأساليب.

2 ــ تمجيد اللّغة الفرنسية: إنّ اللّغة الفرنسيّةَ عند الفرنسيّين لها خصوصيّاتها التي لا تُماثلها لغة أخرى، **فهي المقام العالي وهي القداسة.** وكأنّي بهم يؤكّدون تعريف العالم اللّساني (Hjelmslev يالمسليف) للّغة بأنّها "... ليست مُجرّد مُرافق بل هي خيطٌ عميقُ الحَبْك في نسيج الفكر، إنّها للفرد كنزُ الذّاكرة، ووعي يقظ متوارثان ابْناً عن أبٍ[2]". وكما أرى تشبّث الفرنسيّين بلغتهم يماثل القوّة والضمان والكساء، ويتجسّد في قول Edward Sapir القائل: "تمثّل اللّغة بالنّسبة لنا أكثر من كونها مُجرّد أنظمة لنقل الأفكار، فهي أكسيّة غير مرئية تكسو أرواحنا، وتسبغ على تعابيرها شكلاً مهيّأً سلفاً...[3]" وهكذا فاللّغة عند الفرنسيّين اعتزازٌ وتفاخرٌ وانتماءٌ، وهذا هو المبدأ الذي اعتمده الفرنسيون منذ (François I/ فرانسوا الأوّل) الذي تدخّل بالقوّة في إصلاح الواقع اللّغويّ عَبْرَ قوانين ومناشير وأمْرِيات، ونذكر على وجه الخصوص في سنة 1539 أصدر مَرسوماً عُرف باسم (Villes Cotterêts) وفيه يمنع استخدامَ اللاتينيّة في الإدارة والمَحاكم منْعاً قاطعاً وهذا من أجل توحيد فرنسا تحت عرشه، وإضفاء السّيطرة في فرنسا باسم **اللّغة الجامعة.** وهذا المَلِك لم يمنع تواجد العربيّة في أوربا نظراً لعلميّتها وانتشارها وما تحمله من دين، حيث "... تواجدت منذ ثماني قرون في عديد الدّول الأوربيّة حتى

---

1 ــ ينظر: ويكيبيديا الموسوعة الحرّة، عن google بتاريخ: 28/ 09/ 2014 م.

2 - L Hejlmslev, prolégomènes à une théorie du langage. Paris: 1956, p 10.

3 −Edward Sapir, Language An Introduction to the study of speech . London: 1970.

إنّ الملوكَ والأمراءَ كانوا يتباهون بالتّكلم بها، بل والانتماء إلى معارف علمائها المتألّقين في كلّ مجال... وسوف تتّضح لنا الصّورة أكثر إذا ما أضفنا أنّ فرنسا بعد (فرانسوا الأوّل) أسّست ما أسمتْهُ (مدرسة اللّغات الشّرقيّة) سنة 1790، ثمّ بَعْثِها لشهادة التّأهيل التّعليميّ للغة العربيّة سنة 1905. الأمر الذي أسْهمَ في إيجاد شبكة من المؤسّسات المُتخصّصة في إعداد المُثقّفين المُعرّبين أو المُستشرقين الذين كانت فرنسا بأشدّ الحاجة إلى دورهم الأمنيّ والاقتصاديّ والاستراتيجيّ[1]" بل إنّ ذلك الفِعْل هو الذي وضع أرضيّة للاستشراق في ما بعد. وفي عام 1794م بعد الثّورة الفرنسيّة 1789م أصدر الحاكم (Joseph Lakanal جوزيف لكنال) مرسوماً بإنشاء 24000 مدرسة ابتدائيّة تدرّس فقط بالفرنسيّة، ثمّ تلاه مرسوم آخر يقضي بتعميم تدريس الفرنسيّة في المعاهد العُليا وفي الجامعات. والذي يجب العِلْم به هو أنّ فرنسا تقدّمت وتحضّرت منذ الثّورة الفرنسيّة التي جسّدت قوّة اليَعَاقبة La force des Jacobites في أنّهم يخدمون الأمّة القوميّة (الفرنسيّة) بلغة فرنسيّة مُوَحِّدَة، وشعارهم: **أمّة واحدة ــ دولة واحدة ــ لغة واحدة.**

3 ــ غلبة الدولة المركز ولغة المركز: دولة المركز هي فرنسا الباريسية ولغتها هي لغة جزيرة فرنسا Île de France وكان عندهم مبدأ **(غَلَبَة اللّغة بغَلَبَة الدّولة)** والدّولة هي التي تصنع القرار اللّغويّ/ السّياسيّ، وهي المسؤولة عن اللّغة الرّسميّة. ونعلم بأنّ اليَعَاقبة الثّائرين (Les Rébellions Jacobites) على الحكّام وعلى آراء الكنيسة المانعة لكلّ نشاط علميّ، ولكلّ برهان عقليّ، أرادوا إحداث التّغيّير في أوربا؛ ففرّوا من بريطانيا، وتَعَاطفَ معهم ملوكُ فرنسا بدءاً من (Louis XV/ لويس الخامس عشر) فأحدثوا تغيّيراً كبيراً في الفكر والثّقافة الفرنسيّة، فظهر من وراء ذلك رجال التّنوير؛ حاملين فكر اليَعاقبة القائل "**غاية**

---

1 ــ سوسن الصّدفي "أي مناهج تعليميّة، وأيّ استراتيجيّة تربويّة للّغة العربيّة بفرنسا؟" مجلة المؤتمر الدّوليّ الثّالث للّغة العربيّة. دُبَي: 2014، الجزء الرّابع، ص 446.

الوجود هي الوصول إلى الحقيقة شبه مُطلقة، وأوّل الطّريق إلى الوجود هو اللّغة، والأمّة التي تضيّع اللّغة، فإنّها تُضيّع حقيقتها، وتُضيّع معها قدرتها على الوجود". ومن ذلك قامت في أورپا فكرةُ اللّغات القوميّة، فبدأ تقسيم أورپا ينجلي وأصبح مَسموحاً به أن تظهر المُناداةُ إلى المَحليّة الضيّقة؛ بدعوى الخصوصيّة فهناك من استغلّ ذلك بالدّعوة إلى الخصوصيّة اللّغويّة، ويظهر في فرنسا القديس (گريگوار روبسپيير Robispièrre) مُنافحاً على لغة/ لهجة الأويل Oil على حساب اللّغات/ اللّهجات الأخرى، مستعيناً بقوّة اليَعَاقبة الفارّين من بريطانيا، وينجح في فعله القويّ، والذي تصبح فيه لغةُ (Île de France) فارضةً نفسَها على كلّ فرنسا.

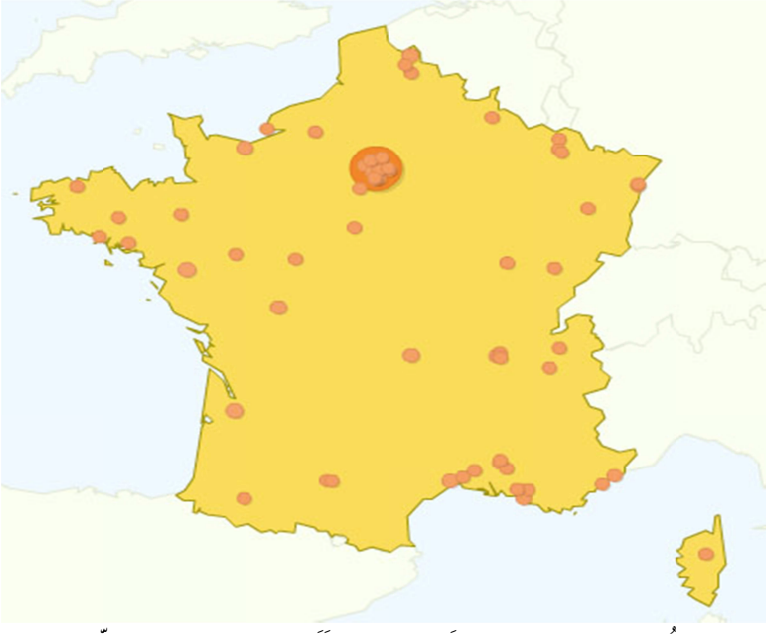

وتصبح لغةُ جزيرةِ فرنسا لغةَ القوّة والغَلَبَة، وهي لغة الحُكّام، ولغة مدينة باريس المُعمّمة على كلّ أرجاء فرنسا، ويعمل كلُّ الفرنسيّين على حمايتها كلٌّ في ميدانه، وهذا القدّيس (گريگوار) يقدّم تقريراً لمجلس الثّورة عن حال اللّغة الفرنسيّة، ويقول فيه: "إنّنا نستطيع أن نؤكّد دون مُغالاة أنّ نحوَ ستّة ملايين من الفرنسيّين، ولا سيّما في الأرياف لا يعرفون لغتهم القوميّة، وعدداً يقلّ عن ذلك إذا

عرفنا شيئاً منها فإنّهم لا يستطيعون أن يواصلوا التّحدّث بها، والذين يُحسنون التّكلّمَ بها بفصاحة لا يتجاوز عددهم ثلاثةَ ملايين. أما الذين يستطيعون كتابتها على وجه الصّحة، فمنهم أقلّ من ذلك بكثير. وحَلّ المُشكلة يكمن في مُحاربة اللّهجات المَحليّة، ونَشْر اللّغة الفرنسيّة الفصيحة بين المواطنين جميعهم[1]". وهذا هو الحلّ الذي ارْتضاه، فلا بدّ من لغة فرنسيّة **فَصيحة مِعْياريّة**، ولا تكون إلاّ تلك اللّغة التي فُرضت بالقوّة "لقد رأت الثّورة الفرنسيّة أنّ اللّهجات التي تتكلّمها الجماهير الفرنسيّة (أي ثلاثة أرباع من السّاكنة حسب إحصاء القسّ غريغوار) عائق للتقدّم الاجتماعيّ. وكان تقريره الموجّه للجمعيّة العامّة مُعنوَناً بما يلي: **الحاجة والوسائل لمحو اللّهجات وتعميم استعمال اللّغة الفرنسيّة[2]**". وقد عملت هذه المَقولة، وما قبلها على الإطاحة برؤوس من كان ضدّها، فأن تَقْبَل باللّغة الفرنسيّة الكلاسيكيّة الفصيحة، وتتنكّر للغات الأخرى، وإلاّ سوف تُحاكَم أمام النّاس، ويكون مصيرُك الشّنق، فأنت لستَ من القوميّين الفرنسيين. وذلك ما عمل على تجنيد فِرَق مُتشيّعة للفرنسيّة، وأضحى لها دُعاة مُتزمّتون لا يــرون الكمال إلاّ في اللّغة الفرنسيّة **فهي المَجد؛ والمَجد مُقدّس**. وذلك ما أباحَ للجنرال (ليوطي Lyautey) اعتمادَ تعريــف (هومبلــوت Humboldt) للغــة بأنّهــا: لهجــة لهــا جيــش وبحرية La langue est un dialecte avec armée et une marine. فالغَلَبَة في ذلك الوقت يعود للقوّة الذي تملكه لغة مدينة باريس، ولذا نجد هذه الحدّة لدى النُّخبة التي امتثلت صيغة الفرض والقوّة.

وإذا توقّفنا قليلاً عن (ليوطي) الشّوفيني الذي يعتبر اللّغة الفرنسيّة إيديولوجيّة تعمل على ربط بلاد ما وراء فرنسا بفرنسا؛ بالرّضا والطّاعة والسّكوت، وإلا

---

1 ــ محمود السّيد "التّمكين للغة العربيّة" مجلة مجمع اللّغة العربيّة. دمشق: 2008، مجمع اللّغة العربيّة بدمشق، المجلّد 83، ص 303 ــ 304.

2 ــ عبد القادر الفاسي الفهري، السّياسة اللّغويّة في البلاد العربيّة، ط1. ليبيا: 2013 دار الكتاب الجديد المتّحدة، ص 22-23.

بالقوّة، والفرنسيّة عندها سلاحُ المعركة، ولربح المعركة لا بدّ من حُسن استعمال هذا السّلاح؛ حتى ولو تطلّبَ الأمرُ اقتلاعَ الشّعوب والأمم من امتدادها الحضاريّ أو الرّمـــي بهـــم في مزابل التّاريـــخ، فالغايـــة تبرّر الوسيلة حسب (جورج هادري M G Hardy). ونرى (ليوطي) نفسه يقول "... فليس علينا أن نُعلّم العربيّة للسّكان الذين امتنعوا دائماً عن تعلّمها. إنّ العربيّة عامل من عوامل انتشار الإسلام؛ لأنّ هذه اللّغة يتمّ تعلّمها بواسطة القرآن، بينما تقتضي مصلحتُنا أن نطوّر البربرَ خارج نطاق الإسلام[1]". وهذا الجنرال كان يقود حملةً وفِرَقاً من العلماء العاملين على فرض الفرنسيّة، أو ما ينوب عنها من الاهتمام باللّهجات المحليّة حتى تكون الكلمة الأخيرة للفرنسيّة، فنراه يجنّد أمثال: William Marçais وGeorges Colin فيلعبان دوراً خطيراً في الدّعوة إلى الكتابة بالعاميّة العربيّة وهذا بِغَرَض قطع الصّلة بين العاميّة والفصيحة، ويدعوان إلى هجران الفصيحة لأنّها لا تُساير العصر، فهي كلاسيكيّة عفا عليها الزّمان، فنجد صديقهما Brunot ينحو هذا المنحى، فيكتب كتاباً يسمّيه: Introduction à l'arabe Marocain والمهمّ أنّ هناك باحثين ما كانوا ليكونوا إلاّ أيادي استكشاف للمستوطنين الذين تلاحَقُوا على شمال إفريقيا، فوقع احتلالُها بالكامل. وذات الفعل نجده عند الباحث (جورج لوجلي) الذي يسير في نفس الفلك، فينشر مقالة يُدافع فيها عن طرح (ليوطي) و(جورج هاردي) ويقول: "والمشروع يفرض أن يتمّ تطوير سكان الجبال باللّغة الفرنسيّة المُعبّرة عن فكرنا، سوف يتعلّم السّكانُ البرابرةُ اللّغةَ الفرنسيّةَ وسوف يُحْكَمون بالفرنسيّة... علينا أن نقلع في كلّ مكان عن الحديثَ باللّغة العربيّة وإعطاءَ الأوامر بالعربيّة إلى قوم هم مُجبَرون على فَهْمنا وإجابتنا. ولذلك ينبغي العملُ قبل كلّ شيء على تحويل مصالح الشّعب المغربيّ في اتّجاه مصالحنا نحن.

---

1 ــ ع/ الحسن مادي، السّياسة التّعليميّة ورِهانات المُستقبل. الرّباط: د ت منشورات مجلة علوم التّربيّة، ص 22.

وأيضاً تحويل مصيره إن أمكن، وليس هذا بدافع عاطفيّ محض، ولكنّه بدافع فهمٍ واضحٍ للهدف المبتغى والنّتائـــج المُتوخّاة لصالـــح قضيّتنـــا[1]". وكـــذلك فَعلَ (Jules Ferry چول فيري) بما استخدمه من عِلميّة وسُلطة وإجْبار، فيرى بأنّ الشّعب الذي يتكلّم لغته يغدو Homogène، وإذا تكلّم لغة غيره يصبح Hétérogène أو Disparate حيث اللّغة هي نفسها الإنسانُ والوطن والأمّة والكيان، وهي الحضارة، فلا بدّ من إخضاع هؤلاء النّاس للتكلّم بلغتنا، وليكونوا إلى جانبنا خاضعين طائعين. وفي ذات الوقت يعمل (چول فيري) بقانون الأنديجان Indigène الذي يقسّم ساكنة البلد المستعمِر إلى فئتين: فئة المستعمِر (الكولون) ولغته عاليّة. وفئة المستعمَر (الأصليّون) أو الدّهماء والغوغاء، ولغتهم أدنى، ولا يمكن أن تُضاهي (لغة الدّهماء) المُتخلّفة أبداً (لغة الكولون♥) الرّاقيّة دائماً.

وهنا لا بدّ من العودة إلى استحضار التاريخ الفرنسي في الجزائر، وكيف عملت على المسخ العامّ؛ ليعتبر الفرنكفونيون الجدد بأنّ فرنسا تغيّر جلدتها ولكنّها لا تتنكّر لماضيها المرتبط بسياسة الإنديجانا؛ وهي سياسة وحشية إقصائية، فمن مظاهرها وأهدافها نشير إلى تلك المظاهر ذات العلاقة بالموضوع، وتتمثّل في:

ــ التّنظيم الاداري والعسكري:

1ــ إلحاق الدستور الفرنسي الجزائر بفرنسا في 4 نوفمبر 1848.

1ــ ع/ الحسن مادي، السّياسة التّعليميّة ورهانات المستقبل. الرّباط: د ت منشورات مجلة علوم التّربيّة، ص 23.

♥ــ نظراً لخطورة هذا القانون المُسمّى (قانون الأهالي) إليكم توضيحًا مختصراً فيه. هو مجموعة من القوانين التّعسّفيّة ضد الأهالي (سكان الجزائر) ومنه قانون يمنع استعمال العربيّة والقبائليّة في الإدارة والتّدريس. إنّه قانون عنصري تمييزيّ وفق النّظرة التّحقيريّة تجاه الفرد الجزائريّ. ويرمي في ما يرمي إليه إشعار المواطن الجزائري بالنّقص إذا ما أَولَى لغتَه العنايةَ. وكلمة الإنديجان (Indigène) صفة تُطلق على ساكنة البلاد المُستعمَرة، وتحمل مَدلولاً تحقيرياً وشُحنة عُنصريّة، وتُطلق على العربيّ النّاقص والمُتخلّف، وهو الشّعب الذي يحتاج إلى تدجين. كما أُلصقت به كلّ علامات التّخلّف لدرجة أنّه الرّجل الخارج عن القانون، فَدَمُهُ مُباح.

2 ــ تقسيم الجزائر إلى ثلاث مقاطعات (ولايات) قسنطينة الجزائر وهران.

3 ــ اعتبار الجزائر ولاية عامّة يحكمها حاكم عامّ عسكري ويساعده مجلسان (المجلس الاستشاري والمجلس الأعلى للحكومة).

4 ــ تقسيم كلّ ولاية إلى بلديات (مختلطة وأوروبية) ولكلّ بلدية مجلس ورئيس معيّن من الوالي.

5 ــ إضافة إلى المكاتب العربية التي يتولاّها مَسؤول مَدني فرنسي بمُساعدة زعماء القبائل والأعراش.

6 ــ تميّز النّظام الإداري المتبع يتميز بالطابع العسكري بين 1830 و1870.

وأما سياسة الادماج: فقد عملت على إدماج الجزائر بفرنسا وجعلها جزءاً منها إثر مرسوم 22 جويلية 1834. ومن ثمّ عملت على:

أ ــ منْع السكان الجزائريين من الحصول على حقوقهم السياسية والاقتصادية.

ب ــ دعْم المُعمّرين مالياً لبناء المُستوطنات في جميع أنحاء الجزائر.

ت ــ منْح الجنسية الفرنسية لليهود الجزائريين بموجب قانون (كروميو) في 24 أكتوبر 1870.

ث ــ منْح الجنسية الفرنسية للأوروبيين المُقيمين بالجزائر بموجب قانون 1889.

ج ــ الاستيلاء على الأراضي الخصبة لصالح الجالية الأوروبية المقيمة بالجزائر، وتمكينهم من الحكم.

وكان تركيزها على سياسة التّنصير؛ فقد تمثّلت في سياسة الإبادة الروحية مثل:

- إلحاق الدين الاسلامي بالإدارة الفرنسية تحت رقابة القيادة العسكرية؛
- إخضاع كلّ النشاطات الدينية والتّطوعية لرخصة مُسبقة؛
- اعتبار الحجّ من أسباب العصيان؛ لذا يجب إخضاعُه لرخصة مُسبقة؛
- تحويل المساجد والمعاهد إلى كنائس وثكنات وإسطبلات للحيوانات؛

- الاستيلاء على الأوقاف الإسلامية، وبيع الأحباس بمختلف أنواعها بموجب قرار (كلوزيل) في 12جويلية 1830 وقرار 1844؛

– إخضاع القضاء الاسلامي للقانون الفرنسي؛

- نفي وإبعاد الأئمة مثل مصطفى الكبابطي ومحمد محمود العنابي؛

- تشجيع عمليات التّبشير والتّهويد؛ حيث بنيت 327 كنيسة و54 معبداً لليهود كإنشاء أسقفية الجزائر في 8 أوت 1838 والتي تزّعمها في ما بعد (Lavigerie/ لافيجري) سنة 1866 والذي أنشأ جمعية الآباء البيض في الحراش 1869؛

– هدْم المساجد والمدارس إثر كل مقاومة أو باسم المصلحة العامة.

وفي هذا المجال، عملت في الجانب الثّقافي على:

- إحلال اللّغة الفرنسية محلّ العربية في جميع المعاملات (س إ ع ج)؛

- اعتبار اللّغة العربية أجنبية ولا يجب تعليمها؛

- القضاء على المدارس والزوايا والمعاهد والكتاتيب العربية، وتهديم الآثار الإسلامية؛

- فرْنَسة المحيط بكتابة أسماء الشوارع والمدن بشخصيات فرنسية؛

- تشويه تاريخ الجزائر كالمازيغية والعروبة والإسلام، والتّركيز على العهد الروماني؛

- تدريس جغرافيا وتاريخ فرنسا؛ على أنّها جغرافية وتاريخ الجزائر؛

- حرْق المؤلفات والوثائق الخاصّة بتاريخ الجزائر؛

- تجنيد وسائل الإعلام المختلفة: كتب صحافة إذاعة سينما وحركة استشراق.

وهكذا، فسياسة الإنديجينا، هي سياسة الاستيطان، وكانت مشروعاً أوروبياً أكثر مما هو فرنسي؛ حيث سهّلت عملية مصادرة الأراضي عملية إقامة القرى الجديدة في شكل مستوطنات، كما فرض قانون الأهالي على الشعب الجزائري، وتلاه قانون الجنسية في 14 جويلية 1865 الذي يجرّده من حقّ المواطنة ما لم يتخلّ الفرد عن الشخصية الإسلامية. وبكلّ هذا، أصبح الأوربيون يتمتّعون في الجزائر

بحقّ المواطنة إثر قانون (كروميو) ومعهم بعض الجزائريين المتعاونين الذين أطلقت عليهم صفة **النُّخبة.**

وفي كلّ هذا العمل، كانت فرنسا تخطّط للهيمنة بكلّ أبعادها، وكانت وسيلتها في ذلك اللّغة الفرنسية، وهي ميراثها القديم الذي لا تتسامح فيه، وهذه اللّغة تعمل على تعميمها بوساطة النُّخبة التي تكوّنها ليكون سلاحها. وعلى العموم، فإنّ للفرنسيّة عند الفرنسيين القدماء أو المحدثين مَوْقعاً خاصّاً في أوربا القديمة، ولها قوّة السّلطة الفرنسيّة الكولونياليّة؛ والتي بلغ بها الأمر أَنْ كانت القوّةَ الثّانيّةَ في العالم، إنْ لم نَقُل: إنّها القوّةُ العسكريّةُ الأولى بما لها من عسكرتاريّة لا توجد في الدّولة التي لا تغيبُ عنها الشّمسُ.

4 ــ عدم زوال الدولة الفرنسية بزوال المُسيّرين: لقد عملت كلّ الحكومات الفرنسيّة المتتاليّة على استبعاد كلّ اللّهجات، إنْ لمْ نقلْ مَحْوها، وبكلّ ذلك غَدَتْ فرنسا أمّةً مُتحضّرةً، ولم تُعِد النّظرَ في ما خطّطه اللغويّون السّابقون في الشّأن اللّغويّ؛ لأنّهم كانوا يستهدفون بناء **(الدّولة الأمّة)** ويُخطّطون للمستقبل وِفْقَ: **أداء الواجبات، ثمّ أخْذ الحقوق، وبشريعة الدّيمقراطيّة التي تنبُع من الدّولة الأمّة.** وكانوا يُفصّلون بين السّلطة والدّولة الوطنيّة (الأمّة) فالسّلطة زائلة، و(الدّولة الأمّة) باقيّة، فالمواطن الفرنسي يتعامل مع السّلطة بمفهوم **(الدّولة الأمّة)** ومن ورائها تأتي لغة الأمّة/ اللّغة الأمّ. وفي برنامجهم أنزلوا اللّغاتِ القوميّةَ منزلةَ القداسة، ولا يُناقش موقعُ اللّغة القوميّة، بقدر ما تحصل المناقشةُ في أفضل المَنْهَجِيّات لخدمة اللّغات القوميّة، وهذا هو الرِّهان الذي يجب أن نربحَه نحن، أو على الأقلّ **أن نعتبرَ منه.**

ولكن في الوقت المُعاصر تعيش الفرنسيّةُ انتكاساً، فليس لها نفس الإشعاع السّابق في الدّاخل، عكس ما تعيشه من ازدهار خارج فرنسا، وهذا باعتراف الفرنسيّين أنفسهم الذين يقولون: Le français doit-il entrer en résistance. وهذا مما يرونه مــن خطــورة عليهــا فــي داخل فرنسا، ولكنّها تتألّق خارجها

La langue française décline en Europe progresse en Afrique وهذا ما يظهر في كثير من المقالات التي تنشر في الجرائد الفرنسيّة، وعبر تلك التّصريحات التي يدلي بها اللّسانيّون، ويرون بأنّ الفرنسيّة في هذا الوقت أمام ثلاث لغات قويّة، فكيف تنتصر أمام: **الإنكليزيّة+ الألمانيّة+ الإسبانيّة**، أضف إلى ذلك قيام مُؤسّسات في فرنسا تُعلّم فقط باللّغة الإنكليزيّة، ومجلات فرنسيّة تَصدُر فقط باللّغة الإنكليزيّة، وغير ذلك مما يُستتبَع من وسائل العولمة "وبماذا نُفسّر قيامَ معاهد النّخبة الفرنسيّة في فرنسا بوضع برامج دراسيّة كاملة باللّغة الإنكليزيّة؟ بل إنّ طريقة الإدارة ومناهج التّدريس أصبحت تتّجهُ شيئاً فشيئاً نحو المناهج الأمريكيّة، سواء في ما يخصّ استخدام الأساليب الكميّة في البحوث الاجتماعيّة، أو الابتعاد عن الأسلوب الفرنسيّ المُنمّق المُسترسَل في الكتابة والاتّجاه نحو الأسلوب الأنكلوساكسوني المختصر المباشر[1]". ومع مدّ الإنكليزية المتسارع المنتشرة على مستوى "67 دولة مُتواجدة بالقارات الخمس، وعلى عكس الصّينية أو الرّوسية التي وإنْ كان عددُ الناطقين بهما جدَّ مرتفع، فهما مَحصورتان بفضاء جُغرافي مُحدّد[2]" وهذا ما يُسجّل على الفرنسية التي لها امتداد كبير في العالم، فهي لغة علمية لما لها من وظائف اقتصادية. وفي هذا المجال نجد العربية أنّ لها تواجداً في القارات الخمس ولها أكثر من عشرين دولة تستعملها، ولها ما يقرب من المليارين من المستعملين لها، وخطّها يستعمل في 38 لغة عالمية، ولكنّها ليست لغة عالمية على غرار الإنكليزية أو الفرنسية، فأين الخلل؟

إنّ الخللَ يكمن في أنّ العربية ليست مُعولمة؛ كما هو الشّأن في الإنكليزية ومن باب التّأكيد، فإنّ العربية ضعيفة في بُناها وفي هياكلها، وليست لغة الاقتصاد

---

1 ــ ياسين فاروق "الفرنكفونيّة إيديولوجيا، سياسات. تحدٍ ثقافي– لغويّ" ط1. بيروت: 2011 مركز دراسات الوَحدة العربيّة، ص 89.

2 ــ يحيى اليحياوي "اللّغة العربية والإنترنت ومجتمعات المعرفة في ظلّ العولمة" مجلة اللّغة والتّواصل. الرباط: 2011، منشورات معهد الدّراسات والأبحاث للتّعريب، ص 251.

والمال والأعمال، وتبادل السّلع والخدمات والتّواصل الشّبكي. أضف إلى ذلك ما تعرفه من تدهورٍ في بنياتها النّحوية والصّرفية، وفي عوامل التّرجمة، وفي الفقر المُصطلحي، وما يتْبَع ذلك من هَزال المُخرجات في نظامها المُعاصر.

ونعود إلى الفرنسية التي تضايقها اللّغة الإنكليزية، وبدأت تَتَضَايَقُ داخلياً بفضل قوانين الاتّحاد الأوربي الذي يَفْرِض تدريسَ لغةٍ أو لغتين أوربيتين على الأقّل؛ بغية التّواصل البيني، فبدأت في تسريح التّشدّد بإكراه، وبدأت تُغيِّب المقدّسات: **أمة واحدة ــ دولة واحدة ــ لغة واحدة.** وما بقيّ منها إلاّ (أمّة واحدة) والباقي من التّاريخ، فإنّ الدّولة الواحدة أضحت فيها لغتان في مجال العلم والاقتصاد، كما نجد الفرنسيّين يتسابقون في نشر كُتبهم وأبحاثهم بلغة العولمة، وهي (الإنكليزيّة) الزّاهرة، والفرنسيّة تتراجع في عُقر دارها كما تتراجع في خريطة الاستعمال في أوربا، وكما نشهد كلّ يوم دراسات مقارنة أو تقابليّة بينها وبين لغات العلم، فنرى ذلك الانحدار الذي تعيشه. وهذا ترتيبها بين لغات أوربا:

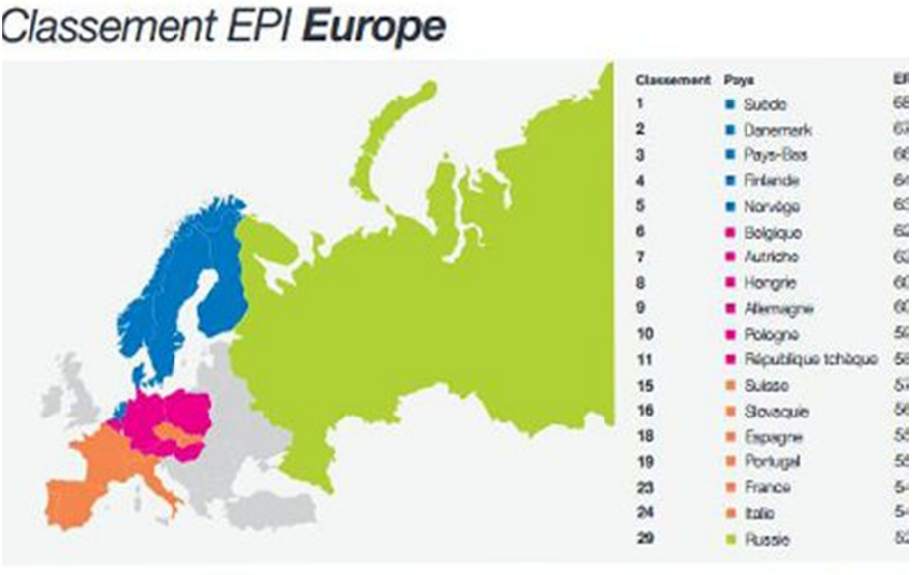

ومع ما تعيشه من انتكاسة مُعاصِرَة، فإنّ الدّولةَ الفرنسيّةَ قائمةٌ، بمعنى إنّ غلبةَ الفرنسيّةِ قائمةٌ، وهناك تدهور في ما وراء البِحار، وهذا شيء طبيعيّ؛ باعتبار الحقوق اللّغويّة التي تُنادي بها الشّعوب بدأت تظهر في كثير من الدّول وتجد اللّغةُ الفرنسيّةُ نفسَها مُتضايقةً في بعض المواقف. ولكنّ حكمةَ مسؤوليها في بقاء المركزيّة الفرنسيّة هي التي أبقتْ على الفرنسيّة، وإنّه من الحكمة تطوير السّلطة عندنا إلى فكرة (الدّولة الأمّة) لبناء دولة مُؤسّسات تُحافظ على المُكتسبات، وتُساير الأحداثَ، ولا تزول بزوال المُسيّرين، وهذا فعل الشّعوب المتقدّمة مثل فرنسا التي تعمل جاهدة على إبقاء وإضفاء الإشعاع للغتها.

5 ــ غلبة الدولة في تطبيق القوانين: إنّ فكرة (الدّولة الأمّة) التي تعمل على **غلبة الدّولة في أجهزتها وقوانينها** لها من القوانين ما لها، ولها من الاحترام ما هو مُجسّد في الواقع، وبخاصّة في المقدّسات التي هي من حضارة تلك الأمّة. ولكنّنا في واقعنا –نحن العرب– نُجسّد **(قوةَ السّلطة/ السّلطة الدّولة)** التي تتعامل مع الحدود الدّنيا الضيّقة، ومع واقع مُهترئ، فإذا حدثَ شَغَبٌ/ مظاهرات تَستظهِر السّلطةُ غلبتها كورقةَ قوة السلطة، وتقيم حالة الطّوارئ، ومن ثمّ تُوقِف العملَ بالدّستور، وتلغي كلّ أشكال الدّيمقراطيّة إلى غير رجعة أحياناً. فالسّلطة عندنا لها الأمرُ والنّهيُّ، والمؤسّسات تخضع لأوامر السّلطة، وهنا المفارقة بيننا وبين الدّول المتقدّمة. ولكن في الدول المتقدّمة نرى قوّة السلطة تتمثّل في المحافظة على الأمن العامّ، وهذا جيّد وفي الأمن العامّ، هناك **الأمن اللّساني**، وهذا هو الغائب عندنا. علماً أنّ قوّة السلطة لها ما لها من قوة في التّجنيد، وفرض تطبيق نصوص الدستور، وليس ذلك من الصعب؛ حيث أبانتِ التّجاربُ على أنّ قوّةَ السلطة تظهر في تطبيق القوانين، فهل نحن نعمل على تطبيق القوانين؟

ومن خلال ما استعرضناه من مُرافعات وتمجيدات وحماسيات الفرنسيين فهل يحدث عندنا، كما حدث أيام (عبد الملك بن مروان) هل يمكن أن يكون لمسؤول عربي يجمع بين العلم والحكمة والدهاء والدفاع عن الهُوية العربية التي يجب أن

يكون لها المجد. يمكن أن يكون هذا المسؤول إذا رأينا في قادتنا الوازع الأخلاقي يقودهم إلى الواجب الوطني، ورأينا تطبيق تلك المقولة **(يزع بالحاكم ما لا يزع بالقرآن)**. فالحاكم العربي يتنزّل بأخيه وعلمه وماله وحاشيته ليكون البادئ في المحافظة على المواطنة بكلّ أبعادها، وكان عليه أن يحدّد تلك الأبعاد من خلال برنامجه الذي يبدأ بتوضيح الرؤية المستقبلية لأمّته؛ أي وضوح الرؤية، فكلّ مسؤولية/ رئاسة لها عنوان كبير يحكمها وتحدٍّ رئيسى تتميّز به. وفيها تتحدّد رؤية المسؤول/ الرئيس للمواطنة، وكيف سيلهب حماس الناس لتقتنع برؤيته وتعمل معه. ويضاف إلى ذلك التسويق السياسى للقرارات والقوانين والسياسات. فالمسؤول العربي الناجح يجب أن يكون مُوصِلاً جيّداً لأفكاره وتقييماته للناس، ليس فقط لأنصاره، ولكن لمعارضيه أيضاً. فلا يمكن لمسؤول أن ينجح إلاّ إذا كان قادراً على أن يقنع المعارضين والمتشككين بتقييمه السياسي للأحداث والتّحديات والفُرَص المُتاحة. ولا بدّ من امتلاك الذكاء العاطفي وهو المصطلح الذى استخدمه «Fred Greenstein» من جامعة برينستون ليفسّر الخصائص الذاتية التي تفسّر لماذا ينجح بعض السياسيين ويفشل بعضهم، وقد فسّر هذا المصطلح بأنه يعنى "خلو الرئيس من الاضطرابات العاطفية التي تُشتته، وأن يتمتّع بدرجة من الثّقة بالنفس التي تجعله يحافظ على مجموعة من الثوابت الأخلاقية والفلسفية والسياسية التي تحكمه" وكذلك احترام الرأي العامّ وإقناعه والإنصات له. فالمسؤول لا يقود قطيعاً من الحيوانات، بل يقود أناساً قد يكون بينهم من هم أعلم منه في الكثير من المجالات، وواجبه أن ينصُتَ إليهم، وأن يستفيد من الأفكار الجيّدة حتى لو جاءت من منافسيه. وكذلك المسؤول الناجح يحيط نفسه بفريق قوي حتى وإن لم يكن متجانساً تماماً، ولكن المُهمّ أن يكونوا أكْفاء. وفي التاريخ الأمريكى دائماً غالباً ما يتمّ ذكر اسم (جورج واشنطن) الرئيس المؤسّس للولايات المتحدة ومعه فريق عمله الذي كان على رأسه (توماس جيفرسون) و(ألكسندر هاملتون) في حكومته كلّ منهما قامة فلسفية وسياسية كبيرة، ولكنّهما كانا يكرهان بعضهما البعض. ومع ذلك

كان جلوسهما مع (جورج واشنطن) على مائدة النقاش قبل اتّخاذ أيّ قرار. إنّ المستشار العربي المطلوب في وقتنا الحالي هو من يبحث عمّن ينتفض من على كرسيه ليذهب لمكتب المسؤول ليقول له: سيدى، إنّ قرارك في كذا وكذا خاطئ تماماً، وأسبابي هي كذا وكذا. نريد مسؤولاً عربياً رصيناً يستمع للمختصّين وأهل الرأي، ويُدير حواراً عاقلاً، ويُحسن تنظيمَ العمل في مسؤولياته. ويتّخذ القرار المناسب، فصُنْع القرار الناجح مسؤولية جماعية، بل إنّ ذلك ما يجعل المسؤولَ يعيش مسؤولية تشاركية مركزية، لا تعدٍ ولا ظلم. وعلى المسؤول العربي أن يفيَ بتعهّدات ذلك القسم الذي نطق به ويمينه على المُصحف؛ باحترام مبادئ الدستور. فلكي ينجح المسؤول العربي في القيادة؛ كان عليه أن يلتزم بوعوده، وأن يُحافظ على المبادئ، وأن يَجهَر بما يعانيه، وعند ذلك يكون عِملاقاً في عيون من بايعوه أو ولّوه أو انتخبوه.

وعهدنا في كلّ هذا الكلام أن ننظر إلى تلك التّمجيدات التي علقت بأفواه الرّؤساء الفرنسيين، بل جسّدوها في أفعالهم، ولم يقبلوا أن تكون الفرنسية في سوق المزاد، أو أن تخضع للمساومة، وفِعْلهم كان دائماً تشريفَ الفرنسية في مقابلاتهم وكلامهم لشعبهم، وفي الخارج لا يتنازلون عن استعمال اللّغات الأجنبية أبداً، رغم أنّ الكثير من الرؤساء الفرنسيين يتقنون اللّغات الأجنبية. وتذكر المصادر بأنّ الجنرال (دو گول) يُتقن الإنگليزية، ولا يتكلّمها في الرّسميات حتى أثناء إقامته في بريطانيا. والرئيس (ساركوزي) يُتقن الهنغارية ولكنّه لا يستعملها إلاّ في الخصوصيات الضيّقة العائلية. والرئيس (جيسكار) يتقن الإنگليزية ولا يستعملها حتى في الرّسميات، والرئيس (شارون) يُتقن ثلاث لغات أجنبية، ولا يستعمل إلاّ العبرية... والحديث قياس كما نقول نحن في الجزائر. فهل يمكن أن تتجسّد فينا هذه الحكمة في الاعتزاز باللّغة الجامعة وهي لغة الأمّة، وهي المُواطنة في بُعْدِها العامّ.

نعم، يمكن أن تتجسّد إذا وقعَ احترامُ المواطنة اللّغوية La citoyenneté linguistique؛ لأنّ صفة المواطنة في بعدها العامّ، هي صفة المواطن الذي له حقوق، وعليه واجبات، وتفرضها طبيعة انتمائه إلى وطن.

La citoyenneté, qui implique l'exercice des droits civiques, est une notion qui ne se confond pas entièrement avec celle de nationalité : le mot « nationalité », au sens politique du terme, peut cependant être employé comme synonyme de citoyenneté.

Elle implique pour une personne physique ou morale d'être régi par le droit civil d'un pays. Ces deux qualités sont presque toujours associées.

Il existe cependant des exceptions dans les pays où plusieurs nationalités sont reconnues, par exemple :

- En République du Vanuatu, est déclaré citoyen nivan toute personne vivant et travaillant sur le territoire.
- Un citoyen soviétique pouvait être de nationalité culturelle tatare, abkhaze, tchétchène, russe, juive, estonienne, etc.
- Un citoyen israélien peut être de nationalité culturelle juive druze, circassienne, bédouine ou arabe.
- Un citoyen néo-calédonien a la nationalité française et, par ce fait, la citoyenneté européenne. (Attention : la situation juridique de la Nouvelle-Calédonie est très particulière).

ومن هذه الحقوق الهامّة **حقّ التّعليم باللّغة الوطنية**، وبناء عليه، فالمواطنة علاقة الفرد بدولته، علاقة يُحدّدها الدستور والقوانين المنبثقة عنه، والتي تحمل وتضمن معنى المساواة بين من يُسمّون مواطنين، وتحيل المواطنة باعتبارها مفهوماً قانونياً إلى شرطين:

"1ــ شرط الدولة الوطنية: وما يستتبع ذلك من إقامة مجتمع وطني يقوم على اختيار إرادة العيش المشترك بين أبنائه.

2ــ شرط النّظام الديمقراطي: ومُتطلّباته التوازن بين الحقوق والواجبات بين الخاصّ والعامّ، بين الخصوصيات والشّمول.

وهكذا، فالمواطنة اللّغوية مفهوم مركزي بين الراعي والرّعية، في تجسيد حقوق التّدريس والاستعمال للغات الوطنية، وفي ذات الوقت هي احترام وتطبيق

للدستور والمواثيق الوطنية والمَرْجِعيات الحضارية والتاريخية. وعن طريق المواطنة اللّغوية تُبنى الثّقة التامّة بين المسؤول والمسؤول عنهم[1]". إنّ المواطنة بصفة عامّة هي احترام للنصوص الوطنية وللوطن، ولتلك التعهّدات التي يقطعها المسؤول أمام شعبه، وهي الوطن أو المنزل الذي تقيم فيه، وهو موطن الإنسان ومحلّه.

إنّ المواطنة اللّغوية المقصودة هنا؛ مواطنة من نوع احترام المواطن بدءاً من الحديث إليه بلغته، وعلى المسؤول أن يكون نموذجاً في هذا الأمر في الاستعمال ودون أخطاء؛ لأنّ هيبةَ الحاكم من هيبة احترامه للمواطن في حسن استعمال اللّغة المشتركة، وفي استعمالها بما لها من خصائص، ولا يعني هذا أن يكون المسؤول فقيهاً لغوياً، بقدر ما نقول أن يُجيد توظيفَها واستعمالَها دون أن يخطأ أو يشعر بالضّيق وهو يجيب عن الأسئلة. وكان على مسؤولينا أن يأخذوا **العبرة** من الغربيين، فلم نسمع عنهم أنّهم استعملوا أمام شعوبهم اللّغات الأجنبية، كما لم نسمع أنّه اقترفوا أخطاء من العيار الثّقيل. وفي هذا المجال كان على المسؤولين العرب أن يُحموا لغتهم من الهجين اللّغوي ويحُدّوا من تشجيع اللّهجات المحلية في وسائل الإعلام، ولكن بما نراه ونسمعه في فضائياتنا خاصّة، فنخاف في المستقبل أن يحدث بذلك تقسيم المقسّم، وتضيع العربية. ولذا من الضروري أن يحتاط المسؤول في استعمال لغته ويكون حريصاً على توظيفها بكلّ حصانة وحصافة. وبهذه الحصانة اللّغوية يرتفع شأنه في نظر الشعب، بل يكون مثالاً وقدوة في الافتخار وتأتينا **العبرة** في بعض المقامات من أناس يطلبون منّا استعمال لغتنا في العلوم

---

1 ــ ينظر:

1 ــ صالح بلعيد، في المواطنة اللّغوية وأشياء أخرى. الجزائر: 2008، دار هومة للطبع والنّشر والتّوزيع.

2 ــ بشير نافع & سمير الشميري & علي خليفة الكواري "المواطنة والديمقراطية في البلدان العربية". بيروت: 2001، مركز دراسات الوحدة العربية، ص 27 .

وهكذا قال لنا الڤيتناميون أيام مدّ التعريب، وقال لنا الروس: نستطيع التدريس بالعربية بسهولة إذا رغبتم، بل هناك من قال: نمدّ لكم منهجيات تدريس لغتكم بسهولة... وأمام التّهاون واللامبالاة يكون وضع العربية في حرج، وتميل إلى الرداءة ونسير كلّنا في طريق الخطأ، ولهذا يسألونك لماذا أصبح وضع لغة الضاد في الحضيض في مدارسنا، وفي وسائل إعلامنا؟ فهل نلوم تلاميذَ مدارسنا وطلابَ جامعاتنا إذا كانوا لا يتقنون لغتهم الأمّ، ويلحنون فيها، ولا يستطيعون تأليف جملة مفيدة واحدة، بل نلوم أنفسنا، ونعلّق الأمر على مسؤولينا، **وهل يُعقل أن تعرض ألمانيا على الجزائر المساعدةَ في حماية لغة الضاد؟**

فيا أيّها المسؤول العربي، وأنت تعرف أنّ هيبتك من هيبة لغتك، ألا يُقال: إنّ اللّغةَ وعاءُ الفكر؟ فأين الفكر إذا كان وعاؤُه عندك لغةً معطوبةً نحواً وإلقاءً؟ وكيف يستطيع البعضُ أن يستوعب الاستراتيجيات الكبرى وتشعّبات السياسة والاقتصاد إذا كان لا يقدر على استيعاب أحرف الجرّ والنصب والجزم؟ ومن هنا، نريد مسؤولاً مثقّفاً، فإذا كان أحادي اللّغة يُتقن لغته ويكتب بها، فإتقانه للغة أجنبية ليست واجبة، بل من الاستحسان، وإذا كان يتقن لغة أجنبية ويكتب بها، ولا يتقن لغته، فهو جاهل. وإذا كان يُتقن اللّغة الأجنبية ولا يكتب بها، ولا يتقن لغته، فهو جاهل مرتين. وإذا كان يُتقن لغته ويكتب بها، ويتقن لغة أجنبية ويكتب بها، فذلك مسؤول مُثقّف بامتياز.

ومع ما قلناه، فإنّنا لا نريد من المسؤول العربي أن يكون منغلقاً دون لغته، بل عليه أن يُتقن أكثر من لغة أجنبية، ويستعملها في محالها، وفي الوقت المناسب في أمور تخصّ الدولة، وفي إطار خاصّ يتطلّب استعمال الأجنبية في غير البلد الأصلي. بل إنّ إتقان المسؤول العربي لغة/ لغات أجنبية ضرورة في عصرنا الحاضر؛ كي لا تفوته فجوات البروتوكولات، أو نصوص المُعاهدات والاتّفاقيات وكلّ ما يدخل في هيبة الدولة في الخارج.

وإنّ إتقان المسؤول العربي للغات الأجنبية ضرورة وفرض عين، لأنّنا في عصر التحكّم في اللّغات للإفادة منها، فما بالُكُم بمسؤول دولة أغلب مُعاملاتها الاقتصادية والدبلوماسية مع دول أجنبية لا تستعمل العربية. عندما أقول إتقان لغة أجنبية ضرورة وفرض عين على المسؤول، لا أعني معرفة كلمات التحية أو الشكر، واستعمال عبارات المُجاملة، بل المقدرة على استعمال اللّغة الأجنبية في المُفاوضات، والقدرة على التبليغ والإقناع أثناء المحادثات مع رؤساء الدول الأجنبية أو الوفود الدبلوماسية أو في المؤتمرات الصحفية بل هي وسيلة من وسائل الدالة على الاطلاع والانفتاح ومعرفة الآخر وسيكون ذلك وسيلة في مواجهة الصحافيين.

وأمام هذا العمل الجبّار للفرنسيين تجاه لغتهم لم يكن ليحصل إلاّ بالتخطيط والمتابعة والتنفيذ، وبسياسة رشيدة بدأت منذ دول الممالك الفرنسية وصولاً إلى الجمهورية الخامسة. وفي كلّ ذلك اتّبعت فرنسا سياسة لغوية لبناء الدولة الفرنسية الحديثة. وقد تضافرت جهود الجميع عندما سنّت تلك السياسة اللّغوية التي نالت الإطار التاريخي القديم إلى الأهمية المعاصرة، وخير ما يمكن أن يجسّد ذلك بصورة مقتضبة تلك المحاضرة التي ألقاها أستاذنا (محمود فهمي حجازي) حول اتّجاهات السياسة اللغوية، وعرج في البداية على السياسة اللّغوية الفرنسية وبناء الدولة الحديثة، وقد لخّص ذلك في أطر علمية واضحة. ورأينا أهمية تلك المحاضرة، فوجدنا لها مكاناً في باب **(العمل على ترقيّة اللّغة الفرنسيّة بِطُول النّفس)** وتعميماً للفائدة نقلناها كاملة لتكون دعماً لما ذكرناه في هذا الكتاب:

1ــ "الإطار التاريخي:

- بدأت الدولة الفرنسية خطّتها اللّغوية في العهد الملكي سنة 1539، وبذلك كانت أوّل دولة أوربية تضع سياسة لغوية.
- دعّمت هذه السياسة استخدام الفرنسية بدلاً من اللاتينية، وبدلاً من اللّغة التي كانت سائدة في الجنوب (لغة Occistan).

- بعض أقاليم الدولة كانت لها لغات محلية أخرى، فأصبحت الفرنسية لغتهم الثانية أو لغتهم الأولى.

2 ــ الأهمية المعاصرة:

- اللّغة الفرنسية هي اللّغة الوطنية في فرنسا وإحدى لغتي بلجيكا وإحدى لغات سويسرا.
- اللّغة الفرنسية هي اللّغة الرسمية لجزيرة مايوت في المحيط الهندي، وباقي مناطق الجزر قرب مدغشقر (مالاجاش).
- اللّغة الفرنسية هي اللّغة الثانية في بلاد المغرب والسنغال ومالي وتشاد.
- اللّغة الفرنسية إحدى لغات العمل في الأمم المتّحدة ومنظماتها المتخصّصة.
- اللّغة الفرنسية إحدى اللّغات الكبرى في الإنتاج الفكري.

3 ــ الأهداف:

- اللّغة أساس وحدة الدولة، وفي هذا الصدد قيل: لولا الفرنسية ما كانت فرنسا.
- تهدف هذه السياسة إلى جعل الفرنسية سائدة في البلاد التي تضمّ حالياً 87% من أبناء الفرنسية، والباقون لهم لغات أخرى بين لغة الباسك واللّغة الألمانية.
- تهدف أيضاً إلى دعم مكانة اللّغة الفرنسية باستخدامها القوي في التعليم والجامعات والبحث العلمي والثّقافة والإدارة والإعلام.
- تهدف أيضاً إلى استمرار الفرنسية لغة ثانية في بلاد المغرب وغربي إفريقيا، ودعم تعليم الفرنسية في الدول الأخرى.
- تعمل إلى تنمية المصطلحات بشكل دائم، والحرص على تواجدها في كندا وفي مناطق استخدام الفرنسية بوصفها لغة ثانية.

4 ــ المؤسّسات:

- أسّست الأكاديمية الفرنسية (1635) لبحث تنمية المفردات والنّحو والإملاء وصناعة المعجم. وقد ظهرت من معجم الأكاديمية الفرنسية طبعات متعدّدة.

- مؤسّسات نشر للمعاجم بكلّ مستوياتها والكتب الفرنسية؛ منها لاروس Larousee وروبير Robert.
- مؤسّسات بحوث تعليم الفرنسية لأبناء اللّغات الأخرى.
- مؤسّسات دعم المدارس الفرنسية في الخارج.

5 ــ مجالات العمل اللّغوي:

- توحيد الإملاء الفرنسي.
- وضع قواعد النّحو والصرف للفرنسية.
- بحث الألفاظ والأساليب الجديدة في الفرنسية.
- إصدار المعجم الكبير للأكاديمية الفرنسية.
- دعم استمرار الفرنسية في إقليمها في كندا (كويبك).
- استمرار الفرنسية لغة ثانية في الدول التي كانت تابعة.
- دعم وجود الفرنسية لغة دولة.
- تنظيم برامج تعليم الفرنسية للكبار بالمراكز الثّقافية.
- دعم مدارس اللّغة الفرنسية في الخارج.
- الاهتمام بعلم المعجم وصناعة المعجم وبنوك المصطلحات.

6 ــ الفرنية لغة ثانية:

- اللّغة الثانية تستخدم في المجتمع أو في الدولة إلى جانب اللّغة الوطنية.
- كانت السياسة اللّغوية الفرنسية في سنوات الاستعمار هادفة إلى تحويل المستعمرات إلى مناطق فرنسية اللّغة والثّقافة. وتهدف الحركة الفرنكفونية إلى الاحتفاظ بالتعاون مع تلك الدول في الإطار الفرنسي.
- هناك جامعات تعلّم كلّ التخصّصات باللّغة الفرنسية، توجد مثلاً في لبنان ومصر وبلاد المغرب وغربي إفريقيا.

7 ــ اللّغة الفرنسية لغة أجنبية:

- هناك نحو ألف قسم للغة الفرنسية في العالم في جامعات لا تعلّم إلاّ باللّغة الفرنسية. والسياسة اللّغوية الفرنسية هادفة إلى دعم هذه الأقسام دعماً محدوداً من خلال دورات تدريبية، وإهداء الكتب والأجهزة. ولهذا الدعم مؤسّسات محدّدة تتلقّى تمويلاً من الحكومة ومن جهات أخرى.
- المدارس التي تعلّم اللّغة الفرنسية في الخارج تُدعّمها الحكومة الفرنسية بأشكال منها التجنيد الثّقافي للشبان الفرنسيين الذين يرغبون في العمل مُدرسين بدلاً من التجنيد العسكري.
- المراكز الثّقافية الفرنسية تنظّم دورات لغوية مقنّنة من عدة مستويات، مع عمل امتحانات متدرّجة محدّدة ومنح شهادات.

8 ــ الاتّجاهات المعاصرة:

- العناية الفائقة باللّغة الفرنسية في الإدارة والتعليم والإعلام والثّقافة واستيعاب المناطق ذات اللّغات واللّهجات الأخرى في داخل الدولة في النسق اللّغوي الفرنسي.
- اللّغة أداة للتعاون في كلّ المجالات في إطار الحركة الفرنكفونية.
- دعم وجود اللّغة الفرنسية في بلدانها الأوربية من خلال قوانين لغاتها والتعاون بين هذه البلدان والمناطق الأخرى التي تتعامل بالفرنسية في إطار الفرنكفونية.
- توحيد المصطلحات وإتاحتها مشروحة من خلال بنوك المصطلحات.
- دعم المؤسّسات البحثية الهادفة إلى تيسير تعليم الفرنسية في الخارج وإلى بحوث التقابل اللّغوي مع الفرنسية.
- استخدام التقنيات الحديثة على أوسع مدى في إنتاج المواد التعليمية للداخل والخارج.
- إهداء مواد ثقافية ومطبوعات.

- تنظيم دورات في اللّغة الفرنسية.
- دعم تنفيذ قانون حماية اللّغة الفرنسية (1975).
- تشكيل اللجنة العليا للدفاع عن اللّغة الفرنسية نشرها (1966) المجلس الأعلى للفرنكفونية (1986).
- دعم اللّغة العربية في التعليم الجامعي (AUPELF)[1]".

وبذا نقول: إنّ السياسة اللّغوية الرشيدة تقود إلى سياسة لغوية مستقرّة في نظام اللّغة، وفي تقدّم آلياتها، وفي منتوجها العلمي. فالعربية منذ أكثر من خمسة عشر قرناً وقع عليها البحث في صورته الجيّدة في قرون التهيئة، ولكن بعد ذلك أصبحت الأبحاث تراوح مكانها، ولم تخرج من صورة القول المكرور والنسخ والشرح وشرح الشرح، وهذا من مثبطات العزم. فأين تلك العربية الجاذبة، وأين الإضافة فإلى أي مدى تبقى العربية طاردة؟

1 ــ اتّجاهات السياسة اللّغوية، ط1. الرياض: 2015، مركز الملك عبد الله بن عبد العزيز الدولي لخدمة اللّغة العربية، ص 9–13.

3 ـ النّموذج الفرنسيّ النّاجح[1]

كانت التّجربةُ الفرنسيةُ في خدمة اللّغة الفرنسية فذّة، ويمكن أن نُطلق عليها اسم **(النّموذج الناجح)** بما للنّموذج من مِنوال، ومَنهج، وتَخطيط، وتَحقيق التّخطيط وتَقويم التّخطيط، وما عرفته متابعتهم من نجاحات، رغم ما تعرفهُ الفرنسيّةُ في الوقت الحالي من تراجُعٍ أمامَ لغاتِ الأقطاب، فإنّ النّموذجَ الفرنسي/ التّجربةَ الفرنسية لا مثيلَ لها في النّجاح، بما أَعْطَى لها المجتمعُ الفرنسيُّ والحكوماتُ الفرنسيّة المُتتاليّة من زُخْم لا مثيلَ له، وهذا بدءاً من مُلوك القرن XV؛ الذين كانوا يميلون إلى فَرْض لغة المُلوك؛ والتي يرَوْن فيها **لغةً مُوَحِّدة** للشّعب الفرنسيّ والتي أصبحت في ما بعد لغة النّخبة التي ارتقتْ إلى لغة جزيرة فرنسا، وفُرِضَت بالقوّة على فرنسا كاملة، وبشكل تدريجيّ "... ولكن ما يحّد فرنسا اليوم هو اللّغة ولذلك يقولون: إنّ الفرنسيّة هي الإسمنت أو الوطن الفرنسيّ Le béton français؛ لأنّ هناك أجناساً مُختلفةً، وهذه الأجناسُ لم تكن إلى عهد قريب متضامنة إلاّ لما أصبحت تتكلّم الفرنسيّةَ، ولم تكن هناك وَحْدَة شعبيّة مُتجانسة مُنسجمة في فرنسا". والذي بادَرَ إلى الانتباه إلى هذه الظّـــاهرة هـــم مُلوك فرنسا أنفسهم؛ ابتداءً من القرن XIV. وبشكل تدريجيّ بدأت أولاً كلغة للمَلِك، وانتقلت إلى النّخبة، ثمّ بعد ذلك إلى لغة المُحيطين بالمَلِك والنّخبة، وهكذا إلى أن فرضت نفسَها بالتّعميم، ومن ثمّ بالعِلْم والعِلْميّة.

وإنّ نَشْرَ وتَعْميمَ اللّغة الفرنسيّة في فرنسا جاء على حِقَب طويلة وبمُبادرات قويّة من السّلطة، وبقرارات ومَأسسة لغويّة؛ حيث أنشأت الأكاديميّةُ الفرنسيّةُ في 1635م، وقبلها كانت هناك أكاديميّة أخرى لها اسم قريب من مصطلح (الأكاديميّة)

---

1 ــ سبق لنا أن أصْدرْنا عملاً جماعياً موسوماً **(الأُمَم الحيّة أُمم قويّة بلغاتها)** وفيه مقالات عن التّجارب النّاجحة، ومنها التّجربة الفرنسيّة، ورأينا تكرار بعض الأقوال التي تطلّبها المقام. الجزائر: 2012، منشورات مختبر الممارسات اللّغويّة في الجزائر، جامعة تيزي–وزو.

"أنشأها أحدُ الملوك الفرنسيّين من أجل أن يتعلّموا اللّغة التي لم تكن لغة الشّعب أو اللّغة المُتداولة، وإنّما هي لغة وضعها المُثقّفون في الأكاديميّة، ثمّ نقلت عبر المدارس بتعميم المدرسة التي لم يبدأ إلاّ مع چول فيري Jules Ferry في أواخر القرن التّاسع عشر[1]". ومن هذه اللّغة حدث أنْ تشبّعَ بها الفكرُ الفرنسيّ، وينظر إليها على أنّها عظمته وقوّته، فعمل ذلك الفكر على أن تكون الفرنسيّةُ فوق كلّ اعتبار، ولها كلّ التّقدير والعَظَمَة فأخرجتِ الثّورةُ الفرنسيّةُ الرّجالَ اليَعَاقبة Jacobites الذين ثاروا وأرادوا التّغيّير، ووصلوا إلى سدّة الحُكْم، وبالفعل عملوا على التّغيّير، كما كرّسوا في مجال اللّغة الفرنسيّة الجامعة مبدأ: **لغتي الفرنسية هي حياتي.**

ونريد الوقوفَ عند **اليَعَاقبة الفرنسّيين** الذين حَمَلُوا فكرَ التّنوير للغة الفرنسيّة وكان منطلقُهم الثّوريّ في الميدان الثّقافيّ إنشاءَ نظامٍ عامٍّ للتّعليم بالفرنسيّة لا غير ومبدؤهم المعروف الرّفض القاطع **ليالطا لغويّة في فرنسا** يعني لا للتّقسيم اللّغويّ كما حملوا اللاءات الثّلاث: **لا للهجات ــ لا للغات المحليّة ــ لا للهجين اللّغويّ** وهذا من شأنه أن يمنح للفرنسيّة هيبة الثّقافة الكلاسيكيّة، ومؤهّلات الحداثة العلميّة والتّقنيّة. ومن هنا نعلم الخديعة التي تقوم بها فرنسا تجاه تشجيع اللّهجات المَحَلية وتمنعها في بلادها بتاتاً، بل تُجرّم من يرفع ملف الحديث عن إدراج اللّهجات في بلد الحرية "وبالمُقابل ترفض فرنسا الاعتراف باللّغات المحليّة التي تتحدّث بها مُجتمعات مُتعدّدة... وتصرّ الحكومة الفرنسيّة على قمعها باسم الدفاع عن التّجانس الثّقافي ولغة البلاد الأمّ/ اللّغة الجامعة. من تلك اللّهجات المحليّة المسحوقة لغة كورسيكا... ولغة مقاطعة (برتني) المُحاذية لألمانيا، ولغة الباسك على الحدود الإسپانية، ولغة لوسيتان، ولغة كاتالان في جنوب فرنسا، واللّغة الفلاندية على الحدود البلجيكية. لا يحتاج تفسير المفارقة إلى أيّ جهد، فزرع الفوضى اللّغوية مُستباح في مُستعمرات فرنسا القديمة، أما هي فوحدها لها حقّ التّماسك والتّجانس

---

9 ــ عبد القادر الفاسي الفهري، حوار اللّغة، إعداد: حافيظ الإسماعيلي العلوي. المغرب: 2007 منشورات الزاويّة، ص 196ــ197.

وإن تمّ ذلك عبر قمع الأقليات[1]". ومرّة أخرى لا يحتاج الأمر إلى تعليق، وعلى الفاهم أن يفهم، فما هو حلال عليكم لماذا هو حرام علينا!؟

ولقد وقف اليَعَاقبةُ في تجسيد شعارهم: **الحرية والعدالة والإخاء** على السّعي لتخليص اللّغةِ الفرنسيّة من اللّهجات التي لم يستطع الإقطاعُ فَرْضَ لغة آحاد يلتقي عليها كلُّ الفرنسيّين. وهذا العمل هو الذي أدّى بالفرنسيّين إلى الاعتزاز بالصّقاء المنشود في لغتهم، ولا يرضَوْن بأيّ خدش في لغتهم، ولا في الحديث عمّا يشين لغتهم، بَلْهَ الحديثَ عن دور المؤسّسات التّربويّة التي تعمل جاهدة على الصّقاء اللّغويّ الذي يطبع اللّغة الفرنسيّة بدءاً من المدرسة إلى الجامعة مُروراً بالشّارع وبما يُحيط الفرنسيّ من هُويات، **فكلّ خطأ يُعتبر عندهم تعديّةً على الهُوية الفرنسيّة**. وهذا العمل يُعتبر عندهم بمثابة التّحدّي الفرنسيّ المُجْمَع عليه بالسّعي إلى أن تكون الفرنسيّة هي الوطن مثلما قال (Albert Camus/ ألبير كامي): **الفرنسيّة هي وطني**، وقال (Fernand Braudel/ فرنان بروديل): **فرنسا إنّها أولاً اللّغة الفرنسيّة**، وقال آخرون: **اللّغة الفرنسيّة هي روحُ الأمّة، ومتى افتقدتِ الأمّةُ روحَها فقدتْ وجودَها**، وهذا هو المقام الذي أُعطيَ للفرنسيّة بمثابة الدّولة الفرنسيّة "تقوم السّياسة اللّغويّة والثّقافيّة للدّولة الفرنسيّة على فلسفة قوامها أنّ أحسن وسيلة لتوطيد أركان الأمّة الفرنسيّة هي التّوحيد اللّغوي والثّقافيّ للجماعات الإثنيّة المختلفة الخاضعة لنفوذها، لذلك أقرّت مبدأً رسمياً هو "ضرورة فرض اللّغة الوحيدة (اللّغة الفرنسيّة) والثّقافة الوحيدة (ثقافة الأنوار) على جميع سكان فرنسا. وتعود هذه السّياسة إلى الثّورة الفرنسيّة والمعاهد اليعقوبيّة، وقد تمّ استئنافها بعد ذلك من قبل الجمهوريّة الثّالثة لتتّخذ شكلها الأكثر تطرُّفاً مع (چول فيري) في أواخر القرن التّاسع عشر[2]". وهكذا تفعل الأمم المُحبّة للغتها، فكم من جمعيّة، ومن

---

1 ــ سلمان بونعمان، النّهضة اللّغوية وخطاب التّلهيج الفرنكفوني في نقد الاستعمار اللّغوي الجديد حالة المغرب، ص 195–196 .

10 ــ حماني أقفلي "اللّغة والسّلطان السّياسي" مجلة المدرسة المغربيّة. المغرب: 2011، المجلس الأعلى للتّعليم، العدد 3 (اللّغات في المدرسة المغربيّة) ص 100.

عديد المؤسّسات أقامها الفرنسيّون من أجل حماية اللّغة الفرنسيّة في داخل فرنسا وفي ما وراء البحار، وبنفقات كبيرة جداً، مع إغراءات تشجيعيّة مُهمّة، وكم من قانون سُنَّ من أجل استعمالها دون غيرها، وكلّ مُتعدٍ يُغْرَم بغرامات ماليّة، والمهمّ أن يبقى للفرنسيّة المجدُ والانتشارُ والاستعمالُ الجميلُ. ولا حظوا معي صرامة قانون (چاك توبون/ Jaques Toubon) وسميّ هذا القانون بـــ ALLGOOD وهي مختصرات لمورفيمات Tout bon، رغم ما أُثير من زوْبَعات في فرنسا، وما طُعن فيه من الخارج، بما أغلقت فرنسا من خلاله على وضعها الثّقافيّ والخصوصيّة اللّغويّة، بتحصين الفرنسيّة من الاقتراض اللّغويّ الصّارخ من اللّغة الإنكليزيّة، ولكنّ القانون لم يفتح نافذة للإخلال اللّغوي؛ باعتبار اللّغة الفرنسيّة من المُقدّس، فلا مجالَ للتّأويل ولا للتّهاون فيها. ويمكن أم نُمعن القراءة في القانون الذي صدر في خذا المجال سنة 1994:

En France, la loi Toubon 94-665 du 04 août 1994 stipule dans son article premier :

Langue de la République en vertu de la Constitution la langue française est un élément fondamental de la personnalité et du patrimoine de la France.

Elle est la langue de l'enseignement, du travail, des échanges et des services publics. Elle est le lien privilégié des États constituant la communauté de la francophonie.

L'article 3 stipule : Toute inscription ou annonce apposée ou faite sur la voie publique, dans un lieu ouvert au public ou dans un moyen de transport en commun et destinée *à* l'information du public doit être formulée en langue française. Cette loi est la traduction concrète du principe constitutionnel selon lequel la langue de la République est le français.

L'article 22 mentionne : Chaque année, le Gouvernement communique aux Assemblées, avant le 15 septembre, un rapport sur l'application de la présente loi et des dispositions des conventions ou traités internationaux relatives au statut de la langue française dans les institutions internationales.

والمُلاحظ أنّ قانون (توبون)[1] وزير الثّقافة الفرنسيّ السابق، وكأنّي به تأثّر بقانون تعميم استعمال اللّغة العربيّة الجزائريّ الصادر في 16 يناير 1991م؛ والفرق أنّ قانون تعميم استعمال اللّغة العربيّة في الجزائر يَستَهدف حمايةَ العربيّة من هيْمنة الفرنسيّة، في حين إنّ القانون الفرنسيّ يرمي إلى حماية الفرنسيّة من هيْمنة اللّغة الإنكليزيّة، وهذا هو الهدف العامّ الذي تنزّلت فيه الفرنسية؛ وبخاصّة مع انتشار الإنكليزية في العالم، وما تعرفه الفرنسية من تقهقر، وهذا ما يؤكّده الأمين العامّ السابق لمنظمة الفرنكفونية "ولقد قال (بُطْرس بُطْرس غالي) في أوّل حوار له بعد تَرْكِه لموقعه أميناً عاماً للفرنكفونية في جريدة العالم اليوم بتاريخ 2002/1/30 إنّ هدف المنظّمة هو توسيع قيمة الحوار والتّرابط ومواجهة الفكر واللّغة الواحدة وهي الإنكليزية التي تسعى للهيْمنة على العالم سياسياً واقتصادياً تحت شعار العولمة، والعمل بفكرة التّعدّدية الثّقافية واللّغوية، فالتّعددية هدفها الحفاظ على تراث المجتمع الدّولي والمنظمة تُحاول إرساء مبدأ الاستثمار في دول الجنوب بَدَلاً من تقديم المساعدات لها، وتوضيح أنّ التّعدديّة في العالم تماثل التّعدديّة الحزبية على المستوى الوطني[2]". والملاحظ من خلال هذا؛ أنّ البحث وراء احتلال الموقع هو الهدف، وليست التّعدّدية اللّسانية هي الهدف، بقدر ما هو مُركّز على بقاء الفرنسية في مَحالها ولا تنافسها الإنكليزية.

---

1 ــ چاك توبون وزير الثّقافة والفرنكفونيّة، والمروّج لمصطلح (**العربفونيّة** Arab-francophonie) على أنّها قطب عربيّ فرنسيّ يضمّ (المغرب+ الجزائر+ تونس+ مصر+ لبنان+ سورية+ موريتانيا+ جزر القمر+ جيبوتي) والغاية من العربفونيّة هو التّعايش اللّغويّ العربيّ الفرنسيّ. ولكن في إطار ضعف العربيّة ماذا يحدث، وفي إطار ضعف الإعلام العربيّ وقلّة المؤسّسات هي نوع من المُحاكاة السّلبية ليس إلاّ. بل هي التّبعيّة المُطْلقة دون شرط ولا جواب.

1 ــ حسين بن علي الزراعي "الاستثمار في اللّغة العربية من خلال اقتصاديات اللّغة" منشورات مركز الملك عبد الله بن عبد العزيز لخدمة اللّغة العربية. السعودية: 2015، عدد (الاستثمار في اللّغة العربية) ص 16.

ومع كلّ هذا، فإنّ الفرنسية المعبودة حقٌّ للفرنسي في أن تنال لغته الشّهرة والتوسّع والرّيادة، وتبقى في الخارج لها السّيادة، وفي الداخل لها الغَلَبَة، ومن ذلك تنصّ قوانينهم على دفع الغَرَامات لكلّ مُنتهك للّغة الفرنسيّة، وأَبَى البرلمان الفرنسي التّراجع عنها "سمعتُ كما سمعَ غيري ذلك القانون الذي صَدَرَ في فرنسا؛ والذي يفرض غرامةً تُعادل (3500) دولار أمريكيّ على أيّ مُواطن فرنسيّ يَستعمل كلماتٍ إنكليزيّةً أو غير فرنسيّ في محاضرته أو كتاباته ما دامَ لها مقابلٌ في اللّغة الفرنسيّة... ولم يأبه المُشرّعُ الفرنسيُّ بمَنْ احتجّ بعالميّة بعض الألفاظ والمُصطلحات؛ وأنّها ممّا لا يمكن الاستغناء عنها، وبأنّ هذا القرار سوف يُعطّل أعمالَ كثير من المؤتمرات والنّدوات العلميّة... نعم لم تأبَهْ الجمعيّة الوطنيّة الفرنسيّة بكلّ تلك الحُجج وأصدرت قانونها الحازم[1]" وربّما يكون هذا لنا **عبرة** عندما نقول: إنّ المَجْمَعيّين يريدون أن يُقولِبونا في صُوَر (قُلْ ولا تَقُلْ) ويريدون أن نستعمل ما يَنُصُون عليه فقط... فإذا كانت فرنسا تصون لغتَها بأمثال هذه القوانين القويّة، ولغتها قويّة وعلميّة، فماذا نقول –نحن العرب– أمام ضُعف لغتنا وضُعف عزيمتنا، وقابليتنا للاختراق. وهكذا تبرز لنا التّجربة الفرنسيّة في مدى تعلُّق الفرنسيّين باللّغة الفرنسيّة التي هي الحياة بالنّسبة للفرنسيّين.

ويمكن الحديث كذلك عن دور الجمعيّات المدنيّة في فرنسا؛ وهي التي فرضتْ يوماً سنوياً لإجراء **(امتحان في الإملاء)** يُشارك فيه كلّ الفرنسيّين، وتُسند جائزةٌ ذات قيمة عاليّة لمن لم يرتكب/ يُحدث خطأً في الإملاء، بل إنّ الحكومات الفرنسيّة منذ (Napoléon/ نابوليون) كانت تعمل وتناضل من أجل قُطب **(الفرنكفونيّة)** للحفاظ على لغتها ونشرها خارج فرنسا.

ونبقى في مزيد من القراءة في قانون (توبون) الذي يهدف إلى حماية الفرنسيّة كلغة رسميّة لفرنسا، وبخاصّة منذ قيام الجمهوريّة الفرنسيّة الخامسة La 5ème République، كما ينصّ عليها دستور 1958، إضافة إلى إثراء

---

1 ــ ممدوح خسارة، قضايا لغويّة معاصرة. دمشق: 2003، الدّار الوطنيّة الجديدة للنّشر والتّوزيع، ص 104.

الفرنسيّة، والالتزام باستخدامها في كافة مَناحي الحياة داخل التّراب الفرنسيّ. كما ينصّ هذا القانونُ على الدّفاع عن اللّغة الفرنسيّة، واستعمال المصطلحات الفرنسيّة التّقليديّة عوض مصطلحات الإنكليزسيم لضمان سيادة الفرنسيّة، وهذا في إطار مُحاربة الإنكليزيّة التي يزداد انتشارُها في فرنسا، لا سيّما في الإعلانات التّجاريّة؛ حيث يمنع القانونُ استخدامَ الإعلانات الأجنبيّة، وفي القانون شروطٌ صارمةٌ في الاندماج، وفي التّعيينات في المناصب، وفي التّرقيّات الداخليّة... فلا بدّ من إتقان الفرنسيّة كضرورة لازمةٍ، وهذا في شقّه الوظيفيّ. وأما في شقّه المحلّيّ؛ فيمنع هذا القانون استعمال اللّغات الأجنبيّات في داخل فرنسا في المعاملات التّجاريّة، وفي الإعلانات، وبموجب هذا القانون، فإنّ وزارةَ الدّاخليّة الفرنسيّة نزعت كلّ اللاّفتات المكتوبة بغير الفرنسيّة من المَحال التّجاريّة، ومنعت في لاحقٍ من الزّمان وضعها إلاّ في أماكن السيّاح، وبترخيص من وزارة الدّاخليّة... وبتلك القوانين الصّارمة فإنّ كلّ استخدام للّغات الأجنبيّة يعرض صاحبها لغرامات ماليّة، بل يُعدّ ذلك خروجاً عن النّظام العامّ، وكلّ مقطع أجنبيّ أو مصطلح أجنبيّ في محاضرة في داخل فرنسا يجب أن تَصْحَبَه التّرجمةُ الفوريّة إلى الفرنسيّة. وبذلك وغيره أضحت اللّغةُ الفرنسيّةُ مُقدّسةً عند الفرنسيّين، ولا يَروْن لها بديلاً، على الرُّغم مما تعرفه من مُضايقات علميّة من اللّغتين: الإنكليزيّة والألمانيّة.

وهكذا نرى فرنسا الدّولة المركزيّة "تتبنّى في عام 1994م قرار الجمعيّة الوطنيّة الذي ينصّ على عدم السّماح بعقد المؤتمرات العلميّة المتحدّثة بالإنكليزيّة على الأرض الفرنسيّة، كما وضع البرلمان قائمة بالكلمات السّود التي يحظر استخدامها في لغة الإعلام والإعلان[1]" فرنسا التي فتحت عصر القوميّات في أوربا تعمل على المدّ الفرانكفونيّ منذ ستينيات القرن الماضي. فرنسا التي لا تتوانَى في أن تحرص على لغتها بسنّ القوانين الحاميّة لها، وبمركزيّة واحدة، تقوم على التّخطيط، وعلى عدم إهدار الجهود الفرديّة، وعدم تكرارها، وتقترح الأفكار للسّلطة التّنفيذيّة. فرنسا التي تُقيم جمعيّات حماية اللّغة الفرنسيّة، وتعمل تلك

1 ــ الجمهوريّة العربية السّورية، لجنة تمكين اللّغة العربيّة، ط1. سورية: 2008.

الجمعيّات على أساس أنّها جهاز من أجهزة الدّولة "وعندما انتهى حُماةُ الفرنكفونيّة من تجسيد الظّاهرة أمامهم بدؤوا يُشرّعون في اتّخاذ الوسائل والخُطط اللاّزمة لمعالجتها، والاهتمام بها على أعلى المُستويات، وكان ذلك على يد الرّؤساء بعقد مؤتمرات وطنيّة وعالميّة، وتأسيس مراكز للمدّ الفرانكفونيّ والمجالس والأكاديميّات[1]". وكلّ الذي قامت به فرنسا حقّق نجاحاً للفرنسيّة على أنّها اللّغة العلميّة التي يجب أن تسودَ أوربا الحديثة، وحالياً تعيش صِراعاً قوياً مع الإنكليزيّة حول أيُّهما يَتَصدّرُ. ونرى هذا المدّ والنّجاح ما كان ليكونَ لَوْلاَ:

ــ التّدقيقُ الجيّد لتحديد أبعاد المشكلة اللّغويّة الفرنسيّة.

ــ التّخطيطُ الجيّد بعد استخلاص الإحصائيّات لخريطة اللّغة الفرنسيّة كلغة أمّ وكلغة أجنبيّة.

ــ تقديمُ الحلول النّوعيّة على أساس التّشخيص العلميّ.

ومن وراء هذا، هناك المجتمع المدنيّ في فرنسا الذي كان حريصاً كلّ الحرص على أن تنال اللّغة الفرنسيّةُ الموقعَ العلميَّ والاستعماليَّ والانتشاريَّ، ويبقى يُساعد دولته أيام كانت تضع القوانين وتُغرّم المواطنين، كما كانت الجماهيرُ تهبّ رَجُلاً واحداً في وجه من يُحدِث الخطأَ في الفرنسيّة.

والعِبْرَة التي يمكن استخلاصُها من التّجربة الفرنسيّة؛ هي إعطاء الأولويّة للغة الجامعة العامّة التي تجمع شمل الفرنسيّين، ونحن قد فَصَلْنا في هذا المجال منذ نزول القرآن بلسان عربي مُبين، قرآن شامل جامع لمُدوّنة مُتداولة، والحديث الشّريف، والأصول اللّغويّة الأولى (الشّواهد) كلّها مُوحّدة أو تقرب إلى التّوحيد في صيغتها التّواصليّة، وهذه المسألة لا تُطرَح إذا وقعَ استبعادُ اللّهجات أو دراسة اللّهجات بغية إعادتها إلى أصولها الفصيحة. وأما مسألة اللّغات المحليّة فتكون خَدَماً للفصحى، ولا تعلو عليها أو تنافسها، فهذا موجود منذ القرن الثّاني للهجرة ولا مشكل يُطرَح، ولم يشتكِ سِجِلُّ/ Registre الفصيحة من سِجِلّ الدّارجة، بل لكلّ

---

1 ــ أحمد درويش، إنقاذ العربيّة إنقاذ الهويّة... تطوير اللّغة العربيّة، ط1. القاهرة: 2006 شركة نهضة مصر للطّباعة والنّشر والتّوزيع، ص 32 ــ 33.

منهما وظيفة تستقلّ بها عن الأخرى. وإذا وقع الإقرارُ في هذا المجال لا يحصل الضّيم بين لغتين، وما ينقصنا هو الحزم، وهو ما أخذ به الفرنسيّون أثناء اتّخاذهم الفرنسيّة (لهجة من لهجات اللاّتينيّة) وأرادوا أن يُعيّروها، فكان التّشدّد الذي أدّى إلى النّجاح، وحصل أنْ حُوربَ كلُّ الرّافضين لهذه اللّغة منذ ملوك فرنسا في العصور الغابرة.

إذاً **العِبْرة** في مسألة اللّغة العربيّة هو الحَزْمُ الغائبُ عندنا، ومن وراء هذا الغياب لا يأتي إلاّ العَبَث. علماً أنّ الحَزْم هو الذي يبني الدّولَ، والحَزْم يؤدّي إلى غلبة الدّولة، فغلبة الدّولة بغلبة أهلها وحكّامها، وهكذا فَعَلَ الفرنسيّون، وفَعَلَ قبلهم (عبد الملك بن مروان) "... إلى أن جاء عهد الخليفة (عبد الملك بن مروان) الذي طبّق أوّل سياسة لغويّة في تاريخ العرب؛ بتعريب الدّواوين في بلاد الخلافة الأمويّة، وإصدار العُملة الإسلاميّة، وبذلك يكون قد خَطَا الخُطوةَ الأساسيّةَ في جعل اللّغة العربيّة لغةً للدّولة[1]". ونعلم بأنّ غلبةَ الدّولة في أيّ بلد يعني غلبة المسؤول؛ يعني تطبيق القرار، وهذا هو المطلوب في قرارات الدّولة، فهيبة الدّولة من تطبيق قوانينها، وضُعْفها من ضعف تطبيق قوانينها، والدّولة تظهَرُ غلبتُها في شكليات الأمور أولاً: وجود القوانين+ المراسيم+ الأختام+ تطبيق القوانين+ احترام الأمور المظهريّة. ومن ثمّ تأتي مرحلة أخرى هي مرحلة التّفصيل في هذه الشّكليات.

ــ **مواقف اعتزازيّة نُخبويّة:** وفي هذا المقام، يمكن أن نتعرّض إلى مُنافحات بعض المُمَجّدين للفرنسيّة الجميلة، فهذا (ألبير كامي) الفرنسي المولود بالجزائر يقول: **نعم لي وطن؛ إنّه اللّغة الفرنسيّة**، فاللّغة وطنٌ ومواطنةٌ وثقافةٌ، وتُوازي المواطنةَ السّياسيّةَ. و(كامي) في مؤلّفاته يصرّ على الوفاء بمُتطلّبات الحقوق التي يجب أن توفّر للمواطن الفرنسيّ، ومن أهمّها **حقوق الهُويّة اللّغويّة الفرنسيّة** التي هي كيان موجودٌ، ويكبر بفعل الأجيال. وكما يقول: "إنّه لا يجب أن تكون الهُويّة اللّغويّة خاضعةً للمناقشة أو التّراجع؛ باعتبارها تعمل على انصهار وَحْدَة الوطن

---

1 ــ أحمد بن محمد الضبيب، مستقبل اللّغة العربيّة، ط1. السّعوديّة: 2014 مركز الملك عبد الله بن عبد العزيز لخدمة اللّغة العربيّة (سلسلة: ندوات رقم3) ص 10.

أو **الأمن اللّغويّ**". كما ينافح من أجل بقاء استيطان الفرنسيّة في مُستعمراتها وينصح قائلاً "إنّ المطلبَ الأكثر استعجالاً عند جماعة أخذت بزمام أمرها هو حقاً تحرير لغتها واستعادتها [...] وحدها هذه اللّغة تسمح للمستعمِر أن يعيدَ الوَصْل إلى زمانه المُتقطّع، وأن يكشفَ من جديد استمراريّته المفقودة واستمراريّة تاريخه". ونجد العالمة اللّسانيّة (Nicole Gautier/ نيكول گوتييه) تستخدم مصطلح (**الأمن اللّغويّ**[1]) في بحث لها عن مظاهر التّعدّد اللّغويّ في المجتمعات الخليط، وبالذات في تجمّعات المهاجرين بفرنسا، فرأتْ أنّ هذه التّجمّعات تشكلّ خطورة (اللاأمن لغويّ/ L'insécurité linguistique) في منظور التّواصل والانسجام المجتمعيّ وأنّ تفتيتَ المُجتمعات من الداخل يأتي من التّسامح اللّغويّ، كما تقرنُ الباحثةُ الفرنسيّةُ (الأمنَ اللّغويّ) بالأمن الفكريّ والغذائيّ والمائيّ، فكلّها من ضروريّات الحياة والعيش الكريم. والمُهمّ كيف يبقى للّغة الأمّ (الفرنسيّة) شموخُها، ولأنّه باللّغة الأمّ تحصل تقويةُ الذّات الوطنيّة، وبها يكون تدبير التّعامل مع اللّغات الأجنبيّات من غير ذوبان. وتؤكّد الباحثةُ أنّ قوّة اللّغة واستمرارها يعتمد على وَعْي الأمّة وحرْصها على رعايتها وحمايتها ونشرها، كما ترى ذات الباحثة بأنّ (الأمن اللّغويّ) لا تهدّده اللّهجات المَحليّة؛ ففي كلّ لغات العالم هناك لغة عُليا؛ هي لغة الإبداع والإنتاج والآليّة، وأما اللّغات المُعبّرة لا تخلو من تنوّع؛ ففرنسيّة المُبدع والمُخترع والشّاعر ليست هي لغة الفرنسيّ الشّفاهيّة، **وأما الذي يُهدّد الأمن اللّغويّ، ويمنع الانسجام الاجتماعيّ هو دخول اللّغات الأجنبيّات في مزاحمة اللّغة الوطنيّة، والذّهاب مذهب الاندماج في اللّغات الأجنبيّات، وهو انتحار مَضمون واختزاليّة ساذجة تؤدّي إلى الاستنساخ والتّأخّر.**

كما نُسجّل موقفَ الأمين العامّ للمجلس الأعلى للفرنكفونيّة (ستيلو فاراندجيز) الذي يُدافع عن العودة إلى نصوص اللّغة الفرنسيّة في أصولها المكتوبة بلغة (Molière/ موليير) لا إلى النّصوص المُترجمة، على أنّها تُنقِص من قيمة الفرنسيّة

1 ــ لمزيد من التّعمّق، ينظر كتابي الموسوم: في الأمن اللّغويّ. الجزائر: 2012، دار هومة للطّبع والنّشر والتّوزيع.

كلغة أكثرَ تعبيراً من غيرها، والتّرجمة منها لا تؤدّي ذات الغرض حتى ولو في الأغاني "إنّ ترجمة أغنيّة فرنسيّة للعربيّة بمثابة تشويه لها. إنّ كلّ كلمة في أيّة لغة تشتمل على مرجعيّة موسيقيّة وتاريخيّة وثقافيّة. ولكي نفهم لغة ما يتعيّن أن نفهم تاريخها وتاريخ شعبها وثقافتها[1]". أليس في هذا تحيّز صارخ إلى الانتصار للفرنسيّة؟ فلو أنّ هذا صَدَرَ من باحثينا لَقُلْنا عنه: **إنّه انغلاق على الذّات العربيّة ولكنّنا لا نعدُّه انغلاقاً عندما يأتي من فِرَنْسِيّ يُدافعُ عن لغته الفرنسية.**

وما يمكن أن نُسجّلَه في هذا المقام؛ أنّ المبدعين الفرنسيّين يُسايرون لغتهم في الرّقي بها، ويتمثّلون الفرنسيّة في إرثها اللّغويّ والحضاريّ والثّقافيّ والتّاريخيّ وفي الفرنسيّة الكلاسيكيّة، وفرنسيّة عصر الأنوار، أو فرنسيّة عصر النّهضة ويَهمّهم كثيراً هذا الإرث، حتى ولو كان ذلك بالتّرهيب إذا لم يفلح أسلوبُ التّرغيب. وللفرنسيّة من القوّة النّاعمة من يخدم مصالح الفرنكفونيّة في هذا الاتّجاه فإن لم تنجح هناك أساليب شيطانيّة، فالغايّةُ تُبرّرُ الوسيلةَ.

ــ **مواقف اعتزازيّة سياسيّة:** نُشير في البداية إلى أنّ كلّ الأجهزة الفرنسية متّفقةٌ على خدمة الفرنسية بما أُوتيتْ من مال وتفكير، وأنّ الجهازَ التنفيذي مُجنّدٌ للعمل على إشعاع الفرنسية، وهذا منذ عصر الممالك الفرنسية. ومما نسجّله على بعض الرّؤساء الفرنسيين فِعْل الرئيس الفرنســـي العسكري الجنرال (De Gaule دو گول) الذي لم يثبت عنه أنّه مع الفرنكفونية التي عمل من أجلها من جاء بعده ولكنّه كان ينظر إلى الفرنسية ويخطّط لها منذ زمن بعيد، تخطيط الكبار، وهو كيف تبقى خارج موطنها، وتبقى معبودة من غير أهلها، وما يسجّل عليه:

ــ امتناعه عن المصادقة على مشروع إنشاء مجموعة فرنكفونية باسم (المنظّمة الإفريقية الملگاشية المشتركة OCAM). بدعوى أنّها خارج المجموعة الفرنكفونية التّقليدية؛

---

1 ــ علي إبراهيم "المركز الثّقافي السوي بباريس والفرنكفونيّة" ©Arabofrancophonie L'HAMATTAN تر: جيهان عيسوي. القاهرة: 2001، المجلس الأعلى للثّقافة/ المشروع القومي للتّرجمة. عدد (الفرنكفونيّة العربيّة دراسات وشهادات) رقم 790، ص 126.

ــ امتناعه عن تأسيس (وكالة التّعاون الثّقافي والتّقني بين الدول المستعملة للفرنسية ACCT). وهذا الامتناع يترجم تخوّف (دو گول) من المفارقات التي قد تعصف بالفرنكفونية، أو الصراع الذي يخرج من إطار عبدة اللّغة الفرنسية. وبالفعل ذلك ما بدأ يحدث؛ حيث عاشت الفرنكفونية صراعات في بعدها المستقبلي ومكانها بين لغات العلم، وتغالب حالياً الإنكليزية ليكون لها تواجدٌ في شمس الكوْن "إنّ الفركفونية أصبحت تصطدم أكثر فأكثر بمفارقاتها وتتكشّف عورتها كبضاعة مَعيبة ومردودة، مما دفع الجريدة الساخرة Le Canard enchainé على تسميتها بـــ La faurine faunie فهل تخفي اليوم نزعتها النّفعية المحسوبة من جهّة وانتهازيتها في مجال سياسة التّحالفات الدولية من جهّة أخرى[1]". ومع كلّ هذا، فإنّ تيار الفرنكفونيـــة يسير، ولـــه نسمـــات عليلـــة، فيأتيكـــم نبـــأُ مقولـــة (Georges Pompidou/ چورچ پومپيدو) الذي يعلن صراحة على أنّ الشّعوب المُتكلِّمة بالفرنسية يجب أن تشعر أنّها فوق المصالح الاقتصادية، وحتى السّياسية مُوحّدة برابطة هي رابطة فكرية عاطفية. فلا مجال للخروج من عقيدة الفرنسة التي تجمع الناطقين بالفرنسية، وكأنّي به اعتبرَ من قول رسوله الله ﷺ "ليست العربية بأحدكم من أبٍ ولا أمٍّ إنّما هي اللّسانُ، فمنْ تكلّمَ العربيةَ فهو عربيٌّ، ألا إنّ العربيةَ اللّسانُ، ألا إنّ العربيةَ اللّسانُ". كما نشير إلى أنّ منظمة الفرنكفونية يشرف عليها الرّئيس الفرنسي، وكان الرّئيس (Mitterrand/ متيران) لا يغيب عن أيّ تجمّع للفرنكفونية، وفي هذا دلالة كبيرة؛ بل يعني أنّ فرنسا الكبرى هي التي تُشرف على هذا التّيار الثّقافي الحديث، وعلى أنّها بجهازها المدني والعسكري تُولي اللّغة الفرنسيةَ ما تستحقه "وإنّ في الإشراف المعنوي لرئيس الدَّولة الفرنسية الحالي على منظمة الفرنكفونيّة لأكثر من دلالة ومعنى، لما للغة من أهميّة قصوى كما أنّ في معارضته –مثلاً– لانضمام بريطانيا إلى السّوق الأوربيّة المشتركة

---

1 ــ إدريس الكتاتي، ثمانون عاماً من الحرب الفرنكفونية ضد الإسلام واللّغة العربية. الرباط: 2000، منشورات نادي الفكر الإسلامي. مقال للباحث: بنسالم حميش "الفرنكفونية.. ضد الفرنسية" ص 210.

خوفاً من سيطرة اللّغة الإنكليزية على الفرنسية، لأكثر من إشارة ومغزى، ولقد صرّح بذلك هو نفسه في الأسابيع الأخيرة[1]" وفي آخر قمّة للفرنكفونيّة "دعا الرّئيس ميتران المؤتمِرين إلى مساعدة فرنسا على الدّفاع عن لغتها وهويّتها في مُواجهة الغزو الفكري الأمريكي، ولكن الدّول الفرنكفونيّة التي كان يستنجد بها لا تشكّل سوى 3 % من سكان العالم[2]". ونرى في هذه المواقف أنّ الرّئيس (François Mitterrand): يمجّد الفرنكفونية، ويرى فيها التّنظيم الثّقافي الذي يحوي العالم في الفكر وفي الاقتصاد، "إنّ الفرنكفونيّة ليست هي اللّغة الفرنسيّة وحسب (...) إذا لم نتوصّل إلى الاقتناع بالانتماء إلى العالم الفرنكفوني سياسياً واقتصادياً وثقافياً، يمثّل إضافة، فإنّنا سنكون قد فشلنا في العمل الذي بدأناه منذ عدّة سنوات..." كما لا تفوتنا حادثةٌ طريفةٌ سجّلها (Jaques Chirac/ جاك شيراك) في مؤتمر أورپي بخروجه من المُؤتمر مُستنكراً خطاب مُمثّل فرنسا الذي ألقاه بالإنكليزيّة، والرّئيس (شيراك) المعروف بحبّه للفرنسيّة؛ وهذا الحبّ الطّافح للّغة الفرنسيّة ليس جديداً، فكان مَثَلُه في ذلك الرّئيس (ميتران) الذي كان يدافع عن **Usage de la langue française** عبر العالم؛ أي **استعمال الفرنسية**، و(الرّئيس شيراك) يدافع عن **حُسن استعمال الفرنسيّة La belle usage de la langue française** وعلى ذكر هذا، نشير إلى الرّأي العامّ الفرنسيّ أو المجتمع المدنيّ الذي لا يتسامح في حُسْن استخدام لغته، فنذكر حادثة وزيرة الصّحة في حكومة (الرّئيس ساركوزي Sarkozy) وقد جمعت كلمة (Banal) على (Banaux) قائلة:... C'est des choses banaux بدل C'est des choses banals وتشنّ عليها الصّحافة الفرنسية حملةً كبيرةً؛ بأنّ وزيرةً فرنسية تُهين اللّغةَ الفرنسية؛ بعدم

---

1 ــ وزارة الشّؤون الدّينية والأوقاف، مولود قاسم نايت بلقاسم المفكّر الجزائري الموسوعي. الجزائر: 2013، منشورات وزارة الشّؤون الدينية والأوقاف، سلسلة أعلام الجزائر (1) ص 41-42.

2 ــ عبد الهادي بوطالب "لا بدّ من تكامل العولمة والهويّة ليكون العالم واحداً ومُتعدداً" مطبوعات الأكاديميّة. الرباط: 1997، أعمال النّدوة: 27-29 ذو الحجة 1417 هـ/ 5-7 مايو 1997، عدد (العولمة والهويّة، سلسلة "الدورات" ص 131.

معرفة قواعدها الحقيقية، وهي إهانة للشعب الفرنسي في ذات الوقت، فكيف الحال بوزيرة فرنسيّة تجهل قواعد اللّغة الفرنسيّة المقدّسة، ولا يجوز لأحد تجاوز هذه المسائل، وهي من المقدّس... فما كان على الوزيرة إلاّ أن اعترفت بالخطأ وصحّحته في التّلفاز، ثم اعتذرتُ للشّعب الفرنسيّ.

ونبقى في دور الإعلام الفرنسيّ الذي يُمجّد لغته، وله دور خطير في الاهتمام بها، ونشير إلى موقفه من خطاب قُرئ بالعربيّة في بيروت، وهذا أثناء الألعاب الفرنكفونيّة "في 27 أيلول/ سبتمبر 2009م، بادرَ لبنانُ إلى تنظيم ما يسمّى الألعاب الفرنكفونيّة، وذلك بحضور أعلى المسؤولين السّياسيّين من لبنان وفرنسا. وفي أثناء حفل الافتتاح أُعلِن برنامجُ التّظاهرة، وتُليَ بالعربيّة، فشنّت الصّحافة الفرنسيّة حملةً غاضبةً؛ مُعتبرةً أنّ ذلك بمثابة (صفعة على خدّ الأمّ الحنون) كما أوردتْ ذلك صحيفة Le Monde/ لو موند (البريد الدّولي) بتاريخ 8 تشرين الأوّل/ أكتوبر 2009[1]". فماذا نقول أمام هذا الدّفاع المُستميت على تواجد الفرنسيّة في أرض غير فرنسيّة، أو ربّما تعتبر لبنان قطعة فرنسيّة ما وراء البحار. ومن خلال هذا، نرى تَجنُّد الجهاز التّنفيذي الفرنسي لخدمة الفرنسية في الخارج، فهذا وزير الثّقافة في عهد (Chirac شيراك) يشنّ حملة على أمريكا "شنّ حملة على الولايات المتّحدة الأمريكيّة في اجتماع اليونسكو قائلاً: إنّي أستغرب أن تكون الدّول التي علّمت الشّعوب قدراً كبيراً من الحرية، ودعت إلى الثّورة على الطّغيان، هي الدّول التي تُحاول أن تفرض ثقافة شموليّة وحيدة على العالم أجمع. وأضاف: إنّ هذا شكلٌ من أشكال الإمبرياليّة الماليّة والفكرية لا يحتلّ الأراضي، ولكن يُصادر الضمائرَ ومناهج التّفكير واختلاف أنماط العيش[2]". كما ذهب الرّئيس (شيراك) في الدفاع

---

1 ــ عبد السّلام المسدّي "الفرنكفونيّة إيديولوجيا، سياسات. تحدٍ ثقافي- لغويّ، ط1. لبنان: 2011، مركز دراسات الوَحْدة العربيّة، ص 72-73. وينظر: عبد السلام المسدّي، العرب والانتحار اللّغويّ، ط1. ليبيا: 2010، دار الكتاب الجديد المتّحدة، ص 107.

2 ــ وينظر: عبد السلام المسدّي، العرب والانتحار اللّغويّ، ط1. ليبيا: 2010، دار الكتاب الجديد المتّحدة، ص 131.

عن نمط العيش الفرنسي ّإلى حدّ أنّه عارضَ وجود مطعم (ماكدونالد) في (برج إيفيل) ليظلّ فضاؤُه على الأقلّ مُنفرداً بنمط العيش الفرنسي، كما رفض عام 1999 التّوقيع على المعاهدة الأوربية بخصوص الاعتراف باللّهجات المحلية، كما رفض النّواب الفرنسيون مادةً اقترَحَها (Jospin) وزير أوّل أيام حكم الرئيس (شيراك) وتنصّ على **(اللّغات الجهوية موروث فرنسي)**.

إنّ حرباً باردة لا تُعلن عن نفسها؛ وهي مُحتدمة عبر العالم في "مجال الحفاظ على الهويّة الوطنيّة يسجّل فيها أنصار العولمة الشّاملة ضربات للهُوية لم ترقَ إلى أن تكون قاتلةً، ولكنّها مُقلقة[1]" كما نشير إلى تلك اللّقطة الاعتزازيّة التي صدرت من رئيس لجنة العلاقات الخارجيّة بالبرلمان الفرنسيّ في سنوات السّبعينيّات، وقد سجّل **تنديده** من خلال تلك الدّعوة المُحرَّرة باللّغة الإنكليزيّة، والتي تلقّاها من سفير الولايات المتّحدة بباريس، ويندّد مُعلناً بأنّ كلّ دعوةٍ رسميّةٍ مُوجّهةٍ إلى مَدْعَوّين فرنسيّين على التّراب الفرنسيّ يجب أن تكون مُحرّرة بالفرنسيّة لا غير وهذا ما ينصّ عليه القانونُ الفرنسيُّ، وما قام به سفيرُ الولايات المتحدّة هو خرقٌ للقانون الفرنسيّ. ويقول: باسم الجمهوريّة الفرنسيّة الخامسة **أُنَدِّدُ بهذا الخرق للقانون الفرنسيّ**. ولا نغادر هذا الاعتزاز لنشير إلى الردّ السّياسي الفرنسيّ في تعيين (بُطْرس بُطرس غالي) أميناً عاماً للفرنكفونيّة، والمهمّ أنّها لا تركع أمام قرار أمريكا "ففي 1996 انتهت الفترة الأولى لـــ (بطرس غالي) على سُدّة الأمانة العامّة لمجلس الأمن الدّولي، وكانت فرنسا مُؤيّدة لتجديد فترة ثانيّة له. لكنّ الولايات المتّحدة اعترضت؛ لأنّها لم تغفر له موقفَه الذي تمسَّكَ به إثر جريمة قصف إسرائيل على (قنا) بتاريخ 19 نيسان/ أبريل 1996. وحيث انتصرت الولايات المتّحدة في معركة ليّ الذّراع. بادرتْ فرنسا إلى اختيار (بطرس غالي) أميناً عامّاً للمنظّمة الفرنكفونيّة، وذلك في المؤتمر الذي انعقدَ عام 1997[2]". كما نشير إلى

---

1 ــ عبد السلام المسدّي، العرب والانتحار اللّغويّ، ط1. ليبيا: 2010، دار الكتاب الجديد المتّحدة، ص 131.

2 ــ عبد السّلام المسدّي "الفرنكفونيّة إيديولوجيا، سياسات. تحدٍ ثقافي– لغويّ، ص 73.

صلابة القرار السّياسي الفرنسيّ، فهناك مواقف اعتزازيّة كثيرة مُشَرِّفة للنّخبة السّياسيّة الفرنسيّة تجاه لغتهم، وكلّهم يتّفقون على خدمة الفرنسيّة، ولا يجب أن تزاحمَها لغة مهما كانت، ويمكــن الإشــارة فــي هــذا الصّــدد إلى فعل (Jean pierre Chevènement) زعيم اليسار الرّاديكالي، الذي استقالَ من الحكومة سنة 2000 احتجاجاً على مُخطّط الاستقلال الذّاتي لكورسيكا؛ والذي وضعه الوزير الأوّل لهذه الجزيرة، والذي يمنحها إمكان تدريس الكورسيكيّة في المدرسة العموميّة[1]. وإلى ذلك الدّرس الذي أعطاه مجلس الشّيوخ الفرنسيّ الذي رفض يوم 18- جوان- 2008 الاعتراف باللّغات الجهويّة بفرنسا عندما مُسّت مادة دستورية تقرّ بـــ "**إنّ اللّغات الجهويّة تنتمي إلى التّراث الوطنيّ للأمّة الفرنسيّة**". ورفض مجلسُ الشّيوخ اقتراح هذا التّعديل، واعتبر الاعتراف باللّغات الجهويّة تهديداً للوَحْدَة الوطنيّة، ولوحدة الأمّة الفرنسية... وقد جاءت فتوى الأكاديميّة الفرنسيّة مُتّفقةً مع قرار مجلس الشّيوخ؛ ففي فرنسا عدة لغات جهويّة منها: البروتون والجرمانيّة، والكاتالينيّة، والباسكيّة والكورسيّكة... وهذا داخل فرنسا؛ كما توجد لغاتٌ خارج فرنسا كلغات الكاراييبي، ولغة الكاناك، والكريول، ولغة هايتي والكاجونيّة في لويزيانا... وغيرها، ويقول مجلس الشّيوخ: نُشجّب هذا التّعديل والذين يؤيّدون الاعتراف بهذه اللّغات يُعتَبَرون مُخالفين لميثاق أورپا. ويمكن أن نشير إلى حادثة مُماثلة؛ وذلك في جويلية 1999 حيث جرت مُحاولة الاعتراف بالمحليّات علي يد رئيس الحكومة الاشتراكي (Leonel Jospin/ ليونيل جوسپان) ولكن الرّئيس (Jacques Chirac/ جاك شيراك) رفض الموضوع، وعرضه على مجلس الوزراء، وجاء الرّفض القاطع، وخرج وزير الدّاخليّة آنذاك وهو(جون پيير شوڤينمان) ليعلن: "إنّ الاعتراف باللّغات الجهويّة معناه **بلقنة فرنسا**". بمعنى إنّ التّعدّد اللّغويّ بفرنسا يعني بلْقنة C'est la Bulkanisation de la France وهذا الملف يُطوى نهائياً، ولا عودة إلى الحديث عن التّعدّد اللّغويّ في فرنسا. وما يمكن

1ــ عبد القادر الفاسي الفهري، السّياسة اللّغويّة في البلاد العربيّة، ط1. ليبيا: 2013، دار الكتاب الجديد المتّحدة، ص 23.

تسجيلُه في هذه النّقطة بأنّ فرنسا تمنع لهجاتها بما رفعته من لاءات ثلاث: **لا للهجات. لا للغات المحليّة. لا للهجين في فرنسا**، ولكنّها تُشجّع ذلك في غير بلادها، **فهل نعتبِر؟** ويرى (عثمان سعدي) بأنّ مَسألة المُناداة للّغات الوطنية لم تظهر في الجزائر إلاّ مع ظهور النّزعة البربرية، ومع وصول الاستعمار الفرنسي سنة 1830، فمن باب (فرّق تسد) فقالوا للبربر "إنّكم أنتم الأصلاء في هذه البلاد وأنّ العربَ مُحتلّون، وأنّ اللّغة البربرية هي الأصلية، وأنّ العربيةَ لغةٌ غازيةٌ". وكان الفرنسيون يستهدفون بذلك خَلْقَ ضرّةٍ للعربية تدخل معها في صراع يكون في صالح اللّغة الفرنسية، ومن ثمّ تثبيتها في المغرب العربي، وردّ عليهم العلامة (البشير الإبراهيمي) بقوله: "**العربية حرّةٌ لا تتحمل ضرّةً**". ويواصل (عثمان سعدي) يقول: استقلّت بلدان المغرب العربي، فقال الفرنسيون: إنّ بالمغرب بأربعَ لغات، وليس لغة واحدة هي: اللّغة العربية الفصحى، واللّغة الدارجة، والبربرية والفرنسية. بينما هم يقولون: إنّ بفرنسا لغة واحدة هي اللّغة الفرنسية؛ مُنكرين اللّغات الجهوية السّت بفرنسا، مقتنعين بالقاعدة التي تقول "**لغة واحدة= أمّة واحدة. تعدد اللّغات= تعدد الأمم**". ولا بدّ في هذا المقام أن نعرج على ذلك الدرس الذي أعطاه مجلس الشّيوخ الفرنسي الذي رفض يوم 18 جوان 2008 الاعتراف باللّغات الجهوية بفرنسا، وذلك بإضافة مادة بالدستور تعترف بهذه اللّغات كلغات وطنية، ونصّ التّعديل الدستوري المطلوب على ما يلي: "إن اللّغات الجهوية تنتمي إلى التّراث الوطني للأمة". ورفض مجلس الشّيوخ اقتراح هذا التّعديل، واعتبر الاعتراف بهذه اللّغات تهديدا للوَحْدة الوطنية. وقد جاءت فتوى الأكاديمية الفرنسية؛ أي مَجْمَع اللّغة الفرنسية الشّهير مُتّفقة مع قرار مجلس الشّيوخ؛ ففي فرنسا عدة لغات جهوية منها: البروتون، والجرمانية، والكاتالينية، والباسكية، والكورسية والأويل داخل فرنسا؛ كما توجد لغاتٌ خارج فرنسا بالمناطق التي تتبع السّيادة الفرنسية كلغات الكارابيبي، ولغة الكاناك وغيرها، ولكن هناك لغة واحدة في الاستعمال الرّسمي لا غير. والذين يؤيّدون الاعتراف بهذه اللّغات يعتبرون عدم الاعتراف مخالفة لميثاق أورپا حول لغات الأقليات التي ترفض دائما الحكومة الفرنسية المصادقة عليه. ومن المعلوم أنّه سبق أن جرتْ محاولةُ الاعتراف بهذه

اللّغات في حزيران (يونيو) سنة 1999 علي يدّ رئيس الحكومة الاشتراكي (ليونيل چوسبان) لكنّ الرئيس (چاك شيراك) رفض الاقتراح، وعرض الموضوعَ على مجلس الوزراء الذي رفض اقتراح (چوسبان) وخرج السّيد (شوڤينمان) وزير الداخلية من الاجتماع ليعلن: "**إنّ الاعتراف باللّغات الجهوية معناه بلقنة فرنسا**". وهكذا نرى أنّ التّعدّد اللّغوي في فرنسا بلْقنة، والتّعدّد اللّغوي بالجزائر والمغرب العربي أمرٌ طبيعي في نظر فرنسا المُستعمِرَة. ويواصل عثمان سعدي قائلاً: إنّ الأوربيين النّزيهين يعترفون باللّغة العربية كأوّل لغة منظَّمة في تاريخ البحر المتوسّط، فـ (بيير روسي) الفرنسي Pierre Rossi في كتابه (وطن إيزيس: تاريخ العرب الصّحيح La Cité D'Isis :Vraie histoire des Arabes) الذي طبع سنة 1976 بباريس: تعقّب الحضارة الإنسانية من خلال اللاّهوت والمعتقدات الوثنية والمُنزلة منذ آلاف السنين، وأثبت حقيقة أنّ جذور الحضارة الإنسانية وبخاصّة في مهدها بالبحر المتوسّط كانت عربية: فهو يقول: "إنّ الثّقافة اليونانية والثّقافة الرومانية اللاتينية ما هما إلى شرفة صغيرة في صرح الثّقافة العربية الكبير، وأنّ النّزعة التّعصبيّة الأوروبية أخفت هذه الحقيقة لتبرز زوْراً أنّ جذورَ الحضارة الأوروبية يونانية، وبالفعل، إنّ اللّغة العربية هي أوّل لغة منظَّمة من لغات بشرية البحر المتوسّط. هذا في الوقت الذي ينكر فيه البربريست فضلَ اللّغة العربية كلغة أمّ للأمازيغية[1]".

وفي هذه المواقف الاعتزازيّة، نرى الفرنسيّين يعملون ما وسعهم الجهد في:

- **غرس ثقافة الاعتزاز بالفرنسيّة؛**
- **نشر ثقافة صلاحيّة الفرنسيّة لغة العلم والحضارة والإبداع؛**
- **تشجيع الباحثين على إنجاز المؤلّفات التّعليميّة في مختلف العلوم؛**
- **التّمكين للفرنسيّة في مختلف المواقع؛**
- **تشجيع التّرجمة من وإلى الفرنسيّة والإغداق على المترجمين؛**

1 ــ عثمان سعدي، مقالة لم تطبع موسومة: البربريست.

ــ إقامة حملات العناية بالفرنسيّة، وتوضيح أهميّتها ومقامها ومكانتها في النّفوس؛

ــ إقامة يوم تنافسي وتشجيعي لمن لا يخطأ في الكتابة الفرنسيّة؛

ــ الإفادة من الطّرائق المُعاصرة في التّدريس♥.

والحقيقة التي نقولها دائماً، إنّ اللّغة الفرنسيّةَ وراءها رجالٌ عظامٌ، فقد قامت على أكتاف العباقرة والباحثين والشّعراء والفلاسفة والصنّاع... فرنسيّون كبار أمثال: ڤولتير+ موليير+ راسين+ رامبو+ هيگو+ سارتر+ باختين+ تودوروڤ+ كريستيڤا... إلى علماء مُتْقفين مُبدعين تمَكَّنُوا من إتقان الفرنسيّة، وأبدعوا فيها وبها، بل واصلوا تلك المِسْطرة الأولى التي وضعها السابقون منذ (ديكارت). علماء كبار تمكّنوا من إنجاز ما لم يصل إليه غيرُهُم درسوا الأدب اليوناني وتنبّهوا إلى مقام السّابقين، وإلى منتوج علماء العصر الوسيط، ولا سيّما في القرن السّابع عشر عند الأدباء بصفّة خاصّة، وإلى الصّراع بين القُدماء والمُحدثين؛ والذي اندلعَ في نهاية القرن السّابع عشر الميلادي، وإلى ما أَنْجزَتْه نخبةُ النّهضة وثورة البخار... فكان كلّ ذلك رفداً للغة الفرنسيّة؛ وهي تعلو عُلواً كبيراً، بفضل

♥ــ يعمل الفرنسيّون على تطوير طرائق تدريس الفرنسيّة لغير النّاطقين بها بطريقة حديثة وسريعة، باستحداث برامج من مثل: (أدرس في الخارج EF) وهي برامج سهلة تركّز على اللّغة الفرنسيّة الوظيفيّة، وتتناسب مع جميع المستويات، ومع جميع الأعمار. ويُضاف إلى ذلك مدّ المتعلّم بكُتُب تكميليّة وأشرطة وCD، بالإضافة إلى التّعليم عن بُعد، وعن طريق الكپتار. إغراءات كثيرة تقدّمُها فرنسا، وهي في الحقيقة رِهان تعمل فرنسا أن تبقى لها الرّيادة اللّغويّة، إنْ لمْ تنل الانتشارَ الواسعَ عن السّابق. والمنهج في كلّ هذا ما يلي:

ــ العمل الدّؤوب؛

ــ الفشل غير مسموح؛

ــ الخطأ غير مقبول؛

ــ العلمانيّة هي النّجاح.

هُؤلاء المُخلصين. ومن هنا نرى كيف استفادت فرنسا من نخبتها العلميّة، وكيف كان لهم التّأثير في الأجيال اللاّحقة، وفي الرُّقي باللّغة الفرنسيّة عامّة.

وهل نعتبر من هذه المواقف الاعتزازيّة للفرنسيّين، وممّا قدّمته النّخبة الفرنسيّة للغة الفرنسيّة، **فلماذا تخلّفْنا نحن العرب؟** تخلّفنا لضعف الاعتزاز بهويّتنا اللّسانيّة وهو عامل من عوامل قبول سياسة الاستعمار الذي غرس فينا عدمَ صلاحيّة العربيّة للعلوم، وكان يُوصِي أتباعَه بضرورة مُراجعة فِعْلِ الأجداد، وضرورة تدريس اللّغات الأجنبيّة في المرحلة الأولى من التّعليم الابتدائيّ، وتبنّي لغة المُستعمِر، والتّخلّي عن الحرف العربيّ، والخضوع لاستشارات الأجانب على أنّهم أصحابُ فكرٍ صائبٍ، والعمل على إخراج الأمّة العربيّة في فكر السّلف على أنّه يجسّد النّقص والتّخلّف، ولذا من الضّروري الابتعاد عن القرآن وطرده من القلوب. وهذه هي سياسة فرنسا التي عملت بها، وقالت عندما دخلت الجزائر: علينا أن نستفيدَ من أخطاء الإسپان وأخطاء الأتراك الذين لم يُقوِّضوا ولم يَقْضوا على الجزائريين، فهم لم يُقضوا على مُقوّمات الأمّة الجزائرية لبقاء تلك المَعمّرات والحواضر العلمية والزوايا التي تنشر الوعي، فعلينا جعلَها زوايا النّوم والصّوم والتّبعية، لا غير، وبذلك نقضي على مُقوّمات هذا المجتمع الصّعب.

وبهذه الوصايا التي نستمدّها من عدو الأمس، أصبحنا لا نسير خطوة إلى الأمام، فنراوح مكاننا، وفي كلّ مرّة نبدأ من حيث بدأ الأوّل فينا أو منّا ونعيش الصّراعات، ولا نتقدّم قيد أنملة.

4 ـ تأسيسُ المُؤسّساتِ العلميّةِ

يُمكن أن نُطلقَ عليها مصطلحَ (الانتشار اللّغويّ الفرنسيّ المُؤسّساتي) وهذا عن طريق إقامة المُؤسّسات أو الجمعيّات العالميّة، وهي كثيرة جداً جداً، ونذكر ما اسْطَعْنا إحصاءَه:

ــ الأكاديمية الفرنسية التي تأسّست في عام 1635م.
ــ الفيدراليّة العالميّة للثّقافة وانتشار اللّغة الفرنسيّة سنة 1906.
ــ الجمعيّة العالميّة للكُتّاب باللّغة الفرنسيّة سنة 1947.
ــ الاتّحاد العالميّ للصحفيّين والصّحافة باللّغة الفرنسيّة سنة 1952.
ــ المجلس العاليّ للفرنسيّة كلغة أوربيّة سنة 1957.
ــ جمعة الدفاع عن اللّغة الفرنسية عام 1958.
ــ فيدراليّة الجمعيّات للانتشار الفرنسيّ سنة 1964.
ــ المنظّمة الإفريقيّة الملگاشيّة المشتركة سنة 1965.
ــ اتّحاد الجامعات النّاطقة كلياً أو جزئياً باللّغة الفرنسيّة سنة 1966.
ــ اللّجنة العليا للدفاع عن اللّغة الفرنسيّة سنة 1966.
ــ اللّجنة العامّة للمُصطلحات والألفاظ الحديثة CGTN
ــ المجلس العالميّ للغة الفرنسيّة سنة 1966.
ــ المجلس العالمي للغة الفرنسيّة سنة 1967.
ــ اللّجنة العليا للّغة الفرنسيّة 1967.
ــ مؤتمر الشّباب والرّياضة سنة 1969.
ــ الفيدرالية الدّولية لأستاذة اللّغة الفرنسيّة سنة 1969.
ــ وكالة التّعاون الثّقافيّ والتّقني ACCT سنة 1970.
ــ المنظمة الدولية للفرنكفونية في 20 مارس 1970.
ــ الجمعيّة الفرنكفونيّة للاستقبال والاتّصال سنة 1974.

ــ الرّابطة الدّوليّة لرُؤساء البلديات والمَسؤولين عن العواصم والمُدن الكبرى التي تستعمل الفرنسيّة كلّيا أو جزئياً سنة 1979.

ــ البعثات الفرنسيّة سنة 1983.

ــ روابط الفرنسية التي تأسّست في 1983م. Alliances Françaises

ــ المجلس الأعلى للفرنكفونيّة سنة 1984.

ــ المجلس الأعلى للغة الفرنسيّة سنة 1989.

ــ جامعة سنغور بالإسكندريّة سنة 1989.

ــ الوكالة الجامعيّة للفرنكفونيّة.

ــ وزارة الثّقافة والفرنكفونيّة 1993.

ــ المندوبية العامّة للغة الفرنسية ولغات فرنسا.

ــ كتابة الدولة مُكَلَّفَة بالتّعاون والفرنكفونية.

ــ قمة الدّول الفرنكفونيّة.

ــ الملتقى الفرنكفوني للأعمال.

ــ البرلمان الفرنكفوني.

ــ جمعية الصّحافيين الفرنكفونيّين.

ــ الجمعية الدّولية لعمداء المُدن الفرنكفونيّة.

ــ القوانين والتّشريعات التي تفرض العقوبات.

ــ القنـــوات الفضـــائية مـــن مثل: القناة 3/ القناة 5/ قناة arté/ قناة MEDI1TV/ فرانس 24.

وفي مجال وسائل التّواصل، لا بدّ من الإشارة إلى أهميتها بالنّسبة لانتشار الفرنسية **Médias et communication**

Tous les médias ont aujourd'hui, quel que soit leur support, la possibilité de toucher un public international grâce à internet. Mais cette possibilité ne suffit pas à faire de tous des médias d'envergure internationale. Pour atteindre cette dimension, il faut avoir la capacité de s'adresser à des publics diversifiés, et pouvoir traiter, de manière informée et structurée, des sujets intéressant la planète tout entière.

Cela suppose une stratégie et des moyens. Beaucoup de médias francophones restent encore confinés au territoire de la France. Il existe néanmoins quelques grands vecteurs internationaux.

Télévisions

- TV5 Monde
- France 24

Radios

Radio France international

Avec 44 millions d'auditeurs, RFI est la troisième radio internationale après BBC World (146 millions d'auditeurs) et Voice of America (91 millions d'auditeurs), devant Deutsche Welle (31 millions). RFI diffuse ses émissions en français ou dans 19 langues étrangères. RFI émet partout dans le monde, en ondes courtes ou en modulation de fréquence. Elle propose des émissions pédagogiques et trois « journaux en français facile ». RFI a des filiales : Monte Carlo Doualiya (anciennement RMC Moyen-Orient) qui diffuse au Moyen-Orient et au Maghreb en arabe et en français, Rádio Europa Lisboa qui émet en français et en portugais. RFI Sofia (Bulgarie), Radio Delta RFI FM à Bucarest (Roumanie) et RFI-Deutschland diffusent en Europe centrale et orientale.

RTBF International, la station de radio internationale de la Radio-télévision belge de la Communauté française (RTBF), est diffusée en ondes moyennes (AM) dans un rayon de 300 km autour de Bruxelles ainsi qu'en FM à Kinshasa (République démocratique du Congo). En outre, la station est accessible en Europe via le satellite HotBird 7A et en Afrique via le satellite Atlantic Bird 3, ainsi qu'en streaming et en podcast sur internet. RTBF International rediffuse pour l'essentiel des programmes de La Première et de Viva Cité.

Africa n^{o} 1 est la première station de radio généraliste internationale du continent africain. Elle est localisée au Gabon, au centre du continent africain. Elle compte 31 millions d'auditeurs répartis entre l'Afrique, l'Europe (surtout la région parisienne), et l'Amérique du Nord. Elle est considérée comme la « voix de l'Afrique ». Elle émet en ondes courtes, et en modulation de fréquence dans les principales capitales africaines.

Radio Méditerranée Internationale (Médi 1)

Agence France-Presse (AFP)

Agence panafricaine de presse

L'agence Panapress est née en 1963 en même temps que l'Agence Syfia

Associations

Union internationale de la presse francophone (UPF) a été créée en novembre 1950. Elle regroupe aujourd'hui près de 3 000 Association internationale de la presse francophone (AIPF)

La Francophonie représente assurément une alternative à la globalisation sauvage qui menace les identités de chaque peuple et engendre une standardisation culturelle en uniformisant les comportements et les modes de vie. La francophonie a toujours milité pour la *diversité culturelle* qui est, en quelque sorte, sa raison d'être et qui a été clairement consacrée par la Déclaration de Cotonou. L'OIF a activement soutenu, dès le Sommet de Beyrouth en 2002, la Convention de l'UNESCO sur la diversité des expressions culturelles adoptée le 25 octobre 2005. Pour le politologue Ghassan Salamé «forte de sa propre diversité culturelle, puisqu'elle fut d'abord fondée par des dirigeants appartenant à la fois à l'univers africain, à l'univers arabe et à l'univers asiatique, rejoints ensuite par les pays développés l'OIF a fait du dialogue entre les cultures le moteur d'une évolution positive et a ouvert une voie opposée à l'hypothèse bien douloureuse du « choc des civilisations » ou de la guerre des religions, une hypothèse qui ressemble parfois étrangement à un projet pour ceux qui voient dans la pluralité des modes de vie un danger et dans l'altérité une insupportable faiblesse … ». Pour les pays du Sud, comme pour ceux du Nord, la Francophonie, respectueuse des différences et des spécificités de chacun, apparaît comme un contrepoids nécessaire face à une mondialisation qui s'appuie sur une langue unique pour imposer une pensée unique[1].

بالإضافة إلى:

ــ 1060 مركزٍ ثقافيٍ في العالم، وكلّ مركز له نشاط في تدريس الفرنسيّة.

ــ حضور المعارض العالميّة والمحليّة.

ــ عرض الأفلام.

1 ــ الشابكة، موقع Wikipédia، La francophonie، بتاريخ: 10 أكتوبر 2015.

ــ المشاركة في النّشاطات المَحليّة، والعمل على إبرازها في مَطبوعات أو أشرطة...

ويُضاف إلى هذا مؤتمرات كثيرات لا تكاد تنقطع، بل في كلّ بلد فرانكفونيّ عُقد أكثر من ملتقى، ونشير إلى مؤتمر هامّ "عقد في ڤرساي سنة 1986، وهذا المؤتمر حَضَرَه الرئيس (ميتران) وقد أعطى حضورُه للفرنكفونيّة مجهوداً وزخماً كبيريْن، ويعدّ المؤتمرُ بدايةَ عهد جديد لتفعيل دور الفرنكفونيّة عالمياً؛ فقد حضرته (41) دولة ناطقة باللّغة الفرنسيّة، سواء بشكل كلّي أو جزئي، مثّلها رؤساء دول وحكومات ووزراء من مختلف قارات العالم، ثمّ تبعه عدة مؤتمرات أخرى[1]". وهذا يَكْشِف الجهدَ المبذول في سبيل انتشار الفرنسيّة في الخارج، ولم يبدأ هذا بعد تأسيس قطب الفرنكفونيّة، بل كانت له إرهاصات طويلة المدّة، وكما قلنا، فإنّها تعود إلى مبادئ الثّورة الفرنسيّة التي كانت فيها الأفكار تتناطح بين المُفكّرين الفرنسيّين المُتنوّرين، وبين الحُكّام ورجال الكنيسة، فنتجَ عن ذلك ضرورة الاهتمام **باللّغة الجامعة** التي تُوَحّد الأفكارَ.

وكما نرى هيآت كثيرات تعْضُد منظّمة الفرنكفونيّة، من مثل:

ــ وكالة التّعاون الثّقافي والتّقني.

ــ اتّحاد الجامعات النّاطقة بالفرنسيّة AUPELF.

ــ جامعة سنغور بالإسكندريّة

ــ الجمعيّة العالميّة للمدّ الفرانكفونيّ.

ومن مؤسّساتها الكبرى:

ــ القمّة الفرنكفونيّة؛

ــ المؤتمر الوزاريّ للفرنكفونيّة؛

ــ المجلس الدّائم للفرنكفونيّة؛

---

1 ــ سليمان إبراهيم العسكري "العربفونيّة في عصر العولمة" مقال في google بتاريخ 9 أكتوبر 2014.

ــ الأمانة العامّة؛

ــ المكاتب الجهويّة؛

ــ مكاتب الاتّصال؛

ــ المراسلون...

ومن خلال هذه المُؤسّسات؛ والتي تعمل كلّها من أجل نشر الفرنسيّة خارج حدودها تعمل الأكاديميّة الفرنسيّة على استقطاب المُعرّبين أو الأجانب، وإدخالهم في عُضويّة الأكاديميّة؛ ليكونوا مَكسباً لها في نشر اللّغة الفرنسيّة أو الثّقافة الفرنسيّة، وهذا كلّه بإغداقٍ ماديٍّ مُعتبرٍ، فكم من شخصيّة علميّة عربيّة نالت العضويةَ! وكم من مُؤتمر أُقيم! وكم من مُؤسّسات شُيّدت! وكم من أموال صُرفتْ! وكم من تأطير...! أرمادة كبيرة أو جيوش جرّارة في سبيل إخضاع النّفوس قبل الأجساد، وإذا تحرّرتِ الأجسادُ تبقى العقولُ مُقيّدةً وتابعةً، وهذه شرنقةُ فرنسا العظيمة. وبتعليق بسيط نقول: إنّ هذه المؤسّسات تحمل مشروعاً واحداً هو حماية اللّغة الفرنسيّة، وكذلك العمل على نشرها في الخارج والإغداق عليها؛ لتبقى دائماً في الصّدارة، والعمل على استحواذ الفئات المُتعلّمة؛ بُغية كسبهم في المعارك اللّغويّة القادمة **فهل نعتبر؟**

ولا يغيب عن بالنا؛ بأنّ في فرنسا وحدها اليوم خمسين (50) جمعيةً تعمل على حماية اللّغة الفرنسيّة، ولم يقلِ الفرنسيون هذا كثير، بل يقولون: هذا قليل في حقّ لغتنا؛ لأنّ الفرنسيّة مُقدسّة، فما قدّمناه من أجلها هو القليل القليل "في فرنسا اليوم نحو خمسين جمعية تعنى بحماية اللّغة الفرنسيّة، بل فيها قانون يفرض غرامة ماليّة على كلّ كاتب فرنسي يستعمل كلمات غير فرنسيّة لها مُقابل في الفرنسيّة. وفي ألمانيا جهاز رسمي لترويج اللّغة الألمانيّة تفوق مُخصّصاتُه الـــ 250 مليون يورو سنوياً. وفي إيرلندا وكالة رسميّة تُنفق أموالاً كثيرةً على حماية اللّغة الإيرلنديّة وتطلق حملات إعلاميّة سنويّة تحت شعار (لغتنا من كياننا). وفي إيران قرارات تمنع استخدام الكلمات غير الفارسيّة في الإذاعة والتّلفزيون. وهكذا هو الأمر في

إندونيسيا وسنغافورة وبلدان كثيرة. أما عندنا فلا شيءَ من ذلك[1]". وما تستخلص من هذا؟ نرى دولاً تعبُد لغتَها، ولا ترى لها بديلاً، فتنفق من أجلها، ولا ترضى لها بالضرّة والعبرة **في فرنسا** التي لا نستشهد بها إلاّ في ما يخدش حياءنا، ولم نقل ذات يوم: إنّ فرنسا تضع مشاريع طويلة المدى للتوسّع اللّغويّ؛ بغية كسب مواقع الفرنسيّة في الخارج، وتوقيف مدّ الإنكليزيّة؛ وبخاصّة في ميدان التّربيّة والتّعليم والمُهمّ أن تكون الفرنسيّة اللّغة الأولى في التّعليم. ولم تقل فرنسا ذات يوم إنّ الدّول تتباهَى بلغاتها، وتسخر من قوم لا يستعملون لغتَهم، ولم تقل فرنسا يوماً إنّ التّقدّم لا يكون باللّغات الأجنبيّة، **فهل نعتبر؟**

وكما تَرَوْن، فإنّ فرنسا عملت على وضع أرمادة من المُؤسّسات، وضمن هذا التّكتّل والتّسخير الوطنيّ لكلّ آليات المجتمع الفرنسيّ بغية الحفاظ على جمال الفرنسيّة، والعمل على نشرها خارج فرنسا، وفي كلّ ذلك ظهر **قُطب الفرنكفونيّة** المُبطّن بالغطاء الثّقافيّ المُهيمن؛ قطب سيلعب دوراً كبيراً في الاستقطاب الأجنبي وسيكون له مقام إشعاع الفرنسية في الخارج أكثر من الداخل؛ ففي الداخل هي محصّنة بقوانين وبمقامها عند أهلها، والنقطة المهمّة كيف تنافس الإنكليزية وتكون لها الريادة.

وأمام هذا الزّحام والزُّخم والأرمادة الكبيرة من المؤسّسات، وقد غابت عنّا مُؤسّسات وجمعيّات كثيرة لم نصل إلى حَصْرها، فما هي **العِبَر** التي تُستخلص من فِعْل فرنسا؟ فنقول:

ــ ماذا لو جَنَّدَ العربُ طاقاتهِم الماديّة في نشر العربيّة بين مليار ونصف مسلم؟

ــ ماذا لو يعملُ العربُ على ربح سكان آسيا المسلمين في كتابة لغاتهم بالحرف العربيّ؟

ــ ماذا لو تنشُط المراكزُ الثّقافيّة العربيّة المتواجدة في كلّ عواصم العالم؟

1ــ لطيف زيتوني، مجلة حوليات. لبنان: 2014، اللّجنة الوطنيّة اللبنانيّة، ص 128.

ــ ماذا لو ينشُط العربُ في كسب ساكنة: تركيا+ إيران+ السّنغال+ كشمير+ الهند+ مالي+ النّيجر+ نيجيريا+ البنغال؟

ــ ماذا لو تتجنّد فِرَقٌ كثيرة في الجامعة العربيّة لوضع مشاريع طويلة النّفس لنشر العربيّة خارج العرب؟

ــ ماذا لو أنّ إنتاجنا كان أكثر ثراءً وأهميّة؟

أليس ذلك كلّه، هو ما يُجبر الغربَ على تعلّم اللّغة العربيّة بشكل أوسع، ولما احتجنا –نحن العرب– إلى الاستمرار في التّبعيّة للغرب، سواء فرنسا أو بريطانيا أو أمريكا. ألا يكون ذلك تأسيساً لدور **عروبيّ قويّ** في المجتمع العالميّ، ويعيش العربُ عصرَ العولمةِ فاعلين. ألا يعدّ ذلك نَصْراً للإسلام ونشره على أنّه ثقافة دينيّة ودنيويّة بديلة؛ تؤكّد التّعايش والسّلم، وتكره القتل والتّدمير. أليس ذلك نوعاً من الإسهام في بناء **العربوفونيّة** بديلة عن الفرنكفونيّة أو الكمنويلثيّة. **ألا يمكن أن تكون لنا التّجربةُ الفرنسيّة النّاجحة قُدوةً وعِبرةً نستلهم منها أفكارَ النّجاح.**

وفي هذا المجال لا بدّ أن يكون الحديث عن نقطتيْن هامتيْن؛ تتعلّقان بموقعنا –نحن العرب– من خلال هذا الفعل الفرنسيّ النيّر بالنّسبة لهم، ولكن هل هو نيّر وفعّال بالنّسبة إلينا، ويبدو لي بأنّنا بحاجة إلى إعادة النّظر في تخطيطاتنا القادمة ونحن في هذا الوقت نحتاج إلى:

أولاً ــ الانفتاح على اللّغاتِ الأجنبيّةِ الأخرى: من الضّروري الانفتاح على اللّغات الأجنبيّة، وكما قال (Goethe) إنّ الذين لا يعرفون اللّغات الأجنبيّة لا يعرفون شيئاً عن لغتهم. بالفعل –نحن العرب– انفتحنا وشرّعنا أبوابَنا على اللّغتين: الفرنسيّة والإنكليزيّة حتى أُتْخِمْنا منهما، وبذلك بقيت الشّعوبُ العربيّةُ أسيرةَ هاتين اللّغتيْن. نحن الآن بحاجةٍ إلى الاستعانة باللّغات الأجنبيّة الأخرى، لا العمل على تبنّيها وترسيمها المُقنّع، وفي هذه الألفيّة نحتاج إلى الانفتاح على اللّغة الصّينيّة ومن حكمتنا (اطلبوا العلمَ ولو في الصّين) فنحنُ نتعاملُ مع الصّينيّين الذين يشكّلون الآن خمس ⅕ سكان العالم، ويتواجدون في الدّول العربيّة بكثرة، بل نستعين بهم في إقامة البنيةِ التّحتيةِ. ويذكرني هذا بسياسة الرّئيس (ساركوزي) التي تبنّاها

لكسب الصّينيين، وَهُمْ قوّةٌ بشريّةٌ كبيرةٌ، فإذا كسب هذا البشر عن طريق تعليمهم الفرنسيّةَ؛ سيكون للفرنسيّة الفتحُ الأعظمُ لما لهذا البشر (الصّينيون) من سرعة التّعلم، ومن ثمّ العمل على نشر الثّقافة الفرنسيّة في الصّين، ومن ثمّ لما تحمله الصين من اقتصاد قويّ، وهي سياسة نفعيّة تُدر على الفرنسيّين قيمة ماليّة مُعتبرة فهي استثمار كبير عندما يتحقّق المشروع. بالفعل هو استثمار مادي كبير كان يراه الرّئيس الفرنسي؛ حيث يُدرّ على فرنسا عُملةً كبيرةً من خلال بيْع الكتب والأشرطة، وإقامة النّدوات والأهمّ في كلّ ذلك أن تنالَ الفرنسيةُ مساحةً في هذا البشر الكبير، فيكون للفرنسية توسّعٌ في آسيا. هو استثمار من النّوع العولمي الذي تنشده الإنكليزية في وقتنا المُعاصر، وفرنسا تَدخل المنافسةَ وتُغامر، فهي ترى بأنّ الرأسمالَ لا يكون جَبَاناً، وإلاّ لا يُحصِّلُ إلاّ فُتاتاً.

إذاً بالنّسبة إلينا، علينا التّفتحَ على اللّغة الصّينية، والإفادةَ من علمها وفنونها وكذلك لا بدّ من إعادة روابط الاتّصال بين لغتنا العربيّة، واللّغات الشّرقيّة وهي اللّغات التي تعايشت مع العربيّة؛ بل إنّ تراثَنا العلميّ يوجد فيها، فما أحوجَنا إلى استخدامها في ما يعمل على رفد لغتنا. بل ما أحوجنا إلى النّفاذ إلى آسيا التي تشكّل القطبَ البشريَ الذي لو استثمرته في تعليم العربيّة عندهم لكان للعربيّة الفتحُ المبينُ.

ثانياً ــ تحريك دور النّخبة في تقديم الحلول: ليس من باب جَلْد الذات العربيّة في حديثي عن النّخبة العربيّة التي أصابها القُعُود، حتى أصبحت من الخوالف وأنّها طَرَف في الأزمة؛ بتلك المواقف التّعطيليّة، وهي أزمةٌ عَمَّرَت قرناً وما ينيف، وقد وقع التّوقيف في كثير من أجهزتنا الثّقافيّة بالشكل العنيف وشهِدنا تردّياً علميّاً وخلقيّاً واجتماعيّاً وسياسيّاً. ضعُفت النّخبةُ المعاصرةُ في هذا الوقت، وبذلك سقطنا في فخّ الاختزال، وفي قياسِ الحاضرِ على الماضي والنّظرِ إلى المُستقبل بعيونِ الماضي، وحَصَرْنا دورَنا في ما انقضى وما فاتَ وما امتدَّ بصرُنا إلى ما هو آتٍ. نخبتُنا ركِبَها هاجسُ النّهضة، وما استطاعت تقديمَ آليات النّهضة المعاصرة. نخبتُنا تنظر دائماً للماضي المُتعثّر، ولكنّها ما قرأتْ بإمعان نجاحَ (عبد

الملك بن مروان) الذي جمعَ بين **التّعريب والعُملة**؛ وهما رمزا السّيادة، ولم تعلم النّخبة العربيّة أنّ من شروط النّهضة **الوَحْدَة والغلبة والقوّة**، ولم تعلم أنّه لن تكونَ لنا نهضة بغير الإصلاح الجامع بين الماضي الزّاهر والمستقبل المنشود. نخبتُنا شبهُ تائهةٍ في السّطحيّات، وتعتمد تسطيح الأفكار، وتنتظر من الآخر خاتمَ النّبوة ونفيَ الوصيّة، ولذا فبعضُ نخبتنا كان سبباً في تمديد الأزمة. نخبتُنا لا تزال تنشدُ شرعيّةَ القبيلةِ الجاهليّة والجيشِ المملوكي، وتترصّد كلَّ تطوّر بأنّه من البِدَع ومن تهديد الأمن.

وما قيل عن نُخبتنا في الماضي، يمكن أن يقال عن نخبتنا المعاصرة التي تعيش في الخارج، فقد أصابتها حرفة النّقد فقط، أصابها تعَب الماضي، وبقيت تنتقد من بعيد. نخبة تنتقد أوضاع بلادها دون أن تُسْهِم في تقديم مشاريع النّمو ودون تقديم أفكار التّحديث، ولا حتى مشاريع سياسية لنموذج اجتماعي؛ عدا الكلام المكرور عن مباركة الربيع العربي الذي أتى على الأخضر في بلدان عربية كانت آمنةً مُطمئنةً، فأصبح ربيعُها يدير الدمّ والبؤس. وهذا عكس تلك النّخبة العربية في الماضي، والتي عرفت أوربا، وتلقّت علومها، لكنّها أسهمت في النّهضة العربية وعملت للرقي بالعرب إلى مستوى أمل اللّحاق بالغرب وهي نخبة "... جسّدت النّهضة نماذج مفهومية وأدبية استوحتها من فرنسا وبريطانيا، ثمّ اكتسبتها عبر بعْثات طُلابية أوفدتْها لتحصيل العلم في هذين البلدين. وهذا يعني وجود شروط مُسبقة جعلت من الممكن التّفكير بإصلاح إبستيمولوجي يختلف عن السائد أو يقطعه معه كلية[1]". وكنّا نودّ من هذه النّخبة أن تغوص في أعماق بلادها، وألا تبقى مجرّد شاهد لم يرَ شيئاً؛ شاهد من خلال وسائل التّواصل الاجتماعي، فينظر فقط للوضع بنظرة سوداء. نريد نخبةً مسكونةً بمغزى تقديم الأفضل لذويها رُغم بُعد المسكن. كما يمكن لهذه النّخبة التّفعيل عبر المنابر السّياسية، وعبر الإعلام والمسرح

1 ــ مؤسّسة الفكر العربي، التّقرير العربي السّابع للتّنمية الثّقافية، ط1. بيروت: 2014 ص 649.

والموسيقى ومختلف فنّون القول. نريد نخبةً تخلق إبداعاً جيّداً وتعمل على تهدئة الأوضاع الاجتماعية في بلادها، لا الدعوة إلى مزيد من ربيع عربي غير معروفة عواقبه.

يمكن للنّخبة العربيّة أن تكون مُنقذةً من الأزمة، بل يجب أن تكون، وأن ترفعَ رايةَ القيادة في النّهوض، فليس صَعْباً أن ننهضَ مرّةً ثانيّةً إذا استلهمنا أفكارَ النّهوضِ التي حصلت في عصور الازدهار. ولكي ننهضَ علينا أن نحتكمَ إلى منطق العقل، وإلى قياسِ الحاضرِ على الحاضر، وقياسِ العَرَب على الغَرْب، لا التّماهي فيه، بقدر ما يعني مُراعاة الخصوصيّات، وبذلك ننهض بلا شكّ. وإنّه يمكن أن ننهضَ لأنّنا نحتكم إلى حضارةٍ إنسانيّةٍ قديمةٍ ومُعاصرةٍ، وهذا إذا استطعنا الجمعَ بين تطوير المدرسة، وتنميّة الاقتصاد وتطوير البحث العلميّ، وتيسير النّظام السّياسيّ، وتفعيل المؤسّسات.

وإذا كان موضوع هذا الكتاب يتعلّق أكثر بدولة (الجزائر) يجب القول بأنّ (الجزائر) في المستوى العالي قياساً بدولة (المغرب) الذي تُداس فيه العربية أكثر وبخاصّة من قبل تلك النُّخبة التي نُسجّل عليها بعض التخاذل، بل إنّها وقفت حجرة عثرة في عدم نيل العربية مقامها، وهذا من خلال سكوتها على الانتشار التي تعرفه الفرنسية في بلاد المغرب، وبخاصّة تلك المدارس الكبيرة التي تعتدي يومياً على مكانة العربية، ونجد النّخبة تتفرّج إن لم تكن قابلة بذلك الوضع. ولكن لا نعدم أن نشير في هذا المقام نشير إلى البيان الذي أصدره علماء ومثقفي المغرب حول سياسة التّعليم والغزو اللّغوي الاستعمار للمغرب، وهو بيان جدّ هامّ يبتغي ربط المغرب بلغته وأصوله، من خلال تلك المعركة التي خاضتها المُؤسّسات العلمية والثّقافية والنّقابية والأحزاب في المغرب بعد الاستقلال، وبخاصّة "منذ المناظرة التّاريخية التي نظمتها الدَّولة حول التّعليم بمركز معمورة سنة 1964؛ تلك المعركة التي كانت تهدف إلى تحويل المُؤسّسة التّعليمية الفرنسية التي خلفتها الحماية إلى مؤسّسة وطنية عربية اللّغة، مغربية الرّوح والشّخصية والأُطُر، فقد باءت بالفشل كلّ تلك الجهود، وبقيت المبادئ التي أجمعت عليها الأمّة في سياسة التّعليم، وهي:

تعريب التّعليم، ومغربة أطره، وتعميمه، وبقيت حِبراً على وَرق، ورفض المسؤولون كلّ التّصميمات التي وضعها الخبراء المغاربة لتحقيق التّعريب ومغربة أطره وكانت النّتيجة التي انتهت إليها سياسة ازدواجية لغة التّعليم، وإعطاء حصة الأسد للغة الأجنبية بعد 14 عاماً من تجريبها، هي إعلان فشلها[1]". والحاصل في كلّ ذلك أنّ المغرب لا يزال يئنّ تحت الفشل في التّربية والتّعليم، بما تستنزفه النّخبة المُفرنسة من دفع الأموال لصالح تعليم الفرنسية، بدل تعليم العربية، وما يُقدّم من أموال للمُتعاونين الأجانب الذين يُحوِّلون أموالَهم بالعملة الصَّعبة إلى أوطانهم ولا يستثمرونها في المملكة المغربية. هي ظاهرة إيديولوجية فرنكفونية استعمارية مُقنّعة، تلعب فيها النّخبةُ المغربية دور الفاعل الضاحك لفعله، الهاتك لعرضه السّاكت عن حقّه، والراضي عن وضعه. رغم أنّ الشّعب المغربي ليس راضياً أن يظلّ مَربوطاً بفرنسا، ولا بِلغة فرنسا. الشّعب المغربي يريد أن يستوعبَ الحضارةَ الإنسانيةَ بمختلف لغاتها، دون أن يتخلّى عن لغته العربية، وهو متجذّر في مازيغيته التي لم ينزلها فوق العربية. بل كانت لها الرّيادة في التّدريس، وهو الذي حافظ على التّدليس، وهو الذي استنكر فعل التّفريق بين المازيغيين والعرب منذ زمان. العربية في المغرب فوق الكلام، وفوق النّقاش الوطني، العربية تريد أن تنال موقعها في خريطة الطريق الوطنية، وأن يكون لها المحلّ الأوفى. ولذلك يناضل المخلصون المغاربة من أجل ظهور (أكاديمية محمد السادس للغة العربية) التي وقفت في وجهها عقبات كثيرات؛ عقبات الفرنكفونية ظاهرة، وتأثير النّخبة التابعة الراكعة سافرة جليّة. فإلى أين المَسير، وإلى أين المَصير، بعد هذا الزّمن الطويل، فهل يحتاج المغاربة إلى التّعطيل؟

في المملكة المغربية لُوبيات فرنكفونية مُؤثّرة؛ تعمل على التّعطيل وتستخدم الإعلام قوّة في التّعطيل والتّأثير، بل نجد الإعلام المغربي هو الذي يُجمّل الوضع الحالي لبقاء الفرنسية كما هي، وإلاّ سوف تدخل المغرب في الرداءة ويذهل الغيور

1 ــ مجلة الملتقى، الصادرة بمراكش: 2013، العدد 29، ص 155–157.

من ذلك السيل الإعلامي لتواجد الفرنسية، وحضورها المصطنع والمدّعم للفرنكفونية؛ فالتلفاز الوطني لا يتورّع عن إنتاج برامج وطنية بالفرنسية، كما أنّ البرامج باللّغة العربية لا تخلو من الفرنسية، بالترجمة أحياناً وبدونها أحياناً أخرى. و"الغريب أنّك تصادف تصريحات رسمية يدلي بها مسؤولون مغاربة باللّغة الفرنسية لوسائل إعلام مغربية". كما نرى وضعاً منقلباً أو شاذاً، بظهور بعض المسؤولين المُعرّبين الذين انتبهوا مُؤخَّراً إلى أنّه يجب أن يتعلّموا الفرنسية جَلْباً لبعض المنافع، وانخرطوا بدون شكّ في برنامج مُكثّفة لتعلّم الفرنسية.

والعجب لا يغيب عن المغرب؛ حيث إنّ وسائل إعلامه يتناول واقعاً بلغة أخرى غير لغة الواقع والحياة، وذلك ما يجعل الخبر غريباً عن مُتلقيه، أو إنّ الإعلام يبني عوض الواقع الواقعي واقعاً آخر خيالياً. وكلّ هذا يشكّل جزءاً مما يمكن أن نُسميَّه من الناحية الاجتماعية والنفسية **بعقدة اللّغة**؛ وهي عقدة مبنية على جهل واحتقار. ويتجلّى هذا الجهل والاحتقار في اعتبار اللّغة العربية أداة خارجية لا مستقبل لها فحسب، وفي اعتبار المعنى منفصلاً عن اللّغة المعبّرة عنه، وهي الفرنسية التي لها المستقبل. فمن جهة هناك تغييب للغة العربية بسبب النظرية الأداتية الدنيا، ومن جهة أخرى، تنعت الفرنسية عند الأداة باللّغة المعبّرة والقوية أو باللّغة الجميلة أو القريبة إلى القلب. ويجب أن نعرف كيف يستقبل المغاربةُ بعضَ البرامج الفرنسية التي تقدّمها وسائل إعلامه، ويُفترض أنّها تتوجّه إليهم. "علماً أنّ أزيدَ من نصف المغاربة أمّيون وبذلك فالفرنسية عندهم أصوات غريبة لا معنى لها. أما ما تبقى من المغاربة فلا يبدو أنّ مستوى تعلّمهم يمكّنهم الفهم والتّتبع الصحيحين. وبذلك، فالمواد الإعلامية الفرنسية المُوجّهة إلى المغاربة تخالف باعتمادها على لغة خارجية ثم إنّ هذه المواد الإعلامية لا تهدف إلى الإخبار أو التواصل الموضوعي الذي له معنى مباشر، بل تهدف إلى إثبات حضور لغة فحسب، فالمهمّ ليس هو الموضوع وإنّما فرنسيته. وعليه، فهذه المواد الإعلامية هي ما يضمن أن تبقى الفرنسية شائعة في البلاد (كأصوات على الأقل)".

وفي كلّ هذا، فإنّ الجماعة هي التي تقرّر باستبداد أعمى، وهي التي تدافع عن الفرنسية، وتسعى إلى توطينها، والحال أنّه لا توجد حاجة حقيقية، من الناحية الاجتماعية والمجتمعية، لتواجدها في السياق اللّغوي بالمغرب، بل الحاجة قائمة على خلاف ذلك. وما يمكن التأكيد عليه أنّه إعلام يمارس المَيْز والانتقاء، وهو إعلام القهر، وسجين زاوية ضيّقة، يأتيك صباح مساء على وسائلك الخاصّة باللّغة الفرنسية. إنّه إعلام عنيف يتجلّى في الإشهار وفي بعض الفنّون، وهو في الحقيقة إعلام يفكر بالفرنسية ولا يفكر إلاّ فيها، فانظر مثلاً إلى برامج القناة الثانية الناطقة بالفرنسية: "هذه البرامج ترى الموضوع في اللّغة الفرنسية، فالأدب مثلاً هو ما كان بالفرنسية، والأديب هو الذي يتحدّث بالفرنسية، والمقاول هو الذي يتحدّث الفرنسية... وهلمّ جراً. وبذلك تكون هذه الوسيلة الإعلامية أداة لنشر اللّغة الفرنسية، وليس لنشر شيء آخر".

وما يمكن ملاحظته في هذا المجال، غياب حُماة: مدافعي العربية، وهذا بسبب الوضع الحالي بأنّ الرّسميين يروْن العالم بالفرنسية، ويكتبون الوثائق بالفرنسية ثم يترجمونها، والمراسلات الرسمية تتمّ بالفرنسية...إلخ. ولا رادع لا أحد يريد أن يفتح فمه خشية أن يُرمى بالجهل، أو يُقال عنه إنّه لا يساير التقدّم والحضارة، أو إنّه مُتزمّت ومُتعصّب وأُصولي.

لقد دخلت اللّغة الفرنسية إلى المغرب سنة 1912 مع بداية الحماية وركيزتها التّعليم. وكان دخولها صدامياً، إذ كان يراد إحلالها محلّ اللّغة العربية. وبكلّ أسف ما يزال هذا التّصور الفرنكوفوني قائماً، حتى أصبح قهراً متسلطاً، و"سمّاه (المهدي المنجرة) تعهير اللّغة الفرنسية". ولا يزال هذا (التّعهير) ساري المفعول، إلى الآن مع فارق أنّه في الماضي كان هناك من ينادي بضرورة اعتماد اللغة الوطنية ويدافع عنها، والآن يكاد لا يفعل أحد هذاّ.

وهذا هو القهر اللّغوي الحاصل في بلد المغرب، والمتمثّل في حصار اللّغة الوطنية والرّسمية للبلاد، ولا تسنَد فيه لها أدوار تعكس حضورها الثّقافي والحضاري والاجتماعي. وهذا القهر لا تمارسه اللّغة الفرنسية في حدّ ذاتها، بل

تُمارسه التصوّرات التي تستعملها، ويمارسه من يسير في تيار الفرنكفونية. وهذا يعكس عدم وضوح الرّؤية عند الدولة في المجال اللّغوي، وعدم وجود سياسة تحُدُّ من هذا الشذوذ. ويُضاف إلى ذلك ضعف سياسة التّعريب؛ حيث لم تتمكّن العربيةُ من مزاحمة الفرنسية في العديد من مجالات الحياة، من مثل: الإدارة والاقتصاد والإعلام، والإشهار والتّسويق والمُعاملات المالية. في ما تشكّل الفرنسية التنضيد الاجتماعي؛ إذ يتعرّف الناس من خلال استعمالهم الفرنسية؛ باعتبارها وسيلة للترقي الاجتماعي. كما يعتبر بعض المثقفين أنّ الأهمية لما يكتب باللّغة الفرنسية وأنّ المسؤولين لا ينتبهون إلاّ لما يكتب بالفرنسية، من كُتب ومن جرائد، ولا يعتبرون إلاّ به. وكان المطلوب أن يعطى للغة الفرنسية قدرها الحقيقي بوصفها لغة أجنبية، وأن تلعب دوراً انفتاحياً في نظام التّعليم بما يخدم مرور المعارف والمعلومات، بدون أن يكون لها دور تأخير في الحياة العامّة.

بالفعل حصل التّأخير في كلّ البلاد المغاربية، وكان مهزلةً في تعطيل التّنمية الوطنية، ويشهد العامّ والخاصّ بتلك التّبعية لفرنسا في الاقتصاد واستيلاء الشّركات الفرنسية على الأسواق المحلية، وكان كلّ ذلك في إطار التّطبيل لمعركة التّطبيع والتّعطيل، وقبول ما غَلاَ ثمنه إذا كان فرنسياً، وتبخيس ما هو محلي لأنّه مغاربي. وكان هذا فعلاً شيّناً أدى بالارتهان لفرنسا في الثّقافة، ولهولندا وإيطاليا وإسپانيا في الاقتصاد، وحصلت تبعية ثقافية في اقتصاد اللّغة أدّت إلى التّعطيل والتّبهديل.

ومع كلّ ذلك التّعطيل ففي بلاد المغارب، نجد فيها رجالاً يُخلصون للعربية فلا نعدم الخيرَ في الجزائر، كما لا ننفي وجودَ رجال في المغرب الأقصى مؤمنين يعملون في شأن العربية، ويطمحون بأن سيكون المقام العالي للغة العربية، وهم الآن يُخطّطون في الاستثمار الأفقي في الدرجات والمستويات والطبقات، وفي الجنس والجنسية، وفي البيئة وفي الميول والرّغبات، وفي الأوضاع الجغرافية والسياسية والاقتصادية، ويعملون بصُمت. في المغرب رجال يضعون في الحسبان خصوصية العربية في المَقام، وارتباطها بالإسلام ويعملون على تقديم التّوعية المطلوبة من الاعتزاز بها؛ باعتبارها لغة الإجماع ولغة توحيد الوطن والأوطان

العربية. في المغرب رجال يُدركون عَيْنياً ما تُواجهه العربية من أخطار في بلدهم وما يحدق بها من تشويه، وبذلك يُقدّمون ما تستحقه من اهتمام، فهم يقدّمون جهوداً دؤوبة رغم أنّ جهودَهم في بعض الأحيان لا ترأب الصدع، ولكنّهم يقومون بإعداد البيانات، ويقودون الحملات وينشطون في مختلف المواقع. وفي هذا المجال، هناك من المغاربة ممّن لا يزالون مع ذلك البيان الوطني منذ 1964، الذي ينصّ صراحةً على:

ــ إنّ التّعليم بالفرنسية لم يُحقّق غير المزيد من فَرْنَسَة الأجيال المغربية الناشئة، وفرنسة لغة التّخاطب المغربية، وترسيخ فرنسة الإدارة والمصالح العمومية، وخصوصية المغرب المُستقلّ؛

ــ التّعريب الكامل العامّ في التّعليم والإدارة والعمل والشارع، هو مطلب قومي أجمعت عليه الأمّة بعد الاستقلال؛

ــ لا يمكن للشّخصية المغربية أن تنموَ وتزدهرَ إلاّ في إطار اللّغة القومية ولا يمكن للتّعليم أن يصبح شعبياً وديمقراطياً ومزدهراً إلاّ باللّغة القومية؛

ــ إنّ اللّغة العربية ككلّ اللّغات الحيّة، لا يمكن أن تتطوّر وتتقدّم بمعزل عن الحياة والعلم والمجتمع، وإبعادها عن أن تكون لغة التّعليم والإدارة والعمل، هي الطريق المُفضية بها إلى الموت البطيء؛

ــ لا حلّ لمشاكل التّعليم المُستعصية، إلاّ بوضع المبادئ التي أجمعت عليها الأمّة المغربية وهي: تعريب التّعليم في جميع المراحل، وعلى جميع المستويات ومغربة أطره، وتعميمه، موضع التّنفيذ المخلص السّريع، حسب ميثاق التّعليم.

5ـ تأسيسُ قُطْب الفرنكفونيّةِ

نشأتِ الفرنكفونيةُ من تلك الاجتماعات المُتكرّرة بين عامي: 1969–1970 في نيامي بدولة (النيجر) بمبادرة من الدول المستقلّة آنذاك عن فرنسا وبلجيكا وأساسها لمّ شمل المثقّفين بالفرنسية، ويسمّون بالنُّخبة غير الفرنسيين الأصليين، بل الذين يتواجدون في المستعمرات الفرنسية أو البلجيكية، والجامع بينهم هو اللّسان الفرنسي لا غير. وهكذا بدأت الفكرة تتحقّق والتي أصبحت في ما بعد قُطباً للفرنكفونية العالمية، وكان هذا القُطب عبارة عن نموذج سياسي في الغلاف الثّقافي المُهيمن. قُطب عالمي أصبح مكاناً للتلاقي بين النّاطقين بالفرنسيّة بشعار La voix de la diversité وهذا ما يُعلنه موقعُ الفرنكفونيّة، ويشير إلى المعنى العامّ، بأنّ الفرنكفونيّة مُؤسّسة علمية تُعنى بمن يتكلّم الفرنسيّة؛ سواء أكانت لغة أمّ أو لغة ثانيّة. إنّ قُطب الفرنكفونيّة المُكوّن من: (56) دولة عُضوة. وفي هذا

العدد؛ نجد ثلاث عشرة (13) دولة مُراقبة، ودولتين (2) مُشاركتين. وأغلب الأعضاء الدّائمين هم من مُستعمرات فرنسا، وأما المُراقبون فَهِم من الهُواة يستعملون الفرنسيّة كلغة حضارة، وليست لغةَ التّدريس، إلاّ عند أقليّة ضيّقة جداً جداً. وثمّة اليوم نحو 200 مليون يتكلمون الفرنسية من دون أن تكون بالضرورة هي لغتهم الأمّ. وليست الفرنسية اللّغة الأمّ في فرنسا إلاّ لــ82% من سكانها، وفي كندا تبلغ هذه النّسبة 23,2%، وفي بلجيكا 41% وسويسرا 18,4%، كما تبلغ 58% في إمارة موناكو. ولا يزيد عدد الذين يتكلمون الفرنسية بوصفها لغتهم الأمّ على 75 مليون شخص، فإذا أُضيف إليهم الذين يتكلّمونها بوصفها اللّغة الأُم أيضاً في جزر الأنتيل (غوادلوب، مارتينيك، دومينيك، هايتي...الخ) والولايات المتحدة يصل العدد إلى 110 ملايين فرنكوفوني. وبهذا العدد الخارجي تفتخر الفرنكفونية بأنّ لها امتداداً خارج أراضيها، ووقع اختيار الساكنة الأجنبية على اللّغة الفرنسية لما لها من علم ووقع خاصيْن، فحقّ لها التميّز. ويتساءل (جيروم شاهين) هل الفرنكفونية لغة أم سياسية؟ فيجيب: في العام 1970 أنشئ المجلس الأعلى للفرنكوفونية، ثم ما لبث الرئيس الفرنسي (فرنسوا ميتران) أن دعا في العام 1986 إلى أول قمة فرنكوفونية جمعت في فرساي رؤساء الدول الناطقة جزئياً أو كلياً بالفرنسية (41) رئيساً. في العام 1997 أطلق على هذه القمة اسم «المنظمة الدولية للفرنكوفونية» وكان أول رئيس لها هو (بطرس غالي) الذي شغل قبل ذلك منصب أمين عامّ الأمم المتحدة. وأوّل قمّة فرنكوفونية تُعقد في بلد عربي كانت في بيروت العام 2002 وجاءت في أعقاب حوادث أيلول 2001 فاقتصرت أعمالها على إدانة الإرهاب.

شهدت الفرنكوفونية تطوّرات حولتها خلال تاريخها الطويل من أداة ثقافية سياسية في يد فرنسا تستخدمها خدمة لمصالحها، في المرحلة الأولى من وجودها إلى أداة بدأت تدريجاً تنتقل في المرحلة الثانية إلى يدّ الدول الأخرى وأكثريتها الساحقة من العالم الثالث (الأفريقي والعربي) حتى بات البعض يستخدم عبارة:

«الفرنكوفونية ضد فرنسا». والسؤال الآن إذا كانت القوى الكبرى المهيمنة ثقافياً تسعى لاستخدام الانكليزية والفرنسية كإحدى أدوات العولمة الثقافية فكيف يمكن لنا كعرب أن نحافظ على وجودنا اللّغوي من دون أن نفقد الفرص التي تتيحها لنا العولمة؟ ومن المتداول بين المختصّين في علم اللّغة الاجتماعي أنّ الأمم ذات الثّقافات المترسخة لا تستطيع النهوض دون الاعتماد على لغاتها، حيث إنّ للغة دوراً بارزاً في عملية النهوض وأثراً بالغ الوقع في التنمية بمفهومها الشامل. فكلما اتّسعت قاعدة استعمال لغة ما وتداولها أصحابها كانوا أقدر على الفهم والإفهام وأكثر وعيا بالأشياء والأفكار، وأسرع إلى الاختراع والابتكار. ويتأيّد هذا الزعم بتجارب بعض الأمم الحاضرة التي سلكت هذا السبيل في النهوض؛ ولذا يظهر أنّ بين اللّغة والمجتمع رحماً موصولاً وتعاضداً لا غنى لأيّ منهما عنه". وهكذا نرى فعل الفرنكفونية المتغطرس، عكس القطب الثاني المسمّى (الكمنويلث) نجده يتشكّل من (53) دولة من مستعمرات بريطانية سابقة، وتشتمل (25) منطقة تحت الحماية البريطانية، ويبلغ سكان هذا القطب نحو 1.7 مليار شخص، أي ربع سكان العالم. ومن بين أغنى الدول الأعضاء أستراليا وبريطانيا وكندا. والكومنويلث ليس اتّحاداً سياسياً وليس لأعضائه ميثاق، فهو أقرب إلى ناد يوقع أعضاؤه على إعلانات تجسّد مبادئهم المشتركة، فهو فضاء للتبادل في مجالات الاقتصاد والتربية والقضاء والإعلام والاتصال. ولهذا، فإذا وقعت المقارنة نجد أنّ الفرنكفونيةَ في أصلها تنظيمٌ ثقافيٌ، ولكنّه لا يخلو من إيديولوجية فرنسية من خلال الفرنسية، رغم ما تتّخذه في أدبياتها من خلال التجمّع الذي تُحظى به من قبل النُّخب العالمية، ومن استعمال الفرنسية كلغة أمّ/ لغة رسمية/ لغة استعمال/ لغة فنّ...

ونحن من خلال هذا، لا يجب أن نقع في خيار قطب الانتماء، ولكن لدينا خيار القطب الأكثر عدداً هو الآمن، والقطب الذي يحتكم إلى اللّغة العالمية ولغة العولمة أفضل، رغم أنّنا ندعو إلى الاهتمام بلغتنا فقط، فقد ثبت أنّه لا تقم قائمة لأية أمّة بدون لغتها، ولم يسجّل التاريخ أنّ أمّة شقّت طريقها للنهضة من غير الرهان على

لغتها. فقد أثبتت الدراسات والأبحاث العلمية الرصينة في جلّ الحقول المعرفية المهتمّة بعلاقة اللّغة بالفكر، وارتباطات اللّغة بالتنمية فضلا عن التجارب النهضوية بأنّ اللّغة الأمّ هي التي تُسهم في إنجاز النقلة النهضوية الهائلة، وأنّها أحد الأوجه الرئيسة لتدارك الفجوة المعرفية والتنموية ومواكبة التطوّر العلمي والتكنولوجي؛ ولعلّ "التجربة الصينية واليابانية خير دليل لدعاة الهيمنة الثقافية واللّغوية الساعين إلى التشكيك في نموذج النهضة الحضارية المركبة المستقلة والذاتية" وتحويلها إلى نموذج تنموي تابع ثقافياً ولغوياً للمستعمر.

ومن هذا الكِتاب، فإنّ مسؤولية حكام الدول العربية كبيرة وجسيمة في الرقي باللّغة العربية، و"تُعدّ حسب عالم اللّسانيات (عبد القادر الفاسي الفهري) من المسؤوليات المباشرة للدولة، ومن المُحدّدات الأساسية لبنية الدولة/ الوطن، وإذا كانت اللّغة مسألة هُوية وتماسك مجتمعي وتراث حضاري ورمز سيادة تاريخية فإنّها إلى جانب ذلك مسألة تنموية وفكرية واقتصادية تنافسية راهنة، اعتباراً لكونها رافعة النّمو المعرفي، وأداة لنقل المعرفة والمعلومات إلى عموم القوى المنتجة ولسان الإنتاج والإبداع والتواصل المعرفي/الثقافي، بل هي أيضا لسان التنافس في مجتمع اقتصاد المعرفة والمعلومات والاتّصال؛ كما تشتمل قضية اللّغة على أبعاد حقوقية/ قانونية وديمقراطية، تتمثّل في ضمان الحقوق اللّغوية للمواطن والتكفّل بحمايتها وتأهيلها، وفي تكريس حقّه في الاختيار والاستفتاء حولها، إذ يندرج ضمن هذا البعد السوسيو–النفسي ما تمثله اللّغة من الاستقرار النفسي والطمأنينة والاعتزاز بالذات، علاوة على أنّها اللّحام المجتمعي المؤتمن على الجماعة؛ وعلى ضوء ذلك تتحوّل المسألة اللّغوية إلى مسألة سياسية، تستدعي من الدولة والمجتمع اتّخاذ السياسة اللّغوية الرشيدة، والقرار اللازميْن من أجل إفراز وتنفيذ الاختيارات الضرورية لتأهيلها وتطويرها".

إنّ اللّغة الوطنية هي مكمن التطوّر والحداثة، فلها دور في تطوير قدرات الناس على التمرّس بالعمل، وعلى الرفع المستمرّ من كفاءاتهم، والإغناء المتجدّد للخبرة

التقنية، وتعميق المعرفة العلمية وتوسيع الثّقافة العملية، ولها الدور المركزي في وقاية النّسيج الاجتماعي من التفكّك، وفي تهذيب السلوك الفردي، وترسيخ القيم الجمالية والحضارية الرفيعة وخلق التّوازنات النّفسية. ولذا، فاللّغة الوطنية وعاء تصبّ فيها المعاني المراد نقلها، وأداة للعمليات التّفكيرية، وظاهرة اجتماعية وتاريخية تتطوّر وتنمو بتعدّد وتنوّع الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والعلمية. ولكن هل يمكن أن ننجو من فكّ الارتباط بالفرنكفونية التي تزرع نسيجها في منطقتنا، وهل هي لا تخلو من الاهتمام بالفرنسية كي تكون لغة الثّقافة والهيمنة في ذات الوقت، وهذا من أدبياتها في الماضي وفي الحاضر، وستبقى تناور وتكسب المستعلمين فلها الرُّتب المتصدّرة في العالم، فكيف تمّ لها ذلك؟

La **francophonie** désigne l'ensemble des personnes et des institutions qui utilisent le français comme langue maternelle, langue d'usage, langue administrative, langue d'enseignement ou langue choisie. La francophonie peut renvoyer tant à l'ensemble des pays francophones qu'à l'ensemble des pays ou régions membres de l'Organisation internationale de la francophonie (OIF) (notamment représentés par l'Association internationale des régions francophones (AIRF), qui ne sont pas forcément ceux où le français est le plus fréquemment utilisé ou reconnu officiellement.

Selon l'OIF, en 2014, le français est la cinquième langue la plus parlée au monde avec 274 millions de locuteurs représentant 4 % de la population mondiale (une personne sur 26), dont 212 millions en faisant un usage quotidien (+7 % entre 2010 et 2014) représentant 3 % de la population mondiale (une personne sur 32). Estimé à 180 millions en 2000 et 220 millions en 2010, le nombre de francophones approchera les 700 millions en 2050 soit 8 % de la population mondiale (une personne sur 13), et 85 % de ces francophones seront en Afrique du fait de la croissance démographique.

وهذه هي الفرنكفونية في العالم، ولم يحصل هذا إلاّ بفعل ذلك التّجنيد والحَماس الذي بدأ منذ التّفكير في تأسيس هذا القُطب، ومنذ الثّورة الفرنسيّة عبر مسارتها التّنويريّة، وكان وَضْعُ الحَجَر الأساس في سنة 1960، إلاّ أنّ مُهيئات التّأسيس لم تحصل إلاّ في سنة 1970 باسم La Francophonie أو المنظّمة الدّوليّة للفرنكفونيّة

OIF وهي منظّمة دوليّة للدّول النّاطقة باللّغة الفرنسيّة كلغة رسميّة أو لغة ثقافة وكانت التّسمية في مبدئها على يدّ (أونسيم ريكلو Onésime Reclus) تــ 1916م باعتباره لغوياً جغرافياً فرنسياً رحّالة؛ كان يُخطّط لتمدّد الفرنسية عبر العالم، وذلك ما جعلَ الأتباعَ يُجسّدون أفكارَه التي في البداية كانت وَهْمية، ومن ثمّ أصبحت حقيقية.

إنّ «أونيسيم ريكلوس (Onesime Reclus) اللّغوي الجغرافي الفرنسي كان أول من أطلق/ نحت مصطلح (La francophonie/ الفرنكوفونية) وذلك في العقد الأخير من القرن التاسع عشر الميلادي، أي في حدود 1880، وقد تحدّدت الدول الأعضاء في 20 مارس 1970م. فصار يوماً عالمياً للاحتفال بالفرنكفونية. وكان المنّظّر (ريكلو) يرى بأنّ "أفضل ردّ لفرنسا على صراع القوى السائدة في العالم في أواخر القرن التاسع عشر هو سلاح اللّغة. وكان هذا الرّحالة اللّغوي البارع يحرّض بحماس شديد لتوسّع فرنسا في أفريقيا بأسلوب لغوي بالغ التأثير، ولعلّه كان يتنبأ بقيام الفرنكوفونية الدولية كسلاح ثقافي ولغوي في يدّ فرنسا. لكنّ دعوته الاستعمارية لم تقم على دوافع تجارية وعرقية، بل على بواعث لغوية وديموغرافية". ثم أتى حين من الدهر لم تقم قائمة للفرنكفونية إلى أن ظهر المصطلح (الفرنكفونية) من جديد على الساحة السياسية، وذلك سنة 1962 على يدّ أشدّ الزعماء الأفارقة تحمّساً للفكر الفرانكفوني؛ وهو الرئيس السنغالي (ليوبولد صولدا سنغور). غير أنّ الحركة الفرنكوفونية عرفت انطلاقتَها الحقيقيةَ غداة استقلال الدول الإفريقية التي كانت تحت السيطرة الفرنسية؛ إذ ظهرت مع بداية الستينيات كثير من المنظّمات الفرنسية الإفريقية الهادفة إلى تقوية العلاقات الثّقافية والاقتصادية بين الطرفين: المستعمِر والمستعمَر. وليس غريباً أن يعمل كثير من الزّعماء السّياسيين آنذاك مثل الرئيس التونسي (الحبيب بورقيبة) والسنغالي (سنغور) والنيجيري (حماني ديوري) على الدعوة إلى الفرنكوفونية بمباركة خفيّة من وزارة الخارجية للدولة الفرنسية.

ويعتبر الرئيس التونسي (الحبيب بورقيبة) الأب الروحي والمُؤسّس الحقيقي للفرنكفونية؛ وقد تحدث (بورقيبة) عن ذلك مُفتخراً، في معرض حديثه عن تاريخه ومسيرته الشخصية؛ فقال في لقاء صحفي له مع إحدى الصحف الفرنسية: "إنّ مستقبلنا مرتبطٌ بمستقبل الغرب عموماً ومتضامن مع مستقبل فرنسا خاصّة... ونحن نتّجه اليوم من جديد إلى فرنسا. إنّني أنا الذي تزعّمت الحركة المُنادية بالفرنكوفونية؛ فالرابطة اللّغوية التي تجمع بين مختلف الأقطار الإفريقية أمتن من روابط المناخ أو الجغرافيا". وقال في مقابلة أخرى له مع صحيفة Le figaro/ لوفيگارو: "... إننا لا نستطيع الإعراض عن الغرب، إنّنا مُتضامنون مع الغرب بأكمله، مُتضامنون بصورة أخصّ مع فرنسا. وتدعيم الروابط مع فرنسا وبصورة أخصّ في ميدان الثّقافة، وفكرة بعث رابطة للشعوب الفرنكوفونية تولّدت هنا".

وهكذا يفتخر (بورقيبة) بلغته الفرنسية وأساتذته الفرنسيين، وثقافته الفرنسية وبحبّه ووفائه لفرنسا الذي دفعه إلى ردّ الجميل بتزعّم حركة الفرنكوفونية وتأسيس رابطة الشّعوب الناطقة بالفرنسية. لقد عرفت الفرنكوفونية تكيّفات عدة في صورة: بعثات، وجمعيات واتّحادات، ومجالس عالمية، ومعاهد وكليات، وجامعات ومؤتمرات وقمم؛ تُوّجت بإيجاد أمانة عامّة للفرانكفونية، وتعيين ناطق رسمي سياسي، وممثل لها على الصعيد الدولي، وإنشاء الوكالة الفرنكوفونية العامّة".

"À l'origine, le terme de *francophonie* a été utilisé de façon purement descriptive par des géographes dès 1880, le mot ayant été « inventé » par Onésime Reclus (1837-1916) : « Nous mettons aussi de côté quatre grand pays, le Sénégal, le Gabon, la Cochinchine, le Cambodge dont l'avenir au point de vue « francophone » est encore très douteux sauf peut-être pour le Sénégal[14] ». Le terme « francophonie » a été par la suite supplanté par l'expression « francité » qui désigne les qualités de tout ce qui est reconnu comme français.

C'est après la Seconde Guerre mondiale, à partir d'un numéro spécial de la revue *Esprit* (1962), qu'une « conscience francophone » s'est développée. Après que le mot « francophone » a fait son entrée dans *Le Petit Larousse*, « francophonie » y est inclus cette année-là, et

caractérise la « collectivité constituée par les peuples parlant le français ».

Le terme a été particulièrement popularisé par Léopold Sédar Senghor. C'est dès lors dans ce sens qu'il convient de comprendre la francophonie : il s'agit plus de la conscience d'avoir en commun une langue et une culture francophones que de décisions officielles ou de données objectives. C'est une communauté d'intérêt. On y retrouve l'idée que le français serait le point commun d'une multitude de peuples différents, les fédérant dans un idéal culturel et linguistique[1].

Chronologie des nations de la Francophonie en 1970.

وإنّ هذا الرّحالة اللّغوي (ريكلو) عبْر كتابه (France, Algérie et colonies) وعبره فقط بدأ مفهوم (الفرنكفونية) يكبر وينمو ويُعلي من مقام الفرنسية؛ باعتبارها لغة بلد الحرية والعدالة والأخوة، فلا مجالَ للانتقاص منها في البلاد المستعمَرة، بل هي لغة البلاد التي وطِئتها أقدام فرنسا، وستكون للفرنسية المكانةُ العُليا فوق اللّغات الوطنية؛ ليس باعتبارها لغةَ الحضارة، بل هي لغة التّنفيس العلمي، وتحضير الشّعوب المتخلّفة. ويرى الرّحالة (أونسيم) بأنّ الكولون أَسْهموا في تطهير الشّعوب المتخلّفة، كما سوف تُسهِم الفرنسيةُ في تمدُّنِهم على المدى البعيد. وعلى الفرنسيين أن يَعَوْا بأنّ الفرنسيةَ هي امتدادهم، وعلى الشّعوب المستعمِرة أن يفهموا بأنّ

1ــ نقلاً عن google في موضوع Solidarité et Progrès لصاحبه: Pierre Beaudry بتاريخ 12 أكتوبر 2015.

الفرنسيةَ متنفّسٌ طبيعيٌ لهم، ويقبلوا بها في مقابل اللّغات المحلية التي قد تكون وسيطاً، ولكن غير علمي.

أخذ مصطلح (الفرنكفونية) مظاهر عديدة ولم تتوقّف عند حدود الثّقافة أو توصيل المعرفة، بل أصبح المصطلحُ أداةَ هيمنة اقتصادية وسياسية، وهو ما عبّر عنه (François Mitterrand/ فرانسوا ميتران) حين قال "إنّ الفرنكفونية ليست هي اللّغة الفرنسية فحسب... إذا لم نتوصّل إلى الاقتناع بأنّ الانتماء إلى العالم الفرنكفوني سياسياً واقتصادياً وثقافياً يمثّل إضافة، فإنّنا قد فشِلنا في العمل الذي بدأناه منذ عدّة سنوات، وهذا الاعتراف يثبت أنّ ما يزعمه دُعاة الفرنكفونية والأفارقة من كونها أداةَ تنويرٍ حضاريٍ، وأنّ الفرنسيةَ لغةٌ تُشكّل ضمانة للحوار والتّنوّع الثّقافي، وخلق التّنوّع والارتقاء بالتّنمية التّضامنية، أو حتى غنيمة حرب ليس لها ما يثبتها واقعياً، بل هي أداة للاستعمار الاقتصادي والسياسي يتوسّل إليهما باللّغة والثّقافة[1]" وهكذا بالفعل، فإنّ الفرنكفونية تعمل على تحقيق أهدافها بطول النّفس، وبكثرة المال، ولذلك تقدّم المنظّمةُ الفرنكفونيّةُ إغراءاتٍ ماليّةً لكلّ من يعتقد بها، ويدخل في نظامها، كما تعمل المنظّمةُ ظاهرياً على ترقيّة السِّلم والدّيمقراطيّة وحقوق الإنسان، وعلى تحبيذ حوار الثّقافات، واحترام هويّة كلّ فرد.

إنّ الفرنكفونيّة عبارة عن رابطة تضمّ الدّول والشّعوب التي تتحدّث الفرنسيّة كلغة رسميّة، أو لغة مُستعمَلة في المحيط، أو لغة يقع العطف عليها من الأقليّة في بلد الأغلبيّة. ومَهامها العملُ على ترسيخ ونشر الفرنسيّة خارج فرنسا، وهذا من خلال أربع مؤسّسات وهي:

1 ــ الوكالة الجامعيّة للفرنكفونيّة AUF.

---

1 ــ فؤاد بوعلي، مقاربات في المسألة اللّغوية بالمغرب، ط1. الرباط: 2015، مطبعة طوب بريس، ص 40-41.

2 ــ قناة TV5 الفضائيّة.

3 ــ جامعة سنغور بالإسكندريّة.

4 ــ الجمعيّة الدّوليّة لرؤساء البلديات النّاطقة بالفرنسيّة AIMF.

وإذا وقفنا في هذه المؤسّسات وكلّ واحدة منها تشكّل قطباً ذا تأثير في الداخل والخارج، مع ما تحويه هذه المؤسّسات من جيوش العاملين على التأثير في الآخر بما لها من إمكانيات مادية ولغوية، ويضاف إلى ذلك تلك الدول الكثيرة المنضوية أو مُستعملى الفرنسية، ولاحِظوا معي هذا العدد الكبير من الدّول المُنضويّة تحت لواء الفرنكفونيّة بصفة علنيّة وظاهرة: الدّول الفرنكفونيّة+ الدّول المُلاحِظة+ الدّول المُشاركة. وهناك دولٌ غير مُنضوية تحت لواء الفرنكفونيّة، وتَستعمل الفرنسيّةَ أكثر من تلك الدّول الأعضاء، من مثل **الجمهوريّة الجزائريّة الديمقراطيّة الشّعبيّة.** وإذا ذكرنا الجزائر فَلِغَرَضٍ في أنفسنا؛ لأنّ الجزائرَ أكثر استعمالاً للفرنسيّة من كثير من الدّول الفرنكفونيّة، وما تزال فرنسا تُعادي الجزائر، بل لا تزال جِراحُ الأمس عالقةً في رقاب Les colons/ الكولون، وما يحملونه في لغتهم من إقصاء لغات الآخرين، كما أنّ الحكّام الجزائريين من الاستقلال إلى الآن هم من الذين اكتوَوْا بفرنسا، وبلغة فرنسا، وكان الأحرى مواصلة تجسيد ما قام به الشّهداء من استئصال العدو، فهم يعملون على وضع حدود للغة العدو، فنقبل بها للاستفادة منها لا أن يكون لها المقامُ العالي في الرّقي الاجتماعي، أو في نَيْل المناصب، فهذا ما لم يحصل!

بالفعل، كانت الجزائر ترفض الانضمام لهذا القُطب الذي تُعدّه بديلاً عن استعمار الأمس، ولكنّها بدأت تميل إليه منذ سنة 2002 حين شاركت بوفد عالي المستوى، ومنذ ذلك الحين تعمل على مُغازلته، فأصبحت عضوة كاملة الحقوق في الحضور لا في الرسمي، بعدما قاطعته بسبب التاريخ الوطني الجزائري الذي ينظر

إلى فر نسا على أنّها العدو، وأنّ لغتها لغة العدو. ولكن بعد حضورها الثاني في (واگادوگو) كان ذلك عبارة عن ترخيص الحضور في باقي المؤتمرات. بالفعل كان للجزائر الحضور دون فائدة مادية تُذكر عكس ما هو حاصل في بعض الدّول العربية. ويمكن أن نقارنَ الجزائر بكلّ من: مصر+ لبنان؛ فهما في قطب الفرنكفونيّة؛ إلاّ أنّ استعمال الفرنسيّة فيهما قليل جداً، وقد أخذتا منافع مالية كبيرة.

في **مصر**، كان استعمال الفرنسية فيها جدَّ محدود، والفرنسيّة لغة النّخبة المحدودة العدد، وغالبيتهم من مسيحي مصر. وفي هذا البلد الذي يَدَّعِي الفرنكفونيّةَ، نجد توجّهاتِه العلميّةَ والفكريّةَ والمعنويّةَ إنگليزيّة؛ بدليل أنّ المواد العلميّة يدرّسونها بالإنگليزيّة، ثمّ إنّ الازدواجيّة الفكريّة لا أثر لها في الاستعمال فالعربيّة هي السّائدة في كلّ المعاملات اليوميّة والإدارية، ولا أثر للازدواجيّة العقائديّة، وأنّ صلواتِ الأقباط تُؤَدّى بالعربيّة في كنائسهم. وأما انخراطه في الفرنكفونيّة لَهُوَ انتفاع نخبة قليلة جداً ترى في نفسها صفّة العلّو وهي الطّبقيّة المُكتسبة منذ عصر الباشوات. ومع ذلك فقد عملتِ النّخبةُ الفرنكفونيّة المصريّة على تحصيل منافع ماديّة من عضويّة الفرنكفونيّة؛ حيث بُنيت على أرضها جامعةُ (سنغور) وأُقيم فيها أكبرُ مكتبة في العالم، وفيها معاهدُ كثيرةٌ تنتفع منها الدّولة المصريّة، كما تنتفع من الجامعات الأجنبيّة، إذ تفرض عليها نمط توظيف اللّغة العربيّة، واستفادة العَمَالة المصريّة في التّشغيل.

وفي **لبنان** هناك أقليّة مارُونيّة تميل إلى استعمال الفرنسيّة، وإلى الازدواجيّة العقائديّة، وهنا العُقدة والقنبلة الموقوتة، ولكنّ روحَ التّسامح قائمة بين السّاكنة واللّغة العربيّة ليست مطروحة للبيع أو للتّراجع، بدليل أنّ المسيحيّين اللّبنانيين والسّوريّين هم الأوائل الذين خدَموا العربيةَ بشكل جيّد وعلمي، وهم الذين جمعوا العربية في أسفار المعاجم، وما قدّموه للعربية لا يمكن إحصاؤه لكثرته، كما أنّهم

(المسيحيون) اليوم يُؤدّون صلواتهم بالعربيّة، على الرّغم من أنّ (لبنان) من بين البلاد العربيّة الفرنكفونيّة الذي يعتمد نظامُها التّربويّ على منهج الفرنسيّة، ويندر أن تجدَ لُبنانياً لا يعرف الفرنسيّة، فهم فرنكفونيّون ويتسابقون على الفرنسيّة

Cas du Liban

Cette section **ne cite pas suffisamment ses sources**. Pour l'améliorer, ajoutez des références vérifiables [Comment faire ?] ou le modèle {{Référence nécessaire}} sur les passages nécessitant une source.

Première langue « étrangère » en usage au Liban, le français est à la fois langue de culture et de communication. 45 % de la population libanaise est entièrement ou partiellement francophone et 55 % des Libanais ignorent totalement cette langue. Le Liban compte 30 % d'anglophones donc le français a une longueur d'avance sur l'anglais car il est davantage pratiqué dans les classes aisées économiquement et, quand il touche toutes les classes de la population, il est généralement beaucoup plus présent chez les jeunes encore scolarisés et a tendance à décroître au fur et à mesure que l'on avance en âge. La connaissance et le niveau de français au Liban ne sont pas homogènes entre les différentes institutions scolaires. L'avenir de la langue française au Liban dépend du renforcement de beaucoup de facteurs plus particulièrement dans les domaines de l'audiovisuel, d'où il tend à disparaître en accord avec la politique des dirigeants en place depuis la fin de la guerre 1975-1990.

ومع ما تناله الفرنسيةُ في هذا البلد، فما تزال تستميل القلوب بتلك الزيادة على تعلّمها في البلاد العربية، ولبنان بالقوّة "... في حين يتزايد إقبال شركائنا المتوسطيّين على لغات الضّفة الأخرى وثقافاتها. فتعليم الفرنسيّة مثلاً يهمّ 50 % من المُتعلّمين في المغرب، مقابل 60 % في تونس، **و73 % في لبنان.** فالأمر يحتاج إلى إرادة سياسيّة حتى يتحقّق التّوازن المطلوب. وبصرف النّظر عن التزام

الدّول. هناك بعد سياسيّ آخر في كلّ عمليّة تبادل، وأقصد به البُعد البشري[1]". اللّبنانيّون يغوصون في الفرنكفونيّة، ولكنّ قوميّتهم العربيّة محفوظةٌ وظاهرةٌ في التّواصل اليوميّ، وفي الإدارة، وفي المُعاملات اليوميّة، وكلّها تتمّ بالعربيّة". نعم (لبنان) بلد فرنكفونيّ، فنجد جامعة (القديس يوسف) حاملة همّ رفد الفرنسيّة، بما تُقدّمه من تسهيلات ومِنَح من أجل الفرنسيّة دون غيرها من اللّغات. وفي (لبنان) نجد نخبةً مُستفيدةً ومُتنفّذةً وهي صاحبة القرار، كما نجد على نفس الشّاكلة نخبة كلّ من: (أرمينيا) و(سلوڤينيا) و(پولندا) وهي من الدّول المُشارِكة، ولكن استعمال الفرنسيّة في أوربا الشّرقيّة جدّ مَحدود، فهنا المفارقة!

كما لا يمكن أن نقارنَ (الجزائر) بدول المغرب العربي الخمسة، باستثناء دولة (ليبيا) التي لا مشكلةَ لغوية فيها؛ فهي تنحو منحى عُروبياً لا صراعَ في اللّغة العربيّة، إنّ العربيّة في هذا البلد (ليبيا) نالت مواقعها بشكل مُرْضٍ. وأما في (المملكة المغربيّة) فوضعها اللّغوي يسير إلى الازدواجيّة أو الرّباعيّة اللّغوية: فرنسية+ عربية+ مازيغيّة+ إسپانيّة، ولكن تنال الفرنسيّة الحظوةَ الأولى في هذه اللّغات، وهذا بتواطؤ النّخبة المغربيّة المُستفيدة والمُتنفّذة، فهي مُنصهرة في الفرنكفونيّة إلى النّخاع، ولا ترضى بالتّعريب أبداً، ولا بالمازيغيّة إلاّ في حدود الثّقافة والتّراث، فتعلّق عليها المطالبَ الاجتماعيّة. وأما العربيّة فهي من التّاريخ رُغم ما تقوم به جمعيّات كثيرة من مثل (حماية اللّغة العربيّة+ الائتلاف من أجل اللّغة العربية) من نشاط إيجابي في صالح العربيّة، ولكنّ اللّوبي الفرنكفوني المغربي يُضيِّق بخيوطه على كلّ هياكل الإدارة والاقتصاد والإعلام، وبخاصّة ما

1ــ بطرس بطرس غالي "خطاب المدير العامّ لمنظّمة الفرنكفونيّة" المغرب: 2001، طبع الإيسيسكــو، نــدوة (الفرنكفونيّة والعالم العربيّ حوار الثّقافات) ندوة 30-31 مايو/ أيار 2000. ص 62.

تقوم به تلك الرّوابط/ المدارس المُسمّاة بـــ Alliances Française والأدهى من كلّ هذا، أنّ عدد الروابط/ المدارس، وكلّ ما ينشر الفرنسية في المغرب يتجاوز مائة (100) مدرسة تنشُط علانيّةً في نشر الفرنسيّة التي أصبحت واقعاً لا بدّ من التّعامل معه، دون الرّفض، ويُضاف إلى هذا دور الأحزاب التي لا تستطيع الخروج عن خيوط الفرنكفونيّة بما فيها الأحزاب الإسلاميّة، فلا تستطيعُ التّغيير بل لم تستطع تلك الأحزاب تغيير/ زحزحة توقيت بثّ الأخبار بالفرنسية في الساعة الذروة التي يكون فيها المغاربة في الدار لمشاهدة الأخبار إلى ساعة أخرى.

وأما في (تونس) و(موريتانيا) فنجد الوضع الازدواجي قائماً جهاراً نهاراً، وقد أصبحت الفرنسية من المقدّسات في (تونس) الصّادقيّة، تونس الزّيتونة ولا نشمّ العربية بقوّة في التّعليم العالي، وكلّ شيء مُتوْنَس في لغة فرنسا، وهم لا يحلمون إلاّ بها، وهجرتهم إليها، ومآلهم فرنسا، وهذه أصبحت عقيدة قديمة يصعب العدول عنها. ونفس الشّيء في موريتانيا الشنقيطيّة التي تعتزّ بالعربية وبالإسلام، ويندر أن تجد بيتاً في موريتانيا لا يحفظ ألفية (ابن مالك) ولا يوجد بيتٌ يخلُو من شاعر ينظّم الشّعر العربي الفحل، ولكن النّظام التّربويّ الموريتاني كرّس الازدواجيّة؛ فهي تسير في فلك الفرنكفونيّة راكعة مَأمورة مُطبّقة لأوامر الفرنكفونيّة، دون مناقشة وإلاّ سوف تُحجَب عنها المساعداتُ الماليةُ. ويؤسَف له بأنّ البلديْن لا يُشرّعان للعربية، بل لا يُقرّان بمبدأ التّعريب إلاّ لدى بعض الأحزاب التي لا شعبيةَ لها، بل إنّ السّلطةَ التّنفيذيةَ تموتُ في الفرنسية.

وأما في (**الجزائر**) المُعجزة، جزائر الغرابة، جزائر الثّورة التي تأسّفنا عليها في بداية هذا الكتاب، رغم تلك المشاريع وما سطّرته في خريطتها اللّغويّة منذ الاستقلال؛ حيث نالَ فيها التّعريبُ دَرَجات اليقين، بل حَقّق درجاتِ التّطبيق، فكان شعاره:

ــ التّعريب = عدم الانضمام للفرنكفونيّة؛

ــ التّعريب = إنزال الفرنسيّة منزلة اللّغة الأجنبيّة؛

ــ التّعريب = التفتّح والأخذ من كلّ اللّغات؛

ــ التّعريب = العمل بالنّفعيّة اللّغويّة.

ولكن كلّ هذا كان خريطة تحقّق الجزء الكبير، ومن ثمّ أضحى الباقي أملاً. بالفعل تحقّق الجزءُ الكثيرُ، تحقّقَ تعريبُ التّعليم في مراحله: الابتدائي+ المتوسّط+ الثّانوي. تحقّق تعريبُ العلوم الإنسانيّة في الجامعات، ويبقى هناك التّراجع على مستوى بعض الجامعات في تعريب الاقتصاد.

لقد لوحظ بعض التّراجع في تعريب بعض المواد في بعض الجامعات الوطنية في العلوم السّياسيّة. تراجع في تعريب بعض المواد في علم النّفس. ومع هذا نقول: إنّ استعمال الفرنسيّة في الجزائر يزداد بشكل رهيب، فلم تشهد هذا التّوسّع إلاّ مع الدّول الوطنيّة، وازداد انتشار الفرنسيّة أكثر مع ظهور الإرهاب في تسعينيّات القرن الماضي، وألصق البعضُ –ممّن في أنفسهم أغراض– الإرهابَ بأنّه من نتائج المدرسة المُعرّبة (إرهابيّة اللّغة العربيّة وعدم تواصلها وحيويّتها) والمدرسة المُعرّبة هي التي تُخرِّج لنا هذا الجيل الخارج عن القانون، وهذا ما بثّه رُعاة الفرنكفونيّة المعاصرين في الجزائر، وجاء هذا القول في ثوب ثقافيّ تحمله اللّغة الفرنسيّة البديلة، وكلّها مُغالطات صَدَّقَها البعضُ من ذواتنا. ويُؤسَف له في جزائر الاستقلال، إنّ ما وصفه الفرنكفونيون الجُدَد في خطابهم العدواني تجاه العربيّة بأنّه مَشتلة الإرهاب، فقالوا: العربية+ الإسلام = الإرهاب. ولا يعلمون أنّ الاستعمار الفرنسي قال قولة في هذا المجال، كما يلي: العربية + الإسلام = المقاومة.

جزائر المعجزة، جزائر العضوة المخفية منذ مؤتمر الفرنكفونية الذي انعقد في (واگادوگو) وهكذا تنال الفرنكفونيةُ أقصى مداها، وهذا بالعدد الذي يقرب إلى أحد

عشر (11) مليوناً من الجزائريين والذين يستعملون الفرنسية بإتقان، وتنال بذلك الفرنسية أطروحتها الكبرى بامتياز Cas de l'Algérie

L'Algérie est le 3e pays comptant le plus de francophones après la France et la République démocratique du Congo (RDC). Le recensement de 2008 y a décompté 11,2 millions de personnes, âgées de cinq ans et plus, déclarant savoir lire et écrire le français. Non membre de l'Organisation internationale de la francophonie, l'Algérie est incitée à rejoindre l'organisation et est parfois désignée à tort par les institutions françaises comme la « seconde communauté francophone au monde avec 16 millions de locuteurs ».

Il reste que l'héritage colonial dans la relation entre l'Algérie et la langue française est l'obstacle « non-dit » à son refus d'adhérer *à l'OIF*. *Pour Fatah Talahadj linguiste, « une majorité* d'Algériens perçoivent toujours qu'ils ont été plus que des francophones, des Français. Mais de force. Il faudra encore du temps pour qu'ils assument librement leur francophonie en dehors de leurs frontières. C'est le rapport intime à une langue. Il faut qu'il se dépouille de sa charge de violence ».

بالفعل نرى (الجزائر) تفعل فيها الفرنكفونيةُ فعلَ النار في الهشيم، فلا هي عضوة، ولكن الفرنسية فيها قوّة، ومع ذلك، فهناك مقاومة عنيفة تجاه لغة المُستدمر الغاشم، ويأتي الفرنكفونيّون الجُدد يُردّدون مَقولة المُستعمر في صورة تبعيّة لغوية وفي صورة تلك الوصايا التي كانت تقدّم للحاكم العسكري "فمما أوصى به الحاكم العسكري الفرنسي وقتئذ جيشه المحتلّ قوله: علّموا لغتنا وانشروها حتى تحكم الجزائر، فإذا حكمت لغتنا الجزائر فقد حكمناها حقيقة، وهي ذات الوصية التي أوصى بها نابليون بونابرت من قل جيشه المتّجه لاحتلال مصر، حيث قال لهم:

علّموا الفرنسية، ففي ذلك خدمة حقيقية للوطن[1]". وهذا ما يريده البعض من تكرار ذات المنهجية، أليس في هذا تكريس لسياسة الاستعمار الفرنسي القديم والمعروف ببقائه عقليا في كلّ بلد مرّ به، وإلاّ ويترك بصماته التي تدافع عنه، والفرنسي معروف بشراسته في الاختراق الثّقافي والتّشظي اللّغوي؟ ألم يبرز هذا الخطاب الجديد للجزائريّين في ما قدّمه الجزائريّون من نقد مريع للمدرسة الجزائريّة؟ وكون هذه المدرسة فقط أنّها تدرّس بالعربية، فلم تسلم من النقود الفرنسية من قبل الفرنكفونية التابعة، وتتنكر للعربية، ولكن يبدو أنّ إخواننا سقَطوا في مهاوي الرّدى والتّبعيّة، والزّحف إلى حلاوة الأُورُو. وإنّ حلاوة الأورو سوف تكون له عواقب كبيرة؛ لأنّ الغرب وفرنسا منهم لا يدفعون دون مقابل. إنّ جزائر المعجزة تنال فيها الفرنسية أقصى غاياتها في التّعليم العامّ والخاصّ، وتمسّ الفئات الاجتماعية من مختلف الأعمار Français

Selon l'Organisation internationale de la francophonie (OIF), le « nombre de personnes âgées de cinq ans et plus déclarant savoir lire et écrire le français, d'après les données du recensement de 2008 communiquées par l'Office national des statistiques d'Algérie », est de 11,2 millions. Cela représente un tiers des 34,4 millions d'Algériens, et plus en termes de pourcentage en excluant les moins de 5 ans (qui en Algérie ne sont pas encore scolarisés).

L'Algérie, bien qu'ayant une importante proportion de francophones n'est pas membre de l'Organisation internationale de la francophonie.

Selon un sondage publié par l'institut Abassa, 60 % des foyers algériens comprennent et/ou pratiquent le français et selon une étude

---

1ــ مها حسن يوسف القصراوي "واقع اللّغة العربية بين التفكير والتعبير وأثره في الهوية" بحث قدّم لكلية التربية والتعليم بجامعة العين للعلوم والتكنولوجيا. الإمارات العربية المتحدة: 2010. نسخة مطبوعة.

du conseil supérieur de l'enseignement, 70 % des parents d'élèves souhaitent que leurs enfants apprennent le français.

En Algérie il y a 10 200 personnes qui ont le français pour langue maternelle, pour la plupart des descendants de Pieds-Noirs.

En décembre 2014, l'encyclopédie Wikipédia en langue française est la 2e plus consultée en Algérie avec 38 % des pages vues, derrière celle en langue arabe (49 %) et devant celle en langue anglaise (10 %) (les autres langues réunissant seulement 2 %).

En mai 2014, la langue française est la plus utilisée dans les postes sur Facebook avec 76 %, devant la langue arabe (32 %) et la langue anglaise (11 %).

وهكذا نرى، بأنّ الفرنسية لها مواقع جدّ حسّاسة، وهذا ما تنصّ عليه الدراسات الميدانية في تلك المواقع التي تنالها الفرنسية في الجزائر، من خلال مواقع يتعامل بها المواطنون يومياً، تلك هي مخطّطات الفرنكفونية منذ قيامها كوريث شرعي للاستعمار الكولونيالي. فما هي مخططات الفرنكفونية؟

6ـ مُخَطّطات الفرنكفونيّة

في الحقيقة، إنّ فرنسا منذ اهتمامِها بلغتها، كان لها تصوُّرُ هيْمنةٍ على اللّغات الأخرى ككلّ، وبخاصّة لغاتِ البلادِ التي استعمرتْها، فغَرَضُها القضاء على الشّخصيّة الوطنيّة في كلّ بلد استعمرتْه أو دخلتْه ولو لبضعة أيام، وهذا بمسخ الهويّة الوطنيّة، وسلْخها عن إنيّتها، ولا يحصل لها ذلك إلاّ عن طريق مُخطّط تعليميّ طويل المدى، ويقع التّركيز فيه على: "**الفرنسة والتّنصير والإدماج**[1]". وهذه الأمور ليست وليدة القرن الواحد والعشرين، بل كانت تُخطّط منذ قرون، فهي لا تعمل بضربة حظّ Coup de dès ولا تعقِد تلاعُبات، ولا تسمح بالفراغات، فتخطّط على عديد المُستويات، بغرض الحصول إلى الإمدادات. وتُظهر غير ما تُبطن فنجحت في تخطيطاتها عبر ما نراه في تصرّفاتنا اليوميّة، وفي مُعاملاتنا في واقعنا، أليس ما نُلاحظه من تلطيخ شوارعنا بالحرف اللاتينيّ نوعاً من ذلك إضافةً إلى تحريك اللّوبيّات المُستفيدة للمُطالبة بإحلال العاميّات مَحلّ الفصيحة في التّعليم، إلى أقوال بعض السُّذَج بأن نَدَعِ العربيّةَ لله، فالله حفِظها مثلما قال في قوله تعالى ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾ الحجر 9. كلام لا يصدّق إن صدّقه السّذج من أهلنا أو من المُعرّبين. إنّ الآية صحيحة؛ وتعني أنّ الله حفظ كلامه (الذّكر) ولم يحفظ (اللّغة) فنعلم أنّ (القرآن واللّغة العربيّة) دخلا مع بعض إلى كلّ من: أجزاء من أوربا+ أجزاء من آسيا+ إيران+ تركيا... بقي الإسلام هناك وعادت العربيّة، فلم يحفظ الله (اللّغة العربيّة) وإنّ العربيّة تُحفظ بأبنائها العاملين

1 ــ عبد العلي الودغيري، اللّغة والدّين والهُويّة، ط1. المغرب: 2000، مطبعة النّجاح الجديدة بالدّار البيضاء، ص 88 ــ 89.

المُطوّرين، لا بالسّذج الواهِمين الاتّكاليّين. وهؤلاء يُريدوننا أن نستسلمَ وندعَ الفرنكفونيّة تفعل فعلَها، ونحن نعتمد على الغيب... سلسلة الإهانات نلحقها نحن بأنفسنا؛ وكأنّنا في بلد الأحلام، وفي خيال (كن فيكن) وإهانات أخرى تُلحقها فرنسا بنا، وأروم أن تكون وَخْزات للضّمير العربيّ والمغاربيّ عَلَّهُ يستفيقُ. وهذه العوامل هي التي تقضي على شخصيّتنا، فماذا فعلتْ فرنسا في هذا المجال؟

1/6ــ إنزال الفرنسية المقام الأعلى: لقد أنزلت فرنسا لغتَها المكانة الأولى في بلاد المغارب خاصّة، رغم ما تمكّنت منه سياسة التّعريب من زحزحة الفرنسيّة إلى أواخر المرحلة الابتدائيّة، واعتبارها (لغة أجنبيّة أولى) لكن في الحقيقة زَحْزحتها في الوثائق فقط، وفي الدّستور، والفرنسيّة في الواقع هي لغة التّواصل بين النّاس، وأحياناً لغة الخطاب الرّسمي، وأما العربيّة فهي لغة الحاضر الغائب؛ حاضرة في الأوراق، غائبة في الاستعمال، حاضرة في المدرسة، غائبة في العُلوم... كما عملت سياسة فرنسا اللّغويّة على تكوين نخبة فرنكفونيّة لا تنظر للعالم إلاّ من خلال الفرنسيّة، وهذه النُّخبةُ باعتِ المسألةَ اللّغويّةَ بأبخس الأثمان؛ نخبة ضاغطة في سياسات بلاد المغارب، وهي تابعة لمصالح فرنسا، بالإضافة إلى وَرَثَة النّظام الاستعماريّ، وكلّ ذلك شكّل جبهة تُمارس الضغوطَ لإبقاء الفرنسيّة ومعاداة التّعريب. كما أنّ فرنسا الدّاعيّة للحقوق اللّغويّة للجاليات العربيّة في فرنسا تعمل على تدريس العربيّة ولكنّها تعمل على إقصائها، فبعدما كانت تُدرّس في المرحلتين: الابتدائيّ والإعداديّ، أصبحت تُدرّس فقط في المرحلة الثّانويّة والجامعيّة، وأيّ تدريس؟ تدريس وزارة التّربيّة الفرنسيّة مُهترئ، رغم عدد طالبي دراستها في تزايُد والأقسام الموجودة لا تخضع لمعايير تدريس اللّغات الأجنبيّة في فرنسا، أضفْ إلى ذلك إسناد تدريس العربيّة لمُدرّسين لا تَشْتَرِط فيهم الأقدميّةَ، ولا

التّأهيلَ ولا تفرض عليهم استعمال الوسائل التّربويّة المُعاصرة... وما تزال العربيّةُ تُدرّس بطريقة تقليديّة، ممّا يجعل المتمدرسين ينفرون منها إلى لغات أخرى. ولا نبخس ما تقوم به جامعة السوربون، ومعهد العالم العربيّ، والمعهد الوطنيّ للغات وحضارات الشّرق وinalco. وعلى العموم، فإنّ استخفافَ فرنسا باللّغة العربيّة ظاهرٌ في تلك المدارس التي تدّعي تعليمَ العربيّة للجاليات العربيّة، أو تعليمَ العربيّة كلغة أجنبيّة ظاهر من عدم التّساوي في الأهميّة مقارنة بتدريس اللّغات الأجنبيّة الأخرى. فهذا هو فِعْلُ فرنسا تجاه العربيّة، **فهل نعتبر؟**

2/6 ــ عدم المُعاملة بالمِثل: وإنّه لا بدّ من تأكيد مسألة تدريس العربيّة في فرنسا، وهل نرى (المِثْلِية) في ما تقوم به فرنسا تجاه تدريس العربيّة في بلدها مُقابل ما نقوم به نحن من تدريس الفرنسيّة في مؤسّساتنا، ويؤكّد الصّورة القاتمة (أحمد معتصم) بأنّ تدريسَ العربيّة في فرنسا يمثّل منطقة ظلال "في مدرسة الجمهوريّة ونقصاً مَعيباً يَشوب الفرنكفونيّة العربيّة. فالنّظام التّعليميّ الفرنسيّ محروم إذن من الانفتاح التّاريخي والاستقبالي على البحر المتوسّط؛ حيث يمثّل هذا الانفتاح ضرورةً حتميّةً سواء على المستوى الجغراسي أو المستوى الجغرافي الثّقافي. إلاّ أنّ السّياسة قصيرة النّظر تعمل على جعْله مجرّدَ كلامٍ على الرّغم من الخطاب الرّسمي الرّنان الذي يتغنّى بالتّنوّع... إنّ هذا الوضع يكشف لنا بهذا الشّأن أنّ تدريس اللّغة العربيّة لا يعتدّ به من حيث الكمّ وقابل للنّقاش[1]". وهنا نقول: أيّ دور لجامعة الدّول العربيّة في هذا المجال؟ أين موقفها الحازم في مواجهة

---

1 ــ أحمد معتصم "وضع تدريس اللّغة العربيّة في فرنسا" © Arabofrancophonie L'HAMATTAN تر: جيهان عيسوي، ط1. القاهرة: 2005، المجلس الأعلى للثّقافة/ المشروع القومي للتّرجمة. عدد (الفرنكفونيّة العربيّة دراسات وشهادات) رقم 790، ص 187.

الرّهانات الدّوليّة في الدّفاع عن الهويّة اللّغويّة، وفي التّنوّع الثّقافي، وفي احترام الاتّفاقيات المُبْرَمة بين الفرنكفونيّة الفرنسيّة والجامعة العربيّة؟ أين احترام المادة الثّانيّة التي تقول: "إذن ينبغي أن توجّه إلى فرنسا بدون مُجاملات ديبلوماسيّة وبدون لفٍّ ولا دوران –ومن خلالها إلى الفرنكفونيّة الأورپيّة والكيبيكيّة– لكي تعمل على جعل ممارساتها البيداغوجيّة والاجتماعيّة مُطابقة لمبادئها المُتعلّقة بالدفاع عن التّنوع الفرنكفونيّ، بل العالميّ في مواجهة العولمة. ولا يتعلّق الأمر بالنّسبة لفرنسا بتطوير تعليم العربيّة بشكل مُتكافئ ومُتعادل حتى يكون في مُستوى تعليم الفرنسيّة عند شركائها المغاربيّين واللّبنانيّين أو المشارقة؛ بحيث تخضع في هذا الصّدد لمبدأ **المُعاملة بالمِثْل**. وإنّما المطلوب هنا مُعاملة مِثْلية رمزية إنْ جازَ التّعبيرُ، وذلك بالعمل على رَفْع نسبةِ الذين يتعلّمون العربيّة إلى 10 % فقط من إجمالي المُتمدرسين. ويمكن عندئذ إضافة إلى المدارس الثّانويّة القليلة التي تدرّس فيها العربيّة تعيين مدرسة إعداديّة واحدة في كلّ أكاديميّة لتدرّس فيها العربيّة كلغة أجنبيّة أولى اختياريّة أو حتى تكميليّة، وسيتوجّه هذا التّعليم إلى هؤلاء الشّباب المُحتاجين لتعليم هذه اللّغة وهم كثيرون، هؤلاء الشّباب الذين يضطرون أمام انعدام التزام من الجمهوريّة الفرنسيّة بهذا الخصوص، إلى اللّجوء إلى بعض الهياكل الموازيّة غير الخاضعة للمراقبة (انظر تقريرنا الذي أعددناه سنة 1984 بتعاون مع (جاك بيرك) بطلب من (چون بيير شوڤينمان) وزير التّربيّة آنذاك، وهذه (المُعاملة بالمِثْل) مع أنّها مُجرّد مُعاملة رمزيّة لن تكون فقط شهادة اعتراف إزاء الجنوب

بل أيضاً (استثماراً جيّداً) كما يقول الجنرال (دو غول)[1]". شيء مَهُول أن نقرأ هذا عن فرنسا العدالة والمساواة والأخوة، فرنسا لا تُعامِل العربيّةَ **بالمِثْلِيّة** من حيث:

ــ عدمُ معاملتها مثل اللّغات الأجنبيّة الأخرى؛

ــ التّدخلُ في تقليص عدد الرّاغبين في تدريسها كلغة ثانيّة؛

ــ عدمُ العمل على تطوير آليات تدريسها؛

ــ عدمُ إيلاء الأهميّة لمدرّسيها والكتاب المدرسيّ والمنهج والمنهاج؛

ــ عدمُ المتابعة والتّقويم؛

...

ورغم أنّ الجاليةَ العربيّةَ لها موقع وبشر في خريطة فرنسا، وبخاصّة في باريس ومرسيليا، فما هي هذه المفارقة من قبل بلد الجمهوريّة، ونراها تتدخّل في الكثير من البلاد لمجرّد إحساسها أنّ تهاوناً يحصل في تعليم لغتها، ألم تتدخّل بقوّة سنة 1997 في الجزائر لبقاء الفرنسيّة اللّغة الأجنبيّة الأولى، في الوقت الذي كانت الجزائر تُخطّط للأجيال اللاحقة أنّ يدخلوا عالمَ العولمة مع اللّغة الإنكليزيّة، فعملت فرنسا ومُوالوها من الجزائريين كلّ ما في وسعهم حتى أَقْبَرُوا تَصَدُّرَ الإنكليزيّة وذلك ما مسّ توقّف مَسار قانون تعميم استعمال اللّغة العربيّة. أليس هذا أخطبوطاً كبيراً لا يمكن الانفلات منه بسهولة.

3/6 ــ العمل على التوجيه السياسي: وفي هذه النقطة تعمل الفرنكفونية على أن تستميل النخبة السياسية للتأثير أو لتوجيه القرار السياسي الذي لا يكون في صالح الفرنسية، ومن هما، فتعمل على أن تنزل النخبة الموالية في مواقع الإعلام

---

1 ــ توصيات ندوة الفرنكفونيّة والعالم العربيّ حوار الثّقافات، جرت فعالياتها في 30-31 مايو/ أيار 2000. المغرب: طبع الإيسيسكو، 2001، ص 378-379.

والقرار أو في باب الحاشية، ومن خلال ذلك يظهر التأثير في الكثير من القرارات السيادية من مثل:

ــ استعمال الفرنسية في المواثيق الرّسمية في العقود والاتّفاقيات والمراسيم.

ــ استعمال الفرنسية في المواقع الرّسمية، وفي مجالس الوزراء والحكومة.

ــ استعمال الفرنسية في جلسات الحوار بين الحكومة والحكومات الأجنبية.

ــ استعمال الفرنسية وسيط دائم بين الوفود أو المسؤولين والذين لا يعرفون الفرنسية، إلاّ وتكون الفرنسية هي الوسيط.

ــ استعمال الفرنسية في مواقع تواجد العربية من مثل المنظمات العالمية ويحصل أن يشترط في المُمثلين أن يتقنوا الفرنسية.

ــ استعمال الفرنسية في الخارج، حتى مع الدول التي ليست عضوة في الفرنكفونية.

ــ استعمال الفرنسية مع الدول التي لا توجد نسبة من الناطقين بالفرنسية وهذا ما تفتخر به فرنسا على أنّ لها من يقوم على خدمة لغتها خارج الدول التي لا تنضوي تحت غطائها. بل تعدّ ذلك انتصاراً لفكر الفرنسيين الذي شحّنوا الفرنكفونيين بأنماط عبادة الفرنسية فقط، جون غيرها من اللّغات.

ومن هنا، نفهم لماذا تركّز فرنسا على استقطاب النّخبة السياسية، كي تستميلهم وتوجههم، ويبقوا مطيعين لها عن طريق لغة الانجذاب وهي الفرنسية المعبودة. ويجب أن نعرف أنّ فرنسا عملت على جعل لغتها تنالُ الانتشارَ وفي ذات الوقت لم تعمل لصالح الهُويّة اللّغويّة للشّعوب التي استعمرتها فسياستها قبيحة، وتحمل وجهَ الإلغاء، ومحوَ الشّخصيّة الوطنيّة، وهذا واضحٌ من سعيها الدّائم لخلق بُؤَر الصّراع بين النّاطقين بالفرنسيّة، وبين النّاطقين بالعربيّة، وهم من أمّة واحدة.

وبهذه السّياسة القبيحة؛ جعلت ساكنةَ بلاد المغرب العربيّ في وضع غير مُريح؛ لأنّهم انفتحوا على الفرنسيّة دون غيرها من اللّغات، فما استفادوا منها كشعب إلاّ تلك النّخبة المُتعالية، وما تعلّموا لغات أخرى لتكون لهم نوافذ على العالم. شعوب المغرب العربيّ ارتموا في الفرنكفونيّة، على الرّغم أنّ خبراء لسانيّين دقّوا جرسَ الإنذار، وانتقدوا سياسات الدّول المغاربيّة المُتساهلة إزاء عدم تعميم استعمال اللّغة العربيّة. إضافة إلى ما تُخطّط له من تفكيك وحدة المغرب العربيّ، وبناء الجدار الفاصل بين المغرب العربيّ والمشرق العربيّ، بخلق بُؤَرٍ لغويّةٍ غير مُتجانسة وخلق صراعات إيديولوجيّة، والنّظر إلى التّعريب على أنّه تخلّف ونكوص ورجوع إلى التّقليدانية التي عَفَا عليها الزّمانُ، وأنّ طريقَ الإنكليزيّة مُخيف، فلا فائدةَ منه "... وهي السّياسة المعروفة بالفرنكفونيّة التي تصارع الأنكلو–أمريكيّة في مؤتمرات العولمة والمحافل الدّوليّة، وهذا من أجل كسب مناطق الهيمنة وقنوات النّفوذ والتّأثير، وإنْ على حساب لغات حضاريّة عتيدة كالعربيّة. ولا نرى بذلك الطّلب لزومَ التّعصّب للغة الضّاد أو الانغلاق عليها، وإلاّ فما القول في علاقة الفرنسيّ أو الإنكليزيّ مثلاً بلغتهما، وهي أساساً علاقة حبّ وأثرة وتعلّق؟ إنّ ما نطمح إليه هو أن نقتنع جميعاً بضرورة تحقيق مجال ثقافيّ مُتجانس الأبعاد والمُكوّنات، أي غير مُمزّق الأوصال والنّواظم (أو الكودات) وذلك سواء على صعيد اللّغة أو على صعيد الفكر والرُّؤى. ومن دون تحقيق التّجانس بهذا المعنى كما يعرف غيرنا جيّداً لا تقوم لأيّ ثقافة ناتجة، ولا تقدر على المنافسة والابتكار. فهل من العيب إذن أن نريد لثقافتنا ما يريده الآخرون لثقافتهم؟ وهل من المعقول

أن تترك ثقافتنا تنسحق تحت ضغط الهيمنات وعلاقات القوى المُتصارعة[1]". تلكم هي إشكالية الثّقافة الفرنسية التي لا تنظر إلى مبادئ الجمهورية الفرنسية بقدر ما تنظر إلى مسطرة الكولون في التمجيد الفرنكفوني، وإلى التوسيع ال قهري للغتهم التي لا يجب أن تنال الرفض من قبل المستعمَر، فهو جزء أساس من الحضارة المعاصرة، وهكذا كانت تدرّس للنّخبة العربية بأن يكونوا في مستوى اللّغة الفرنسية التي أهلتهم ليكونوا بشراً، ولولاها لما كانوا. تلكم هي مخطّطات الفرنكفونية التي تختفي وراءها مخاطر الفرنكفونية.

1 ــ بنسالم حميش "في إشكاليّة الهُويّة المزدوجة الأدب المغاربيّ المكتوب بالفرنسيّة نموذجاً" مجلة الأكاديميّة الملكيّة المغربيّة. الرّباط: 1997، عدد (مستقبل الهُويّة المغربيّة أمام التّحديّات المعاصرة) سلسلة (ندوات) ص 185.

7ـ مَخاطِرُ الفرنكفونيّة

كما يعلم الجميعُ بأنّ الفرنكفونيّةَ حاملةٌ للّغة اسمها (الفرنسيّة) وهذه اللّغة تحمل ثقافةً إيديولوجية استعماريّةً؛ ثقافة تعمل على تركيع المُتعلِّم على أن يخضعَ للفرنسيّة ليكون حضارياً، وهذا في إطار تأكيد الفرنسيّين على أهميّة اللّغة الفرنسيّة؛ باعتبارها المدخل الطّبيعيّ أو المنطقيّ لأيّة حضارة أو لأيّة ثقافة؛ بحيث تستطيع أن تُقرّر أنّ النّشاط الفكريّ لا يحمله ولا يؤدّيه، ولا يقوم به، ولا ينمّيه إلاّ شيء واحد في الأساس هو اللّغة الفرنسية... ولكي تُرسّخ هذا، لا بدّ من تجنيد مُجتمعيّ، وهذا ما قامت به فرنسا القديمة، وفرنسا الحديثة لم تخرج عن مَزيد من تأسيس الجامعات (جامعة سنغور في الإسكندريّة بمصر) وتقديم المساعدات الاجتماعيّة (في الدّول الإفريقيّة) وتقديم المِنَح للطّلاب (طُلاَّب الفيتنام+ الكمبوچ...) وتعزيز فكر النّخبة الأجنبيّة، والتّرويج له (رفاعة رافع الطهطاوي+ طه حسين+ أمين معلوف+ الطّاهر بن جلون+ مصطفى الأشرف) والتّوسّع في استعمال الفرنسيّة بتوظيف وسائل الإعلام (MEDI1TV+ arté) وتسهيل عمليات التّنقل إلى فرنسا (الهنود) واشتراط إتقان الفرنسيّة في الإدماج (المغاربة)...

إنّ مخاطر الفرنكفونية عديدة، ويمكن التوضيح فيها كما يلي:

1/7ــ **المساس بالدين الإسلامي:** فأن تقبل بالفرنكفونية عليك أن تقبل بالتّنصير، وهذا ما تجسّد في كثير من البلاد الإفريقية، فيمكن أن نأخذ النّموذج من بلاد الزعماء المؤسّسين للفراكفونية وهو (السنغال) فقد أكد الشيخ (سيد غالي لو) رئيس المجلس الوطني الإسلامي في السنغال أنّ مسلمي البلاد يواجهون أوضاعًا سياسية واجتماعية واقتصادية صعبة، بسبب سيطرة النزعة الفرانكفونية، وهيمنة الموالين لها على مقدرات الشعب السنغالي، وهو ما يُعدّ خصمًا من رصيد المسلمين وأصحاب الثّقافة العربية والإسلامية. وهذا مقتطف من أهمّ ما جاء في اللّقاء [حوار: عبد الرحمن أبو عوف]:

ــ س: أليس مستغربًا ما تقوله في ظل اعتلاء مسلمين منصب الرئاسة في ربع قرن الأخير؟

ــ ج: هذا ما يزيد الطين بلة، فقد سبق عبده ضيوف وعبد الله واد الرئيس سنيجور الذي حكم البلاد عشرين عامًا، وضع فيها أسس اختراق الفرنكفونية للمجتمع السنغالي، في أبشع صورة خصوصاً أنّه كاثوليكي متعصّب جدًا، ولم يختلف الأمر مع عبده ضيوف وواد، فالاثنان على الرغم من أنّهما مسلمان غير أنّهما علمانيا النزعة، فرانكفونيا الهوى، إضافة إلى أنّهما متزوجان من زوجات مسيحيات، وهاتان الزوجتان ليستا ككلّ الزوجات، فهن الدجاجة التي تلعب دور الديك، وتسيطران سيطرة تامة على الحياة السياسية من اختيار الوزراء، وكبار المسؤولين بشكل كرّس سيطرة الهوية المسيحية والفكر الفرانكفوني.

ــ س: كلّ ما تقوله يوفّر بيئة حاضنة للمنظمات التّنصيرية التي تتّخذ من هذه الأوضاع وسيلة لتحقيق أهدافها عبر غزو منظّم... فماذا عن التّنصير؟

ــ ج: التّنصير في السنغال لا يحتاج إلى غزو، فالمئات من المنظمات التّنصيرية تعمل في السنغال على قدم وساق، ولا تجد هذه المنظمات أدنى صعوبة فالأثرياء من أبناء المسلمين يذهبون إلى هذه المدارس لتلقّي علومهم وهناك إقبال على المستشفيات التي تحمل شعار الصليب الأحمر؛ في وقت لا توجد المستشفيات التي تحمل شعار الهلال الأحمر.

كما أنّ الأعياد المسيحية تحوّلت إلى أعياد رسمية، وليس عيدي الفطر والأضحى، وعلى الرغم من ذلك فإنّ استراتيجية التّنصير في السنغال تعتمد على إيجاد تباعد وهوّة بين المسلم ودينه الحنيف، بحيث لا يلعب الدين دورًا في حياته وهو ما يُعدّ أفضل لديها من أن يكون مسيحيًا.

كما ينتشر المُنصّرون بين القبائل الوثنية، فهم يفضلون استمرارها في عبادة الأصنام دون اعتناق الإسلام الذي يُعدّ الدين الأكثر اعتناقًا في أوساط الوثنيين.

ــ س: في ظل هذا المد التّنصيري ألا يُواجه هذا بعمل خيري إسلامي؟

ــ ج: الجمعيات الخيرية الإسلامية كانت تقوم بدور فاعل في السنغال نحو كفالة الأيتام، وإنشاء المدارس والمستشفيات، وإغاثة الملهوف، وحفر الآبار إلاّ أنّ هذا العمل قد تراجع في الآونة الأخيرة من أحداث سبتمبر، ولم يبق منه إلاّ اليسير وأُصيبت معظم الجمعيات الإسلامية بالشلل، وأغلقت أبوابها باستثناء الندوة العالمية للشباب الإسلامي، ولجنة مسلمي إفريقية[1]".

2/7ــ وجوب تدريس الفرنسية: تعمل الفرنكفونية على الإغداق على كلّ دولة تعمل على تدريس لغتها الفرنسية، كما تعطي مِنحاً لكلّ من يرغب في تعلّم الفرنسية، وبذلك سطّرت خُططاً هامّة في احتواء النُّخب الوطنية الثقافية أو السياسية، والعمل على تطوير منهجيات تدريس الفرنسية، وطبع الكتب والاشرطة وكلّ الوسائل المكمّلة للتدريس، وتقوم على إرسالها بالمجان لكلّ راغب في ذلك. كما تُرغّب الدول التي تعمل على إعطاء اللّغات الوطنية حقّها في حقل التربية والتعليم على أن تكون الفرنسية هي اللّغة الأجنبية الأولى.

3/7 ــ تجسيد ثقافة التفوّق الفرنسي: تعمل الفرنكفونية على تجسيد منوال نمطي لا يقرّ إلاّ بثقافة العرق الفرنسي؛ باعتباره ينال التفوّق والامتياز، وأنّ الشعب الذكي هو الشعب الفرنسي النموذجي في أوربا، نموذجي في صناعاته وفي حضارته وفي لغته. وفي هذا المجال تعمل على تثبيت ثقافة الهيمنة الغربية التي لا تكون إلاّ باللّغة الفرنسية، وهي لغة العدالة والحرية والإخاء، فلا مقام للغات الأخرى أمامها. وهذا معتقد تقرّ بها، وعن طريق الحمولة اللّغوية والثقافية يتجسّد لاحقاً في متعلمي الفرنسية. وإنّه لدينا أدلّة كثيرة حول هذا، فيمكن أن يقع التفاهم بينك وبين الجزائري المُؤنجلز، ويصعب أن تجد القواسم المشتركة بينك وبين المُفرنس، وهذا بسبب ما تزرعه الثقافة الفرنسية من تباعد بين مثقف بالعربية

---

1 ــ نقلا عن:
http://www.islamtoday.net/articles/show_articles_content.cfm?id=102&catid=105&artid=8387

ومثقّف بالفرنسية، وينطوي هذا ما نراه من تباعد بين مدرّس بالعربية، ومدرّس بالمازيغية، ونخصّ هنا، مدرّسي المازيغيات الحاملين للثقافة الفرنسية، أو الذين تحوّلوا من تدريس الفرنسية إلى تدريس المازيغية، أو الذين أنجزوا أبحاثهم المازيغية بالحرف اللاتيني.

4/7 ــ معاداة اللّغات الأخرى: تزرع الثّقافة الفرنسية أفكاراً وهمية بشأن محاربة اللّغات الأوربية التي تنافسها في الصناعة، مثل: اللّغة الألمانية، وكذا اللّغة الإيطالية التي تنافسها في الآداب، واللّغة الإسبانية التي تضايقها في الاتّساع القاري وبخاصّة في أروبا. ومن هنا، فلا ترى لتلك اللّغات مكانة أمامها، ولذلك تسيّج نفسها بقوانين صارمة لحمايتها من الاندثار في القارة العجوز. ومن ذلك تلتجئ إلى دول الاستعمار القديم لحماية لغتها.

5/7 ــ مسخ الألقاب والأسماء وأسماء الأماكن: ولا بدّ في هذا المجال من الإشارة إلى ما قامت به فرنسا في بلاد المغارب من مسخ الأسماء: أسماء الأشخاص ــ تبديل أسماء الأماكن والمدن ــ طمس الهّويات الوطنية ــ تمجيد تواجد فرنسا في البلاد المستعمرة ــ اعتبار الاحتلال تحضيراً وتمدُّناً... وفي هذا المجال، لا يخفى على شخص كيف قلّبت وقدّمت فرنسا ألقاب العائلات المغاربية على الأسماء، وهذا ما قامت به في بلادها، ولا حدث في أي بلد آخر. فقلّبت أسماءنا = لقب ثمّ اسم. ولم يحصل عندهم أن قالوا: (دو گول شارل/ De Gaule Charles) (شيراك جاك/ Chirac Jaques) ... بالإضافة إلى تشويه الأسماء في إطلاق أسماء الحيوانات، وكلّ مظاهر التّحقير على ألقابنا وأسمائنا. وبالنّسبة لأسماء المدن والأماكن لم تُبقِ عليها، بل غيّرتها بما يُناسب صوت الفرنسية، مع نسبتها إلى عساكرها وشخصياتها. وأما شخصياتنا التّاريخية الأولى فلا وجودَ لها في قاموسها؛ لأنّ تدريسها لتاريخنا يبدأ مع سنة الفتح الفرنسي (الاحتلال) 1830. وقبلها لم يكن لنا تاريخٌ يُذكَر بل نحن أقوامٌ همجٌ، لا يحكمنا القانون، ولا حضارة نحتكم إليها، نحن أجلاف لا ننصاع إلاّ للعصا الفرنسية التي تُحضّرنا... هكذا نحن

في نظر فرنسا الحضارة، فيجب أن نكونَ تُبّعاً، للخروج من تقاعسنا، وتخلّفنا فنحن لا ننقاد إلاّ للعصا. ولا تزال فرنسا تردّد: إنّ الشّعب الجزائري ليسوا بالأمّة فهم مُتقاعسون لا يعملون، وإذا عملوا لا يعملون إلاّ تحت السوْط الفرنسي. قومٌ ليسوا بأمّة، ولا بشعب يحتاج الاحترام، بل لا فرقَ بينهم وبين الذبابة الحقيرة فكان علينا دوْسهم فلا نستطيع استئصالهم...

هي سلسلة من المخاطر التي تعمل فرنسا على تحقيقها على المدى القصير والبعيد، وهذا لتمكين وغرس الظّواهر المُتّصلة بمخالفة الدين، وذلك عن طريق تثبيت الهياكل الاقتصاديّة والاجتماعيّة والإداريّة، ومنها المعابد، وهدم المساجد والاهتمام بأضرحة المسيح، والتّسامح في المقابر... وهناك كلام كثير وكبير يمكن أن نذكره في هذا المقام، ولولا خوفُنا من أن ينقلب الحديثُ إلى مجال التاريخ، لقلنا أكثر من هذا. وفي باب التاريخ الفعلي للمسخ الذي مارسته فرنسا، ولكنّنا نسكت عن أشياء كثيرة، فلا يتطلّبها المقام.

وفي هذه الإهانات تتبع بضرورة تقديم الوصايا بالاهتمام بالتعدّد اللّساني/ الازدواج اللّغويّ لسلخ الشّعوب المُستعمرَة من لغتها وحضارتها. فلا ننكر أنّ هناك بعضاً من الإيجابيّات للازدواج اللّساني، لكن أفظعَ ما فيه هو **التّحوّل عن اللّغة الأمّ إلى اللّغة الأجنبيّة، ونكران الذّات**، وهذه تمحو كلّ الإيجابيات؛ لأنّ العملَ الدّائمَ على هذا النّحو سوف تصبح النّفسُ مُرتاحةً للاستعمار اللّغويّ وتقبل قهرَ لغة الآخر، وتتلذّذ بجلد ثقافة الوطن عندما تُوصف بالتّخلّف. بالفعل إنّ التعدّد اللساني الذي تشجّعه فرنسا في غير وطنها، وتطبّل لمزاياه ومحاسنه وتقترحه على شعوبها التي استعمرتها بالأمس، ولكنّها لا تطبّقه في بلادها وتعرف **أنّ التّعدّد هو تخلّف وهو تعطيل حركة الاقتصاد الوطني**، وفرنسا تعمل جاهدة على تقديم المحاسن التي تراها بعيونها، وللأسف نتغافلُ –نحن المغفّلين– عن عدم تطبيق فرنسا للتّعدّد، ولا ننكر ذلك عليها بقدر ما ننكره على أنفسنا، ونَصِفُ ذلك بأنّه نوع من الإلغاء أو إقصاء للغة من اللّغات.

وفي هذا المقام، هناك مسلّمات لا بدّ من ذكرها في هذا المجال:

ــ ازدياد عدد اللّغات لا يحصل إلاّ في الدّول المُتخلّفة؛

ــ الشّعوب الصّناعية والمتطوّرة يقلّ فيها تعدّد لغوي؛

ــ المستوى المعيشي يرتفع في البلاد غير المُتعدّد اللّغات، وينخفض في الدّول المُتعدّدة اللّغات؛

ــ التّعدّد اللّغوي لا يساعد على الانسجام المُجتمعي، بقدر ما يُؤدّي إلى الخلافات والحروب؛

ــ الإنتاج والحركة يحتاجان إلى أساليب مُوحَّدة ومُنتظمة، وعلى درجة عالية من التّعليم؛

ــ البلاد المُجزّأة لغوياً بلاد مُتخلّفة وفقيرة طبعاً؛

ــ تعدّد اللّغات عائق للتّجارة وحركة العمل والتّكنولوجيا؛ لأنّ الحدود اللّغوية تُعيق التّواصل؛

ــ التّعدديّة اللّغوية جيّدة إذا تكون حلاً لمشكلة التّواصل أو التّقدّم أو الإنتاج بقدر ما يكون شتاتاً في الأفكار وفي الصراعات؛

ــ هناك دعوات الآن تدعو الأمم المُتحدة إلى العمل على التّوحّد اللّغوي؛

ــ دعوات التّعدّد في كثير من مناطق العالم؛ هي دعوات تفتيت المجتمعات ويقابلها الأمراض والمجاعات؛

ــ الاقتصاد المثالي يفترض دائما لغة واحدة لتسهيل عمليات التّواصل في الاختراع وفي الإنتاج؛

ــ تفريخ اللّغات في بلد واحد عامل من عوامل الصّراع، وخلق النّعرات ودعوات الانفصال؛

ــ كثرة اللّغات لا تخدم التّنمية البشرية، ولا رأسمال المعرفة؛

ــ إذا كانت الضّرورة تستدعي تعدّداً لغوياً، لا بدّ من وضع تراتب لغوي وطني بحسب المرجعيات الذاتية للغات الوطنية؛

ــ إنزال اللّغات الأجنبية بحسب ما نُفيده منها، وبحسب مُسايرتها للعلم المعاصر؛

ــ إيسلندا دولة مُتقدّمة جداً، لا يوجد فيها إلاّ اللّغة الإيسلندية؛

ــ التّعدّد اللّغوي مُكْلِف جداً اقتصادياً لأيّة دولة، والمرجع على الدول الأوربية التي تستنفذ من الميزانية العامّة أكثر من 21 % من في التّرجمة؛

ــ الدّول التي تدعو إلى التعدّدية دول فقيرة، والحلول يكمن في التوحّد اللّغوي ولا تدعو الدول المتقدّمة أو الغنيّة إلى تعدّد لغوي.

ولهذا؛ فإنّ فرنسا من الدّول المتقدّمة كانت لا تدعو في بلادها إلى تعدّد لغوي ولا ترضى عنه باللاءات الثلاث التي رفعتها، وترضاه فقط لمُستعمراتها، بل تجمّله على أنّه حقّ من حقوق الإنسان، أو هو تفتّحٌ على العالم، ونرى الباحثَ (كلود حجاج) يدعو إلى المحافظة على اللّغات المحلية خــوف الانقراض في كتابه (Halte à la mort des langue) ويردّ عليه (كالفي) كان عليك أن تُعنونِ كتابك (Halte à la langue anglaise en France) وهو يقول الحقيقة؛ لأنّ الانكليزية أصبحت تُضايق الفرنسيةَ في باريس، وفي المؤسّسات العلمية، وفي الإنتاج العلمي وفي المجلات العلمية المتخصّصة. وهكذا يظهر وجهُ فرنسا سخيفاً، فبعد دخولها الاتّحاد الأوربي أصبحت تُدرّس بعض اللّغات الأوربية فقط، وبشكل خاصّ في المدن الفرنسية الكُبرى.

وفرنسا لا يهمّها الاتّفاقيات التي عقدتها مع الاتّحاد الأوربي في المسألة الثّقافية بقدر ما يهمّها تسويق لغتها، لتجنيَ من ورائها الأرباحَ الكبيرةَ. ومن هنا تعمل بسياسة الاستثمار في اللّغة الواحدة، وتعمل على تسويق لغتها فقط وتجني من وراء ذلك أرباحاً طائلة في تعليم لغتها "فنحن نعلم أنّ فرنسا مثلاً قد استثمرت –ربّما أكثر من أيّة دولة أخرى– أموالاً طائلة من أجل نشر لغتها في كلّ أنحاء العالم وركّزت بصفة خاصّة على مستعمراتها القديمة، فلما غادرتها؛ أصبحت هذه الدّولة تعيش في جزء كبير من اقتصادها ودخلها الوطني على الأرباح التي تجنيها من

استثماراتها في المجال اللّغوي. وفي هذا الإطار يجب استحضار قولة (دو گول) "**لقد صنعتْ لنا اللّغة الفرنسيةُ ما لم تصنعه الجيوشُ**" وليست مجموعة الدّول الفرنكفونية التي يقترب عددها من السّتين إلاّ روافد لتغذية الاقتصاد الفرنسي بطريقة أو بأخرى مباشرة؛ كتعليم اللّغة الفرنسية الذي أصبح يدرّ أموالاً باهظة على مؤسّسات التّعليم الفرنسي ومراكز تعليم اللّغات، وكبيع الكتب والصّحف والمنتوج السينمائي والدرامي وكلّ أنواع الإنتاج الثقافي والإعلامي والعلمي والفنّي الأخرى[1]". وهذا ما يلاحظ الآن من توافد أبناء المُستعمرات إلى فرنسا للتّدريس والشّغل والتّمريض والسّياحة والتبضّع والزّواج... أليس هذا استثمار قوّي للاقتصاد الفرنسي عن طريق اللّغة الفرنسية؛ حيث إنّ الاقتصاد الفرنسي اليوم يقوم على أدمغة الفرنسيين الذين يعملون في العديد من الدّول الفرنكفونية كخبراء وما تدره لغتهم خارج فرنسا من طَلَب. فكم تحصد فرنسا من هذا العدد الكبير والذي يفد إلى بلادها يومياً، وكم من عُملة صعبة تجنيها الفرنسية من ربحٍ ماديٍّ، وكم حقّقت من أهدافها اللّغوية؟

إنّ الفرنكفونية إقصاءٌ للعربية في بلاد العرب، وهؤلاء العرب يَعْمُون عن مُخطّطاتها غباءً وبداوةً، بل نكراناً للغتهم التي هي مصيرهم، ولا يُدافعون عنها بل لا يستثمرون فيها، في الوقت الذي يستثمرون على الفرنسية بما ليس من مُستلزمات لغتهم وواقعهم، وللأسف فهناك حالات تصدُمُ المواطنَ العربي في هذه النّقطة بمثابة الإنسان الذي يعرف أنّه ينتحر، ولكنّه لا يتراجع في موطن الانتحار. وإنّه من الصّدمة الكبرى "... أن تنعقد قمة للدّول الفرنكفونية لأوّل مرّة في بلد عربي وهو لبنان (القمة التّاسعة من 18–20 أكتوبر 2002م) ويصدر عنها إعلان تشارك فيه ثماني دول عربية (المغرب وتونس وموريطانيا ومصر ولبنان

---

1 ــ عبد العلي الودغيري، لغة الأمّة ولغة الأمّ عن واقع اللّغة العربية في بيئتها الاجتماعية والثّقافية. بيروت: 2024، دار الكتب العلمية، ص 45.

والجزائر وجيبوتي وجزر القمر) وتلتزم فيه – مع غيرها من الدّول– بالعمل على ضمان وضعية تفضيلية خاصّة للغة الفرنسية على حساب كلّ لغات دول الأعضاء **دون أن ترد فيه أدنى إشارة لوضع اللّغة العربية.** فقد خصّص الإعلان فقرة لما سمّاه: السّياسات اللّغوية جاء فيها بالنصّ ما يلي: نُذكر بأنّ اللّغة الفرنسية التي تتقاسم استعمالها، هي الرّابط الأساسي لمجموعتنا الدّولية، ونُؤكّد إرادتنا لتوحيد جهودنا من أجل الرّفع من مستوى التّعددية اللّغوية، مع ضمان وضعية اللّغة الفرنسية وإشعاعها وترقيتها، باعتبارها لغة كبرى للتّواصل على المستوى الدّولي. ونشير إلى أهمية التّعدّد اللّغوي في المنظّمات الدّولية وغيرها من الهيئات التي تُشارك فيها، ونؤكّد مرةً أخرى التزامَنا بإعطاء الأفضلية لاستعمال الفرنسية في هذه الهيئات والمنظّمات، مع احترامنا للغات الرّسمية للدّول والحكومات والمنظّمات الدولية. ونطلب من الأمين العامّ (للمنظّمة) أن يتحرّك في هذا الاتّجاه (...) كما نؤكّد انطلاقاً من روح إعلان (كوطونو) التزامنا بتدعيم التّعددية اللّغوية من أجل معرفةٍ أفضلَ باللّغة الفرنسية واللّغات الوطنية والارتباط بها في أوساط شعوب الدائرة الفرنكفونية[1]". إنّ فرنسا ذكيةٌ بذكاء ودهاء أبنائها، ذكية بغبائنا، فرنسا بلغتها تعمل على تجهيلنا وتجبيلنا وجعلنا مَتاعاً في يدها، تبيع لنا منتوجها وتعمل على تجهيل أولادنا، تعمل على إنزال لغاتنا منزلة اللّغات المُتْحفية، تعمل على غسل أمخاخها؛ تعمل على أن نكون من التّابعين، ومن تُبّع التابعين، وما تزال تُجمّل لنا التّعدّدية في بلادنا، ولا تقبل بأية لغة في بلادها، تُشجّعنا على تعلّم لغتها، ولا تقبل أن تُدرّس لغتنا في بلادها، فرنسا تزيّن لنا كلّ ما يدعو إلى التّخلّف، وتُعطي لنا أمثلة بالدّول المُتخلّفة، ونقبل بنصائحها الغالية، فرنسا ذكية، ووجدت الأغبياء الذين تَزرع فيهم الغباء، فهذا ليس ذنبها، فما ذنب المسمار أيّتها الخشبة، وما ذنب القادوم

1 ــ عبد العلي الودغيري، لغة الأمّة ولغة الأمّ عن واقع اللّغة العربية في بيئتها الاجتماعية والثّقافية. بيروت: 2024، دار الكتب العلمية، ص 59، هامش (1).

أيّتها الشّجرة، ما ذنب فرنسا إذا كُنّا نسعى دائمًا أن تكون راضيةً علينا، ونحن وراءها نلهث ونجري، ولا نقبل المعاملة بالمثل، فتهيننا ونقبل بكلّ ما تسنّه من شروط علينا، دون أن نعاملهم بالمثل في الديبلوماسية وفي التبادل التجاري. والمهمّ أنّ نخبتنا، وأحياناً دولنا هي التي تعمل على تركيع شعوبها ونعلم أنّنا لا نجني من ورائها إلاّ الأشواك، وسَبَقَ لها أن جهّلتنا، وقتّلتْنا وأحرقتْنا، وأبعدتْنا عن مَواطِن الحضارة، بل في كثير من المواقع تُفضّل الحيوانات عنّا، وماذا جَنيْنا منك يا فرنسا الحرية، **فهل نعتبر؟**

ولا بدّ من مَزيد مدارسة وتوضيح المسألة في قضية التّعدّد اللّساني/ اللّغوي بما يحمله من صعوبات وطرح أسئلة، وعلينا اقتراح أفكار في هذا المجال؛ ليكون القارئ على دراية بخصوصيات التّعدّد اللّساني. إنّ الموضوع يفرض نفسه في إطار المُتغيّرات والتّوترات العربية أو ما يسمَّى بالرّبيع العربي، وما تثيره العولمة ومواقع الشّابكة، وارتفاع مستوى الوعي الثّقافي والسّياسي والدعوة إلى المشاركة في القرار، وظهور القوميات من جديد، وخوف أوربا من الإنكليزية التي أصبحت تأكل اللّغات، ثمّ ظهور خطر انقراض اللّغات المحلية بشكل لم يسبق له مثيل. إنّ التّعدّد اللّغوي له محاسنُه الكثيرة، وله أبعادُه الخطيرة، فعلينا الآن التّفرقةَ بين محاسن اليوم، وقد تزول سريعاً، وبين مخاطر المستقبل؛ وقد تكون مُدمّرة، فأيّهما أحلى؟ علينا النّظرَ إلى الشّعوب المُتقدّمة؛ كيف تفعل وتخطّط لهذه المسألة، فلا يجب الانطلاق دون تخطيط ولا البداية في كلّ مرّة من الصفر، علينا استكناهَ تجارب الآخرين، ولا نعمل على احتذائها بقدر ما ندرسها وفق خصوصياتنا.

ولا تكتفي فرنسا في هذا الأمر بالدعوة إلى التعدّدية اللّغوية في غير بلادها بل تُنمّقه بإحياء اللّغات الأُحفورية في كلّ بلد استعمرتها. ففي الجزائر تدعو إلى **المُزوغة بدل العُروبة.** وفي هذه النّقطة لا بدّ من توضيح المسألة بالقوّة فعندما نتحدّث عن المُزوغة يعني أنّ النّاطقين بها من عِرْقٍ صافٍ يعودون لمازيغ بن مصريم بن كنعان بن نوح، فالعرق الصافي غير موجودان والمازيغيون أعني بهم

كلّ الشّعب الجزائري، علماً أنّ المغرب الأوسط كانت مازيغية بالكمال والتّمام ولكن هناك من كان قبلهم في هذه البقعة، أو هل نبتوا / نزلوا هنا، واستوطنوا هذا المكان. إذاً هناك السّابقون، فمن هم السّابقون؟ فلا أعني بها العرق والسّلالة أو الجنس، ولكن اللّغة واللّسان فقط، وإنّ الفضل في المكانة التي بلغتها المازيغية في ذلك الوقت تعود للعديد من الأجناس، كما أنّ هؤلاء المازيغيين لم تقم لهم قائمةٌ قبل الإسلام، ولم تكن لغتهم موظّفةً إلاّ في الحياة اليومية الوظيفية البسيطة. فلما فُتحت هذه البلاد كان فيها لمختلف الأجناس دور في استعمالها الوظيفي، فنجد المازيغي والعربي والفارسي واليهودي... كلّهم تركوا بصمتَهم في المنطقة، وتركوا بصمات في لغة المنطقة. ولهذا يجب أن تُعالج المسألة اللّغوية في إطار توافقي ننأى عن المعالجة التّجزيئية والمغالية الكفيلة بتحويلها إلى بُؤرة توتر اجتماعي، أو توظيف إيديولوجي يؤدي إلى قلاقل وطنية، وتكريس للتّبعية والتّخلّف، فلا يجب أن تكون المسألة اللّغوية **بلقنة وطنية**. ولقد علّمتنا التّجارب بأنّ المسألة اللّغوية يجب أن تُعالج في إطار الحكمة والوَحْدة والشّفافية والديمقراطية، كما علّمتنا الحياة أنّ مسألة الإلغاء أو الفرض مآله الإخفاق، كما أنّ عدم نزول الملف اللّغوي للعامّة مآله الفشل، ويكفينا فَشَلاً من التّعريب النازل من الأعلى، وهذا لا تحلُّه إلاّ الحكومات المُنتخبَة والشّرعية، فلا لتوطيد سلطة بوليسية، ولا للقمع والكبت وتمييع المسألة إلى غدٍ مجهولٍ.

وإنّنا ندعو أن ترفع الفرنكفونية يدها عن ملفّ الإصلاحات التربوية وهي لصيقة باللّغة العربية، فلا نريد دور فرنسا في هذا المجال، فقد اكتوينا من أزمة القبائل في أفريل 2001م، إثر اندلاع أعمال شغب في أعقاب مقتل طالب ثانوي داخل مقرّ قوات الدرك الوطني، وراح ضحية أعمال الشغب 126 ضحية. الأمر الذي استغلّ لغير صالح الوطن، حيث تسيّست الأزمة وجاءت سلسلة المطالب التي تعمل على هدم كيان الأمة/ الدولة. وخلال سلسلة المطالب تمّ تركيع الدولة في كثير من النقاط التي ما كان يجب أن تكون وكان كلّ ذلك وراءه الاستعمار الذي

يريد الغمز من وراء المطالبة بالاستقلال الذاتي. وفي هذا الإطار نجحت فرنسا في التّغلغل داخل الوجدان الثّقافي للقبائل، مُستغلةً في ذلك الحزازات البربريّة تجاه القومية العربية، التي أضرّت بخصوصيتهم البربريّة، ولغتهم المازيغيّة–حسب الشحن الفرنسي، الأمر الذي تجسّد بوضوح في المزاج الفكري والنفسي للبربر وساهم في تشكيل ما يُعرف بالقضية البربريّة، وذلك منذ اليوم الأول لحصول الجزائر على استقلالها. ولكن أغرب ما في القضية البربريّة في ثوبها الحقيقي الفرنسي "أنّ المستعمر الفرنسي نجح في خلق حالة الرفض القبائلي ضد كلّ ما هو عربي أو إسلامي ليس لصالح البربريّة أو الأمازيغيّة وإنما لصالح الفرنكوفونية؛ ولذا أصبح أبناء القبائل هم عماد ما يُطلق عليه في الجزائر اسم (حزب فرنسا) الذي بات يعبّر عن تيار اجتماعي وثقافي وسياسي مضاد للتيار الجزائري العامّ".

إنّنا متحفّظون من علاج المسألة اللّغوية من قبل غيرنا، وبخاصّة عدو الأمس وهذا بسبب تلك الحكومات التي لها الكثير من التّسامح المُخلّة بالوَحْدة التّراتبية اللّغوية في وطننا، وهذا في ما تطبّقه في إطار مُغلق مُناقض لهُويتنا الإسلامية وربّما أفهم ذلك؛ فهو ردّ فعل لتصرّفات الطرف الآخر، طرف إقصائي للمازيغية. وكان لا بدّ من مُعالجة شمولية للمسألة اللّغوية، بالتّركيز على القواسم المشتركة التي تجمع مُكوّنات الوطن؛ باعتماد الشّرعية التّاريخية والجغرافية والدينية والسّياسية، فالآن هناك معارك على مستوى المُساواة اللّغوية: التّرسيم، ووضع المؤسّسات. فلا نريد من المسألة اللّغوية أن تكون مسألة مساومة، بل لدينا لغتان وطنيتان تتكاملان ولا تتصادمان، والأحرى أن يقع التصالح الثقافي المؤدّي إلى إنزال كلّ لغة حسب التراتب والوظيفة الاستعمالية.

ويبدو لي بأنّه لا بدّ أن نحتاط من مخاطر الفرنكفونية التي لا تزال تبحث لها عن مكان، أو إثارة النّعرات اللّغوية عن طريق التّفرقة بين لغات البلد الواحد، وهذا معهود فيها. حيث توظّف في هذا المجال كلمة (البربر) وتُلصقه بالتّسمية العربية لساكنة شمال إفريقيا، على أنّها مَعَرَّة ومَهانَة ومَذلّة، وتربطها بمصطلحها "البربار

Barbares التي عند الرومان، وتعني الأجلاف والحقيرين والذين لا يقيّدهم القانون وأنّ الرومان ينعتون بها سكان شمال إفريقيا لأنّهم لا يتكلّمون لغتهم، وليس لهم درجة النّضج والتّرقي فقالوا: Barbarus ولكن لها مداليل أخرى من مثل إطلاقها على كلام غامض[1]". ويقول اللّسانيون: "إنّ كلمة البربر في معناها اللاتيني Barbare أو Barbarus أطلقها الرومان على كلّ من لا ينطق الرومانية. وهي كلمة مثيرة للسّخرية والضحك... نجد لسانياً إسبانياً وهو أنطونيو نبريخا Antonio Nebrija يقول: يمكننا أن نطلق اسم Barbar على كلّ الأجانب عن لغتنا ما عدا اليونان واللاتين"[2]. علماً أنّها في تراثنا اكتسبت قيمتها التّاريخية، فتطلق على ساكنة شمال إفريقيا، ولا تحمل أيّ مضمون تحقيري، والشّائع أنّها تطلق على الأجانب والشّعوب الأقلّ حضارة، كما أنّ كلمة (البربر) موجودة في تسميات أماكن عديدة في السودان وسورية ومقديشو ومصر... وهذا دليل على وجود بشر في تلك المناطق التي تُطلق عليها كلمة (البربر) وقد ربطت الكلمة بين الموقع الجغرافي والسّاكنة. والبربر كلمة شرقية قديمة، ومن الكلمات التّاريخية ذات الدلالات الكثيرة، وليس مثلما يقول Louis Rinn في كتابه: Les origines berbères, études linguistiques ethnologiques من أنّ أصولهم أوربية جرمانية، ويقول ستيفان كزيل Sthéphane Gsell "باستثناء البونيقية لم يتكلّم الأهالي سوى اللّغة اللّيبية متفرعة إلى عدة لهجات لم ترقَ إحداها إلى لغة الدولة على عهد الملوك النوميديين والموريين. فسيفاكس ومسنيسا وخلفاء هذا الأخير تبنوا البونيقية لغة رسمية، كما سيتبنى ملوك البربر في العصر الوسيط اللّغة العربية"[3]. وهناك من كتبها بالعربية (البربار) وليس (البربر) ولهذا يترجم

1ــ ينظر: محمد المختار العرباوي، البربر مشارقة في المغرب. المغرب: 2012، المطبعة والوراقة الوطنية الداوديات بمراكش.

2 − J Louis Calvet , La guerre des langues, p 64.

3 - Histoire ancienne de l'Afrique du nord. Ed : librairie Hachette et C Paris : 1914, 2 eme ed ; p 93.

عنصرية لغوية يونانية أو لاتينية. ومن وراء هذا يتناسون كلّ الثقافات والاستعمار الذي عاشته بلاد تامَزْغا في أنّها لم يحصل لها أن استعملت هذه اللّغة البربرية في المكتوب خلال استعمارهم لها، كما لم يستعملْها ملوكُ البربر في دولهم "وكان للثّقافة الهيلينية إذن نفوذها في حواضر الممالك الأمازيغية فـ (سيفاكس) ملك نوميديا الغربية، ومع أنّه تأثّر إلى حدّ ما بتقاليد اليونان السّياسية... وكانت لغة الحياة اليومية والتّخاطب في مملكته هي الأمازيغية وكانت لغة المكتوبات الرّسمية هي الفينيقية، وكانت لغة الثّقافة هي اليونانية ولعلّ اسمه هو المقصود في ما كتبه (ابن خلدون) عن أصل البربر إذ قال: إنّ جدّهم (سفك) يعزّز هذا الرّفض أنّ بلوتارخوس Pletarkhos زعم شيئاً من هذا القبيل. ومسنيسا (الأكليد) الشّهير ملك نوميديا الشّرقية، بل ملك نوميديا المُوحّدة في ما بعد، كان يوناني الفكر والذوق والوجدان، وقد تجلّى كلّ ذلك في:

"1 ــ حمّله النوميديين على عبادة آلهة يونانية مثل الإلهة سيرس Céréces و(ديميتير) و(قورية) مضفياً على معتقدات الأمازيغ مسحة أسمى وأقرب إلى المدنية؛

2 ــ حرصه على أن يتلقّى أبناؤه تربية يونانية، فنال أحدهم (مستعنبل) جائزة كبرى، وتوّج آخر في العيد الذي يقيمه الإغريق للآلهة (أثينا)؛

3 ــ تجميله عاصمته (سرتة) بأن بنى فيها قصراً لاستقبال الأجانب وخاصّة الموسيقيين الإغريق؛

4 ــ سعيه أن يكون نظام الحكم وراثياً بموجبه تكون الخلافة للابن الأكبر كما هو الشّأن بالنّسبة لممالك اليونانية"[1]. وهكذا بقيت البربرية/ المازيغية لغة شفاهية على مرّ العصور لضحالة مُعجمها، ولم تكتشف إلاّ في عهد الوندال على يد كاتب

1ــ ميلود التوري، الأمازيغية والفينيقية –وبينهما العبرية واليونانية– ط1. الرباط: 2009، مطبعة نت، ص 105.

روماني فولجونس Fulgence الذي حدّد حروفها الأبجدية في 23 حرفاً؛ وكان هذا إيذاناً باكتشاف بعض النّقوش المكتوبة باللّيبية القديمة".

ولهذا علينا الانتباه إلى مواطن الاشتباه التي لا تزال تُخلق في هذه المسألة بأنّ الفرنسية تريد البقاء، وهي تعمل على خلق النّخب والهيمنة. وأما البربرية لا تزال في حكم اللّغة الأُحْفورية، فتتدرج باستحياء في سيرورة صحوة لا تكاد تظهر بوادرها، فهي لغة مُتشظية إلى لهجات تعيش إكراهات ورهانات كما أنّ وزنَها الحالي مُعطّل، فلا تصمد في الصّراع اللّغوي، وهي مُهدّدة بالانقراض لهشاشة ناطقيها، وبفعل احتكاكها بالعربية؛ وهي أقوى منها لما تحمله من دين واستعمال. ولكن لا يعني هذا التخلّي عنها، أو عدم العمل على تطويرها، بل يدفعنا هذا للقول: إنّه يجب الاهتمام باللّغات الوطنية دون النّظر إليها من باب الأصل أو الفرع أو المقارنة البينية؛ لأنّه ليس سهلاً أن تضعَ اللّغات الوطنية في سلّة واحدة، بل هي ليس من العلمية، فكلّ لغة بما تحمله من حمولة سياسية وثقافية وحضارية.

ومع كلّ ذلك، فإنّه لا يجب نكران بأنّ البربرية/ المازيغة تشكّل الإرث الكبير للدُّول المغاربية، فقد ظهر الاهتمام بها في العقود الأخيرة، وما صاحبَها من صحوة من السّاكنة والطبقة المركزية. وإنّ الدّولة الجزائرية التي أولتها منذ سنة 1994 المقام الذي تستحقّها، بل أنزلتها في الدُّستور **لغة وطنية** يعني **لغة رسمية**، وهذا ممّا يُسجّل على عودة الوعي الوطني، بعدم الإقصاء لطرفٍ وطنيٍ هو ميراثُنا جميعاً. ومع ذلك فهي تعيش حُكم الانتقاص المؤسّساتي، مع ما تُمثّله من لغة الأجداد، ولكن في الإطار المُشترك للعُرُوبة، باعتبارها:

"1ــ إنّها مُعطى تاريخي تضرب جذورُه في أعماق التاريخ والحضارة المغاربيين؛

2ــ إنّها تشكّل عنصراً أساسياً في الثّقافة والإرث المشترك بين كلّ مُكوّنات الوحدة الوطنية بلا استثناء؛

3ــ إنّها تمثّل إحدى الرّموز اللّغوية والثّقافية والحضارية للشّخصية الوطنية؛

4ــ إنّ النّهوض بها ركيزة في مشروع المجتمع الديمقراطي الحداثي التي تتطلّع إليه الدول المغاربية؛

5ــ إنّ العناية بها مسؤولية وطنية؛

6ــ وأخيراً فإنّه يتعيّن أن تنفتح الأمازيغية على العالم المعاصر لتحقيق شروط ازدهارها وديمومتها"[1].

وإنّه آن الأوانُ للخروج من المسألة اللّغوية، والابتعاد عن طرح أسئلة الأصالة ومن أكون، ومن الأصيل، ومن الدّخيل... ومن خطاب الإلغاء والإقصاء لطرف العروبة، وهو ثابت من الثّوابت، فالأحرى بنا الخروج من خطاب إحياء السّلف الصالح، وإسقاط الماضي على الحاضر، واجترار بقايا القبيلة، والمغالاة في تمجيد خصوصية النّموذج التّاريخي واللّغوي؛ وهو نوع من التّعاطي العَدَمي مع التّاريخ والسّياسة والطوباوية، ونزعة البحث عن شرعية تاريخية مغلوطة. فلا مجالَ للمزايدة لأنّ المسألة اللّغوية تهمّ المجتمع المغاربي الذي فصل في المسألة منذ قرون، ولا يمكن الاستمرار في التّعاطي مع المسألة اللّغوية بالمنظور الضيّق فالمسألة تستدعي الثّبات على الماضي المكتسب، وهو ماضي التّعايش، ماضي فِقْه المصالح المُرسلة؛ لأنّ أمامنا صُعوبات أكبر من هذه المَسائل التي تُطرح بعد فوات أوانها، فنحن بحاجة إلى التّوفيق بين حاجيات العولمة وإكراهاتها، وبين مُستلزمات الحفاظ على الهُوية الثّقافية، بحاجة إلى الوقوف على مَكْر الخصوم لردّ الاعتبار بحاجة إلى الوقوف على نفس التّجاذب الحضاري دفعاً لكلّ انتحار حضاري، فيجب التّنبيه إلى خطورة نعرات عدوّ الأمس؛ بتأجيج النّزعات اللّغوية والقبلية، والدّفع بمشاريع التّجزئة، وهذه عملة السياسة الفرنكفونية في دفع المغاربة للعيش في بُؤَر افتراضية بدعوى المحافظة على الهوية اللّغوية، لتجدَ الفرنسيةُ نفسها البديلَ اللّغويَ

1ــ أحمد بوكوس، مسار اللّغة الأمازيغية، تعريب: فؤاد ساعة. الرباط: 2012 منشورات المعهد الملكي للثّقافة الأمازيغية، ص 3031.

المفضّلَ، ونعرف أنّ بعض خطابات بعض المازيغيين البربريين يتحاملون على كلّ ما هو عربي، ويسكتون عن كلّ ما هو فرنسي، ولذلك يقدّمون صورة مُشوّهة للفتح الإسلامي، ويُمجدّون الرّموزَ الوثنيةَ القديمةَ من مثل: ماسينيسا/ يوغرطة/ نوميديا/ يوبا/ الكاهنة/ كُسَيْلة... ويسكتون عن طارق بن زياد/ يوسف بن تاشفين/ المهدي بن تومرت/ المختار السويسي/ عبد الحميد بن باديس... إضافة إلى تهميش الخطّ العربي، وإقصاؤه مقابل الاهتمام بالخطّ اللاتيني على اعتبار أنّه عالمي، وليس له مضايقات تقنية، ويتناسون بأنّ لكلّ لغة خطّها الذي يميّزها، وإلاّ ما الداعي إلى البحث في إحيائها والعمل بها لتذهب إلى سلة الحرف اللاتيني، فهل تنتمي إلى الحضارة اللاتينية؟ كلاً، وهل تقبل بها الحضارة اللاتينية؟ كلا، إذاً، حصل ما حصل من أجل أن تعودَ المازيغية إلى بلادها، وتكون لغةً وطنيةً، فأن تتميّز وأن تكون اللّغة المازيغية مُنضوية تحت اللّغات العُروبية، وهذا هو الحقّ والصواب فيكفينا تمييعاً للقضايا التي هي مِنْ فِتَن التاريخ. ونعلم أنّ فرنسا لم تكن تعمل لصالح البربرية، بل سعتْ لِفَرْنَسَة دُوَل المغرب، ومنعتْ المازيغيةَ من التّداول.

وفي وقتنا الحالي؛ لا يجب أن نبقى في تهميش المازيغية/ البربرية، بل علينا العملَ على أن تنالَ مَحلَّها التّراتبي، ما دام أنّ تعلّمَها إضافةٌ وزيادةٌ، فلا يدخل في النّقصان، كما أنّ تعليمَها في المدارس لا يُنقِص من العربية في شيء، وبخاصّة وأنّها اللّغة الوطنية، فليس من المشكل بتاتاً أن يعرفها المغاربة، ويقول أحمد بوكوس: "إذا سلّمنا بأنّ اللّغة الأمازيغية لغة وطنية وأنّها تعبّر عن مُكوّن أساسي للهُوية الوطنية، وأنّ تعلّمَها حقّ غير قابل للتصرّف حينئذ يصبح إدماجها في التّعليم فَرْضاً خاصاً على أساس الوعي والمسؤولية، وهذا الإدماج قابل لتصوّرات مختلفة، والتّصوّر الذي أقترحه يرتكز على أربعة مبادئ: **التّعميم والإجبارية**

والشّمولية والتّوحيد[1]". وإنّ الإقرار بالمازيغية لا يُدخِل البلدَ في الحرب، فكيف لم تحصل الحرب في وقت القمع اللّغوي، وفرض الرأي الواحد، وفي الفتح الإسلامي فكيف يُقتل المغاربة أو الجزائريون بمجرد أن يعترف بعضنا ببعض، فكيف نقتتل بعد ترسيخ المساواة، **بل إنّ الاعتراف بالمازيغية هو تغيير في الذهنيات؛ لأنّ المازيغية ليست مجرّد لغة، بل هي قيَم ثقافية تتميّز بنزعتها الإنسانية، وبميْلها للحرية والمساواة والكرامة. إنّ المازيغية المنشودة هي تلك المنظومة الهُوياتية المستقلّة عن الفرنسية، وعن الخطّ اللاتيني، فهي تلك اللّغة المتجدّدة في بلاد تامزغا، وهي المُحدّد المَركزي لهُوية بلاد المغرب العربي، ومظهر خصوصيته الحضارية، وقد تفاعلت مع مُكوّنات العربية والإسلام، فأنْعِمْ بها من لغة!**

ويمكن إجمال ما قلناه، بأنّ الفرنكفونية بكلّ خلفياتها الإيديولوجية آلية من آليات **التّعالي اللّغوي**، والاستحواذ على لغات الشّعوب المُستعمَرة وغير المُستعمَرة، وإنّ الفرنكفونية انبثقت من هذه الإرادة ومن الرّغبة في تهيئة سياسة تسعى إلى تقارب الشّعوب لغوياً، وهو شعار تتّخذه ظاهرياً فقط، أو هو الطابع الثّقافي المؤسّس لتبعية لغوية واقتصادية، تبعية للغة الأنوار التي أضحت آلةً قمعية تفرض على الدُّول الإفريقية؛ حيث تقدّم نفسها أنّها صورة نموذجية للحضارة المعاصرة. ونعرف أنّه على الصَّعيد المستقبلي للفرنكفونية تعمل على تأخير الوضع الاقتصادي الإقليمي فلا مستقبلَ لها إذا كنّا ندري أنّها تعمل على تأخيرنا وتخلّفنا علمياً واقتصادياً ونعرف بأنّ هذا القطب يفقد جاذبيتَه، ولا مكانَ له في الطابع المعاصر في عالم العولمة. ويجب الاعتراف بأنّ الفرنكفونية وجه من أوجه الاستعمار المعاصر؛ استعمار مقنّع بالثّقافة العالمية؛ ويقصد بها الفرنسية التي تتهاوَى عالمياً، ونحن نعمل على رَفعها قبل الفرنسيين.

1ــ "الأمازيغية والمنظومة التّربوية" مجلة نوافذ. المغرب: 2002، عدد 17-18 يتناول (المسألة الأمازيغية في المغرب) ص 75.

8 ـ الفَرْنَسَة La francisation

وهي شكلٌ من أشكال الهيمنة الفرنسيّة في جانب الاستحواذ على العُقول والأقلام، وقد تجسّدَ هذا قديماً في اختيار أولادِ الحُكّام، وأولادِ شيوخ القبائل، وأولادِ الباشاوات والباشاغوات، وأولادِ أصحاب النّفوذ، وكلٍّ من يُحَسُّ فيه الميلُ إلى فرنسا، بأن تعمل فرنسا على تدريسهم في فرنسا فقط، وتأخذهم في زيارات إلى البلاد الغربية، حتى يتشبّعوا بالحضارة الغربية، وينسوا هُويّتهم، إن لم تأخذ عيّنات منهم، ويتمّ تزويجُهم بالفرنسيات؛ كي تقطعَ تواصلَهم مع أهاليهم ومع محيطهم، بل وتقطعهم عن عقيدتهم، ولذا يقع التّركيزُ على التّعليم، وقد أفلحت في ذلك في كثير من الحالات، هذا من جهّة، ومن جهّة ثانية فالفرنسية تعني مسخ الهُويات الوطنية الظاهرة في: الأسامي وفي الألقاب وفي تسميات الأماكن، وفي تغيير المعالم، وفي تنغيم أصوات الأسامي، وكلّ ما يُؤدّي إلى المَسْخ والإلغاء والقلْب والتّشكيك. وهذه مسألة جدُّ خطيرة لِما لها من نسيان الماضي، والقطيعة معه، ومن ثمّ سهولة التّوجيه؛ حيث تصبح بلا هُوية ولا تاريخ، فماضيك مَنسيٌ، وحاضرك مُبكيٌ، وهذا فعلُ الفرنسة الخطير.

La conquête française de l'Algérie fut longue et progressive. Jusqu'en 1962, la colonisation a enraciné le français qui y a conservé une certaine influence. En effet, certains mots employés par les Algériens sont d'origine française, alors que ces mêmes mots ont leur équivalent berbère ou arabe, en usage avant la colonisation de l'Algérie par la France. Le français est extrêmement répandu : avec près de 16 millions de locuteurs (47 % de la population), l'Algérie est le deuxième plus grand pays francophone au monde après la France.

ses positions. Elle ne veut surtout pas se faire influencer par cette organisation. Cela en plus de fait que des considérations internes pèsent dans cette attitude. Puisque les partisans de l’arabisme

dénoncent à chaque fois le rapprochement entre l'Algérie et les pays de l'espace francophone[1].

بالفعل، إنّ فرنسا تعتمد على **فرنسة اللّسان** حتى يتمّ التّحكّم في الإنسان، وكما يقول (هوارد ويلفسن) الرّئيس الأسبق للجامعة الأمريكية ببيروت: "إنّ التّعليم في مدارسنا وجامعاتنا هو الطّريق الأمثل لزعزعة عقيدة المسلم وتخليصه من قبضة الإسلام عقيدة وحضارة وتقليداً وثقافة. أو كما يقول كبير شياطين المبشّرين في بلاد الشرق القسّ (إسحاق زويمر): أنا لا أهتمّ بالمسلم كإنسان، بل أريده مَسْخاً لا يصلح لشيء في هذه الحياة سوى شهوته ونزواته في حكايات الأندلس. قصّة سمعتها قبل خمسين عاماً من مُدرّس التّاريخ. نقول هذه القصّة حين بدأ الوهن والخلاف يدبّ في أوصال دولة المسلمين في الأندلس، أرسل (بابا روما) كاهناً في صورة تاجر ليستطلع واقعَ المسلمين في بلاد الأندلس، وعندما عَبَرَ هذا الراهبُ جبالَ البرانس، شاهد غُلاماً مُسلماً واقفاً تحت شجرة وهو يبكي، فسأله الراهب: هل فقدتَ عزيزاً عندك، أم أساءَ واحدٌ إليك؟

فقال الغلام المُسلم: لا هذا ولا ذاك، فَحَارَ الراهبُ وسأله: فلماذا تبكي إذن؟

فقال الغلام: لقد أردتُ أن أصيدَ عصفورين كانا فوق هذه الشّجرة بسهم واحد؛ غير أنّي أصبتُ واحداً فقط، بينما طارَ الآخرُ، وأخشى إذا هاجَمَنا الفرنجةُ أن لا أقتل منهم الكثير بسبب هذا الإخفاق، وهذا الفشل.

فرجع الراهبُ إلى البابا، وقصّ عليه قصّة هذا الغلام، فأرجأ الغزو، ثمّ بدأ التّفكير في طريقة أخرى، ولم تكن هذه الطّريقة سوى الغزو بالنّساء والشّهوات والخمر... وكان ما كان، ووقف آخر ملوك المسلمين بالأندلس يلقي نظرة وداع على مُلكه الضائع، وهو يبكي فقالت له أمّه: ابكِ، ابكِ مُلكاً مُضاعاً لم تُحافظ عليه

1- See more at: http://www.algerie-focus.com/blog/2012/10/algerie-et-francophonie-je-taime-moi-non-plus/#sthash.k10eRF3A.dpuf.

مثلَ الرِّجال[1]". وهكذا نرى مَضمون أو وسيلة استعباد الذي يكون عن طريق اللّغة وأخواتها، وهذه هي الاستراتيجية القديمة الحديثة التي تتّبعها فرنسا في الاستعباد عن طريق الفَرْنَسَة. ويتواصل هذا الاستعباد في هذا العصر عن طريق زَرْع المراكز الثّقافية، وتمجيد الفرنسية، والتّقليل من شأن اللّغات الوطنية، وترشيح العلمنة في التّسيير المحلي، وتشويه التّاريخ الوطني، والتّقليل من قيمة التّراث وتشجيع كلّ ما هو خُرافي...

وكما ترون، فإنّ أهمّ نقطة يقع التّركيز عليها هي تمديد الفرنسية خارج وطنها فكلّما امتدّ وجودها اللّغوي في الخارج كلّما قويت شوكة حدودها وتناسلت ومسّت مختلف القطاعات. ونعرف أنّها عملت على فرض لغتها بالقوّة، وجعلتها **فرض عين** على بعض المتسامحين معها، أو السّائرين في فَلَكِها، ومنعتها عن عامّة النّاس؛ لأنّهم من القطيع الذي يُساق بسهولة من النّخبة المُعدّة للحُكْم، وإن لم يفعلوا فسوف يمتدّ إليهم عصا الردّ إلى الطّاعة.

ولقد كانت الفرنسيةُ هي المشروع الثّقافي الذي يجعل السّيطرةَ مُمكنةً فعندما يتمّ التّحكّم في العقول، تأتي ثمرات البلاد بلا عقود، وكيف يحصل ذلك؟ يحصل عن طريق المشروع الفرنكفوني القديم وهو تصدير الفرنسية للخارج، والعمل على بقائها في البلاد المستعمَرة، وهذا مشروع وطني بارز خَطّطَ له الفرنسيون منذ زمان "كانت الفَرْنَسَة Francisation المشروع البارز الساعي إلى فرض اللّغة الفرنسية كلغة أمّ، على ألسنة المُستعمرين، وذلك انطلاقاً من عقائد الإيديولوجية الاستعمارية المترسّخة والقائمة في نوع من القياس تقدّمه كمقياس ضروري

1ــ عبد الودود شلبي "الهُوية الإسلامية جذور المُشكلة وتطوّرها" أعمال ندوة. ليبيا: 1430 من ميلاد الرسول/ 2000 إفرنجي، أعمال ندوة (التّاريخ الإسلامي وأزمة الهّوية) منشورات جمعية الدعوة الإسلامية العالمية، ص 341.

تاريخياً وصحيح منطقياً، وهو العرب قوم غزاة متسلطون وبلاد البربر جبلت على الخضوع والتبعية، فإذن لا محيد عن الاحتلال الفرنسي ذي الرّسالة الإنقاذية التّثقيفية، وبالتّالي لا محيدَ عن فَرَنَسَة المجتمع المدني والمرافق الحيوية فيه[1]". وإنّ **التاريخ عبرة**، فكيف ننسى بأنّ فرنسا في الجزائر عاثتْ فساداً في شيوخ العربية فما أكثر المُعلّمين الذي يُساقون إلى المحاكم الفرنسية لمُحاكمتهم على أنّهم من الخارجين عن القانون، وقد اقترفوا جُرْماً كبيراً بتدريسهم اللّغة العربية في بلاد ما وراء البحر (الجزائر) فعملت ما وَسِعَها الجهد على قلع المجتمع الجزائري من لسانه بالسّيف والقوّة والسّجن، وسعياً لفرنسة الألسنة والعقول "تمّ إبعاد اللّغة العربية من الإدارة، وفرض الفرنسية كلغة رسمية في جميع الميادين، وتشجيع استعمال اللّغة العامية في الكتابة والمدارس. وكلّ هذا من أجل تحطيم اللّغة العربية التي كانت بالنّسبة للفرنسية بمثابة الصّخرة والعدو الحقود اللّدود على حدّ تعبير الدكتور عبد المالك مرتاض[2]". ومع كلّ ما قامت به من أجل محو شخصية هذا الوطن فإنّها لم تنجح، وخابت مَساعيها، بظهور جمعيات ونوادي تنادي بضرورة التّمسّك بالأصالة وباللّغة العربية، فلا بديلَ عنها أبداً، وهذا فِعْل تبنته جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، ودافعت عنه بقوّة، وعملت على بناء المدارس، ونشر العربية، واستصدار الصحافة... وبذلك غرست في الشّعب الجزائري الوعيَ بلغته وبأصالته. ومع كلّ ذلك فإنّ سياسة فرنسا المستعمرة لم تتوانَ في تغريب التّعليم

---

1 ــ إدريس الكتاني، ثمانون عاماً من الحرب ضد الإسلام واللّغة العربية. الرباط: 2000 منشورات دار الفكر الإسلامي. مقال: بنسالم حميش "الفرنكفونية.. ضد الفرنسية" ص 198.

2 ــ بشير فايد "جمعية العلماء المسلمين الجزائريين ودورها في إحياء اللّغة العربية والثّقافة الإسلامية 1931–1956" كتاب المؤتمر. دبي: 2015، المؤتمر الدولي الرابع للغة العربية رقم 5، ص 74.

في شكله الأساسي، وعملت لتنشئة أجيال جديدة مقطوعة الصلة عن تاريخها واهية الولاء لدينها وحضارتها وثقافتها. ويزداد تركيزُها على التّعليم؛ لأنّها تعرف أنّه الحامض أو السّائل الذي تذوب فيه شخصيةُ المسلم؛ كي يتحوّلَ بعد ذلك إلى هباء تذروه رياح العلمنة والفَرْنَسَة والكفر، وهذا ما حذّرنا منه العلاّمة (محمد إقبال) **ولم نعتبر!** فالعدو بالأمس لا يتوانَى ولا يهدأ، بل يترصّد الوقتَ المناسبَ ليكشفَ عن غطائه، وهذا ما تستعمله فرنسا المُعاصرة؛ وهي عدو الأمس، فإنّها لم تستسغ خروجَها القهري من الجزائر، ولذا تتدخّل في احتواء الشّباب؛ بمنحهم مِنَحاً قصيرة/ طويلة المدى، وتحتاج إليهم في الوقت المناسب، بل تتدخّل لدى الدُّول التي استقلّت بأن تُبقي اللّغة الفرنسية لغة أجنبية أولى، بدل الإنكليزية، وإن استعْصَى عليها ذلك تتدخّل في تعيين وزراء التّربية والتّعليم/ وزراء المعارف.

وما نشهد لفرنسا أنّها ما خرجت من بلد من البلاد التي استعمرتها إلاّ وتركت فيه سوستها النّخرة التي تعمل على التّهاوي والرّكوع، تركت بعض أهاليها مُستعدين للتّضحية من أجل بقاء الفرنسية لغة التّعليم، ولغة البحث. وأما اللّغات الوطنية فتلصق بها كلّ نقيصة، فلا يجب أن تأخذ مكانها إلاّ بفعل المُجاهدين والمُخلصين لأوطانهم الذين يعرفون خبايا المستعمر الفرنسي فينجحون في البداية باستئصال لغتهم، كما استأصلوه كلّية ليحصل التّقدم ويكون الاستقلال مُتكاملاً.

وهذا ما يُلاحظ اليوم في طلابنا الذين لا يتكلّمون العربيّة في الجامعات إلاّ إجابة لسؤال أستاذ اللّغة العربيّة، علماً أنّ الفرنسيّة والفَرْنَسَة ما كان لهما حضور قبل استقلال الدّول المغاربيّة، وما كان لهما قوّة إلاّ بعد ظهور الدّول الوطنيّة. وكما قلنا سابقاً، بأنّ الأخطر من هذا نجد في الجزائر فَيْلَقاً من الإعلام الفرانكفونيّ الخطير والذي تجاوزت يومياتُه 53 جريدة في مقابل الجرائد العربية 69 في الجزائر مثلاً، فالميزان اقتربَ للمساواة بين اللّغتين في الوقت الذي تنصّ عليه

مراسيمُ إنشاء اليوميّات/ الأسبوعيّات بغير العربيّة أن يكون لصالح الجاليّات الأجنبيّة، فهل نملك هذا الجمهور الأجنبيّ الذي يقرأ كلّ هذا العدد؟ بالفعل نملك جمهوراً من القُرّاء؛ وهم من المواطنين الذين تختمر فيهم الفرنسيّةُ، وتفعل فعلَها النّوعي، وهذا من أثر وسائل الإعلام التي تبثّ قنوانها بشكل مُتواصل كلّ ما يُمجّد الفرنسيةَ، وهي لغة العلم، ولغات الشعوب النامية لا طائل من انتظار النتائج منها. فالفرنسية وأمثالها من اللّغات العلمية لها السّبق، فلا تقدّم المحليات إلاّ التّقليد والنوعية الرديئة. أليس كلّ هذا بسبب الإعلام الذي يزرع فينا صورَه وسمُومَه أليس في هذا عداء ومبالغةٌ وخروجٌ عن المألوف؛ حيث نجد العددَ المهولَ من اليوميات والأسبوعيات والفضائيات تبثّ افكارها باستمرار، وهذا يعني وضع غير حقيقي بالنسبة إلينا، ونستنكره، ولكن بالنسبة لفرنسا هو وضع جيّد؛ وضع تشجيع المدّ الفرنكفوني، ويحمل في ذات الوقت **علامة تنخيب المجتمع**. علماً أنّ هذا عملٌ خطيرٌ، ألا يمكن أن يُولِّد انفصاماً بين ولَدَيْن من أسرة واحدة بسبب الخلاف اللّغويّ؟ عنف خطير، وعنف فرنكفوني متميّز، ونحن عنه سكوت، ولم تعمل الإصلاحات التّربوية على تقديم الوصفات اللازمة لتلاميذنا في الاستفادة من اللّغات الأجنبية، لا الانغراس فيها.

وبالفعل، هنا نطرح ملفّ الإصلاح التّربويّ الذي لم يعمل على تحديد **العُنف الفرانكفونيّ** الذي يريد إخضاع كلّ سّاكنة الجزائر لمنطق لغته فقط وهذا نوع من التّجريد من المواطنة اللّغويّة؛ يجرّد الجزائريّين من لغتهم، ويهدم ثقافتهم المحليّة. وفي الحقيقة فإنّ الفرنسيّة استأسدَتْ بعد استقلال الدّول المغاربيّة، وأضحت عندنا إيديولوجيّة لتحقيق مصالح أجنبيّة واقتصاديّة بغرض الإلحاق والسّيطرة، أليس هذا نوع من أسباب الأزمة؛ أزمة في اللّغات الوطنيّة، أزمة في التّعليم والإدارة

والاقتصاد؛ أزمة حقوق لغويّة مغيّبة ودستور لا يُطبّق، أزمة في خطاب مُعلن وسياسة مُخالفة مُبطّنة... فإلى أين المصير، **وهل نعتبر؟**

وفي باب الفرنَسَة يستظهر البعضُ ورقة **ضرورة تعلّم اللّغات الأجنبيّة** وهو حقّ أُريد به باطل في بلاد المغارب؛ لأنّ معيار اللّغات الأجنبيّة عندنا يتمثّل فقط في تعلّم لغة ڤولتير Voltaire/ لغة خطيئة الاستعمار/ لغة غنيمة الحرب... في الوقت الذي أصبحت فيه السّوقُ العالميّة للغات أكثر تنوّعاً. فنحن والجميع يُدرك بأنّنا لا ننظر للعالم إلاّ من خلال اللّغة الفرنسيّة فقط واللّغات الأجنبيّة عندنا تجمعها اللّغة الفرنسيّة وكفى. والغريب أنّنا نتشبّث بالفرنسيّة وهي مَحصورة ومُهدّدة في بلادها ولا ينطق بها من أهلها إلاّ (160) مليون من أهلها بشكل دائم، وبشكل جزئيّ أو مدرسيّ يصل العدد إلى (500) مليون من ساكنة العالم ينطقونها في أجزاء مُتقطّعة، وفي ميدان الإعلام خاصّة. ولكن في زمن العولمة أصبحت مُهدّدة بالقوّة في بلادها من اللّغة الإنكليزيّة التي تُسيطر على كلّ القنوات، وعلى مجال الإعلام والمال والصّناعة. فالفرنسيّة تنتحر يومياً في بلدها، وفي المُستعمرات القديمة، بفعل الدّعوات إلى الاهتمام باللّغات القوميّة، والتّخلي عن الفرنسيّة على اعتبارها لغة أجنبيّة، ودعوة قائمة ضدّها في دولة كندا، فهناك مواجهة ضد الفرنسيّة ولكن في بلداننا –نحن المغاربة– عازمون على إنقاذها بدل خوض غمار العولمة؛ باختيار لغة العالم (الإنكليزية) لغة أجنبيّة مُعاصرة. وهذا ما ترفضه النُّخبة الوطنية التي تزيّن لصاحب القرار سوءَ فعلها، بأنّ الفرنسيّة بخير وعلى ما يُرام، ويقولون: ما يُقرأ في الإعلام، أو ما يُشاهد ما هي إلاّ فقاعات المُعربّين، وترى النّخبة بأنّ الانتماء إلى العالميّة مَرهون باللّغة الفرنسيّة وينسون بأنّ الانتماء للعالميّة بما يبدعه الإنسان بلغته وفي لغته.

ودون التّفصيل، فإنّ الفرنَسَة شكلٌ من أشكال الاستعمار اللّغويّ الذي يُضفي التّخلّف على اللّغات الأمّ، وهذا طريق من طرق إشعال حرب اللّغات La guerres des langues، وفرنسا لا تريد أن يكون لنا استقلال ثقافيّ ومشروعها القضاء على هويّة شعب ما وراء البحار؛ وهو أن تعلّمه بغير لغته وأن تجعله تابعاً عقلياً، وتخلق فيه فئات تختلف في آرائها؛ ليكون للغة المستعمِر (الفرنسيّة) مقام يُحتَكَم إليها. وبكلّ هذا تُظهر فرنسا غايتَها في استثمار الموروث اللّغويّ الاستعماريّ، وفي مراعاة البعد التّوسّعيّ والمصلحة الخاصّة لفرنسا، وما زالت تدير عجلات التّنميّة والتّوجيه، وهذا ببقاء لسانها الذي يزداد انتشاراً، على الرّغم من مشاريع التّعريب. والهدف من كلّ هذا هو الاغتصاب الثّقافيّ واللّغويّ تحت غطاء **عِلميّة الفرنسيّة** Scientificité de la langue française الذي ترفعه نخبة المُطاولة، وتسكت عن فِعْل فرنسا المانعة للاختراق الثّقافي، وفرنسا التي لا تمضي على وثيقة التّبادل الثّقافيّ الأمميّة، وتقبل فقط بالخصوصيّة الثّقافية دَرْءاً لكلّ دخيل على لغتها وثقافتها، كما لا ترضى بالازدواجيّة في بلدها، **فهل تعتبر نخبتنا؟**

نخبتنا تقبل بما تقوم به فرنسا من **الحَجْر/ المنع** على اللّغات الوطنيّة وتَحُولُ دون النّهوض باللّغة الوطنيّة الرّسميّة في بلاد المُستعمِر القديم، وبمعيّة تلك النّخبة/ البِطانة التي تزيّن لها سوء فِعْلِها، نجحت فرنسا في تخطيطاتها ولذا نجد الصّراع اللّغوي ما يزال قائماً منذ ما يقرب من ستّين (60) سنة من عمر الاستقلال في دول المغرب العربيّ، صراع بين نخبتيْن وطنيتيْن، وخلقت بينهما جبالاً فاصلة، وبهما تعمل على محاربة توسّع الإنكليزيّة في بلاد المغرب العربيّ. ونخبتنا لا تُدرك أنّ من وراء هذا **عُنْف فرانكفونيّ يريد إخضاعَ كلّ السّاكنة لمنطق لغته فقط**، وهذا نوع من التّجريد من المواطنةّ ولا فرقَ بين ذلك الاستعمار

الذي نزعَ أملاكَ النّاس، ونَهَبَ خيراتِهم، وهَتَكَ أعراضَهم، وأبطَلَ دينَهم، **فهل تعتبر النّخبة؟**

إنّ باب الفرنَسَة يُفتح ويُشّرَع علانيّةً في بلاد المغارب إلى اشتراط إتقان الفرنسيّة في التّوظيف، وذلك موت غير مُعلن للغات الوطنيّة، فنتجت عن ذلك وضعيّة استصغار اللّغات الوطنيّة بفعل سكوت الدّولة عن تصرّفات مُمثّليها في الإدارة، وعن تلك القرارات الرّمزيّة باسم الدّولة، وهذا ما يُلمس في مُمثلي دولنا في الخارج من اشتراط إتقانهم الفرنسيّة، دون اشتراط التّحكّم في العربيّة بل واشتراط على ممثلي الدّول الأجنبيّة إتقانهم الفرنسيّة في المقام الأوّل. كما أنّ في التّعيينات المحليّة والخارجيّة لا يُنظر إلى **المعرّب** مهما أُوتيَ من قوّة لغويّة في العربيّة، بل التّأشيرة هي الفرنسيّة دون غيرها من اللّغات الأجنبيّة. وهذا عبارة عن تَلَف تدريجي للغات البلد، ولا تقوم به الأمم الحيّة، ونحن نعلم بأنّ إتقانَ لغة البلد فَرْضُ عين، وليست فَرْض كفاية، أليست أمثال هذه التّصرّفات غُربة لغويّة أو منفى في الوطن المغاربي، وطن التّشظّي والتّماهي في لغة الفرنسي. وهذا كلّه يدخل في خطورة الفرنَسَة التي لا ترتاح ولا ترفع السّلاح حتى تحقّق مشاريعها التّوسعيّة بارتياح، وتجنّد أرمادتها للوصول إلى فرنَسَة العالم، وبذا نجد الفرنسة تسير بتؤدّة مضمونة، وعبر الزّمان الطّويل ولدينا تجربة في (Bruxelles) التي كانت إلى غاية 1960 تستعمل الفلامانيّة فقط، وبفعل المهاجرين من شمال إفريقيا تفرّنست عاصمة بلجيكا، والآن تُستعمل الفرنسيّةُ وحدها في المحيط، وفي الإدارة تستخرج الوثائق باللّغتين: الفرنسيّة+ الفلامانيّة، وهذه فَرْنَسَة وحشيّة تجعلها مُسيطرة ورائدة على غيرها من اللّغات، **فهل نعتبر؟**

نجحت سياسةُ فرنسا في فَرْنَسَة بلجيكا، وإبعاد الفلامانيّة (القريبة من الألمانيّة) بفعل دهائها الاستعماريّ، وجعلت السّاكنةَ أمام الأمر الواقع، فماذا تفعل السّاكنةُ

أمام عقدة شبكات العنكبوت التي تجعلك مقيّداً "... حيث تحوّلت 1993 من (مملكة بلجيكا) إلى دولة اتّحاديّة، تضمّ فلاندرا في الشّمال، وفالوبيا في الجنوب آل فلاندرا الفلامانيّة (الألمانيّة) وأهل فالوبيا يتكلّمون الفرنسيّة وما بينهما حرب كانت يوماً باردة، ولم يمضِ عليها عقد ونصف حتى اشتعلت. فقد اندلعت في مُنتصف عام 2008 معركةٌ سياسيّةٌ كادت تؤدّي بالدّولة البلجيكيّة الفيدراليّة إلى التّفكّك، وكان مدارُها أنّ ذوي الأصول الفلامانيّة قد ضغطوا على القيادة السّياسيّة كي تعجلَ بالإصلاحات التي تُخفّف من سطوة الحكم المركزيّ، وتعطي لسلطة الأقاليم صلاحيات إجرائيّة نافذة، على رأسها تشكيل جديد للتّوازن اللّغويّ بين الفرنسيّة والفلامانيّة[1]". ويجب العلم بأنّ الفَرْنَسَة قهر استعماري قديم، وهي سليلة الحروب الصليبية على البلاد العربية، وقد جاءت في مبدأ أمرها لنشر فضائل الخير والرّفاه والحضارة ولما تمكّنت في البلاد العربية عملت على:

1 ــ تركيز الاختلافات.

2 ــ إبقائهم على الجهل واللاوعي.

3 ــ تقوية ديكتاتورية الحكّام.

4 ــ الإبقاء على عدم أمن الطرق.

5 ــ الإبقاء على حالتهم اللاصحية.

6 ــ الإبقاء على الفوضى بإظهار الإيلام دين عبادة فقط.

7 ــ العمل على تعميق تدهور الاقتصاد.

8 ــ إلهاء الحكّام بالفساد والخمر والقمار وتبذير الأموال في الأمور الشّخصية.

---

1 ــ سلمان بونعمان، النّهضة اللّغويّة وخطاب التّلهيج الفرنكفوني في نقد الاستعمار اللّغويّ الجديد حالة المغرب، ط1. لبنان+ السعودية: 2014، مركز نماء للبحوث والدّراسات، ص 49.

9 ــ إشاعة أنّ الإسلام احتقرَ المرأة[1]".

وبالفعل، فإنّ الفرنكفونية لم تعمل إلاّ على إحياء النّعرات القبلية، وضعف الصلة بين المسلمين وعلمائهم، والتشكيك في لغاتهم، وبثّ الجمود في دينهم وعدم صلاحيته للعصر. وهذه خُطط جهنمية من قبل فرنسا للإبقاء على نفوذها في المحافظة على الجهل واستنزاف خيرات البلاد في إسناد التّسيير إلى غير أهله والعمل على نشر الفوضى كي تكون هي الحَكَم.

يجب أن نُقرَّ بالحقيقة؛ بأنّ النّخبةَ المثقّفةَ بالفرنسية تُراهن عليها الفرنكفونية لتوطيد الفَرْنَسَة Francisation في الجزائر، في الوقت الذي تتقهقر الفرنسيةُ في عقر دارها، ويقول أحد منظري الفرنكفونية "من الضروري أن نصل إلى وضع تكون فيه اللّغة الفرنسية هي لغة النُّخبة، وأن تكون اللّغةُ الفرنسية هي لغةُ الخطاب في المحافل الدولية، وأن ندعوَ إلى ازدواجية اللّغة في المغرب العربي؛ تجعلنا وجهاً لوجه مع اللّغة العربية فقط. أما الازدواجية في أوربا فاللّغة الإنكليزية تستطيع أن تحلّ محلنا ولهذا ندعو إلى تعدّد اللّغات... ويجب أن نحدثَ الانطباعَ بأنّ اللّغة الفرنسية هي لغة العلم والتّقنيات". وما يمكن استنتاجه بأنّ مخطّطات فرنسا تمويهية تصعب على غير النبيه الانتباه إليها وبخاصّة عندما تموّه ذلك بالعلمية والمشاريع... هي مخطّطات لها الكثير من المخاطر، فالأجدر بنا أخذ المحاذير.

نعم للغة الفرنسية التي تُعطي العلم فقط، وعلينا الحذرَ من الفرنكفونية التي لا تزال تُخاطب شرائح مُتعلّمة من هذا الجيل الجديد، وتعتمد على ترويج **الإبدال اللّغوي المعاصر**، ولا يكون إلاّ بهجرة اللّغات الوطنية. علينا الحذرَ من إدارة

1ــ عبّاس الجراري "أسباب تقدّم المسلمين وتأخّرهم من خلال تقرير جاسوس بريطاني في أوائل القرن الثامن عشر" مجلة الأكاديمية. الرّباط: 2008، منشورات الأكاديمية الملكية المغربية، العدد 25، ص 89.

الأزمات الوطنية من منظور إعادة النّظر في صلاح اللّغات الوطنية في مجال العلوم، أو في صلاحها من عدمه في إدارة أوضاعنا. علينا الحذرَ في المسارات الوطنية كي لا نقع في معسكر الفرنكفونية تابعين مفعولين علينا الإفادةَ منها والابتعاد عن شرورها، وعلينا اتّخاذ موقف عملي ضد التّبعية اللّغوية.

إنّ تعلّم اللّغة الفرنسية واللّغات الأجنبية أكثر من ضرورة، ولكن لا يجب أن تطغى هذه اللّغات على اللّغات الوطنية، وعلينا الابتعاد عن العَمَى اللّغوي للفرنسية التي أعطينا لها الحظوة الكبرى على لغاتنا، وعلى اللّغات العلمية المتقدّمة عليها بالقوّة والفعل، ولم تعطنا شيئاً، فلم نلمس المنتوج العلمي المقابل للمُعطى المادي الكبير الذي أُنفق عليها منذ الاستقلال إلى الآن، فما تقدّمنا بها، ولا أخرجتنا من التّخلّف.

9 ـ السّياسة اللّغويّة الفرنسيّة خارج فرنسا

إنّ فرنسا لها سياسيّة لغويّة علميّة، ولها تخطيط مُستقبلي طويل النّفس فهي لا تنظر حَتْفَ أنفها، بل ترمي الشّبكة، وتصبر طويلاً لتنالَ كثيراً، فمنذ أن انتشرتِ الفرنسيّةُ خارجَ حدودها، ومنذ المُزاحمة اللّغويّة التي تُلاحقها من الإنكليزيّة، تعمل بِطُولِ النّفس على تحقيق شعار فرنسا الحضارة، بلغة الحضارة، وفرنسا لا تكون إلاّ باللّغة الفرنسية، ويقال: لولا الفرنسية ما كانت بلاد فرنسا، ففرنسا هي الفرنسية وهي الإشعاع العلمي والعالمي.

ومنذ ذلك الوقت حمل الفرنسيون شعار تنظيف الفرنسيّة من تلوّث الإنكليزيّة فأقاموا ملتقيات لتطهير الفرنسيّة من الدّخيل الإنكليزي على الخصوص، ويكفي أن يعرفَ القارئُ بأنّ بلد فرنسا أقام ملتقى خاصّاً لمحاربة كلمة واحدة دخيلة واحدة وهي (Week-end) كما بذل ما وَسِعَه الجهدُ في محاربة ما ليس ينتمي إلى ثقافته وعَمِلَ على مَنْع كلّ وسائل الإعلام التي تُذيع الخبرَ أو الأشرطة إلاّ وتكون التّرجمة الفرنسيّة مُصاحبة، كما تعمل فرنسا دائماً على أن يبقى الإشعاعُ للغة الفرنسيّة وحدها، ويكون لها أتباع خارج حدود فرنسا؛ أي ما وراء البحار، ولهذا يُخطِّط هذا البلد وِفْقَ منظومة سياسيّة، وبتجنيد دينيّ وعسكريّ وماليّ وعلميّ؛ بغية نشر الفرنسيّة، أو إثارة القلاقل اللّغوية في البلاد المستعمَرَة للاحتكام في الأخير إلى الفرنسيّة. ويمكن أن نظهر سياسة فرنسا الوحشية تجاه لغات البلاد التي استعمرتْها، فهي سياسة تحقيرية بَشِعَة لا تُراعي أدنى احترام للغات الوطنية، وما يهمّها هو التحكّم في الآخر؛ من خلال لغتها فقط، وإليكم بعض النّماذج:

1/9ــ تشجيع الازدواجيّة اللّغويّة: في الحقيقة إنّ مسألة الازدواجية مَطروحة على أكثر من صعيد، فمبدؤها كان في الجانب السّياسي؛ حيث كانت فرنسا تشجّع تلك النّخبة المغاربية والمشرقية التي كانت تتبنّى أفكارها، وبالفعل استطاعت

استقطابَ فئة علّمتها لغتَها، وأصبحت تُنادي بها، وتراها هي لغة كلّ التّابعين. وفي بلاد المغارب يمكن أن نقول: إنّه ظهرَ تياران في هذا الجانب:

ــ **تيار فرنكفوني:** وهو تيار تشبّع عند فرنسا، واهتمّ فقط باللّغة الفرنسية وأصبح يدعو إلى الاندماج والتّماهي مع فرنسا، ويرى بأنّه هو الحلّ الأمثل؛ وهذا التيار بالنّسبة للجزائر يرى بأنّ التمسّك بالفرنسية يعني الحفاظ على كرامة الجزائريين من خلال إحداث مساواة مع الفرنسيين، ومعظم أصحاب هذا التّيار نخبة مُتشبّعة بالثّقافة الفرنسية: حَفْناوي ــ شَرْشالي ــ ابْرِيهْمات ــ بَدْوِي... ويضاف إليهم مجموعة من النّخبة المعاصرة من أمثال: معمري+ تسعديت+ ياسين+ جغلول+ ديب+ فرعون+ جبّار...

ــ **تيار وطني:** يتمسّك بالأصالة التي لا علاقة لها بفرنسا، ومشروعه المحافظة على القيَم الوطنية، ورفض الانصهار في فرنسا، ويقولون" لسْنا من فرنسا، ولا نكون منهم، ولا يمكن أن نلتقي معهم، فهم ليسوا منّا، ونحن بريئون منهم... ويعتمدون وسيلتي: الإسلام واللّغة العربية: ابن باديس ــ الإبراهيمي ــ العقبي ــ محمد العيد آل خليفة...[1] وهذان التّياران كانا على صراع سياسي كبير إلى غاية اليوم، وهي نوع من الازدواجية الفكرية التي لا يزال يظهر في:

ــ الصّحافة المكتوبة بالفرنسية مقابل الصّحافة المكتوبة بالعربية؛

ــ قانون الأسرة؛

ــ إصلاح التّعليم؛

ــ التّاريخ ورموزه؛

ــ تجميد قانون تعميم استعمال اللّغة العربية.

ــ عدم مواصلة تعريب التّعليم العالي؛

---

1 ــ أمّ الخير تومي "ازدواجية النّخبة في الجزائر، النّخبة الإعلامية كمثال" مجلة مركز دراسات الوحدة العربية. بيروت: 2013، منشورات مركز الوحدة العربية عدد (الجزائر إشكاليات الواقع ورُؤى المستقبل) ص 216-217.

ــ زحزحة الفرنسية من السّنة الرابعة إلى السّنة الثانية.

ــ التراجع عن بعض المكتسبات في التّعريب.

وهكذا ترون؛ بأنّ فرنسا الحضارة، أو فرنسا الفرنكفونيّة ترفع شعار تشجيع الازدواجيّة في العالم، وبخاصّة في ميدان التّربية والتّعليم، ولكن لا يكون في فرنسا، كما ترفع شعارَ التّبكير في تدريس اللّغات الأجنبيّات، ولكن يقع **الحَجْر** عليها في فرنسا، فهي تُؤخّر تدريس اللّغات الأجنبيّة إلى أن يتمكّن التّلميذُ الفرنسيُّ التّحكّمَ في آليات اللّغة الأم (الفرنسيّة) كما تشجّع فرنسا التّعدّد اللّغويّ خارج بلده ودون ضابط، ولكن في فرنسا تضع قائمةً بلغات أقطاب مُنتقاة؛ ويتدخّل فيها وَلِيّ التّلميذ؛ فهو الذي يُوجّه ابنَه إلى اللّغة الأجنبيّة المطلوب دراستها كلغة أجنبيّة أولى أو ثانية... تُشجّع فرنسا تدريس اللّهجات، **ولكن ليس في فرنسا، فهل نَعْتَبِرْ؟** هذا هو خطاب فرنسا المُغلّف بوجه بريق وكأنّي به مُلاكم يضع كرة حديد داخل قفاز مُغلّف. ففرنسا لها خطابان:

2/9 ــ ظهور خطابين مختلفين: إنّ فرنسا تعمل بخطابين مُختلفين:

1/2/9 ــ خطاب المراسيم والقوانين على اعتبارها دولة ديمقراطيّة جمهوريّة تَحترم حقوقَ الإنسان، وتُراعي حقَّ الأقليات... ولا يمكن أن ننكر ذلك، وهذا خطاب ظاهر جليّ ترفعه في الدّاخل والخارج، مثل الحقّ في الاختلاف مهما كان نوعه: لغوي ــ ديني ــ فكري... وفي مجال الازدواجيّة/ التّعدّدية نجد الخطاب الرّسمي ينصّ على ذلك بأنّ فرنسا تجمع بيــن كونها أوربية ومتوسّطيّة وفرنكفونيّة، فتلك هي العناصر الثّلاثة التي تُشكّل هويّتها. لذلك يرى (ألان ديكو Alain Decaux) وهو كاتب ووزير أنّ الهُويّة المستقبلية لأوربا ستكون تطبيق

الازدواجيّة والتّعدّديّة اللّغويّة[1]". وهذا هو المُفترض، ولكن هل يحدث هذا في خطاب التّطبيق؟

2/2/9ــ خطاب التّطبيق: وهو خطاب لا يحصل في المُقدّس اللّغوي الذي رسّته القوانين، وأنّ الإجماع الفرنسيّ لا يقبل بالخطاب السّطحي، ولن يرضى بالتّراجع عما سطّره السّلف بخصوص الفرنسيّة التي لا تعلو عليها لغة داخليّة أو تنافسها.

ومع هذا التّناقض في الخطابين؛ نرى الفرنسيين يقول: علينا أن نُعلنَ الحربَ على الإنكليزيّة؛ لأنّها تُهدّد التّعدّد الثّقافيّ، علينا أن ندافع عن التّعدديّة اللّغويّة والثّقافيّة، والتي هي ضروريّة لا بالنّسبة إلينا، بل بالنّسبة للعديد من الفعاليّات العالميّة، ولكن هذا كلام فقط. ففرنسا تُصرّح بالتّعدّد اللّغويّ الذي معناه هيمنة اللّغة الفرنسيّة، وهذا ما يُصرّح به (Jean Louis Calvet جان لُوِي كالفي) "... إلاّ أنّ السّياسة اللّغويّة للفرنكفونيّة يبدو أنّها تتجاهل اللّغات الموسومة بـــ (لغات الشّركاء) وتضرب بمبدأ التّعدديّة اللغويّة المصرّح به في أماكن أخرى عَرْضَ الحائط، وعدم الاحتفال بمنزلة اللّغات في التّنميّة عندما يتعلّق الأمر بالفرنسيّة في إفريقيا، وأنّ المبادئ المُصرَّح بها في السّياسة الفرنسيّة (التّعدديّة اللّغويّة بأوربا، والحوار بين الفرنسيّة ولغات الشّركاء في الفضاء الفرانكفونيّ وفي دفاعها عن التّعدديّة في اليونسكو ليست في أغلب الأحيان؛ لأنّ استراتيجيتها تقوم على الدّفاع عن الفرنسيّة، وإن كانت لا تجهر بذلك)[2]". وهكذا نرى بأنّ فرنسا تمنع تدريسَ اللّهجات في بلدها مهما كانت ولكن ترغب أن يكون ذلك في مُستعمراتها القديمة، كما تعمل الآن في توجيه تلاميذ الجاليّات العربيّة إلى تدريس العربيّات المحليّات: لهجة

1ــ ينظر: جريدة Le Monde لو موند مقال: Europe et le défi des langues أوربا وتحدّي اللّغات. بتاريخ: 14 سبتمبر 1989.

2 ــ جان لوي كالفي، السّياسة اللّغويّة، تر: محمد يحياتن، ط1. لبنان: 2009، الدار العربيّة للعلوم ناشرون، ص 121ــ122.

الجزائر ــ لهجة المغرب ــ لهجة سورية ــ لهجة القبائل ــ لهجة ميزاب ــ لهجة صعيد مصر... بدلَ أن يقعَ تدريسُ العربيّة الفصحى، ولا نستغرب هذا في بلاد فرنسا السّاحرة؛ فهي لا تريد لنا إلاّ الشرّ، ولا تزال تفكّر بمنطق السّيد، ونحن العبيد. وإنّ فرنسا بتعليمها هذه اللّهجات لها أهداف بعيدة، ونوايا غير مُصرَّح بها لمُحاربة العربيّة؛ لأنّه بتعليم العربيّة في فرنسا يتعلّم الفرنسيّون الإسلام ويتبنوْنَه ومن ثمّ تأخذ الفرنسيّة في النّكوص[1]. ولكن لماذا نحن نقبل تعليم الفرنسيّة في بلادنا، ولا نُعادي الفرنسيّة كلغة علم، بل نُعادي طريقة فرضها على المجتمع على أنّها اللّغة الأولى، وهي اللّغة الرّسميّة، فهي تنافس اللّغات الوطنيّة، نرفض الهيمنة ولا نرفض اللّغة الفرنسيّة كلغة، وهذا ما تساهلتْ فيه تلك النّخبةُ الدّاعمة للفرنكفونيّة، ويبدو لنا أنّها ضليعة في الحساب، وهي مُنتفعة في ذاتها، وتُساعد فرنسا على التّحكّم فينا لغوياً. نخبتنا مُصطعنة غارقة في مصالح شخصيّة، لا تنظر إلاّ للمنافع الجيبيّة، تتنكّر للشّأن العامّ ولا يهمّها ما هو هامّ.

ولا ننكر أنّ من بعض الفرنسيّين النّزيهين من يُصنّف هذا في **عنف اللّغة الفرنسيّة**، أو هي ازدواجيّة مُتوحشّة Bilinguisme sauvage مثلما قال (چلبير گرانگيوم) في كتابه: اللّغة والسّلطة والمجتمع في المغرب العربي[2]. هذا الباحث الذي اشتغل أستاذاً في الجزائر، ثمّ في المغرب، فَهالَهُ أمر الازدواجيّة التي فرضتها اللّغة الفرنسيّة، وسمّاها (الازدواجيّة المتوحشّة Le bilinguisme sauvage) وترفعها فرنسا في بلاد المغرب العربيّ، فيرى بأنّ هذا نوع من اللّيبيراليّة المتوحشّة المُعتديّة على الحقوق اللّغويّة لشعوب المغرب العربيّ التي تتوق للتّعريب، وبين ما هو تُخطّطه فرنسا من نشر النّمط الفرنسيّ

---

1 ــ عبد العلي الودغيري، كتاب مُترجم عنوانه: الفرنكفونيّة والسّياسة اللّغويّة والتّعليميّة الفرنسيّة بالمغرب. وهناك كِتاب يقرب لهذا لــ (جود فروي Demonbynes ديمونبين) موسوم L'œuvre française en matière de l'enseignement.

2 ــ ترجمه محمد أسليم، وصدر سنة 1994 عن منشورات الفارابي بمكناس. المملكة المغربيّة.

وقد تكون أخفّ لو كانت مُتكافئة في إطار Diglossie كما قال اللّسانيّ (Charles Ferguson) عند حديثه عن اللّغة العُليا، وهي الفصيحة (المعيار) واللّغة الأدنى وهي الدّارجة (غير المعيار) وهذا موجود في واقعنا ولا نعاني منه مشكلة كما هو موجود في واقعنا المغاربي ما يقرب لهذا من وجود اللّغة العربية بلهجاتها والمازيغيات بلهجاتها، وتعيش في هدوء ولم تحدث الحروب اللّغويّة بينها. وقد يقبل البعض بالازدواجيّة لو تحصل بين لغة وطنيّة قابلة للإحياء، ولغة أجنبيّة يُستفاد منها، والمتعلِّم يقبل بالازدواجيّة حتى يتحكّم فيها لدرجة الانتقال بينهما بصورة عفويّة وفي نفس المستوى. ولكن ما كان يحدث هذا في المغرب العربيّ طغيان الفرنسيّة على اللّغة العربيّة، في الوقت الذي ترفع هذه الشّعوب حركة التّعريب. ويرى هذا الباحث (گرانگيوم) بأنّ هذا الفعل هو نوع من إخضاع هذه الدّول بالقوّة الفكريّة والاقتصاديّة، وهو تفكيك النّظام القبليّ الوطنيّ، وفي ذات الوقت هو صدّ وسدّ منيع لقطب الكومنولث، وهذا الأخير أخفّ من الفرنكفونيّة؛ لأنّه يأتي على الموارد الطّبيعيّة، بينما قطب الفرنكفونيّة هو زرعٌ لفكر كولونياليّ يبقى عالقاً لسنوات، وهو نوع من الخضوع والطّاعة. ويقول: إنّ الطّرح الدّيمقراطيّ هو البديل، وهو اليوم أكثر إلْحَاحاً من أيّ وقت مَضَى، نظراً لما تُشكّله الخصوصيّات اللّغويّة المَحليّة. ومن الأهميّة بمكان إقامة النّضال ضد الغزو الثّقافي الفرنسيّ للعودة إلى الهُويّة المحليّة. كما نقرأ دراسة هامّة للباحث التّربويّ أحمد المعتصم[1] الذي يقول: إنّ الازدواجيّة اللّغويّة في: المغرب والجزائر وتونس فشلتْ فشلاً ظاهراً، ولها أضرار كبيرة، وهي لا تتعدّى الأشكال الأكاديميّة، فهناك صعوبات في التّعلّم، ممّا خلق صراعاً بين العربية الفصحى واللّغة الفرنسيّة؛ مشيراً إلى قضيّة المثاقفة من باب الاستعمار اللّغويّ، ولا تحمل الفعل التّربويّ، والثّقافة الفرنسيّة هي الرّابحة، وغايتها ترسيخ الثّقافة الغربيّة في عقول المغاربة، مع نمط

1 ــ Arabisation et langue française au Maghreb, un aspect sociolinguistique des dilemmes du développement. Puf 1993.

من التّفكير والسّلوك النّفسيّ العدائيّ، ويقول: إنّ الازدواجيّة تمزيق لشخصيّة المُتعلِّم، ومرض يسبب في تفكّك ثقافيّ، وتخلق عوارض وشكوك ووضعيات صعبة في التّواصل بين المجتمع الواحد. بالفعل لأنّ الازدواجيّة في مفهوم واضعي الكتاب المدرسيّ المغربيّ يعني استعمال اللّغة الفرنسيّة كلغة أجنبيّة أولى وثانيّة كما توضّحه الأسهم التّاليّة:

ــ اللّغة الأجنبيّة الأولى ←——— الفرنسيّة.

ــ اللّغة الأجنبيّة الثّانيّة: ←——— الفرنسيّة.

ويعني هذا غياب اللّغات الأجنبيّة الأخرى، وفي ذات الوقت يعني توظيف آليات الفرنسيّة كما هي في برنامج فرنسا، كي يخرج المُتعلّم مَقوداً بحكم ما يُرسّخه البرنامج من هُويّة فرنسيّة، ومن تاريخ خاصّ بمفهوم الفرنَسَة، فلا يُطعّم بثقافة البلد الذي يستعمل الفرنسيّةَ.

ومن خلال هذا لا نُفهم على أنّنا ضدّ الازدواجيّة العلميّة التي تعني التّعدّدية اللّغويّة والثّقافيّة؛ فهي ظاهرة موضوعيّة فرضت نفسها عبر التّاريخ. والجزائر والمغرب بَلَدان لهما التّعدّديّة اللّغويّة الوظيفيّة دون مُشكل مَطروح بين اللّغة الرّسميّة واللّغات الوطنيّة، فلا هيمنة للغة على أخرى، وإنّما هناك توزيع مَهام بصورة عفويّة موروثة، فساكنة البلدين (الجزائر+ المغرب) يتواصلون عبر نظاميْن لغوييْن مُنسجميْن، وأنّ لكلّ لغة "... بنيات صوتيّة وصرفيّة وتركيبيّة ومعجميّة، تجعل منها أنظمة تواصليّة لها استقلاليتها البنيويّة والوظائفيّة في تفاعلها وتواردها وتنافسها عبر تعامل وتفاعل الفاعلين الاجتماعيّين، ومن خلال مُختلف أدوارهم في المجتمع[1]". وذات الشّيء كائنٌ في المَظاهر الثّقافيّة الرّمزيّة اللاّماديّة.

1ــ أحمد بوكوس "التّعدّد اللّغويّ الثّقافيّ والتّنميّة البشريّة" مجلة الأكاديميّة الملكيّة المغربيّة. الرباط: 2006، عدد (الوطن والمواطنة وآفاق التّنميّة البشريّة) سلسلة (ندوات) ص 121.

وهو نوع من الانسجام اللّغويّ مثل الانسجام الجمعيّ. فنحن ننشد ازدواجيّة علميّة فما هي؟

3/9 ــ تشجيع التّلهيج: ولا نغادر الحديثَ عن الازدواجيّة التي تنشدها فرنسا فبعدما لعبتْ على وتر التّحكم في أكثر من لغة عن طريق تبني (الازدواجيّة) في مفهومها الخاصّ، ها هي تعود الفرنكفونيّة لمسألة الازدواجيّة في ثوب الدّعوة إلى تنبّي اللّهجات العربيّة، وتبيح كلّ العمليات من أجل أن يحصل التّلهيج في المغرب خاصّة، بدعوة بعض النُّخبة الرّاكعة لقبول هذا الرأي الصّادر عن أمّنا فرنسا. وهكذا في وقتنا المعاصر أخرجت بطاقة اللّهجات، والدّعوة إلى تعزيز مكانة الدّوارج، والتّرويج لها في البلاد المغاربيّة، ورفع أنصارها قميص عثمانها؛ بالدّعوة جهاراً في المملكة المغربيّة إلى ترسيم اللّهجات بتسويغ ما يلي:

ــ "الدّارجة لغة الهُويّة؛

ــ الدّارجة هي اللّغة الأصليّة؛

ــ الدّارجة هي لغة التّواصل؛

ــ تهميش الدّارجة يناقض مبدأ الديمقراطيّة؛

ــ الدّارجة مدخل لحلّ أزمة التّعليم؛ لأنّ الطّفل لا يتعلّم إلاّ بلغته الأصليّة (مناهضة سياسة التّعريب)؛

ــ الدّارجة تأكيد على الخُصوصيّة المغربيّة تجاه المشرق والمغرب؛

ــ الدّارجة ستُسهم في الحدّ من التّطرّف والتّعصّب[1]".

وهذا بيان أكيد على فشل الفرنكفونيّة التي غيّرت خطابها، وهي لا تدري أنّ:

ــ الدّارجة دوارج؛

ــ الدّارجة لا تحمل العِلْم والحضارة؛

ــ الدّارجة مستوى بسيط لخطاب التّواصل المحدود؛

---

1 ــ سلمان بونعمان، النّهضة اللّغويّة وخطاب التّلهيج الفرنكفونيّ، ص 89.

ــ الدّرجة مستوى أدني من الفصيحة؛

ــ الدّارجة تمزيق ودعوة إلى التّخلّف؛

ــ الدّارجة إشعال حرب الهُوتُو (لغة ڤولتير)+ حرب التُوتْسي (لغة شكسپير) بمعجم عربي خليط. فإلى أين المصير؟

ــ الدّارجة خطاب فرنكفونيي هذا الزّمان، خطاب رجعي مُغْلق، خطاب التّخلّف اللّغويّ والثّقافيّ في ملامح الثّقافة الغربيّة؛

ــ الدّارجة خطاب الدّعوة إلى المزج اللّغويّ: العرنسة = عربية + فرنسيّة. الدارجنسيّة = دارجة+ فرنسيّة؛

ــ الدّارجة خطاب يدعو إلى التفكّك القيميّ والتّمييع اللّسانيّ ولا استقرار عربيّ؛

ــ الدّارجة افتراس لغويّ جديد، وهيمنة فرنسية على المغرب العربيّ وهو استعمار ثقافيّ من نمط الدّيپلوماسيّ.

ــ الدّارجة خطاب تعميق الشّرخ والاغتراب عن العربيّة في أوطانها؛

ــ الدّارجة تجسيد لمبدأ الفرنكفونيّة بأنّها آلة حربيّة تُساعد فرنسا على الاحتفاظ بمستعمراتها وبالتّبعيّة العمياء. **فهل نعتبر؟**

ومن هنا، نجد أنفسنا أمام مَصائب وعقبات جدّ كبيرة، يصعب الخلاص منها وإذا أمكن لا يكون إلاّ بعد أجيال وأجيال، فما العمل؟ ونرى في هذا المجال الخطوات التالية:

ــ تشجيع الازدواجيّة المنشودة: كما قلنا في البدايّة؛ نحن لسْنا ضدّ الازدواجيّة إذا كانت مُتوازنةً وعلميّةً، فإتقان المرء لغةً أجنبيّةً ضرورة لازمة وبخاصّة للباحثين الأكاديميّين، فكما يقول صفي الدّين الحلي:

بقدر لغاتِ المرءِ يكثر نفعُـــــه فتلك له عند المُلمّات أعــوانُ

تَهَافتْ على حفظ اللّغات مُجاهداً فكلُّ لسانٍ في الحقيقة إنســانُ

وانطلاقاً من التّعريف العلميّ للازدواجيّة، فهي استعمال لغتين أو أكثر في مواقف متباينة تقتضيها الضّرورة دون طغيان لغة على لغة أخرى. وفي ميدان التّربيّة والتّعليم هو استعمال لغتين لتوصيل المعارف، وهو مُحبّذ شرط ألا تحصل الهيمنة أو الازدواجيّة الفكريّة التي تنتقل بدورها إلى العِدائيّة. وهذا ما يتمثّل في تلك الازدواجيّة الآحاد، وهي ضارّة، وهي الازدواجيّة الفئويّة "وهي التي تؤدّي فيها السّياسة التّربويّة والتّعليميّة في بلد معيّن إلى خلق فئات لغويّة تصل إلى درجة الطّبقات بعد استفحالها، وهي أن تُوجّه فئة تتقن اللّغة الأجنبيّة مثل أصحابها وتجهل اللّغة الوطنيّة جهلاً يؤدّي إلى مُعاداتها (على اعتبار أنّ (مَنْ جَهِلَ شيئاً عاداهُ) كما يقول المثل العربيّ) أو الفئة التي لا تعرف إلاّ اللّغة الوطنيّة. وينتج عن ذلك ردُّ فعلٍ حتميٍ من طرف الفئة التي لا تجيد اللّغة الأجنبيّة؛ حيث تقف بالمقابل موقفاً عدائياً من الفئة الأولى[1]". والازدواجيّة المنشودة هي المتوازِنة؛ حيث يحصلُ التّحكمُ في اللّغات المُستعملة في النّظام المدرسيّ بنفس المستوى، ويحدث الانتقال بينهما بصورة طبيعيّة، دون أن تحمل الواحدة العداء أو الإلغاء للأخرى، أو أن تدخل الواحدة الضّيمَ على الأخرى، والشّيء الجيّد في الازدواجيّة هو أنّ مُزدوج اللّغة يمتلك "نظاميْن لسانييْن يمنحان الفرد القدرة على التّغيّير السّريع للغة التي يستعملها ممّا يقود إلى تغيّير لزاويّة النّظر. وإنّ بإمكاننا أن نتوسّم في منتوج اللّغة مُرونةً فكريّةً أكثر نمواً من التي يمتلكها أحادي اللّغة[2]". كما أنّ الازدواجيّة المنشودة/ المرغوبة هي تلك الازدواجيّة الإيجابيّة؛ والتي تعني معرفة للغة الوطنيّة

---

1 ــ أحمد بن نعمان "الازدواجيّة اللّغويّة في البلدان العربيّة بين الضّرورة الحضاريّة والخطورة المذهبيّة" عدد (اللّغة العربيّة أسئلة التطوّر الذّاتي والمستقبل) بيروت: 2005، مركز دراسات الوَحْدة العربيّة، ص 130.

2 ــ الشّاذلي الفيتوري "الازدواجيّة اللّغويّة والازدواجيّة الثّقافيّة في الوطن العربي" تر وتلخيص: رشيد بناني، مجلة الوَحْدة. الرّباط: 1989، المجلس القوميّ للثّقافة العربيّة، العدد 61ــ62، ص 86.

معرفةً كاملةً، والإتقان التّامّ للّغة الأجنبيّة؛ بحيث ينتقل المُتحكّم في اللّغتين (المزدوج) بشكل جيّد، وهذا الانتقال يكون مُؤطّراً **بوعي التّقديس للّغة الأمّ** ولا أثر للازدواجيّة السّلبيّة التي تكون الكلمةُ الفَصْلُ للّغة الأجنبيّة. ويضاف لذلك أنّه يخلو الاستعمال اللّغويّ من القهر؛ وتلك صفة جدّ مَرغوبة أو ضروريّة أحياناً؛ لأنّها تغني المُتعلّم، وتوفّر للمجتمع مَنافع كُبرى اجتماعيّة واقتصاديّة، وتُساعد على تَجاوز الوطنيّة الضيّقة، وفي كلّ ذلك يشترط أن تكون ازدواجيّة عاليّة المستوى وغير متفاوتة، ولا تتبنّى مفاهيم غربيّة. وهذه هي الازدواجيّة المطلوبة، ولها منافع لغويّة كبيرة، ونروم أن يكون لنا تخطيط في هذا المجال؛ لنفهم نوع الازدواجيّة التي ترفد لغتنا "أن يكون الفردُ المتعلّمُ في المجتمع عارفاً لغتين اثنتين (اللّغة الوطنيّة واللّغة الأجنبيّة الأولى) معرفة جيّدة؛ بحيث يستطيع استعمال كلتيهما بالدّرجة نفسها، والكفاءة نفسها، وهذا النّوع من الازدواجيّة لا يضرّ بالتّعريب، بل يعتبره إذا رُوعيت فيه الشّروط الأساسيّة[1]". ومن هنا، فإنّ الازدواجيّة في معناها العلميّ أن تكون مقاربة لثقافتيْن مختلفتيْن من حيث الأصلُ والهويّةُ، ولا تكون هناك لغة عاليّة أو لغة ناقصة، وأن تقبل كلُّ ثقافة خصوصيّاتِ الثّقافة الأخرى كما يلي:

ــ الثّقافة الوطنيّة ⟵ الثّقافة الأجنبيّة.

ــ الثّقافة الوطنيّة ⟶ الثّقافة الأجنبيّة

وما ينطبق على الثّقافة ينطبق على اللّغة؛ حيث يحصل التّكافؤ، وعند ذلك يمكن أن نقول: هناك ازدواجيّة مَقبولة.

ــ القبول بازدواجية الوَصْل/ ازدواجيّة الإيجاب، فتكون في ذهن المتعلّم ثقافة بحكم الأصل والانتماء، وثقافة بحكم الاستعارة والتّبنيّ، ولا يحصل الخلاف، رُغم

---

1 ــ أحمد بن نعمان "الازدواجيّة اللّغويّة في البلدان العربيّة بين الضّرورة الحضاريّة والخطورة المذهبيّة" ص 129.

ما لكلّ لغة من عالم خاصّ؛ فالخطاب هو الذي يُعطي قواعدَه ونظمَه، والكتابة أرضيّة انغراسها وانشغالها، فلا مشكلَ يظهر عندما يكون الانسجام اللّغويّ بين ثقافتيْن لا تعملان على الإلغاء، وهل هذا موجود في الثّقافة الفرنسيّة؟

بالطّبع لا؛ لأنّ فرنسا مُرتبطة تاريخياً بالتّوسّع والهيمنة، وهناك تفاوت لغويّ: الفرنسيّة هي الأعلى والأعلم، ولغات المستعمَر فقيرة ناقصة، ومن الضّروري ربطها بثقافة المستعمِر، والمستعمَر مُسخّر لسيّده. ولهذا فمفهوم الفرنسيّين للازدواجيّة غير مفهومنا، **فهل نعتبر؟** وكلّ هذا ليس غائباً في مفهوم الثّقافة الفرنسيّة، لكن لو تأخذ بهذا الأمر ستغيب التّعدّديّة الحقيقيّة، وتظهر التّنميّة البشريّة والماديّة في بلاد ما وراء البحار، ويكون الاستقلال كاملاً وهذا ما ليس في حساب عدوّ الأمس.

ومن هنا فنرى الازدواجيّة العلميّة المقبولة هي التي لا تحمل الإلغاء، ولا تُنافس اللّغاتُ الأجنبيّة اللّغةَ الوطنيّةَ، ولا تُنازعها وظائفها الأساسيّة، وبخاصّة في ميدان التّعليم والإعلام والعمل... وكان عليّ الاحتجاج في هذه المسألة كي يحصلَ الخطابُ في صيغته العلميّة، فالازدواجيّة إذا لم تكن مُحتَكَرة من قبل الأجنبيات فهي مقبولة وإذا وقع الاحتكار، فهنا لا يتنافى ذلك وقيام لغة وطنيّة قويّة مدعومة باللّغات الأجنبيّة، فنحن مع ازدواجيّة تنفي المَيْز اللّغويّ ضمن الإفادة من أدوات اللّغات الأجنبيّة، وتبقى لغات أجنبيّة، وفي هذا المجال يدعو الأستاذ (الفاسي الفهري) إلى تبنّي سياسة لغويّة مُتّزنة، وهي ما دعت إليه منظّمة اليونسكو، ويضع الخيارات السّياسيّة المشروطة سلفاً بطيّ مسألة الاختلالات اللّغويّة، والعمل ضمن خيارات وطنيّة علميّة، وهي:

"أــ ضرورة التّأكيد الواضح لمسؤوليّة الدّولة ومسؤوليّة المجتمع ومسؤوليّة النّخبة في تأهيل اللّغة الرّسميّة، واللّغة/ الأمّ للمواطنين، في مختلف ميادين المعرفة والثّقافة والحياة العامّة، والأنشطة الفنيّة والإعلاميّة والإشهاريّة وغيرها، رعياً للحقوق والقوانين المُتعارف عليها دولياً، ونفياً لكلّ ذرائع تقنيّة وهميّة.

ب ــ الفصل الواضح في مسألة أنْ لا بديلَ للغة العربيّة لغةً وطنيّةً ورسميّة للبلاد لا في اللّغات الأجنبيّة ولا في العاميّات.

ج ــ وضع حدّ للسّياسات المزدوجة القائمة على سياسة صريحة رسميّة (في النّصوص التّشريعيّة) وسياسة ممارسة في الواقع (لا تدعّمها النّصوص الرّسميّة) قائمة على الاستعمال الفعليّ للغة الأجنبيّة الذي يكاد يكون أحادياً في المعاملات الاقتصاديّة أو الإداريّة أو التّعليم العلميّ أو ضمن ثُنائيّة مُنافسة في الإعلام والإدارة والثّقافة مُضيّقة على اللّغة الرّسميّة ومُضْعِفة لها.

د ــ الوعي بأنّ اللّغة العربيّةَ في تنوُّعاتها ومُستوياتها الفصيحة والوسطيّة والدّارجة هي كلٌّ يُمثّل الهُويّة اللّغويّة للمواطن المغربيّ، ولغته الأمّ، والكفّ عن تعميق الفجوة بين الفصيح والعاميّ؛ بغية تبنّي سياسة تلهيجيّة تخلق ازدواجيّةً مُضْعِفَةً للغة الرّسميّة، وتُبعِدُها عن أن تكون لغةَ الحياة العامّة والحياة المجتمعيّة وهذا لا يعني نبذ اللّهجات التي تمثّل رافداً ثقافياً محلياً مهماً، ولكن يعني اتّخاذ سياسة شموليّة للهويّة اللّغويّة، مع مُستويات اللّغة وتيسيرها.

هـ ــ ضرورة تنميّة اللّغة العربيّة في ارتباط بالتنميّة الاقتصاديّة وتنميّة مجتمع المعرفة، بما لا يتنافى وإتقان اللّغات الأجنبيّة[1].

ــ العمل على احتذاء المناويل الازدواجية في حدود النّفعية: وهذا ما هو موجود في بعض دول العالم؛ بحيث يحصل تبادل المنافع من كثير من اللّغات ولا تدخل بصفة مباشرة في الازدواجية. بل يكون ذلك في حدود الانتقال المبدئي إلى أن تنال العربيةُ كلّ المواقع. ولا يعني ذلك أن تنغلق على نفسها والمهمّ في هذه النّقطة أن يحصل ما يلي:

ــ تعريب شامل في المراحل الأولى من التّعليم الابتدائي؛

---

1 ــ عبد القادر الفاسي الفهري، أزمة اللّغة العربيّة في المغرب بين اختلالات التّعدّديّة وتعثّرات (التّرجمة) ط5. ليبيا: 2010، دار الكتاب الجديد المتّحدة، ص 62 ــ 63.

ـــ نيل اللّغات الوطنية محلّها في المرحلة القاعدية؛
ـــ إعطاء الخصوصية للغات العلمية، ولغات العولمة في المرحلة الثانوية؛
ـــ إجبارية تلقي بعض المواد العلمية في المرحلة الجامعية بلغاتها؛
ـــ الاهتمام بالترجمة شكلا وواقعاً.

10ـ تَجْنيد فرنسا للنُّخَب الوطنيّة في البلاد المُستعمَرَة

خرجتْ فرنسا من كلّ مُستعمراتها، ولكنّها تركت من يُدافع عن ثقافتها؛ بتعليم بعض النُّخب الذين أصبحوا كُتّاباً/ مُبدعين أحاديّ اللّغة، يفهمون لغة (الكولون) ولا يفهمون لغتهم الوطنيّة؛ وهم الذين يُقيمون الدّنيا الآن بالدّعوة إلى الانفتاح على الفرنسيّة، ويمدحون كلّ ما يأتي من فرنسا؛ على أنّه انفتاح على العالم، ويدعون بقوّة إلى الازدواجيّة اللّغويّة، ويقولون: إنّها قدرنا وغنيمتنا التي لا تسامح فيها "أنفق كُتّاب آخرون حماسةً في مَدح مَحاسن وحَسنات الازدواجيّة اللّغويّة، وذلك باسم كلمات/ مفاتيح منها: الانفتاح والتّعدّد والاختلاف، وغيرها من الكلمات التي تفتقر إلى وضع المفاهيم المُفكَّر فيها، وتنتهي إلى ذيعانها كشعارات وذرائع بعد أن تسقط في رتابة المُكرُّورات المُمِلّة. أما مَصيرها المُحزن؛ فيظهر في رابعة النّهار عندما يُسَخّرها كُتّاب معروفون بكونهم أحاديي اللّغة، بل أكثر من هذا، لا تربطهم بالثّقافة العربيّة إلاّ خيوط أضعف من خيوط العنكبوت[1]". وهذا ما يُلمس في هؤلاء المُجنّدين أو العَرَّابين المُدلّلين الذين مسّهم الاستلاب اللّغويّ، فلا يشعرون باستقامة حالهم، ولا يتنفّسون الإبداع إلاّ داخل لغة فرنسا، من دون تقديم إضافة إلى لغتهم ولو بالكلمة الطيّبة، فهم الذين يحملون القابليّة للاستعمار، كما تَبَنَّوْا التّبعيّة بكلّ ما تحمله من الخضوع والتّنفيذ ليس إلاّ.

ويمكن تأكيد هذه المسألة؛ بأنّ فرنسا عندما احتلّت الجزائر سمحَتْ لبعض الجزائريين بارتياد مدارسها ليُصبحوا بيادقَ في أيديها، واستعملتهم للسيطرة الفكرية على الجزائريين، بل عاملت بعضهم على غرار الجاليات الأوربية ونظرت للبعض

---

1 ــ بنسالم حميش "في إشكاليّة الهويّة المزدوجة الأدب المغاربي المكتوب بالفرنسيّة نموذجاً" مجلة الأكاديميّة الملكيّة المغربيّة. الرّباط: 1997، عدد (مستقبل الهويّة المغربيّة أمام التّحديّات المعاصرة) سلسلة (ندوات) ص 180.

الآخر بحذر؛ خوف أن يتحوّلوا إلى سلاح ضدّها. لقد كانت فرنسا تُقدّم لأولئك المُتعلّمين مادةً مُمَجِّدةً لكلّ ما هو فرنسي: حضارة وثقافة وتميّزاً وتمجيداً، كما تقدّم لهم ما يمقت كلّ ما هو عربي أو بربري أو جزائري أو وطني أو أصيل. وبتلك الصّيغ التّربوية أنشؤوا نخبةً تابعةً يُردّدون: نحن مع دولة فرنسا العظيمة، الفضل لفرنسا التي قدّمتنا وأدخلتنا الحضارة، فرنسا أمّنا الحبيبة... صارت/ سرت بعض النّخبة راكعة، وردّدت مقولة: **المجد والعظمة للإمبراطورية الفرنسية.** وإنّ هؤلاء يُشكّلون الآن خَطَراً على **الأمن اللّغوي،** فبعد ما أعياهم البحث في التّشكيك والتّبعية، ها هم يدعون إلى التّلهيج بصورة علنية، يدعون الآن إلى زعزعة الأمن اللّساني، وينادون جهاراً بأنّ لكلّ بلد لهجته، فلا بدّ من ترسيمها وترقيتها لتصبحَ لغة العلم، ومن الضروري تطوير تلك اللّهجات خارج العربيّة الفصيحة، وهذه خطورة ودعوة إلى تجزئة المجزّأ، دعوة خطيرة "تشهد هذه المرحلة الحسّاسة في الصّراع اللّغوي الرّاهن عملية اغتيال وقتل بطئ للغة العربية التي هي لغة القرآن الكريم، وهذه العمليةُ تجري بمستويات مُتعدّدة أهمّها:

1 ــ فصل هذه اللّغة عن التّخصصات ذات الطّبيعة العلمية في الجامعة.

2 ــ تهميش اللّغة العربية عن القطاعات الأكثر حيوية ومردودية في الاقتصاد الوطني.

3 ــ تقوية اللّهجة الدّارجة، والتمكين الإعلامي لها، وأكبر مظهر لذلك هو الإذاعات التي وقع التّرخيص لها، وبعض الصّحف المَشكوك في خلفياتها وأهدافها[1]". وبهذا السّعي الحثيث فهم من نوع المُتطرفين في نشر الكراهية ضد العربية وكلّ ما ينتصر لها، فأعمالهم خطيرة، وتشكّل ضرباتٍ مُوجعةً في الذات "يعتمد المُتطرّفون في نشر الكراهية اللّغوية والدعاة إلى حلول راديكالية لهجية على

1 ــ سلمان بونعمان، النّهضة اللّغوية وخطاب التّلهيج الفرنكفوني في نقد الاستعمار اللّغوي الجديد حالة المغرب، ص 184 (بتصرّف).

أسطورة مقصودة للغة الأمّ، يرفدون من تبعية لغوية طالماً عَمِل المغاربةُ على التّحرّر منها. ففي الوقت الذي يدعو فيه المسؤولون من أجل تقوية فُرَص الاقتصاد يدعو المُلهِجون في المغرب المنغمسون في الفرنكفونية إلى حدّ عبادة الفرنسية وتأليهها، إلى قصّ اللّغة العربية من الهوية اللّغويّة المغربية لفائدة الدارجة تاركين الفرصة للغة موليير لتحلّ محلّ الفصحى في كامل وظائفها، في حين يلزمون الصّمت المُطبق عن تناول إشكال لغات الاقتصاد المعرفي، وضمنها العربيّة والإنكليزية بكلّ تأكيد[1]". وأمثال هؤلاء نجده في بعض من تلك النّخبة التي كتبت في الأدب المغاربيّ المكتوب بالفرنسيّة، فهم (فرانكون) أحادي اللّغة لا يفهون إلاّ في لغة الكولون فمثلهم في ذلك مثل الثّعبان الذي يغيّر جلده كلّ سنة، ومع ذلك يبقى الثُّعبان ثُعباناً، وإلاّ ما معنى أن يُغيّر الكاتبُ لغتَه، أو يعيبَها، أو يفضّلَ اللّغة الأجنبيّة على لغته، فمثله مثل ذلك الذي يريد كتابة رسالة حبّ لصديقته مُستعيناً بالقاموس. وهذا في الحقيقة لا يُلاحظ بقوّة في المشرق العربي، ولكنّها مُرّة في المغرب العربي؛ فيقول الأستاذ عبد الله ركيبي: "الفرنكفونيّة في المشرق العربيّ كانت عاملاً إيجابياً نسبياً في ما يتّصل بتطوير الثّقافة العربيّة والأدب العربيّ أسهمت في تطوّرها شكلاً ومحتوى. فالمثقّفون العرب هناك ألفوا بالفرنسيّة أو ترجموا عنها أو عرضوا للفكر الفرنسيّ أو العالميّ من خلال هذه اللّغة، فإذا كانوا قد تأثّروا بها وبثقافتها، فإنّهم أخضعوها للواقع الوطنيّ والقوميّ، واستفادوا منها تجربة وفكراً ومنهجاً وإبداعاً وتوجّهاً. وإن اختلفت نظرتُهم وتأثير الفرنكفونيّة فيهم؛ فبعضهم كان عُروبيّاً فكراً وتوجّهاً، وبعضهم الآخر كان إقليمياً فزاده انطواءً على الذّات وتنكّراً للعُروبة والوَحْدَة، وهذا هو الجانب السّلبيّ في الفرنكفونيّة مشرقاً[2]". وهذا ما لا يُلمس في الجزائر أو في بلاد المغارب؛ حيث نجد الهوْسَ

---

1 ــ سلمان بونعمان، النّهضة اللّغوية وخطاب التلهيج الفرنكفوني في نقد الاستعمار اللّغوي الجديد حالة المغرب، ص 92.

2ــ عبد الله ركيبي، الفرنكفونيّة مَشرقاً ومَغرباً. الجزائر: 2009، دار الكتاب العربيّ، ص 326.

باللّغة الفرنسيّة على أنّها النّجوميّة، ويصف بعض الفرنكفونيّين المُعرّبين بأنّهم مُتخلّفون بسبب تشبّثهم بالماضي، ورفضهم للحضارة الفرنسيّة، فهم يعيشون في الهامش، وأنّ كلّ التّخلّف كان بسبب فكر هؤلاء المُعرّبين الماضويّين...

وفي الحقيقة، فإنّ أمثال هذه الأفكار ليست عامّة، بل نجد من بين النُّخبة مَنْ هو مِنْ المُنصفين؛ مُنصفون أحسّوا بالغربة اللّغويّة داخل اللّغة الفرنسيّة بل أحسّوا بالقهر اللّغويّ داخل ذات اللّغة، كما أحسّوا بالمنفى يُلاحقهم، ولكن ماذا يفعلون؟ فهم يُدافعون عن هوّيتهم بلغة العدو، ويعبدون لغتهم وهم لها جاهلون، وهذا اعتراف (مالك حدّاد) الذي قال:

أنا الذي أُغني بالفرنسية
أنا الشاعرُ يا صديقي
إذا كانت لهجتي تثيرك
يجب أن تفهمني جيّداً
فقد أراد الاستعمار ألاّ تكون لديّ لغة.

لقد وقفت اللّغة الفرنسية حاجزاً بينه وبين محيطه، وبين وطنه، وهو الذي قال: اللّغة الفرنسية حاجز بيني وبين وطني أشدّ وأقوى من حاجز البحر المتوسّط، وأنا عاجز أن أعبّر بالعربية، إنّ الفرنسية لمنفاي[1]". بالفعل أحسّ (مالك حداد) بالغُربة اللّغوية تُلاحِقه، ولم ينظر إلى أدبه أنّه أدب جزائري؛ لأنّه كتب بالفرنسية، في الوقت الذي تعتبره الموسوعة الفرنسية Universalis على أنّه أدب فرنسي، وعندنا يعتبر أدباً جزائرياً مكتوباً بالفرنسية، وهو في الحقيقة لم يُصنّف عند العرب من الأدب العربي، وكذلك الحال بالأدب العربي الذي كتبه الفُرْس، فلم تُعدّه الموسوعة الإيرانية من الأدب الفارسي "... وهذا النّوع أصبح إشكالية تُؤرِّق الأدبَ الجزائري ككلّ. ظلّ هذا الأدب المكتوب بلغة العدو سلاحاً جريئاً للدفاع عن الأرض وحقّ تقرير المصير، وأسّس لمكتبة مهمّة مثل (كاتب ياسين) برائعته نجمة، و(آسيا

1 - Les zéros tournent rond. Paris : 1961, ed Maspero, p 9.

جبّار) و(مولود فرعون)، و(محمد ديب) و(مراد بوربون) و(مالك حداد)... لكن موقف هؤلاء من اللّغة الفرنسية يختلف من كاتب إلى آخر، فبينما نرى أنّ كاتباً كمعمري وكاتب ياسين لا يشعرون مطلقاً بتلك المأساة، ولا بذلك الازدواج، بل يعتبرون أنّ تمكّنهم من اللّغة الفرنسية إلى جانب العربية يعتبر ثروة تميّز الفكر الجزائري[1]". ولكنّنا نجد (مالك حداد) يرى نفسه من ضحايا الاستعمار اللّغويّ؛ حيث لم يستطع لزمان طويل أن يُعبّر بالعربيّة لا على مستوى الكتابة، ولا على مستوى الكلام. وكأنّي به يقول: إنّ الكتابة بالفرنسيّة يعني أنّني أُشرّع لوجود هذه اللّغة، وربّما أعتبرها مَوطني، وهو ينظر إلى هويّته وهويّة شعبه فيراها لا تمُتّ بصلة إلى الهويّة الفرنسيّة، فيعيش اغتراباً قد يسبّب له اضطرابات نفسيّة. وهذه هي سياسة في غرس القابليّة للاستعمار، التي تحدّث عنها (مالك بن نبي).

بالفعل هناك كتّاب صرخوا في الوجه القبيح للفرنكفونية، بل وناهضوها ذاهبين إلى حدّ الدعوة إلى اللّغة الأصل وممارستها كما دعا (كاتب ياسين) في وضعه لمسرحيات بالعامية الجزائرية، وكما فعل (رشيد بوجدرة) الذي لم يجد ترياقا ضد شقاء وعيه التاريخي واللّساني سوى الكتابة بالعربية كقطب، وكعلامة محسوسة للحق في تجديد الذاكرة الثقافية الجماعية وفي توحيد الهوية القومية، فإن فعله الصادق الجريء يقول وحده الشيء الكثير عن مأساة الاستلاب اللّغوي والثّقافي عند الكتاب من جيله.

نعم بالفعل، هناك كُتّاب رفضوا إغراءات الفرنكفونيّة، ولم يلعبوا دور الشّاهد الغائب، كُتّاب رفضوا أن يُدرج الأدبُ المنتجُ من المغاربة بالفرنسية في باب (الأدب المغاربي المكتوب بالفرنسية) رفضوا هذا لمقولة قديمة معروفة: **الأدب**

---

1 ــ آمال منصور "منفى اللّغة وأسئلة الانشطار الهُووي في الرّواية الجزائرية (مالك حداد أنموذجاً)" كتاب المؤتمر. الإمارات العربية المتّحدة: 2015، المؤتمر الدولي الرابع للغة العربية العدد 11، ص 558.

الوطني يكتب باللّغة الوطنية، وهذه هي القاعدة العالمية. لم يدرج الفُرسُ فارسياً واحداً أبدع بالعربية، بل قالوا عنهم: علماء/ شعراء فُرس كتبوا باللّسان العربي ولم تضمّ الموسوعةُ الفارسيةُ واحداً منهم أبداً. كما لم يأتِ اسم واحد في الموسوعة الأمريكية للأمريكان الذي كتبوا بالأسپانية، والكثير من الدّول تعتبر أدبها ما جاء بلغتها فقط. ولكن عندما –نحن المغاربة) يجوز لنا الرقص خارج السّرب. ومن ذلك نجد الرّوائي رشيد بوجدرة يرى نفسه في تجربة صعبة، وهو يكتب بالعربيّة وسبق له أن أبدع في الفرنسية، ومهما تكن تجربته الكبيرة في الفرنسية؛ فإنّه لم يكن مُستلباً مثلما استُلبَ بعضٌ من جيله، و(إدريس شرابي) من هذا النّوع الذي يستنكر فعل الفرنسية في أدبه وتفكيره، وهو الذي يصرّح "منذ عشر سنوات ودماغي العربيّ يفكّر بالعربيّة يطحن مفاهيم أوربيّة على نحو بالغ العبث؛ بحيث يحوّلها إلى مرارة فتعتلّ بها، وإنْ بقيَ مُستمراً فليس بفضل قاعدة التّكيّف، بل لأنّه من كثرة ما طَحَنَ على ذلك النّحو حمل فوق ما يطيق من السّحايا المتوالدة التي هي وحدها المُتكيّفة مع العالم الغربي"[1]. ولا يعني هذا أنّ الأدب المكتوب بالفرنسيّة غيرُ مفيد، وليس مُضيفاً للأدب الوطنيّ المكتوب بالعربيّة، بل هو أدب وطني ضمن مرتحلة تاريخية مفروضة، هذا بالنّسبة للذين أبدعوا في فترة الاحتلال، أو ربّما بعد سنوات قلاقل من انجلاء المستعمر. ولكن الجيل الذي درس العربية غير معذور، وبخاصّة أولئك المُمَجّدين للفرنسية، أو الذين يُمارسون لعبةَ الانتماء التي فرضتها اللّغة الفرنسيّة، ويُظهِرونها في أعمالهم على شكل تمجيدات للغة الفرنسيّة بمنتوجها الأدبي، بجانب احتقار الأدب المكتوب بالعربيّة، وهذه هي المشكلة التي تطرح بين كُتّابنا: كتّاب يتقنون الفرنسيّة ينظرون لأنفسهم أنّهم أعلى وأسمى من

1ــ عن روايته Les boucs الصّادرة عن دار دينويل عام 1955، بباريس ص 55ــ56.

المُعرّبين، ونجد الآن بعضَهم كانوا يكتبون بالعربيّة، وتحوّلوا إلى الكتابة بالفرنسيّة ليُقال: إنّه يتقن الفرنسيّة أو لترضى عليه الفرنكفونيّة، ويقضي المصالح الشّخصيّة ليس إلاّ. ومن هنا فالفرنسيّة مَدينةٌ لهم لأنّهم خَدَموا إشعاعَ اللّغة الفرنسيّة خارج حدودها، وهنا نقطة الإيجاب في الفرنكفونيّة بالنّسبة للفرنسيّين، **فهل نعتبر؟**

وكلمة حقيقيّة يجب قولها: نحن أغبياء انْطَلَى علينا الوَهْمُ، وقبلنا بالخدعة فنحن لا نزال بُلَّهاً وسُذّجاً، ولا ندري في الحقيقة سياسة فرنسا اللّغويّة التي اختفتْ وراء المصالح الاقتصاديّة، وانطلتْ علينا الخدعةُ، فأصبحنا ندفعُ أموالاً من أجل دعم اللّغة الفرنسيّة في الدّاخل وفي الخارج، ونعمل دون علم على نشر الثّقافة الفرنسيّة والحيلة هنا في الوصول إلى التّحكّم في عقول مستعملي الفرنسيّة، وتوجيههم الوجهة التي يرغبونها "إنجاز جِراحة ثقافيّة ولغويّة تستتبع المستعمَرَ للمستعمِر. وتأتي بمعاول الهدم على استقلال شخصيته وكيانه فتدفعه إلى اقتداء الغالب والإذناب له والتّماهي معه، وفقدان القدرة على وعيه لذاته إلاّ في علاقته الانجذابيّة". ويمكن أن أقول: إنّ الفرنكفونيّة نوعٌ من إعادة صيغة جديدة لـــ Empire colonial français أو استيلاء ثقافيّ بدعم فكريّ مُؤسّس؛ حيث يحصل فيها نقل ثقافة مستعمر أو سيّد قديم، وهذا يعدّ تجسيداً للقوّة التي كانت قديماً قوّة عسكريّة، فالآن أصبحت قوّة اقتصاديّة بدعم فكريّ. وهذا ما تستعمله فرنسا المستعمرةُ للعالم، وبخاصّة من 1660 إلى 1960 وكانت ثاني سلطة في العالم بعد الإمبراطوريّة الإنكليزيّة، وهي إمبراطوريّة لغويّة أو استيلاء ثقافيّ تتبنّى بعض العناصر المحدّدة لثقافة ما من خلال ثقافة أخرى أكثر قوّةً. والاستيلاء الثّقافيّ يتعلّق بالاستيلاء على الأفكار والرّموز والمصنوعات والصُوَر والأصوات والأشياء والأنماط والنّماذج من الثّقافات الأخرى، وبخاصّة الثّقافةَ المشهورةَ والمُسيطرةَ.

ولا ننكر أنّ هناك إكراهاتٍ وصعوباتِ الخروج من الفرنكفونيّة بالنّسبة للدّول المغاربيّة، ولكن تستدعي الضّرورة أخذ هذه الإكراهات بعين الاعتبار وتدبير شأن الخروج منها بأقلّ الخسائر، أو العمل على الحدّ من تداعياتها وآثارها السّلبيّة فنحن أمام نَزْعات مُتوسطيّة؛ وهي: Européanisme/ Mondialisme Francophonie وتشير الدّراسات المُعاصرة بأنّ الفرنكفونيّة طالَ الزّمنُ أو قصُرَ فهي مُتقادمة وغير مُنتجة، وليست لها أبعاد مُستقبليّة، والأورپاويّة مُكْلِفة بفعل التّعدّد اللّغويّ الكثير الذي يستدعي جيوشاً من التّراجمة، وأبعادها سياسيّة واقتصاديّة أكثر ممّا هي لغويّة. والعالميّة وفيها مَنْزَع العِلم المعاصر، والمورد العلميّ الذي تديره الإنگليزيّة بما يمكنه من أكثر من 80 % من الاتّصالات ووسائل الإعلام "ينبغي إذاً بالبلدان المغاربيّة في إطار هذه السّلسلة من الإكراهات الخارجيّة استكشاف طريق ثالث بعدما تبيّن أنّ طريقي: النّزعة الفرنكفونيّة والنّزعة الأورپاويّة في النّهاية غير مَأمونيْن، ويتعلّق الأمر بمنظور النّزعة العالميّة. وإنّه في الوقت الحالي فهي أكثر ضماناً مع ما لها من مَساوئ، ولكن لها مَحاسن؛ حيث تُدخِلك في عالم مُتقدّم تستفيد من التّكنولوجيات الحديثة. ومن هنا كان علينا أن نختار لغة التّطوّر الذي تعرفه الألفيّة الثّالثة، ونخرج من لغة تَعْرِف التّقهقرَ باستمرار حتى داخل الأورپاويّة". وتعود بيّ القراءات إلى تلك الحادثة الهامّة عندما سُئل بسمارك سنة 1898م هذا السّؤال: ما هو الحَدَث الحاسم الذي شهده العصر الحديث؟ فأجاب: إنّ الحَدَثَ الحاسمَ الذي شهده العصرُ الحديثُ هو تكلّمُ سكانِ أمريكا الشّماليّة اللّغة الإنگليزيّةَ، وأتأسّف عن عدم تكلّمهم الألمانيّة. وها هو الحَدَث يتكرّر الآن، **فإنّ تعلّم الإنگليزيّة حدَثُ العصر**، ولا بدّ منها، ولكن أين مقامها في التّخطيطات اللّغويّة التي تعرفها بلداننا؟ وكان الأحرى بتخطيطاتنا اللّغويّة والتّربويّة أن نعمل بسياسة النّفعيّة التي تخدم بلداننا، فلا قدسيّة للغة الأجنبيّة، والفائدة الوطنيّة

هي التي تجرّنا في اتّجاه الاستفادة من اللّغة الأجنبيّة فإذا انتفت المصلحةُ ينتفي العملُ بتلك اللّغة. والعالم الآن يتّجه نحن عولمة لغويّة جديدة، فيه لغة عالميّة علميّة، وعلينا التّخطيط للاستفادة من تلك اللّغة ولا نبقى نتشبّث بلغة يهجرها أهلها. ثمّ لا ننسى أنّنا نُخطّط للأجيال القادمة فسوف تُحاسبنا على عدم التّخطيط للاحق من الزّمان، وتُحاسبنا أيضاً على أنّنا لم ننظر إلى مَصالحهم، بل كنّا نُخطّط لأنفسنا؛ لأنّنا ورثة تركة استعماريّة لم نُرِد الخروجَ منها. ولكن كان ذلك زمان فبعد أكثر من ستين (60) سنة من الاستقلال ما نزال نعيش الوَهْن، ولغة الرّجل الحضاريّ التي لا يُعلى عليها، وأهملنا لغاتنا، كما لم نُعِر الاهتمام للغات المستقبل أليس هذا رهان أنفسنا في المستقبل؟

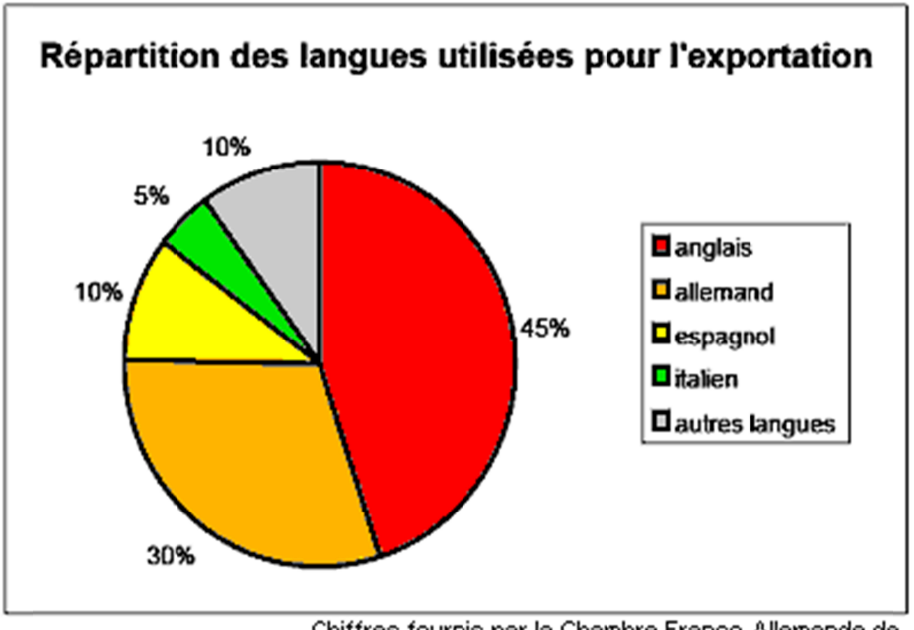

Chiffres fournis par la Chambre Franco-Allemande de Commerce et d'Industrie en 2005

ومع كلّ هذا، لن نكون خائفين من العولمة إذا خرجنا من نطاق الفرنكفونيّة ودخلنا نطاق الكوسموپوليتيّة؛ بل هو الطّريق الأمثل للرّقي ولتحصيل المعارف فالوقتُ حانَ للاستفادة من تبادل الأشياء والأفكار والتّغيّرات الاجتماعيّة المُعاصرة

ومن الثّقافات المُتعدّدة في أبعادها الكونيّة؛ أي بعيدين عن الهيمنة الفرنسيّة، وبحوار يُتيح لنا التّفاهم والدّقة المُتبادلة مع مُختلف الثّقافات، وبخاصّة الثّقافةَ العالمةَ، وهذا للمُضيِّ معاً نحو أسمى الغايات، وبناء علاقات جديدة، ومَصالح مُشتركة بما يدرّه عالم العولمة الآن.

وبالمُختصر، فإنّ تشبّث النّخبة المغاربيّة بالفرنسيّة على أنّها غنيمة حرب Butin de guerre ويرون بأنّها هي لغة أساس في بناء الدّولة الحديثة، وفي تحقيق التّنميّة البشريّة، فيقع النّداء عندهم Instruire en français, enseigner en arabe أو تلك المقولة: **علينا تعليمَ العلوم بلغة العلوم، لا باللّغة العربيّة...** وكان هذا ما يعمل على إقصاء العربيّة من المشروع النّهضويّ؛ بفعل تلك النّخب المتنفّذة لدى صاحب القرار والمُتحكّمة في الإعلام. كما لا يمكن أن نخفي تلك التّعطّلات بسبب هذه النّخبة التي تعمل على التّذبذب، وتوليد القلاقل في المجتمع، فنرى الشّبابَ يُشكّكون في هُوّيتهم وتاريخهم؛ فهو استيلاب وانفصام وحيرة، وهم في مهبّ الريح والتّطرّف؛ لأنّ الثّقافة الوطنيّة لم تُرَسِّخ فيهم المبادئَ الكبرى للهُويّة؛ ففيها خطابان: **خطاب تنظير جميل، وخطاب تطبيق مُنافٍ للتّنظير.** وكنّا –نحن المُعلّمين– نُعلّم هذا الجيل، ونقول له: لا يمكن الاستغناء عن اللّغة الوطنيّة في تحقيق التّنميّة المنشودة واللّغة الوطنيّة هي التي تصنع من المجتمع واقعاً، وهي الوسيلة التي تحدّد صلّة الإنسان بهذا الواقع واللّغة الأمّ هي الوعاء الرّئيس للإبداع وإنتاج المعرفة، ونقول له: هذا ما تنصّ عليه تقارير التّنميّة البشريّة، وما أبانته التّجارب الدّوليّة النّاجحة وكما علّمناه كذلك أنّ أصحاب الرّأي قالوا: **إذا عَلّمْتَ شخصاً بلغته؛ فقد نقلت العلمَ إلى تلك اللّغة، أما إذا عَلّمْتَه بلغة أخرى؛ فلم تزد على أنّك نَقَلْتَ ذلك الشّخص إليها...** وفي كلّ هذا يشهد هذا المتعلّمُ التّغريبَ في كلّ شيء؛ تغريب الفكر على الخصوص "ولا شكّ أنّ أهمّ معاني التّغريب هو النّزعة العمياء إلى الغرب، وتحوّل العناصر الغربيّة والبنى والقوى التي تتبنّاها إلى أجسام غريبة ذات قوّة ونفوذ وقادرة على إنتاج مجتمعها وحضارتها الأمّ في البيئة العربيّة، وتبنّي أو فرض

النّموذج الغربيّ كعنصر رئيسيّ أو وحيد في المشروع النّهضويّ العربيّ. وأمام ذلك ضَعُف الطالبُ والمطلوب، ضَعُفت الدّافعيّة لدى هذا الجيل، وأصبح الشّباب لا يثقون في ما نقول، فحدث التّعطيل العلميّ والثّقافيّ باللّغة الوطنيّة" ومن ذلك تعطّل الاقتصاد الوطنيّ، والكلّ مُتشابك، فهل من حلّ؟

ونعود إلى مصطلح (الفرنكفونيّة) فهو طُعم للأمبرياليّة اللّغويّة، تقوده نُخبة أقليّة؛ حيث تقبل الفرنكفونيّة أو تدّعي الازدواجيّة اللّغويّة، **لكن ليس في بلد فرنسا.** إنّ النُّخبة البسيطة الفرنكفونيّة عندنا تعرف أنّ لكلّ بلد معاركه اللّغويّة الداخليّة وتسكت عنها، وتحاول إدخال رأسها في مظلّة الفرنكفونيّة، أليس هذا هو الاستعمار اللّغويّ، علماً أنّ المعنى اللّغويّ للفرنكفونيّة هو أن يتكلّم الإنسان الفرنسيّة تكلّماً عادياً أو طبيعيّاً، يعني أن يحصل بيننا وبينهم المزج التّامّ حتى في تفكيرهم ورُؤاهم، فأين نحن منهم، أو تريد نُخبتنا أن تُقولبَنا على المَقاس، أو نحن بضاعةٌ للبيع، وعلى النّخبة أن تتصرّفَ فينا كما تشاء، فنحن في المزاد العلني لنُخبة لا ترى ما نراه، ولا تحلم إلاّ بما يُملى عليها.

هذا هو المستوى الذي وصلت إليه بعض من نُخبتنا، ولسنا ندري لِمَ تريد النُّخبة القليلة تأخيرَنا! ويتساءل المهدي المَنْجَرَة قائلاً: "هل الفرنكفونيّة تشكّل أداة للعلاقات الدّوليّة؟ وإذا كانت الإجابة هي نعم، فما الجديد إذن في ذلك؟ لكنّه يجيب بالنّفي مُشيراً إلى المُعطيات الحقيقيّة؛ فعدد النّاطقين بالفرنسيّة محدود (160 مليون) والثّقل الاقتصادي للعالم الفرنكفوني ضعيف، ويوجد عدم توازي في النّاتج القومي بين فرنسا وكندا من جهة (83 % في المُجْمل) وبين البلاد الإفريقيّة (5،8) من جهّة أخرى. فهناك مُعوّقات عديدة تشهد بأنّ الوضعَ غامضٌ ومُكبّلٌ بتاريخ استعماريّ طويل، وبمعدّل فقر يتزايد بسرعة فأين نحن الآن؟ وما هو وضع الفرنكفونيّة كمحور للحضارة وللاستراتيجيّة العالميّة؟ إذن ما زلنا في بداية سلسلة من

التّساؤلات حول الشّراكة الجديدة بين اللّغات، وحول الزمن التّقنيّ وآثاره على إلغاء الحدود الفاصلة بين الأقاليم[1]".

ولكن في كلّ هذا، نقرّ بأنّه لن يكون الأمرُ سهلاً في خوض المسألة اللّغويّة وأنّ الفصلَ فيها في ظلّ غياب تمثيل ديمقراطيّ أصعبُ، ولن يكون إلاّ بقيام مُؤسّسات وحكومات شرعيّة، ومَجالس مُنتخبة، مجالس وقوانين لها صوت الشّعب يحميها في كلّ قراراتها، وبخاصّة القرارَ السّياسي، فلن تكون لها سلطة القرار إلاّ بالتّدبير السّياسي النّابع من سلطة الشّعب، وعند ذلك يمكن أن يحصل الانتقال من قوّة اللّغة الأجنبيّة إلى شرعيّة اللّغات الوطنيّة، ومن هيمنة اللّغة الأجنبيّة إلى انسجام اللّغة المشتركة.

قد كنّا مُبالغين في جَلْدِ النّخبة بعبارات القدح في بعض المَقامات، وقد سلّطنا عليها قراءات سلبيّة، وأحياناً هناك شراسة في القول، لكن يبدو لنا بأنّ التّهاون أو التّسامح اللّغويّ الذي أحدثته تلك النّخبة (وهي قليلة) كان لظروف مرتبطة بالاستعمار الشّرس، وبما زرعه من بلبلة في وعي التّاريخ، فالإنسان أصبح يكره التّاريخ. ومن هنا نقول: إنّ نخبتنا المُنجذبة أقليّة، ومع ذلك فَلَدَيْنا قراءة إيجابيّة في مشروعها، فلن تضلّ النُّخبة المُعاصرةُ الطّريقَ، ولن تُعادي اللّغة العربيّة، ولا تكون خارج الحسّ الوطني القومي، وبخاصّة إذا اشتدّت الأزمة. وعند ذلك يظهر موقفُ كلّ واحد، ولا شكّ أنّه يكون موقفاً وطنياً وستنتصر النُّخبة للهويّة اللّغويّة الوطنيّة التي هي فوق اعتبار، فقد احتفظَ لنا التّاريخُ بموقع مُتميّز لنخبة اختارت الهويّة العربيّة، ولم تُساير لغة الانجذاب؛ رغم تشبّعها بفكر الأمّ الحنون.

---

1 ــ عبد الكبير خطيبي "اللّغة الفرنسيّة كلغة حبّ" © Arabofrancophonie L'HAMATTAN تر: جيهان عيسوي، ط1. القاهرة: 2005، المجلس الأعلى للثّقافة/ المشروع القومي للتّرجمة. عدد (الفرنكفونيّة العربيّة دراسات وشهادات) رقم 790، ص 175.

11ـ القهر اللّغويّ الفرنسيّ

هو نوع من الاستعمار اللّغويّ أو الثّقافيّ، ويمكن أن نُسمّيه **(الهيمنة اللّغويّة)** جرّاء ما عَرَفْناه من الاستعمار الفرنسي الذي عَمِل على مَسْخ هُوّيتنا الثّقافيّة وأغْرى نخبتَنا بلغته، وهذا موجود عندنا، وما يزال يُعشعش في أذهان بعض نخبتنا المغاربيّة النّاطقة بلغة واحدة، وهي الفرنسيّة السّاحرة؛ باعتبارهم مُنغلقين ومُحجّرين على ثقافة واحدة، ولا ينظرون للعالم إلاّ من زاويّة هذه اللّغة، فكأنّ العالَمَ مُختصَرٌ فيها، ولا يبقى إلاّ بها؛ حيث افتقدنا القدرةَ على أن نكون نحن ولبسنا لباسَ الغير علّنا نكون، وهو بَخْسٌ ذاتيٌّ، فنسعى بقوانا للانفصال الذي أوصى به الكُولون، ونفضّل الهجرةَ والاهتجارَ؛ لأنّ الغيْرَ أغرانا، فنركب بواخرَ الموت لتنقلَنا إلى الضّفة الأخرى، والآخر يُسْحِرُنا، ونستأجر لغته، ونترجّاه أن يقبل، فأصبح الأجنبيّ يملي ما يريد، ونقبله دون مناقشة ما يريد، ولا نرى إلاّ بعين الآخر. لقد افرنججَ لسانُنا في المتجر وفي المقهى، واستُلبت نخبةُ النّفوذ والقرار وأصحاب رؤوس الأموال... فحصلت أزمةٌ في المواطنة اللّغويّة؛ فالأزمةُ أزمةُ أَلْسُنٍ، وأزمةُ الفرنسيّة المعبودة للنخاع، فلا نرى العالم إلاّ ممّا تُمليه، فكيف نتدبّر الأمر؟ وإنّنا في واقعنا اللّغويّ نتدرّج لنكون بدون لغة Ni lingue ؛ لأنّ تملّك اللّغات هو وصول على الخطّ On line وفي أسرع وقت On time فمتى نكون مثل الشّعوب المُتقدّمة أن نملك اللّغة الكونيّة للوصول إلى المعارف الكونيّة، والتّحكّم الرّافع في اللّغات الوطنيّة التّداوليّة Lingua franca للتّواصل البيْني من حجم كبير؛ حجم اللّغة الأمّ أو لغة المنشأ Mother Tongue. إنّ تملّك اللّغات الأجنبيّة حتمية ثقافيّة وعالميّة، والوسيلة إلى ذلك هو تعلّمها والتّرجمة منها وإليها، فلا مجالَ للرّفض في اللّغة، بل ما هو مطروح هو الاستيعاب والتّرجمة، وهما سبيل إلى استيعاب ثقافات أخرى، مع فُرَص للتّملك أو للتّرك أو التّهذيب.

إنّ الفرنسيّة مُتمكّنة في بلاد المغارب، بحكم الاستعمار الذي أوجدَ من ينوب عنه، والفرنسيّة غنيمة حرب، فلا يمكن التّسامح فيها بسهولة، ولكن يجب أن ندرك بأنّها نوع من **القهر اللّغويّ** الذي تعرفه العربيّة من مُزاحمة الفرنسيّة لها في أوطانها المغاربيّة، ونحن لا ننكر الجانب العلميّ للفرنسيّة، وما لها من مَقام في التّعليم والحقوق وفي الاقتصاد وفي السّياحة، وفي ذات الوقت لا ننكر أنّها عاشت في بلاد المغرب العربيّ على حساب العربيّة بصفة مؤقّتة، وأضحت دائمة

وأصبحت لغة القهر والهيمنة؛ بفعل انحصار العربيّة وابتعادها عن العلوم الحديثة فأصبحت الفرنسيّة لغة التّرقي الاجتماعيّ، ولغة النّخبة الوطنيّة المُسيّرة، وحصل لها تقديس لا مثيل له، فهي لغةُ غنيمة حرب الباقيّة، وباقي اللّغات الأجنبيّة ذاهبة.

وإنّ الواقعَ الاقتصاديّ لوظيفة الفرنسيّة يضعها في موقع السّلطة، كما أنّ النّخبة الوطنيّة الأحاديّة اللّغة حملتها إلى مجالات الأعمال والاقتصاد، وجَعَلَتْها علامةً على التّميّز الاجتماعيّ، فهي لا يُشهّر لها لأنّها مُرتبطة بخطيئة الاستعمار، ولكنّها فرضت نفسَها داخل هذا التّعدّد، ونالت الصّدارة، وبهذه الصّورة يحصل تكريس دونيّة العربيّة ودونيّة المازيغيّات. وأما قول بعضنا الانفتاح على الثّقافات واللّغات فهو كلام على كلام، والمقصود منه الانفتاح على مَزيد من توسُّع الفرنكفونيّة، ولا يعني هذا أنّنا ضد التّعدّد اللّغويّ، فبلداننا مُتعدّدة اللّغات، والتّعدّد اللّغوي جميل، ولكن ألاّ يشكّل ذلك عقبة كأداء في سبيل نيْل المصالح المُرسلة ونشهد اليوم لغةً واحدةً مَفْروضة ضمن ازدواجيّة مَزْعومة؛ وهي ازدواجيّة مُتوحشّة كما وصفَها الأستاذ الباحث (Gilbert Grand guillaume/ چلبير گرانگيوم♠) في كثير من أبحاثه، والذي رَبَط فِعْل الفرنسيّة بمسألة التّعريب في بلاد المغارب، ورأى أنّ المسألة **(هيمنة فرنسيّة)** كان يجب أن يزول مشكلُها بعد زوال المستعمِر "أثار التّعريب في المغرب العربي مشكلة ضمن علاقة الهيمنة التي طبعت الاتّصال باللّغة الفرنسيّة التي طرح حضورها –عدا إقصاء اللّغة العربيّة– المكتوب أساساً وقبل كلّ شيء مسألة العلاقة مع لغة أخرى؛ أي مع قانون آخر. وهذا القانون لم يُدرك لوقت طويل إلاّ باعتباره هيمنة استعماريّة. إلاّ أنّ بقاء المشكل رغم اختفاء الاستعمار يظهر أنّ الأمر يتعلّق بشيء آخر. فالقانون الآخر الذي تمثّله اللّغة الفرنسيّة في الواقع إنّما هو الصلة مع الآخر، مع الأجنبيّ، لكن أيضاً مع كلّ ما يمكن أن يوقظه القانون على شكل رغبة وممنوع، والعلاقة مع

♠ــ هذا الأستاذ الباحث الذي ترجم عملَه الأستاذُ: محمد أسليم. والكتاب الذي أكّد فيه الازدواجية المتوحشّة عنوانه:

Arabisation et politique linguistique au Maghreb.

وله أعمال أخرى تحدّث فيها عن جوانب التّعريب في المغرب من مثل:

- Pour une anthropologie au Maghreb
- Langue et identité et culture nationale au Maghreb
- Père subverti, langue interdit

اللّغة الأخرى تنخرط ضمن علاقة تعارض، إذ لا يمكن للرّغبة في الآخر إلاّ أن ترتبط بالخوف من هذا الآخر أو رفضه[1]". كما نراه في مقام آخر ينتصر للعربيّة في أوطانها المغاربيّة، ويراها:

"ــ اللّغة العربيّة باعتبارها عاملاً موحّداً؛

ــ التّعريب مُمارسة تقدّميّة؛

ــ اللّغة العربيّة هُويّة.

ويشير صريحاً إلى أنّ العربيّة هي:

"ــ الضّامن الأساسيّ للهويّة؛

ــ وحدها التي تستطيع الحيلولة دون الاندماج والتّلاشي في الثّقافة الأجنبيّة التي أدخلها الاستعمار الذي لا زال حاضراً من خلال المُبادلات الاقتصاديّة والثّقافيّة المُتعدّدة، مع عالم خارجيّ غير عربيّ؛

ــ وحدها التي تستطيع المحافظة على أصالة نوعيّة[2]".

وهذه هي سياسة فرنسا القديمة، وكان يجب الفصل في المسألة اللّغويّة وفي هذه النّقطة بالذات، يجب العلم بأنّ العلمَ قد تطوّرَ، وأنّ العلوم لا تُرشّح فقط من اللّغة الفرنسيّة، فلا يجب تغييب اللّغات الكبرى التي تمثّل الثّقافات الأكثر حيويّة أو التي تتكلّمها البلدان التي ترتبط ببلاد المغارب، فلا بدّ من اعتماد مقاربة جيوسياسيّة حاملة للعلاقات الثّقافيّة بين ضفتي حوض المتوسّط دون التّسامح في التّوازنات اللّغويّة العالميّة التي تنال فيها الإنكليزيّة مواقع مُتقدّمة. ومن العلميّة أن نعلم بأنّ اللّغاتِ أقطاب وتخصّصات، وهناك لغة أفضل من الأخرى في ميدان ما، فمثلاً الفلسفة ميدان اللّغة الألمانيّة، والسّياسة ساحة الفرنسيّة، وعلم النانوتكنولوجي مجال اليابانيّة والكوريّة، والمعلوماتيّة تحمله الإنكليزيّة، والتّراث فضاء العربيّة والفارسيّة، والصّناعة الثقيلة لا يُعلى على الرّوسيّة، وعلوم البحار تتقدّم فيه الإسپانيّة والپرتغاليّة، واللاهوت تختصّ به لغات الهنود... إلخ.

1ــ جلبير غرانغيوم، اللّغة والسّلطة والمجتمع في المغرب العربيّ، تر: محمد أسليم. المغرب: 1995، الفارابي للنّشر بمكناس، ص 8.

2 ــ جلبير غرانغيوم، اللّغة والسّلطة والمجتمع في المغرب العربيّ، تر: محمد أسليم. المغرب: 1994، الفارابي للنّشر بمكناس، ص 28.

ولكنّنا قد لا ندرك هذا، فقد ركبتنا موجة التّعالي والعُلُو الذي لا يكون إلاّ بالفرنسيّة، وبفعل ذلك ركبنا **القهر اللّغويّ** "ما أقل ما يكتب من مقالات ومن دراسات ومتابعات حول الفرنسية بالمغرب مقارنة بحضور هذه اللّغة الكبير في البلاد. ورغم أنّ ذلك يشكّل قضية من القضايا الأساسية في مجتمعنا، فإنّه يبدو أنّ المثقّف يعوزه الرأي الصريح الواضح في هذه القضية مخافة أن ينعت بجهل اللغة الفرنسية أو معاداتها. ومن ذلك ما فعله الدكتور (بنسالم حميش) الذي أصدر كتابا مُهما حول الفرنكوفونية، غير أنّه يصرح أنّه لا ينتقد تجليات الفرنكوفونية لجهله باللّغة الفرنسية ويعدد أشكال معرفته بهذه اللّغة وبأدبها وبرجالاتها، بل نراه يضع في نهاية الكتاب نصوصاً له باللّغة الفرنسية. فلماذا يجهد الدكتور (بنسالم حميش) نفسه؟ لماذا يحسّ بالحاجة إلى قول ما قاله؟ هل هو اعتذار مُسْبق؟ احتماء وتقية؟ وبغض النظر عن دفاع بعض الفرنسيين عن حضور غير طبيعي للغتهم في بلادنا، فإنّ هذا التصوّر الصدامي يتجلّى عند "اليزانديجين" في انبراء بعضهم للدفاع عن اللّهجات العربية، أو محاولة نفي هذه اللّغة بسن "عربية مغاربية" وتأسيس جمعيات "دياليكتولوجية" لها فروع في الوطن وفي فرنسا، كما يتجلّى في الدعم المبالغ فيه للغات الأمازيغية رداً على التوازن اللّغوي، وما يكون من بعض "المناضلين الأمازيغيين" رداً على هذا الدعم السخي، إلاّ مهاجمة اللّغة العربية، وتبني التصوّر الفرنكوفوني".

ولم نشهد انحصار العربيّة في السّوق اللّغويّة، وذلك ما أسهم في تغيّير بنياتها الصِّوَاتية والصّرفيّة والمعجميّة، وهذا بسبب عُنف/ قهر الفرنسيّة ومن ثمّ **عُنف الإدارة والمؤسّسات** والتي تخلق نوعاً من الدّعوة إلى التّخلّي عن اللّغة الأمّ، أو عبارة عن تَلَف تدريجي للّغة الرّسميّة إن لم تكن للغة قيمة رمزيّة قويّة في نَسَق التّماثلات الوطنيّة. فأين العربيّة التي هي رأسمال العرب فلا تأهيل لهم بدون تأهيلها والنّهوض بها وبمكانة أَلْسُن الهُويّة، إضافة إلى تملّك اللّغات والثّقافات العالميّة، وكان علينا العمل على تجديد متنها، وتطوير أدوات البحث والتّعليم والنّهوض بمكوّناتها، ولا بدّ من تثمين الذّات العاملة على المتون اللّغويّة، والعمل على التّرجمة، وتوفير الدّعم السّياسي لأنّ الدّعم المجتمعيّ ثابت وكائن. وفي وقتنا الحالي علينا أن نتدبّر أمرَ لغاتنا بالبحث عن إعادة النّفس إلى برامجنا ومشاريعنا وإدخال الحماس إلى باحثينا وطلابنا وعلينا أن نعيَ بأنّ إقامةَ المعرفة تحتاج إلى الاستفادة من التّجارب المتراكمة وتحتاج إلى الانفتاح على الآخر.

12ـ شَرْطُ الإدماجِ المُجتمعيّ الأوربي

يعتبر مفهوم الاندماج الاجتماعي Intégration Social مفهوماً محصوراً في الوقت والأهداف والاستراتيجيات المتّصلة به، إذ إنّه مفهوم اجتماعي محصور على المجتمع، لا يرتبط في أصوله ومضمونه بأيّ سياق متّصل بالقومية الوطنية أو بدمج ثقافة جديدة طارئة منذ حقبة طويلة كمكوّن من مكوّنات الأمة. ولذا فنحن لا نقدّم له مُواصفات القومية والوطنية والانتماء الأممي، بقدر ما نُحدّد أطرَه في المفهوم القاعدي من ناحية تحصيل الحقوق والعدالة الاجتماعية على أساس مواطنة شاملة غير منقوصة، في بلاد أنتَ لستَ منهم. فمفهوم الاندماج الاجتماعي هو كلّ عملية ديناميكية متعدّدة العوامل التي تمكّن الناس الذين هم في النّظام الهامشي الحصول على الحدّ الأدنى من الرعاية الاجتماعية التي تحقّق في بلد معيّن، كتعلّم لغة البلد، وتحصيل العمل والحصول على بيت يأويك، والرعاية الصحية، والدخول في نظام المواطنة.

وهكذا، فإنّ الحديث في هذه المسألة يمسّ المسألة اللّغوية أو الثّقافية بغرض وضع الاندماج الاجتماعي المبني على الإفادة من ثقافات الآخر، وعدم التماهي فيها، بل المحافظة على الخصوصيات، كما تفعل فرنسا مع العالم. وبشكل عامّ يمكننا تأكيد مقولة Mari Mardini "إنّ الاندماج الاجتماعي يرتبط بالتنشئة الاجتماعية التي تعتبر عملية تعلم وتعليم وتربية مُستمرّة، قائمة على التّفاعل الاجتماعي، هدفها إكساب الفرد السلوك والمعايير والاتّجاهات المناسبة لتمكينه من أداء أدوار اجتماعية معينة، ولتؤهّله للتوافق الاجتماعي مع محيطه ولتساعده على الاندماج في الحياة الاجتماعية؛ ليغدو فرداً فاعلاً في المجتمع وأنّ نمط التّنشئة

الاجتماعية التي يمرّ بها الافراد منذ بداية حياتهم، وخلال كلّ مُؤسّسات التّنشئة الاجتماعية المُحيطة بهم يؤثّر بشخصيتهم وطرق اندماجهم في المجتمع والمجتمعات الأخرى التي يوجدون بها في أيّة مرحلة من مراحل أعمارهم." ومن هنا، وقع تركيزنا على فِعْل فرنسا في الشرط الذي ترفعه أمام الأجانب، أو العمال الأجانب الذين يُطالبون بالحقوق والتّسوية مع الفرنسيين: **عليكم إتقانَ الفرنسية.** وهذا هدف نبيل بالنّسبة إليها، فتكون قد حافظت على توسّعها الخارجي، وأنّها كسبت شخصاً يستعمل لغتها في الداخل ويدافع عنها في الخارج، وهذا هو المفهوم الثّقافي الذي تدافع عنه فرنسا في إطار المحافظة على الخصوصيات الثّقافية. وبمعنى آخر، فإنّ فرنسا تعمل على هذا الاندماج الاجتماعي وهو عملية ضمّ وتنسيق بين مختلف الجماعات الموجودة في مجتمع واحد للحصول على مجتمع ذي وحدة متكاملة. وبمعنى آخر هو إزالة الحواجز بين المجموعات المختلفة للعيش والتكيّف الاجتماعي بشكل مُتناغم ومُتضامن. فالاندماج الاجتماعي هو مجموعة الاجراءات والتدابير في مجتمع ما غايتها تسهيل انخراط فرد جديد في هذا المجتمع.

L'**intégration culturelle** est une partie de l'intégration structurelle. Cette dernière comprend en outre l'intégration dans les structures sociales de la société (travail, habitat, etc.) et une participation efficace à la vie collective (associations, élections, etc.). Dans l'intégration culturelle l'immigré doit renoncer à une partie de sa culture d'origine. L'acquiescement à ce renoncement est très variable d'un individu à l'autre. La société d'accueil y joue un rôle. Le processus est interactif.

La culture est un domaine qui englobe aussi bien les croyances, les valeurs, la religion que les loisirs et les habitudes alimentaires. Chaque société produit ses normes en fonction de son historicité. Dans les sociétés traditionnelles la culture est sacralisée. Elle résulte d'épreuves

passées et de la manière dont elles ont été surmontées. Les rites et les croyances persistent alors même que les causes qui sont à leur origine ont disparu. Cette dimension est mal perçue par l'Occidental qui, vu sa rationalité, réduit la dimension des choses au fonctionnel. En Occident se trouvent des sous-groupes culturels qui reflètent tant le passé que le présent. Les cultures d'un chef d'entreprise catholique intégriste, d'un ouvrier communiste athée ou d'un petit paysan d'un village qui se meurt sont profondément dissemblables.

وما يمكن أن يُلاحظ في هذا المبحث؛ بأنّ كلمة (شرط) جاءت في صورة الإفراد، وليست جمعاً. ونستنتج بأنّ فرنسا على وجه الخصوص، تعدّ الفرنسية لغة لا بدّ منها في الإدماج المجتمعي، وهو شرط وحيد، فلا تريد لغة أخرى تنافسها؛ لأنّ اللّغة لها مضمون، ولها اقتصاد، ولها توجّه، ولها مسطرة أخلاقية وثقافية، فإذا أُشبع الأجنبي بفكر الفرنكفونية لا يحيد، عكس الذي لا يأخذ الفرنسية؛ فيمكن أن يخرج عن المألوف، ولهذا فتعدّ اللّغة الشرط الأول في نيل الحقوق الكاملة للأجانب، بطاقة الإقامة.

ونعرف أنّ فرنسا التي تقع في أورپا الغربيّة، وهي الآن –والكثير من الدّول الأوربية– تعيش شيخوخةً مُجتمعيّةً، فهي بحاجة إلى جيل جديد، وإلى شباب من المَغاربة لتعمير القارة العجوز، وأهمّ ما يشغل بالها هو الإدماج اللّغويّ، فشرطها الأوّل هو **إتقان اللّغة الفرنسيّة**، وذات الشّرط تشترطه الآن على العمالة الأجنبيّة التي أصبحت في مرحلة التّقاعد لتسويّة وضعياتها الإداريّة؛ من إقامة دائمة أو مشروطة، ويلمس هذا في بلجيكا وهولندا والدانمارك والمجر والنّمسا وألمانيا. ونلاحظ بأنّ عامل اللّغة أساس في الإدماج المجتمعيّ؛ لأنّ اللّغة هي التي تعمل على وَحْدَة الفكر، فإذا كان اقتصادُ البلد جيّداً، والمجتمع مُتعدّد الأفكار، فلا فائدةَ في ذلك الاقتصاد، فسوف ينهار بين عشيّة وضُحاها؛ بسبب الحروب اللّغويّة. وقد

حَصَلَ في بلجيكا أنّها بقيت دون حكومة لأكثر من ستة (6) أشهر بسبب الخلاف اللّغويّ بين النّاطقين بالفرنسيّة والنّاطقين بالفلامانيّة. **فهل نعتبر؟**

ونفرض أنّ دولنـــا العربيّة تشترط هذا الشّرط على العَمالة الأجنبيّة، فنجد ثمانيّة (8) مليون عامل أجنبي في الخليج لا يتكلّمون العربيّة، فتفرض عليهم شرط إتقان العربية؛ ألا يكون ذلك من الفتح الكبير بالنّسبة للعربيّة، ألا يمكن أن نقول: إنّه توسّع غير مباشر، وامتداد للعربيّة وللدين الإسلاميّ في آسيا والهند على وجه الخصوص؛ ولأنّه لو اشترطت على كلّ فرد إتقان العربيّة سوف تحصل هناك استثماراتٌ في تدريس العربيّة خارج أوطانها، فكم من مُعلّم يتوظّفُ، وكم من كِتاب يُطبعُ، وكم من مدرسة تُبنى، وكم من كتاب يُترجمُ... حراكٌ اقتصاديٌّ كبيرٌ وهو استثمار مادي للغة العربيّة خارج أوطانها.

وفي هذه السّياسة التي تنتهجها فرنسا الحريّة والمساواة والإخاء، وهي التي تُنادي بالحقوق اللّغويّة، وبحقوق الأقليات، وتمضي على الاتّفاقيات الدّولية التي تنصّ على أنّ الاندماج اللّغوي يقرب إلى التّماثل، ويستلزم التّقليص من الفوارق ولكنّه لا يشير إلى محو شخصيّة الآخر (المندمج) وهذا ما تنصّ عليه الاتّفاقيات الدّوليّة "إلاّ أنّ الاندماج يعترف أيضاً بحقّ الأجانب في الاحتفاظ بمرجعياتهم الثّقافيّة الخاصّة بهم؛ طالماً أنّها لا تتعارض مع الأسس التي يقوم عليها المجتمع الذي استقبلهم. فمن غير المُجدي أن تلزم أُناساً بالتّخلي فجأة وبعنف وبالكامل عن كلّ تقاليدهم. وعمّا يُشكّل هويّتهم، وإلاّ سيحدث ما هو عكس ذلك تماماً؛ حيث يكون

الطّريقُ مُمهّداً للأصوليّة والإرهاب[1]". ماذا يمكن من تعليق، فإذا حدث هذا عندنا لقلنا إنّه إرهاب فكري وتخلّف ذهني، وعقلية بدائية، ولكن إذا كان من الغرب فنعدّه من فِعْل خاصّ وهو عمل جيّد بالنّسبة إليهم، وليس عملاً جيّداً لو يحدث عندنا، **فهل من اعتبار** أيّها الأنام؟

يمكن القبول بالاندماج المجتمعي، شرط أن تكون لنا الحصانة الاجتماعية من واقعنا، وأن نندمج في غيرنا بغية الإفادة منه، لا أن ننتقل إليه، مثل الذي يتعلّم اللّغة الأجنبية ويفيد منها، عكس الذي يتعلّم اللّغة الأجنبية ويبقى فيها. وبكلّ ذلك يمكن أن يمثّل لاندماج الاجتماعي نوعاً من التّكامل لبناء أرضية جيدة لسياسة تنموية توفّر شروط مثالية أو مرغوبة تُحقّق مشاركة جميع المواطنين بفئاتهم وأصولهم المختلفة في التّنمية كصانعين لها ومستفيدين منها. والتكامل والاندماج الاجتماعي يقترب أيضاً كمفهوم في الصيغ المناسبة لإدارة التنوّع والتعدّد الثّقافي ويحوّل التباينات الاثنية والدينية واللّغوية لأشكال تُساعد في بناء الوَحِدة على أساس التنوّع.

ومع ما ذكرناه من تضييق الفرنسيين على الخصوصية الفرنسية في المجال الثّقافي، فإنّ فرنسا تحت ضغط العولمة بدأت في توسيع دائرة الاندماج الجمعي من حيث اعترافها بجميع المُهاجرين كعناصر مُكوّنة لفرنسا، وتقترح تأسيس يوم تذكاري حول مُساهمة المُهاجرين، وإنشاء مُتحف للحركات الاستعمارية، ويتعلّق الأمر بإدراج (تاريخ حركات السّكان) في المُقرّرات المدرسية؛ أي الاستعباد

1ــ Camille Cabana "معهد العالم العربي" Arabofrancophonie © L'HAMATTAN تر: جيهان عيسوي، ط1. القاهرة: 2005، المجلس الأعلى للثّقافة/ المشروع القومي للتّرجمة. عدد (الفرنكفونيّة العربيّة دراسات وشهادات) رقم 790، ص 84-85.

والمُتاجرة بالسود والاستعمار وتصفيته، وحركات الهجرة واللاجئين وما له علاقة بحركات الهجرة الناتجة عن الثّورات في البلدان العربية والغجر، وهذا ما تُظهره بعض وثائقها الداخلية، وقوانين الجمهورية الخامسة مؤخّراً فقط، وفي بعض التقارير الخاصّة والتي كانت سريّة. فهناك تقارير تقول: هناك إلغاء شرط الجنسية للحصول على العمل؛ سواء تعلّق الأمر بالمناصب العمومية أو في القطاع الخاص. وهناك وثائق تنصّ على فرض "عقوبات على عدم التّعيين" من أجل تثمين مبدأ "العيش معاً/ Vivre ensemble" وترسيم جُنحة "التحرّش العنصري" الذي يأخذ بعين الاعتبار الألفاظ العنصرية والإهانة بسبب النّسب العرقي. وهذه الأشياء من الممهّدات لمجتمع ما بعد الاستعمار، وهو استعمار ثقافي تسخيري، دون خصوصية وثقافة، ودون مشروع حضاري، ودون رابطة قديمة؛ أي دون تاريخ.

13ـ النُّخب الوطنيّة وقابليّة الرّكوع

يُؤدّي بنا هذا العنوان لنردّد قول (مالك بن نبي) المعروف والمشهور (**القابليّة للاستعمار**) عندما رأى الشّعوب العربية التي لم تقُم لها قائمةُ التّصنيع، رغم أنّها كانت السّباقة في التّصنيع، ولم تعش عصرَ الضّعف، فقد عاشت عصر الأنوار وهو يكرّر مقولة: لماذا تقدّم غيرُنا وتأخّر العربُ والمسلمون؟ أين الخللُ؟ وأكّد ذلك العالم الموسوعي (مولود قاسم) في مقولته المشهورة: (**القابليّة للمركوبيّة**). ومن وراء ذلك نأسف على وضعنا الحالي الذي يسير سريعاً القهقرى، فأين الخللّ؟ ثمّ ما الحلّ؟ كما يتحتّم عليَ الموضوع إعادة ما قلته في كتابي (النُّخبة والمشاريع الوطنية) وهذه الإعادة تدخل في إطار الحثّ على ضرورة الاهتمام بالمواطنة في كلّ أبعادها. وفي الشّأن اللّغوي –ندخل في باب التكرار– يجب التّذكير بأن اللّغة الفرنسية لم تشتعِلْ في فترة دولة الاحتلال، وهذا واقع معروف، ولكّنها اشتعلتْ في دول الاستقلال، ولم تنل المساحات الشاسعة عندنا في الجزائر إلاّ بعد التّسعينيات؛ بعد الانفتاح السياسي؛ حيث وقع التّسامح في كلّ الأبعاد. ولهذا نجد النُّخبة الوطنية لم تقم بدورها الرّيادي القائد نحو المُواطنة والحفاظ على القِيَم والخصائص، بل نراها تتماهى في التّبعية المُطلقة نحو فرنسا، ذلك ما أسالَ كثيراً من المداد حول هذا الوضع غير الطبيعي. ومن هنا أردنا تنبيهَ أولي الأمر بأنّهم مسؤولون أمام هذا التّدهور المُخلّ بالأداء الوطني، وأنّ الوطن يدعوهم إلى عدم التّماهي في الغير وفي لغة الغير. وإنّه إذا كانت النُّخبُ مُحافظةً على الثوابت، فالمَقُودون تابعون وإذا كان المعلّم مُخلِصاً في مهامه؛ فالتّلاميذ مُقلّدوه، وإذا كان السّياسي مُحترِماً الدستور؛ فالشّعب مُقدّسوه.

وبات الوضع في دُوَل الاستقلال عكس ذلك بِفِعْل أفعال، وبِفِعل القهر اللّغوي الفرنسي الذي علِق بنُخبتنا، وأصبحت تلك الشرنقة الفرنسية لا مفرّ منها، فهل ليس

هناك من حلول؟ وهل لا توجد وصفات التّخلّص؟ وهل هناك أمم مثلنا استطاعت الخروج من أسئلة لغة المستعمِر؟

لسنا هنا في موقع إظهار العيوب، والإشادة بالنقائص، لسنا هنا في إطار الدعوة إلى تنميط تفكير النُّخبة، أو تدبيج خطاب الوعظ، بل نسعى أن تكون النّخبة الوطنية العربية تجاه الشأن العامّ موَحّدة، فأنْ تختلف في المناهج والطرائق، فذلك أمر جيّد ومصيب، لكن الغايات والمرامي واحدة، والوصول إلى مكان واحد هو الهدف وليكن من طرائق متعدّة. وفي هذا المجال أن تكون لنا العبرة من النُّخبة الغربية التي تقصدها الساسة وتستشيرها؛ فهي نخبة عضوية موجّهة، تقود المجتمع المدني بتأطير وطني، ولها مواقع التأثير؛ لأنّها تربط نفسها بالمجتمع. وهذا ما تقوم به النّخبة الفرنسية على الخصوص، فهي تؤثّر في القرار لما لها من أثر في المجتمع من ذلك حصل التلاقي بسن فكر النُّخبة وقرار السلطة. النّخبة الفرنسية مثقّفة وحاملة لهموم المواطن والوطن فذابت في المصلحة العامّة، فيلتقي اليسار، واليمين الوسط، واليمين المتطرّف، والشيوعي، وكلّ المؤسّسات في المصلحة العامّة، كما التقت سنة 2001م عندما دعا الحزب الاشتراكي بقيادة (Jospin) إلى الاعتراف باللّهجات الوطنية على أنّها من التراث الفر نسي، فهبّوا دفعة واحدة: **لا للهجات.**

نريد نُخبة وطنية عربية على غرار أولئك الذين احترقوا من أجل خدمة بلدانهم نريد نخبة من نوع (محمد عبده+ ابن باديس+ رشيد رضا+ مالك بن نبي+ مولود قاسم...) نخبة اختلفت في نظراتها وأفكارها، ولكنّها ذابت في عروشها ووطنيتها فخدمت بلادها، وبقيت خالدة وهي الرموس الدفينة. نريد نخبة تحمل همومنا وتعمل على اقتراح الحلول لها، بل تجسّد الأفكار النيّرة لتي تكون الهدى والمهتدى. فالخلود لا يكون إلاّ للنّخبة الفاعلة، والبقاء للرجل الرشيد، وللذي يعمل على التغيير إلى ما هو أحسن.

1/13ــ المثقّف والشّأن العامّ: وهنا نتكلّم عن **المُثقّف العضويّ**؛ أي ذلك المُثقّف المندمج في مجتمعه ضمن التزامات المُثقّف الفكريّة، ويسمّيها (محمد عابد

الجابري) بـــ "التزامات المثقّف بقضايا الفكر والشّأن العامّ". فالفائدة من وراء هذا كيف يكون المثقّف المجتمعيّ وفيّاً لمقتضيات مجتمعه، فما الفائدة من المثقّف إذا لم يشمّ همومَ المجتمع، وينقل معاناتهم، ويعبّر عنها، فالقُرب من المجتمع حالةٌ واقعيةٌ ومسؤوليةٌ أخلاقيّة. ولذا فإنّ مقتضياتِ الحال تستدعي من هذا المثقّف أن يكون فاعلاً في مشاريع التّطوير التي يحتاجها مجتمعُه ويكون صوتاً لهم للتّعبير عن همومهم؛ لأنّ المثقّف –في الحقيقة– فاعلٌ اجتماعي عليه أن يدسّ أنفه في الشّأن العامّ، ويحاولَ التأثيرَ في وعي المجتمع ويحملَ هموم الآخرين، ويحاولَ التّأثيرَ في المجتمع وفي السّلطة وفي أجهزة المنظّمات؛ مُستثمراً وسائطَ الإعلام ومُؤسّسات المجتمع، والحال هذه تدعو المثقّف أن يكون كالواعظ؛ حيث ينزل إلى المَحَال العُموميّة، ويتكلّم للنّاس وينصح لهم.

وكما قلنا؛ فإنّ مثقّف الشّأن العامّ يعمل على التّغيير، ويتحمّل مسؤوليات عمليّة وأخلاقيّة لمواجهة المجتمع بكلّ ما يحمل من تناقضات، وله دوره في البناء وفي الممارسات الحقيقة لكلّ أشكال التّواصل البينيّ، بما تحمل الممارسات من برامج لتحصين ثقافته وأمنه الثّقافيّ، وفي ذات الوقت يكشف عن غياب الدّيمقراطيّة وعدم وجود المؤسّسات، وعن تصرّفات الحاكم إذا كانت غير متوافقة مع الثّوابت ويشجّب ممارسات أهل النّفوذ. ذلك هو المُثقّف المُجتمعي بامتياز، وتتمّ تصرّفاته هذه عن الغيرة الوطنيّة، فهو مُثقّف يتفاعل ولا يذوب، يتميّز ويضيف، يصارع من أجل البقاء على أرضه. ذلك المثقّف الذي نُسميه **(مُثقّف الشّأن العامّ)** مُثقّف جماهيري غير مُتعالٍ؛ ينظر إلى علاقاته مع الناس كمن ينظر إلى أفراد بيته مُتفانٍ في إنكار الذات خدمةً للمصلحة الوطنية، مُثقّف يجمع إلى المعرفة حسنَ الطويّة وبساطةَ القوّة. لا أتصوّر أن يكون هذا المُثقّف مَعصوماً، بل أنظر إليه من زاوية عملية أقرب ما تكون إلى مُلامسة الواقع بموضوعيّة، مُثقّف يتخلّى عن التّنظير، وأُنموذج العصر، ويكون مَليئاً بالمعلومات، وله إرادة ومُقوّمات شخصية قادرة على الإدارة، وتَحمُّل المسؤوليّة.

فإذا قلنا هذا، فما بال المثقّفين المغاربة الذين يختلفون في المسألة اللّغوية، فنرى (المهدي المنجرة) يقول: "إنّ الفرنكفونية هي سياسة اقتصادية لا مستقبل لها لأنّها تعمل بنحو أو بآخر على تأخير الوضع الاقتصادي الاقليمي وما دون الاقليمي في إفريقيا، كما أنّها تشجع على الشحاذة وتقدم الصدقة بصيغة مساعدة ليست هي كذلك إلا بالاسم. وهذا ما يذهب اليه كتاب بعنوان الفرنكفونية ومأساة أدبنا الفرنسي للدكتور بنسالم حميش الذي قال إنّ الفرنكفونية ثقافيا لا مستقبل لها لأنّها تهدد التجانس المنشود داخل كل مجموعة ثقافية متأصلة لغويا كالمجموعة العربية بحيث إنها تتحرك في هذه الأخيرة كنشاز، وتسهم عمليا في تهميش وتبخيس العربية في بورصة القيم اللّغوية المهيمنة، معتمدة حتى على ثغرات إعادة التعريب وصعوباتها. ويشير إلى أنّ تاريخ فكـــرة الفرنكـــفونية يعود إلى أواخر القرن التاسع عشر، حيث كان واضع مفهومها هو الجغرافي أونيسم ريكلو الذي توخى منها ــ كما سجل في كتاباته سنة 1889 ــ تعبيراً عن (فكرة لسانية وعلاقة جغرافية) وأرادها أداة لتنحية اللّغة العربية والديانة الاسلامية معاً. ونقرأ بعض الكتابات الاحتشامية تأتي متساهلة في الخطاب فهذا (حشادي حميد) في بحث له (مكانة اللّغة الفرنسية في المغرب) يشخّص الوضعية باندهاش، وهو ما يدفعه للدعوة إلى ممارسة الاهتمام بالوضع اللّغوي في المغرب، ويقول: إنّه وضع غير صحيح. ونقرأ للباحث (بودهان) عن أنّ الفرنسية، وإن كانت لغة أمّ بالنسبة للدولة بالمغرب، أي السلطة ومؤسّساتها فإنّها لا علاقة لها باللّغة الأمّ للشعب المغربي التي تبقى هي الأمازيغية والدارجة. ونرى (الشامي) يقرّ بالانفتاح على الفرنسية واللّغات المتقدمة الأخرى في التّعليم المغربي ويبقى ضرورياً، مبرّراً ذلك بـــ"تخلّفنا في الميدان العلمي والتقني والتكنولوجي". إلا أنّ الشامي يستدرك القول بأن هذا الانفتاح يجب أن يكون مرحلياً، وذلك ريثما يتمكّن المغرب عن طريق الترجمة والبحث العلمي والإنتاج المعرفي، من تطوير ما نصّ عليه الدستور في الحقل اللغوي: "لا يمكن أن يتقدّم المغرب إلاّ بأدواته اللّغوية النابعة من الأرض

المغربية لكنه لا يريد أن يقدم على أي شيء في هذا المجال، لذلك يلجأ إلى الحلّ السهل وهو استعمال اللّغة الفرنسية في التعليم العالي بالأخصّ، وهو الأمر الذي سيحكم عليه بالتبعية الدائمة". وهناك الكثير من النّخبة السّكوت أو النُّخبة الخبزية فلا هي من هذا، ولا هي من ذاك. أو ربّما هذه النّخبة اتّعظت من الجيل السابق فلازموا السّكوت، أو لهم أولويات تعويضية مَهمّتها الإعراض عن المشكل اللّغوي والتّخلص منه بأيّ ثمن.

أين الرأي الصواب من هذه النُّخبة المغربية، فأمامنا معطيات في صالح الفرنسية في بلد المملكة، وتقول المعطيات "إنّ حضور اللّغة الفرنسية سيتعزّز في المغرب على حساب اللّغة العربية، وبأنّ منطقة المغرب الكبير تجمع أكثر من 44 في المئة من عدد المنخرطين في المعهد الفرنسي التابع للدولة الفرنسية، مقابل توزّع النّسبة المتبقية على بقية دول العالم. ويبلغ عدد الناطقين بالفرنسية في المغرب، حسب دراسة أنجزتها هذه المنظمة سنة 2010، حوالي 10 مليون و366 ألفاً، أي بنسبة تصل إلى 32 في المئة من عدد السكان مشيرة إلى أنّ المغرب يعرف مجموعة من الأنشطة على مدار السنة التي تعزّز من حضور الفرنسية. ويبرّر الكثير من المدافعين عن "الفرنسية وجودها القوي بالمغرب إلى ما قدّمته لهذا البلد خلال فترة الحماية، وخاصّة في ما يتعلق بالبنى التحتية، حيث ما زالت الكثير من الطرق ببعض القرى شاهدة على الحضور الفرنسي، زيادة على العلاقات الاقتصادية والثّقافية القوية بين البلدين، ففرنسا تعتبر شريكاً اقتصادياً أساسياً مع المغرب، والجالية المغربية هناك تعتبر ثاني أهمّ جالية في فرنسا بعد الجالية الجزائرية. في وقت تتحدّث فيه آراء أخرى عن أنّ تطوّرات الزمن صارت تحتم التخلّي عن هذه الفرنسية وتعويضها بالإنكيزية كلغة أجنبية أولى، وهي التي تعتبر اللّغة الأولى في العالم المستخدمة في الكثير من المجالات.

وفي كلّ هذا، لا نعدم أنّ اللّغة العربية هي أهمّ مكوّن حضاري ضَمِنَ للمغاربة انسجامهم الفكري، وأمنِهم الثّقافي قروناً عديدة، ارتكازاً على وحدة المرجعية

اللّغوية في العلوم والمعارف والدبلوماسية، في انسجام تامّ مع أنساق لغوية في التواصل العامّ. كما يضاف إلى ذلك بأنّ العربية لغة رسمية للمغرب بنص الدستور، فإنّ كثيرا من المسؤولين في المواقع المختلفة عن الأمن الثقافي والاجتماعي يتنكبون عنها بطواعية واختيار، ويستعملون غيرها من اللّغات، وهو ما يصيب السيادة والاستقلال في الصميم، مما مهّد لإبعادها عن أغلب مجالات الاستعمال في البلاد، وفي أقلّ الحالات، لنخرها بالتلويث اللّساني الذي شوّش على طبيعتها، وعلى خصائصها التداولية، فامتدّ التلوّث كذلك إلى الدوارج، حتى صارت لغةُ الشباب والنشء خليطاً من الهجنة التي لا تفصح عن هُوية. إنّ أمر اللّغة العربية في المغرب أضحى قضية استراتيجية ومصيرية، وليس ترفاً فكرياً أو ردود أفعال عاطفية، لأن اللّغة ليست مجرد ألفاظ وتراكيب وصيغ وأساليب فحسب، بقدر ما هي مكوّن من مكوّنات الأمّة ووعياً من المجتمع المدني والجمعية المغربية لحماية، كان على القوى الحيّة في المغرب العمل على:

ــ تفعيل مبادئ الدستور الواردة في شأن اللّغة العربية؛

ــ تقرير إلزامية استعمال اللّغة العربية في جميع التّعاملات الإدارية؛

ــ توظيف اللّغة العربية في مجال التدريس بمختلف المراحل والأسلاك والمؤسّسات التعليمية، وخاصّة في التعليم العالي؛

ــ إيجاد مؤسّسة وطنية تعمل على خدمة اللّغة العربية وتمكينها من اتّخاذ القرارات العلمية اللازمة لتعزيز اللّغة العربية، وتعميم استعمالها في جميع المجالات؛

ــ العمل على أن تكون القوانين المنظمة لوسائل الإعلام بمختلف أنواعها منسجمة مع بنود الدستور وقوانينه في شأن اللّغة العربية، ومحاصرة للفوضى اللّغوية السائدة في هذه الوسائل، التي تناقض أهداف تكوين الناشئة في السلامة اللّغوية؛

ــ رفض أو مناهضة الدعوة إلى التلهيج، لأنّها دعوة إلى التفرقة ورسم الأخاديد بين مكوّنات المجتمع المغربي، وإهدار للطاقات التي يجب أن تصرف في خدمة اللّغة العربية الجامعة.

ومن هذا المنظور، فإنّ المغاربة في عمومهم جدّ متسامحين مع المسألة اللّغوية التي اخذت منعطفات غير وطنية، فأبعد التيار الفرنكفوني العربية واقام الفرنسية مقامها، ولسنا ندري كيف تسمح النُّخبة المغاربية بتحويل بلاد المغارب إلى بلاد الهامش، كيف تسكت النُّخبة عن تحويل بلادها إلى مطرح نفايات فرنسا، تقبل باستيراد البضائع الثّقافية المنتهية الصلاحية، وتعمل على تزوير تاريخ صلاحيتها؛ لإعادة ترويجها في العالم كبضائع صالحة الاستعمال. وعلى قائمة هذه البضائع (المنتهية الصلاحية) تحضر اللّغة الفرنسية، التي يسعى اللوبي الفرنكفوني في بلاد المغارب إلى تزوير تاريخ صلاحيتها، مع أنّ السوق اللّغوية الدولية، تؤكد بالأرقام التراجع المريع الذي تعرفه الفرنسية في العالم؛ فهي تحضر دائما في مؤخّرة التصنيف، وإذا أضفنا إلى ذلك الاختراق اللّغوي الأنكلوساكسوني داخل فرنسا يمكن أن نفهم بشكل جيّد جداً ما نقصد بانتهاء صلاحية استعمال الفرنسية.

ونعود إلى بلاد المغرب، فنقول: لا نعدم تلك النّخب التي لا تزال واقفة، وسبق أن رفضت الفَرْنَسَة وما تحمله الفرنكفونية من متاعب للشعب المغربي من أمثال الراحل محمد خير الدين، وعبد اللّطيف اللّعبي، وإدمون عمران المليح المغربي اليهودي المعادي للصهيونية، القاصّة رجاء بن شمسي... وهؤلاء على قلّتهم، مالوا في الأغلب الأعمّ إلى مقاطعة الفرنكفونية أو نقدها رافضين لعب دور حركيي آدابها، فكان عليهم بالتالي أن يُؤدّوا ثمن ذلك سلباً على صعيد عدم الإقرار بأدبهم وعدم نيلهم جوائز فرنسا، وعدم النشر، ورفض الإعلام لمكتوبهم.

ومن هنا، فإنّنا نريد نُخبة مغربية شُجاعة من هذا النوع، نخبة وطنية تعالج الأمر اللّساني نهائياً عبر مركزية اللّغة العربية التي تعتبر مركز الهوية بالإضافة إلى الانفتاح على اللّغة الإنكليزية، التي تفرض نفسها اليوم كلغة تواصل علمي

وفكري وحضاري وعالمي. وّيتطلّب من النّخبة شجاعة سياسية، تمكن صناع القرار السياسي في المغرب الكبير، من التمييز، بين العلاقات الاقتصادية والسياسية الاستراتيجية مع فرنسا، وبين التبعية ثقافياً ولغوياً وحضارياً لفرنسا، وذلك لأنّ هذه التبعية العمياء لا يمكنها أن تساعدنا في بناء شخصيتنا الوطنية، بخصوصيتها العربية/ الإسلامية/ المازيغية/ المتوسطية /الإفريقية، بل ستفرض علينا بُعدا استعماريا واحدا، تجسده اللغة الفرنسية، ليس باعتبارها لغة تواصل علمي/ فكري ولكن باعتبارها سلاح المعركة التي قادها المستعمر الفرنسي، لاستئصال جذور هذه الهُوية المتعددة المشارب التي ساعدت اللّغة العربية والدين الإسلامي في ترسيخها، من خلال الإيمان بالتّعددية والاختلاف والانفتاح".

2/13 ــ وَهْمُ المُثقّف العربيّ: علينا الإقرار بأنّ الكثير من المُثقّفين العرب لم يخرُجوا بعدُ من أوهامهم، فلا يزالون في وَحْل السّقوط والتّراجع، كما لم يَعُوا آليات القرن الحاديّ والعشرين، وبَقَوْا يعيشون في الأحلام التي تلدها أوهامُهم الورديّة، وبذلك انقطعوا عن الواقع؛ لأنّهم لم يحملوا همومَه. نعم لقد بقيَ مثقّفونا يقيسون الحاضر على الماضي، ويُردّدون سؤال النّهضة المُلتويّ تحت مُكوّنات اللّغة والوعيّ والتّاريخ والنّهضة والتزام الدّين، وهو سؤال قديم كان مثقفو السّبعينيات يرفعونه ويستشهدون بقرون التّنوير الأولى، فبقَوْا كذلك يعيشون وَهْمَ طيفِ فكرٍ قديم، على أنّ النّهضة ستعود ذات يوم إذا امتثلنا تلك الأيام. أليس من الأجدر بنا قبل أن نندبَ حظَّنا العاثر، أن ندع الماضيّ الزّاهر وننقل ثقافتنا من مرحلة من الماضيّ ومن الارتهال الحاليّ إلى مرحلة الممارسة الفعليّة، ونعمل على تقديم التّضحيات؛ كي نحسّ أنّنا مواطنون لا أرقاماً، ولنا مسؤوليات تجاه هذا المجتمع. ليرفع المثقّفُ هاجسَ النّهوض ضمن سياق العصر، وفي إطار نهضة إبداعيّة وخصوصيّة معادلة وجامعة للأبعاد الحضاريّة والفكريّة والجغرافيّة، وهذا بجرّة قلم منبّهة تشبه الصعقة المذهبة لكلّ ذهول. أليس المثقّف مُبدعاً، ويملك الرأسمال الرّمزيّ وعن طريقهما يعمل على تقديم ثقافة وحضارة، ولا فرقَ بين

الثّقافة والحضارة باعتبار أنّ الثّقافة ترسم مكانة الأمّة وقيمَها الحقيقية والحضارة وهي معالم التّواصل والبناء في إطار المشاركة الإنسانيّة. أليس من مَهام المثقّف أو النّخبة العربيّة إبراز النّشاط الثّقافيّ الذي يرسم الصّورة الحقيقيّة لما تقوم به تلك الأمّة من مشاركة في الحضارة الإنسانيّة، وباعتبار الثّقافة هي التّنمية التّراكميّة للأجيال، وخاضعة لعمليات الطّفرة، وبين التّراكم والطّفرة تتحرّك الثّقافة فيحصل الإبداع، والإنسان مُحرّك كلّ ذلك باعتباره مثقّفاً "الإنسان مخلوق ثقافيّ، وثقافة كلّ شعب هي التي تُحدّد شخصيته وتُثبت هُويتَه؛ لأنّ الثّقافة بدورها من صُنع المجتمع ومن خلقه. إنّ هذا التّلازم بين الثّقافة والمجتمع يجعل منها حقيقةً واحدةً متكاملة[1]". إذاً كان على المثقّفين العرب الالتزام بأبعاد مجتمعاتهم، عن طريق التّفعيل ضمن المثاقفة ومواجهة الثّقافات، ويكونون في موقع الندّية كي لا يحصل ضيمُ الثّقافات الأجنبيّة على ثقافتنا؛ ولهذا نروم منهم أن يضعوا الثّقافة الوطنية والحضارة في خانة واحدة، ويعملوا على سدّ الفجوات المُخلّة بسوء أداة التّرجمة أو المثاقفة. وكان على مُثقّفينا أن يكونوا مُلتزمين بسدّ الفراغ الثّقافيّ والخواء الفكريّ، واستيعاب عناصر الهُويّة الثّقافيّة والدعوة إلى صيانتها وتعزيزها، وهي ليست دعوة إلى الانعزال أو الانكماش بقدر ما هي الوقوف في موقع الندّية.

ومرّة أخرى أقول: إنّه –لسوء الحظّ– إنّ بعض المثقّفين العرب تَخَلَّوْا عن الإبداع النّقديّ الذي يحمل مرجعيّات الإصلاح، كما تَخَلَّوا عن دورهم في خضم التّحوّلات المُعاصرة، وأصبحوا لا يبذلون جهداً تجاه مصالح الآخرين؛ فانكفؤوا على أنفسهم، فلم يصبحوا أولئك المثقّفين الذين يشكّلون امتداداً للمثقّفين النّقديّين والذين كانوا يلعبون دورهم في كشف الممارسات السّلبية، بل نجد الآن الصّحافيين أكثر جُرأة من أولئك المثقّفين الذين يتفرّجون وينتظرون الفرصةَ المُتاحة للظهور؛

1ــ محمد صالح الجابري "قراءات في واقع الثّقافة العربيّة" المجلة العربيّة للثّقافة. تونس: 1998 المنظّمة العربيّة للتّربية والثّقافة والعلوم، العدد 11، ص 101.

والتي لا تأتي دون حَراك. أين الثّورة على النّفس ومراجعة الذّات؟ أين الهزّة الفكريّة؟ أين المثقّف المبدع الذي يحسّ بالمشكلة ويمتلك آليات تحليلية للتجديد والتقدّم وصياغة القيم وحلّ المعضلات. إنّ بعض الفئات من المُثقفين العرب بَقَوْا في منفاهم اللّغويّ بعيدين عن الدَّمج أو الاختلاط بسبب عامل اللّغة، وهذه الفئة في الحقيقة يصعب أن تعبّر عن تطلّعات المجتمع بلغة المُستعمر السّابق؛ لأنّ التّعبير باللّغة الأجنبيّة يجعلها في شبه قطيعة مع المُجتمع المَحلّي، وفي عزلة أو عدم قدرة على الإبلاغ والتّواصل معه، بل كثيراً ما تكون قِيَمُها وتوجّهاتُها الثّقافيّةُ مرتبطةً أكثر بالغرب منها بالأمور الوطنيّة. وإنّ الهُوية الثقافيّة لكلّ أمّة تقتضي عدداً من العناصر منها:

ــ وجود تراث روحيّ – ماديّ يشعر كلّ فرد أنّه جزء منه، وأنّه مُكوّن له في الوقت نفسه؛

ــ انتماء إلى ثقافة معيّنة يشعر كلّ فرد بالوجود ضمن إطارها وبالتوحّد معها وبالمشاركة فيها وبالحريّة ضمن أجوائها؛

ــ وجود شخصيّة اجتماعيّة مُحدّدة تربط أفراد الأمّة بعضهم مع بعض في لغة واحدة، وعادات وتقاليد متشابهة، وخصائص في العمل، والتّذوّق في الإبداع الفكريّ والفنّيّ متماثلة، ومنظومة القيم الروحيّة والأخلاقيّة والجماليّة واحدة.

وبهذا كانت ثقافة الأمّة العربيّة قوام شخصيتها والمعبّر الأصيل عن تطلّعاتها والدّعامة الحقيقيّة لوحدتها الشّاملة، وكان الحفاظ على تراثها وانتقاله بين الأجيال وتحديده هو ضمانة تماسكها ونهوضها بدورها الإبداعيّ المتجدّد[1]". ويمكن التّعليق على هذا بالقول: إنّه لا يمكن أن تحصُلَ الهُويّةُ الوطنيّةُ في ظلّ الاختراق الذي نعيشه على كثير من الصُّعُد، كما لا يمكن أن تحصل الطَّفرة المنشودة في إطار

1ــ المنظّمة العربيّة للتّربية والثّقافة والعلوم "الثّقافة مستودع الهُويّة والأصالة" مجلة المنظّمة. تونس: 1990، عدد: الخطّة الشّاملة للثّقافة العربيّة، ص 50 ــ51.

البَيَات الذي نعيشه بفضل عمليّات التّواكل التي أتخمنا بها في إطار المكتوب الذي نحتجّ به في كلّ عمليات الفشل: **فشل** في بناء منهجية خاصّة، **فشل** في التّنمية فشل في التّعريب، **فشل** في القضاء على الأمية، **فشل** في الإصلاحات التّربويّة فإلى أين المصير؟ ومن هنا، فما حقّ المثقّف في هذا **الفشل**. لا يمكن أن نُخرج المُثقّف من هذا **الفشل** أو من تلك الإعاقات المُحقّقة، بل إنّه شريك في كثير من العمليّات؛ لأنّه لم يعمل على اقتراح ما يراه من حلول، فأصبح المثقّف وجهاً من وجوه **الفشل**؛ لأنّ النّخبة السّاكتة؛ نخبة لا فائدة منها، بل هي شريكة في صنع **الفشل**.

قد يُعذر المثقّفون الذين تمسّهم هذه الأمور، وهم يعيشون عالم غير العالم المرئيّ، وفي لغة الآخر، بل يحاولون أن يُرْسوا قواعد النّهضة المفترضة؛ لكن يصعب أن تجد أفكارُهم أعشاشَها، وقد نعذرهم من جهّة بسبب أنّ "... الحاكم مُستبدّ، والمؤسّسات مُنعدمة، والرعيّة مضطهدة، والدستور معطّل والمواطن جاهل ومغلوب على أمره؛ يكابد العناء والانتكاس[1]". ومع هذا لا نعذرهم من جهة أخرى أنّ المثقّف مبدع وله رسالة ودور، ألا ينظر إليه المجتمع على أنّه صاحب المبادرات في اقتراح الخطط الثّقافيّة، أليس من مهامه أن يعمل على جمع مُكوّنات الثّقافة بعناصرها في مجال التّنميّة، أليس له أدوار في إشاعة الوعي بثقافته لدى النّاشئة والمجتمع، ألا يُنظر إليه على أنّه يعمل على العناية باللّغة العربيّة، ألم يحن الوقتُ أن يهتمّ بذوقه وفنّه في الرّفع من قيمة الإبداع في كلّ المجالات، دون أن ننسى دوره في مُجابهة التّحدّي الثّقافي بِوَصْفات مُهدّئة ومُتجانسة مع التّحدّي المُواجه...

1ــ نور الدّين الصّغير "القوميّة والحداثة في المجتمع العربيّ زمن الإصلاحيّة الأول ½ χ ومطلع ق χχ مجلة التّنوير. تونس: 1993، المعهد الأعلى لأصول الدين بجامعة الزّيتونة، العدد 1، ص 71.

نعم لا أنكر أنّه لدينا مثقّفون، ولكنّ الكثير منهم لا يحملون مشاريع القوم فَهُمْ زهقوا من تلك الحالات التي تضع المُتعلّم في المرتبة التي يديرها غير الأكاديمي؛ وهذا الأخير يتضامن مع المسؤول؛ فلا تُفتح له الأبواب؛ فَزَهَد المثقّفون وهم يعلمون عمق المأساة، ويعون كيفية الخروج أو التّصدّي لعواملها إلاّ أنّهم يرفضون أن يرفعوا وثيقة لمن لا يعترف بهم. هي مفارقة كبيرة تجعل المثقّف غير جاهز للرّمي في حقل مَشْبُوه، وفي مكان سُحبَ منه البساط، وسُرق منه الأمنُ، وهو يلاحظ بعض التّناقض في ضوء التّصوّر بإرساء دولة القانون، والاعتراف بحقوق الإنسان، وإنشاء المؤسّسات والشرعيّة المعاصرة للثّقافة من جهّة، ومن جهّة أخرى، يجد العثرات لا تزال، وإرادة الإصلاح غائبة؛ وهذا يعني أنّه وُجدت هياكل دون روح، وُجدت قوانين دون تطبيق، وأما الحديث عن الثّقافة التي وُضعت في الثّلاجة، وأغلق على الثّلاجة؛ فالفتح مؤجّل إلى أجل لا يأتي، إنْ لم يتحسّس المسؤولُ مُسدّسَه عند فتح ملف الثّقافة بلهَ الحديثَ عن الممارسة الدّيمقراطيّة، فهذا هو المعوّق الماديّ الذي يجعل المثقّف ينكمش على نفسه، ويقول: أنا ونفسي/ أنا وبعدي الطوفان.

لا أجانب الصّواب إذا قلتُ: إنّ النّخب العربيّة (المثقّفة) مُترهّلة تواكليّة وعاجزة عن بناء استراتيجيات وطنية، وغير قادرة على الوقوف في وجه التّحدّيات العاتية وتكره الإزعاج، وتنشد السّهل، ولا تشحذ وعيها الاستراتيجيّ بمفاهيم وأساليب وآليات جديدة للتّعامل مع الأزمات، ومع التّحوّلات المتسارعة، كما أنّها لا تنشد مُثاقفة متكافئة، فترى في التّقوقع خيراً وفي السّكوت معيشة وأمناً، فلا داعي لوجع الرّأس.

3/13 ــ المُثقّف والمُواطنة: ما أحوجَنا في هذا الوقت إلى مثقّف مُواطِن بمعنى مثقّف يقدّس المواطنةَ في صورتها المثاليّة، من حيث هي الوعي بالمسؤوليّة الأخلاقيّة والأدبيّة تجاه تأدية الواجبات قبل المُطالبة بالحقوق، فالمثقّف في هذا المجال مثله مثل المعلّم الذي يحمل خطاباً ديداكتيكياً ويسهر على تبليغه بما أُوتيَ

من حكمة وحنكة وسهولة، وبأيسر الطّرائق، وكذا المثقّف النبيه، فهو يتلمّس الحدّ الأقصى المشترك من المحافظة على الثّوابت الوطنيّة، وبخاصة الشّأنَ العامَّ ويعمل على الخروج من اليوميات السّطحيّة إلى عمق النّهوض، واستثمار العناصر الكليّة وفق نموذج اجتماعيّ حضاريّ؛ ينطلق من قيَمِه الإسلاميّة، ويعيد بناء مستقبل حضاري بتنزيل تلك القيَم على الواقع، وكأنّه يحمل رسالةَ التّطوير التي ترتقي بسلوك **(الجماعة الأمّة)** إلى مستوى وقِيَم الاجتهاد والجهاد والإخلاص. فالمثقّف صاحب الشّأن العامّ يعمل على تبليغ المواطنة دون إهمال أو عدم اكتراث "عدم الاكتراث أو خلو الذّهن من كلّ شعور بروح المواطنة يؤدّي إلى إهمال كلّ إخلاص، بل اهتمام بالشّأن العامّ، وذلك لهيمنة المصالح الفردية على تفكير وسلوك الشّخص بحيث يغلب عليه منطق الأنانيّة وحبّ الذّات[1]". وإنّ هذا همّ من هموم النّهوض عند المثقّف المجتمعيّ الذي هو ارتفاع عن الواقع نحو موقع أعلى وآفاق أوسع أو عمل دائم لجعل الحياة لدى الآخرين عطاءً حاضراً، ضمن آليات التّحدّيات التي يعيشها المثقّف بدل أن ينكفئ على نفسه دون وعْيِ أصالته بالذّات "الأصالة وعي بالذّات وحقيقتها الوجوديّة، وإدراك لحدودها الزّمانيّة والمكانيّة وتفاعل مع تحدّيات اللّحظة الرّاهنة وانطلاق منها لاكتشاف الماضيّ وتشوّف المستقبل"[2]. ولن يكون هذا بمتحقّق إلاّ بوجود مُثقّف مُشارك وفعّال يعي هُوّيتَه وأصالتَه دون أن يكون نسخة لغيره. ولكن هناك معطيات جعلت المُثقّف العربيّ غائباً أو مُغيّباً وهو لم يلعب دوره، فهُمش وما عاد له كلام. وإذا ذكرنا الحقيقة

---

1 ــ محمد الإدريسيّ المشيشيّ "دعم المواطنة بتأهيل المواطن المسؤول في دولة الحقّ" مجلة الأكاديميّة. الرباط: 2006، مطبوعات الأكاديميّة الملكيّة المغربيّة، سلسلة (ندوات) عدد يتناول أعمال ندوة (الوطن والمواطنة وآفاق التّنمية البشريّة) ص 174.

2 ــ لؤى صافيّ "المثقّف والنّهضة جدليّة الأصالة والنّهوض" مجلة الاجتهاد. بيروت: 2002 العددان: 52 ــ 53، ص 219

فإنّ المثقّف العربيّ لم يشارك في صُنْع القرار، ولمْ يَعِ مُتطلّبات الجماهير، ولم يُطوّر الحياةَ اليومية للمواطن البسيط، ولم يشحذ الهمم...

عَدَميات كثيرات، فأين المثقّف الذي يعمل على توليد ثقافة النّهضة، وإحداث إصلاحات ثقافيّة واجتماعيّة، وأين المثقّف المشروع، أو أين المثقّف الذي استلهم مشاريع الرّعيل الأوّل من النّهضويّين: الطهطاوي/ الكواكبي/ محمد عبْدُه/ خير الدين التّونسي/ ابن باديس/ رشيد رضا/ مالك بن نبي/ مولود قاسم...؟ وأين هذا المثقّف الذي حاول أن يطرح ما استلهم من تلك المشاريع الكثيرة، وقدّمها للمسؤول؟ أين المُثقّف الذي يعي آلياتِ النّجاح من الغرب الذين قدّموا لنا منهاجاً حديثاً لقراءة تراثنا؟ فنريد مُثقّفاً يحمل مشاريع النهوض، ويكون فاعلاً وسياسياً وينزل إلى حياة النّاس، ويتفاعل مع مشاكلهم، ويشمّ ما يشمّونه من غبار، ويكون قائدَ مسيرة الإصلاحات والتّغييرات، ومَهمّته إحداث نقلة ثقافية تُعيد للإنسان وعيَه ومسؤولياتِه، ويكون رجلَ أمّة يعمل على توليد مجتمع المدنية ذي النّزعة الإنسانيّة، ويرفض التّقوقع العقديّ، نريد مثقّفاً يحمل فكر الحوار وفلسفة التّعايش مع الآخر.

وإنّه جاء الوقتُ الذي نقول فيه: إلى متى حضورنا غيابٌ، وغيابُنا ذِهابٌ دون إياب؟ إلى متى نقرأ المستقبل بعيون الماضيّ؟ هل يلذّ لمثقفينا أن يَبْقَوا في أبراجهم متفرّجين على واقع مهترئ بالعَدَمِيات، وإذا اشتدَّ بهم الحالُ، فإنّ حقائبَهم جاهزةٌ للتّوجّه إلى بلاد الجنّ والملائكة، فهل هؤلاء من النّخبة الحاملة للشّأن العامّ؟ نحن في وقت لا نحتاج مُثقّفاً سلبياً، فنريده مُثقّفاً يحمل هاجس النّهضة؛ مُثقّفاً يوظّف الوسائل المعاصرة ويستلهم أفكار التّجارب النّاجحة وهذا هو فصل المقال الذي يحتاجه المُثقّف للاتّصال، وليكون ذلك حال إجراء نهضتنا على واقعنا، ولردم مُعوّقات التّخلّف المتمثّلة في التّربيّة والاقتصاد والتّعليم، **وإدارة الشّأن العامّ** والمعتقد، فنعمل على الجمع بين شروط النّهضة الممثّلة في الجانب الرّوحيّ العقليّ والشّروط السّياسيّة الاجتماعيّة، وبين شروط حمل هاجس النّهوض المعاصر

لتحقيق السّيادة "... وإذا كان العرب والمسلمون يريدون أن يكون لهم وزن دوليّ فعليهم أن يستمدّوا من منزلتهم في الإسلام ما يُؤهّلهم بالمثال الذي يقدّمونه ليُؤدّوا دوراً في تحرير العالم الإسلاميّ ممّا تردّى إليه من انحطاط روحيّ وماديّ، وتقديم مثال أعلى للإنسانيّة بجعلهم بحقّ شهداء على العالمين ولا يكون ذلك إلاّ بتحقيق شروط النّهضة؛ وهما: **الوَحدة والقوّة**؛ حيث إنّ الوجود الرّائد للحضارة العربيّة الإسلاميّة تحقّق عندما امتلكَ عبد المالك بن مروان رمزي السّيادة: التّعريب والعُملة[1]". وليست النّهضة عصيّة علينا إذا اعتمدنا ثقافة أصيلة، ووقع الاتّكال على زمن الحاضر، وقياس الحاضر على الحاضر؛ قياس العرب على أوربا الحاليّة وتجاوزنا العثرات وإيديولوجيا الإحباط والهزيمة التي انتشرت في خطاباتنا، ووقع التّركيز على حيويّة عربيّة، وعلى مُبشّرات النّهضة، وتصوّرنا إمكانية النّهوض في جدلية نهوض العرب مع وجود الآخر. وإنّه ليضعنا الوقت الحاضر –نحن المثقّفين– تحت مَسؤوليات بخصوص تحمّل تبعات الأزمات المعيشة، وعدم فلاحنا في تقديم علاج لها، فلم نقدّم الوصفات الحضاريّة للخروج من الأزمات، كما لم نقدّم وصفات التّنمية الوطنيّة؛ فبقيت بلدانُنا متخلّفة وتزداد تخلُّفاً، ونشاهد ذلك في تقارير التّنمية البشريّة، فلم نقدّم مشاريع بناء المُؤسّسات في الوقت الذي جاءت بعدنا دولٌ فبنت مُؤسّساتها "فقد بنت دولُ شرقي آسيا منذ السّتينات، مُؤسّسات كان لها اليدّ الطولى في النّهوض الاقتصاديّ. وهي تختلف وتتشابه بين مُؤسّسات التّخطيط وأخرى لتشجيع الاستثمارات، وثالثة للبحث والتّطوير ورابعة للتّمويل[2]" وهذه الدّول لم تغرق في البحث عن الحداثة، بل اختارت هدفاً هو التّقدّم والتّقدّم يحصل بـــ: **الاقتصاد واللّغة والأصالة**؛ فعملت على جمع أسباب نجاحها مُجتمعة

---

1 ــ أبو يعرب المرزوقي "النّهضة المستحيلة: قراءة المستقبل بعيون الماضي" قراءة: رضوان زيادة، مجلة الاجتهاد. بيروت: 2002، العدد 54، ص 323 ــ 324.

2 ــ الفضل شلق "الدّولة السّياسيّة والدّولة الاقتصاديّة" مجلة الاجتهاد. بيروت: 2002، العددان: 55 ــ 56، ص 10.

فحقّقت بذلك حداثة تستحقّ أن تُحتذى. دُولٌ حديثة بَنَتْ اقتصادَها عن طريق استيراد الأفكار والنّظريات ونشدان الأمثل من الدُّول المُتقدّمة، وصولاً إلى نظرية مُدمجة، لها طابع الخصوصية، فبزّت في ذلك دول قديمة في الصّناعات، بل إنّ هذه الدّول النّامية تفرّدت في صناعة النانوتكنولوجيّ. وأما في المجال اللّغويّ فلم تبحث مسألة الاستغناء عن لغتها، بل لم تُحاول التّفكير في دمج لغاتها بلغات الغير أو كتابة حروفها بحروف غيرها، فعملت على تطوير لغاتها بما اقتضته الأبحاثُ فأنتجت فيها وبها. كما أنّها حافظتْ على أخلاقها التّقليديّة فلم تُمذِج مجتمعها بمقاييس لا يقبله المزاج ولا التّاريخ ولا الأصالة فكان كلّ ذلك من جوانية آسيوية؛ باعتماد النّسخ بتصرّف عن المتقدّمين. وبكلّ ذلك حصلت لها طفْرات في الّصناعات الدّقيقة، وفي بناء الأبراج وناطحات السّحاب، وبناء الحداثة في بلاد الماء والزّلازل.

4/13 ــ المُثقّف والإصلاح: إنّ الإصلاحَ ليس عصاً سحريةً عاجلة، بل هو البداية الصحّية، والخطوة التّاريخيّة لفتح أبواب تمهّد الطّريق لمسيرة التّصحيح والمهمّ أن نبدأ في التّوجّه الصّحيح نحو هدف الإصلاح الشّامل دون تأخير وتسويف، فمسيرة الإصلاح هي الإصرار والصّبر والتّخطيط. والإصلاح أفضل من الثّورة والتّثوير، فنرغب أن يكونَ هناك مشروع إصلاحيّ ناضج في هذه اللّحظة التّاريخيّة التي بدأنا نستعيد فيها مواطنتنا فالإصلاح مَسؤوليّة وتضحية من الحكّام، واستعداد للتّغيير والتّطوّر والتّلاقي مع الشّعوب في منتصف الطّريق، وكلّ تأجيل إصلاح هو موت غير مُعلن ويدخل في الرّداءة، وفرض الأمر الواقع المرّ.

وإنّنا نملك من الحكمة والتّجربة ما يجعلنا بِمنْأًى عن إعادة المغامرات الثّورية التي ما حصدنا منها إلاّ التّخلّف والتّبعية، وكان علينا في هذا المقام أن نأخذ بتجارب الغرب، وبخاصّة تجاربَ أوربا النّاجحة، فنأخذ منهم ما يقبله عقلنا، ونترك ما يقبّحه عقلنا، ففي الفكر الغربيّ ثروة نحن بحاجة إليها نستمدّ منها في مرحلة نهوضنا وضعفنا، ولا مانع أن نقتبس عنهم الأفكار وقيام المؤسّسات، وهذا غير

مُخالف لشرعنا ولا لعاداتنا، فالعمل على قيام المؤسّسات شيء جيّد، بل هي حدود لسلطة الحاكم، أو هي الشّراكة بين الحاكم والمحكوم، وفي ذات الوقت هي سلطة القانون، ولا تزول بزوال المُسيّرين. كما لا ننكر أنّ أوربا متقدّمة علينا، وإنّها لم تنهض إلاّ بفعل تلك التّأثيرات العميقة والجذريّة التي أدخلتها الثّورات الفكريّة لعصر التّنوير، فلذا من الضّرورة الاستفادة من الخبرة الغربيّة مع الحفاظ على مُقوّمات حضارتنا الرُّوحية حتى نحصّن أصالتَنَا؛ لأنّ الأصالة إسمنتٌ قويٌّ تضمن الاستمراريةَ والتميّزَ، ولا مانعَ أن نأخذ العلومَ بلغتهم، فالحكمة ضالةُ المؤمن يأخذها من أيّة لغة تعلّمها، ودراسة العلوم الحديثة لازمة؛ لأنّ العلوم الدّنيويّة واجبة بغية العِمران، والعلوم الدّينيّة هامّة بغية الفضيلة.

ولهذا يُعتبر التّعليمُ الخطوةَ الأولى في عملية الإصلاح، بل هو رهان التّحدّي أو أساس في عملية النّهوض، ولا يكون التّعليم جيّداً إلاّ بالتّجديد في المناهج وفي طرائق التّبليغ وفي المضامين. وإنّ الإصلاح التّربويّ باب لإصلاح المجتمع، فهل نتّعظ بأنّ الدّول الآسيويّة تراهن لحدّ الآن على هذا القطاع لأنّه حسّاس، ومنه تخرج إطارات التّسيير، فكيف الحالُ إذا بقيَ الوضعُ على ما هو عليه من الرّداءة. وإنّه لمن المُخزيّ أنّه بعد حُصول الدّول العربيّة على استقلالها، وبعد تلك الشّعارات المرفوعة خلال السّنين الطّويلة نشهد تراجعاً في ميدان التّربية أو الثّقافة وعلى سبيل المثال في المجال الثّقافيّ، فقد بقيَ انحسارُ المجلات العربيّة داخل مؤسّساتها المنتجة لها، ومن المُؤسف أنّ الدّول العربيّة لا تدفع للثّقافة إلاّ النّزر اليسير، في الوقت الذي تسرف في الدفع على كرة قدم "إنّ العربَ يدفعون بسخاء من أجل كرة قدم، ولا يدفعون شيئاً من أجل خلق مناخ ثقافيّ عربيّ جاد يصنع الوطن الحرّ، والأمّة الحرّة، والوعيّ المحرّر، ويجعل الرّابح الأول هو الثّقافة العربية والحضارة العربيّة على مرّ التّاريخ، تلك التي خلدتها وأبقتها في ذاكرة

الأجيال، والزّمن الكلمة أكثر ممّا خلدتها (الكرة) التي ندفع لها ونندفع وراءها[1]".
أليس من المُؤسِف أن تزداد الأمور سوءاً كلّ يوم، فتبدو لنا أساليب التّواصل ضعيفة أو مشلولة، وما نزال نسيّج الحدود، ونشتري الأسلحة المُتطوّرة لمحاربة عدو وهميّ أو للتّعدّيّ على بعضنا البعض، ونستورد الثّقافاتِ ولا ننتجها، ومن ينتجها منّا يعاني الويلات "فمنتج المادة الثّقافية يعاني من مناخ الإبداع والتّواصل والإفصاح؛ ذلك المناخ المسكون بالقلق والرّهق وانعدام الأمان والاطمئنان، فبين تخلّق الكلمة وبدء نبضها في الوجدان وبين تحوّلها إلى كائن حيّ مُنطلق من شفة مبدعها أو قلمه، ينبتّ عدد من المخافر تتحكّم بمساراتها فتصبح تلك المسارات عدماً، كما تتحكّم بحمولتها فتتفحصها تأثيراً وتفسيراً، وكلّ ذلك يتمّ في ضوء رصيد الخبرة ومعايير الوقت واحتمالات الأوان، ويتأثّر بما أخذ ينصبّ من فخاخ التّرغيب والتّرهيب بفعل ميل الذّات وأنواع المؤسّسات[2]". وبذا نرى الأزمات تزداد والحلول مؤجّلة، والمثقّف مشدوه، فمن يعلّق الجرس؟

يجب العلمُ بأنّ لغة كلّ قوم هي صمَّامُ أمنهم الحضاري، وقوام حياتهم ودليل استقلالهم، وخزّان فكرهم، وآية تحضّرهم. ولذا تعمل كلّ الأمم على التّمكين للغتها وثقافتها عن طريق تعليمها ونشرها على نطاق واسع. ومن هذا المنطلق أريد القول بأنّ نخبتنا لم تعِ بعدُ سلطةَ اللّغة العربية على أنّها اللّغة الوطنية والرّسمية، ولها البناء الشّرعي والتّداول التّاريخي، وكان من قدر هذه اللّغة أن تنحطّ وتنهار في عيون أصحابها، ويكون ذلك مدخلاً للتّشكيك في علميتها، وهذا ما أثبتته الفرنسية في عقولهم؛ حيت تمّت السيطرة على أفكارهم من خلال الهيمنة الاقتصادية التي لا تخرج عن سُلطة اللّغة الفرنسية الأقوى؛ وذلك ما فتحَ البابَ لأصحاب الأغراض في الطعن في العربية، فتحوّلت مفاتيحُ العلوم إلى مغاليق.

---

1 ــ علي عقلة عرسان، دراسات في الثّقافة العربيّة. ليبيا: د ت، منشورات جمعيّة الدّعوة الإسلاميّة العالميّة، ص 188.

2 ــ علي عقلة عرسان، دراسات في الثّقافة العربيّة، ص 177-178.

وفي الحقيقة بدأت منذ دخول فرنسا أرضنا، فنشأت سدود بين الأمّة وبين نصوص الشّريعة، ووقع البعدُ من القرآن بسبب تأخّر العربية، وأضحى الخرق يتّسع على رقع كلّ اجتهاد ونهضة، وتتّسع مجالاته إلى عدم النّصرة والتّأييد فنعيش في وقتنا الحاضر زمن الاستقواء المعرفي والتّقني الغربي، وهذا الاستقواء لا يجد الجمارك المعرفية التي توقِفُه أو تُخضِعه للمراقبة. وكلّ ذلك لم يكن لو لم يحصل الضّعف في البناء الذاتي وفي مُقدّمات الإلحاق، وفي الاستتباع والاستلاب ونحن طيِّعون وأتباع مفعولون ومُجنّدون مُنساقون.

لقد تخلّى المُثّقف النّخبة عن حمل أو طرح أسئلة تطوير لغتنا، بل أجّلت إلى فترات قادمة، ودون تاريخ آت، وهذا بفعل الانبهار الحضاري، وما تحمله العولمة من استبداد، وبما أُصبنا به من داء الجمود والتقليد... ويقتضي كلّ ذلك خوض معارك تحريرية ضد النّخبة لتحريره من الارتهان للتاريخ المُتغيّر وتحريره من الارتهان لواقع الآخر، وجعله يعي مَهامه المُتمثّلة في الالتحام بالجماهير، ونشر القيَم الثّقافية، والإسهام في البناء الوطني الرامي إلى التّغيير ومواجهة ثقافة التّبعية. أين الانتلجنسيا في معناها الراقي؛ وهي فئة متميّزة وفاعلة، فئة تعي واقع التّخلّف وتعمل على طرح أفكار الخروج من التّخلّف، وتعيش الواقع الموضوعي، وتعمل على إيجاد بدائل تحسينية، أين واجب الذات؟ في الوقت الذي يفترض أن تكون النّخبة عكس هذا "النّخبة التي من المفروض أن تطلع بمهام التّجديد والإصلاح والتّغيير، ونشر الوعي والمعرفة المساعدة على ذلك، وأن تحارب في ذاتها الانتفاع الشّخصي، ولنقل (النّخبوي) أي أن لا تمركز النّخبة حول ذاتها، إذ بقدر ما هي ضرورية للعمل بمنطق (فلولا نفر من كلّ فرقة منهم طائفة) هي ضارة إذا قصّرت

نتائج وغايات ومردودية العمل على ذاتها ولم تحوّله إلى قناعات جماهيرية تسندها[1]".

بكلّ أسفٍ بعض **نخبتنا الوطنية قابلة للرّكوع**، نخبتنا مُنغلقة على نفسها وكأنّها في جزيرة خالية، فلا تحدّث إلاّ بما يعجبها في عالمها، نخبتنا بعيدة عن كلّ الغايات والأهداف، ركِبَها الفكرُ التّغريبي العميق المُصاحب للتّوترات والتّناقضات، ولم تعمل على إنتاج الحلول. للأسف نجد عند بعضهم عدم الوعي اللازم بمَهام الأمّة كما وجدنا عند البعض الآخر أفكاراً سطحيةً انتفاعيةً مؤقّتةً، لا مشاريعَ أمّة تنظر إلى النّجاة. نخبتنا مُؤدلجة باسم الحداثة فلا تحمل إلاّ التّبرير في غياب التّحليل وأفكارها أفكار الغموض والتّمويه لا أفكار الدّقة والتّركيز، وأما الأزمات عندها أزمات على أزمات بلا حلول. نخبتنا لا تزال تتماهَى في فرنسا الأمّ، وتمارس على نفسها التّقليد النّاقل دون خصوصية كي تكون فرنسية، فلم تثمر بنتيجة، وما يزال روح التّعالي ومركزية الذات، وإلغاء الآخر في المشاركة والتّغيير، وتجعل من ذاتها محوراً والباقي هوامش وأطرافاً تابعة. نخبتنا لا تدري أنّ فرنسا لا تحبّنا وإذا أحبّت بعض النّخبة لا لجمال عيونهم، بل تحبّهم للاستيلاء على ثرواتنا عن طريقهم، وهذا ما يجب أن تفهمه النّخبة السّياسية والثّقافية.

La France ne nous aimait pas en tant qu'être humain, mais matière de pétrole ou comme une elle nous aimait en tant que vache du lait ; comme elle nous a aimés; jadis ; avant la colonisation comme son fournisseur de blé

وسبق للرئيس الفرنسي Valery Giscard d'Estaing أن قال: Ils ont le pétrole, nous avons les idées وهو الرئيس الذي سمّى كلبه (Kabyle).

1ــ سعيد شبار، النّخبة والإيديولوجيا والحداثة في الخطاب العربي المعاصر ط2. المغرب: 2012، مركز دراسات المعرفة والحضارة بكلية الآداب بني ملاّل سلسلة (دراسات وأبحاث فكرية①) ص 9.

إنّ نخبتنا تعيش فرنسا في أفكارها وأبدانها، فإذا أمطرت في باريس حملت المظلات في حيدرة المشمسة S'elle pleut a Paris on ouvre la parapluie à Hydra، وما أثارته الأسبوعية Charlie Hebdo من سخط على رسول الإسلام وعلى المسلمين بدعوى حرية التّعبير، وتلك المسيرة الكبيرة ضد الإرهاب، وهو فعل حضاري جيّد، ولكن أن يحمل مُمثلــو الدُّول العربيــة والإسلاميــة يافطة (Je suis Charlie) لَهُوَ من النّقيصة والخضوعK ويدخل كلّ ذلك في الاستعمار الجديد بدعوى الإرهاب، والفعل الذي قام به فرنسيو فرنسا، وهم مسلمون، فَلِمَ كلّ هذا التّهويل والتّنديد بالإسلام وبلغة الإسلام؟ ونحن يُفعل فينا كلّ الفعل دون أن نُحرّك ساكناً، ولا يستطيعون فِعْل ذلك باليهود الذين يعيثون في الأرض فساداً، أين منطق الحقّ يا من تدّعون **الحرية والمساواة والإخاء؟**

ومع كلّ هذه الصّعوبات والنّقائص، فإنّني لا أطلب من المُثقّف أن يحمل خاتم النبوّة، أو ينفي الوصيّة، ولا أرغمه أن يأخذ بمقولة زولا Zola **(إنّي أتّهم)** فخياراته عديدة، وليست محدودة إذا كان مُحافظاً على الجدّة والقيمة والموضوعيّة لأنّ المثقّف مُبدع، والمُبدع قادر على الذّهاب بعيداً في التّجديد والتّقدّم وحلّ المشكلات. فنريد مثقّفاً يصوغ الرّؤى الجديدةَ، ويعمل على إشعاعها وتطبيقها في الواقع، نريد مثقّفاً نقدياً يملك آليات الكاتب النّزيه. فما أحوجنا إلى مثقّف يعالج قضية تشويه واقعنا مثقّف لا يستهتر بكلّ ما هو عربيّ وبالتّاريخ العربيّ، مثقّف يحمل أسلوب الخطاب الثّقافيّ المتّصل بالحياة اليوميّة، مثقّف يتحدّى للنّجاح، مثقّف يعمل على إحداث نقلة نوعية في الأداء الثّقافيّ. فلا يُطلب من المثقّف أن يكون ضحيةَ المُواجهات الجسديّة، ولكنّه بكلمة يستطيع أن يكون ضدّ تيارات الغَزو والمَحو والإلحاق وفرض التّبعية مُثقّف يخرج من إطار المركزية الغربية المُتعصّبة؛ والتي تفرض نفسها البديل والنّموذج المُحتذى.

كما لا نقول: إنّ الثّقافة العربيّة تكتمل بنفسها، فهذا مُحال، فهي تكتمل بغيرها من الثّقافات التي عاصرتها؛ فتأخذ منها وتعطي لها فالمثقّف العربيّ يجد نفسَه لا

محالةَ مع مُثاقفة غربية وآسيوية؛ وعليه أن يستفيدَ منها، فالعالم هذا؛ عالم الثّقافة والتِّقانة، ومجتمع المعرفة الذي يقوم على التفتّح والتبادل فماذا يقدّم المثقّف العربي من عطاء، وماذا يفتح من آفاق، وهل يخرج من ثقافة الخُرافة، وقياس الحاضر على الماضيّ، والتّحدّي الخطير سيرتبط باللّغة العربيّة، ومدى تواجدها في الشّابكة وفي سوق الاستعمال، فكيف تصمد وتعيش في لقاء المزاحمة، وما مدى استعداد المثقّفين العرب لممارسة التّبادل اللّغويّ من موقع التأثير والأثّر دون الذّوبان، فهل ينهزم المثقّف العربي، أم يقاوم ويسجّل حضوراً ثقافياً وعلمياً متطوّراً فاعلاً ومشرقاً، وما موقف المثقّف العربيّ الأخلاقيّ والإنسانيّ من قضايا أمّته ومواطنيه وقضايا الإنسان، وهل يبقى المثقّف العربيّ في تلك الغوغائية التي ألبستنا الهزيمة فهل يخرج من خطاب المُنافحات ولغة الكتابة من الطّابق الأخير في أفخم فنادق الخمسة نجوم، هل ينظر المُثقّف العربيّ إلى رجله أين يضعها؛ ليرى تلك الحُفَر التي يسير فوقها، بدلَ أن يعلّق بصرَه في عالم افتراضي لعدّ الأوهام، وكيف للمثقّف العربيّ معالجة الثّقافات القطريّة التي تتجلّى بأشكال مُختلفة بالتّمام والخروج من سوق الكلام، ومن سلعة لا تُباع حتى في مَحال العوام.

وللأسف نُطبّق هذا الموضوع لما نعيشه في الجزائر، بأنّ النّخبة المُثقفة التي تشظّت إلى تيارين لم يحصل أن وقع بينهما حوارٌ إيجابي لصياغة مشروع ثقافي مُتجانس، لم يُفتح ملف السياسة الثّقافية، ولم تلتق النّخبة في ما بينهما للحوار، لم يُؤسّس لمشروع وطني مُتكامل... فلم يأتِ من وراء ذلك إلاّ التّصحّر والضحالة وضعف المؤسّسات الثّقافية. هي استقالة رفعتها النّخبة الوطنية، وصاحبها التّفكير في الهجرة إلى الخارج، أو الانكفاء على الذات مع ما يحصل من اتهام النّخبة الفرنسية في الجزائر من عدم مسايرتها للأوضاع الاجتماعية، فلا تزال تنظر إلى الجزائر بفكر ونمط الفرنسيين "لقد اتُّهمت غالبية النّخب الثّقافية العصرية في الجزائر بأنّها نُخَب مُتأوربة، لا تتقن لغات التّراث العربي الإسلامي للشعب الجزائري، ولا تسعى إلى إقامة التّوازن ما بين ضرورة الحفاظ على كلّ ما هو

إيجابي في ذلك التّراث، وفتح الباب على مصراعيه أمام كلّ ما هو إيجابي في العلوم العصرية والتكنولوجيا المُتطوّرة، واستيرادها من مصادرها مباشرة. نتيجة لذلك، وبسبب الإصرار على رفض الحوار التّفاعلي البنّاء بين التّيارات الوطنية المتعدّدة التي تعبّر بصدق عن طبيعة التّنوّع العرقي والثّقافي للمجتمع الجزائري برزت أزمة ثقافية عميقة دفع ثمنها كثير من المثّقفين الجزائريين بشكل خاصّ، وما زالت الحركة الثّقافية والفنية في الجزائر تدفع ثمنها حتى الآن[1]". هي مشكلات وأحياناً هي أوهام وقعت فيها النّخبة الجزائرية التي انقسمت قسمين، ولم تستطع أن تلتقي في الشّأن العامّ في صورة واحدة غير مُجزّأة، رغم الكثير من المنتوج الجزائري الثّقافي أو الفنّي الذي له صفة الوطنية المشتركة بل والعالمية. والسّؤال المطروح لماذا لم تستطع النّخبة الوطنية الجزائرية إنتاج الفعل الثّقافي، وإقامة توازن وطني يحرص على الهُوية، ويتنوّع في الثّقافة؟ "نخلص إلى القول في هذا المجال، إنّ الثّقافة الجزائرية بعد الاستقلال لم تنجح في تشكيل تيارات ثقافية إبداعية لا حصرَ لها؛ لكنّها لم تنجح في تشكيل تيارات ثقافية ذات طابع جماعي تجعل من الفِعْل الثّقافي سلطةً قادرةً على مَنْع القوى السياسية والإدارية الحاكمة من تهميش الثّقافة، ومن سلوك الطريق الخَطِر [...] في حين نجحت النّخب اليابانية في إقامة التّوازن بين القيَم الموروثة والحداثة الفاعلة في عصر العولمة. فشلت النّخب الجزائرية في إقامة ذلك التّوازن، فتعرضت الهُوية الجزائرية لأزمة بنيوية مستمرّة، بسبب فشل تلك النّخب في بناء دولة ديمقراطية حديثة؛ تسهر على نشر العلوم العصرية والتّكنولوجية[2]". وبهذا يمكن القول، بأنّ النُّخب الوطنية لم يكن لها نفس التّفكير بفضل المرجعيات المختلفة، وسببها اللّغات التي تتجاذب كلّ

---

1 ــ مسعود ضاهر "قيم الثورة الجزائرية وتحديات عصر العولمة" مجلة معلومات. بيروت: 2012، عدد (ذاكرة الثورة الجزائرية) رقم 103، ص 98.

2 ــ مسعود ضاهر "قيم الثورة الجزائرية وتحديات عصر العولمة" مجلة معلومات. بيروت: 2012، عدد (ذاكرة الثّورة الجزائرية) رقم 103، ص 98.

الأطراف، وهذا موجود بقوّة في الجزائر، وغير موجود في بعض الدّول العربية؛ لأنّها خرجوا من المسألة اللّغوية، وانتصروا للإجماع الوطني، دون الحديث عن دولة فرنسا التي حسمت المسألة اللّغوية، ولا يستطيع مثقّف فرنسي الطعن في لغته أو هُويته أو التّنصل منها. وهكذا تفعل الثّقافات الأجنبية فعلها في تشظّي الإخوان وتجاذب الندمان، وتلك مأساتنا يا إخوان.

نخبتُنا مُستلَبةٌ تأخذ برأي الغالب القديم؛ الذي أشبعها توجيهاً، وترك فيها لغةً لا تخلو من إيديولوجية، فلم تستطع تدبير أمورها في كلّ حال، وتنتظر الحلول من وراء البحار، ولا تنتصر للعقل والصواب، فأين الحلّ من كلّ هذا؟

14ـ تدريس العربية الفُصحى باللّهجات

كما قلنا في سالف ما مرّ، بأنّ الفرنكفونيةَ لها خُطَطٌ كثيرة؛ تَستعمِل الواحدةَ تِلوَ الأخرى بطول النّفس، وبتغيّير في المنهجيات، واختيار الشخصيات لتحقيق التخطيطات، فهي لا تتعب في اقتراح مشاريع التّهديم الداخلي للبلد الذي دخلته. فقد جرّبت اقتراح كتابة العربية باللاتينية، وفشلت كلّ مشاريعها في ذلك، ومن ثمّ اقترحت تدريس اللّهجات في البِلاد العربية بَديلاً عن اللّغة الفصحى، وقالت: إنّ العربية الفصحى قديمة لا مكان لها في الواقع العربي، وإنّها لغة عتيقة تاريخية ميّتة لا تُساير العصر... ومن الضروري استبدالها بلغات عامّة الناس؛ وهي الدوارج المحليات باعتبارها لغات الأمّ؛ تُفهَم وتعمل على الإبداع.

وما يُؤسف له مرةً أخرى، بأنّ الفرنكفونيين الجُدد –في إطار الإصلاحات التّربوية– عادوا بذات الأفكار، فاقترحوا في العامّ 2014 بالمملكة المغربية تدريس العربية بالدوارج؛ مُعتمدين في ذلك على أطروحات أربعينيات القرن الماضي، وقد حملها أو دافع عنها بعضُ المستشرقين، وفشلت في ذلك الوقت، ويأتي جيل جديد يعيد نفس الكرّة، ويشنّون حرباً ضروساً على الفصحى، ويرون فيها النّقص فقط وأنّها لا تصلح إلاّ للعبادة والتابوت والقراءة على الموتى... ولم يبقَ الأمرُ في بلد المغرب، فتعود نفس الأطروحة صيف 2015 في دولة الجزائر، من بعض المعلّمين والخبراء والمُختصّين، فيطرحون ذات الفكرة التي عفا عليها الزمان وكأنّي بهم يرمون بالحديد في سكة القطار لتوقيفه عن المسير، وهذا لتبرير سوء التّسيير. مُختصّون أو نُخبة –كما يسمّون أنفسهم– تدّعي الإصلاح التّربوي وتقترح تدريس السّنة التّحضيرية+ السّنة الأولى+ السّنة الثانية باللّهجات المحلية وهذا في النّدوة الوطنية التي انعقدت في 24–25 جويلية 2015م. وهذا ما كانت تراه النّخبة/ اللّجنة/ الفئة المُنتقاة وتُدافع عنها:

ــ تدّعي هذه الفئة بأنّ تدريسَ العربية بالدارجة ضرورة من ضرورات العصر؛ باعتبار الدارجة مُستوى من مُستويات العربية الفصحى، والفصحى أصلها دارجة؛

ــ تدّعي هذه الفئة بأهمية التّدريس باللّغة الأمّ، فهي الوسيلة التي تخلّص العربية من الفرق بين المكتوب والمنطوق؛

ــ تدّعي هذه اللّجنة المُنتقاة بأنّ اللّغة الدارجة ♥ خير وسيلة لفهم المعنى لدى التّلميذ؛ وهو يعتبُ المدرسة، بدل أن نُكلِّمَه الفصحى التي هي غريبة عنه وعن واقعه؛

ــ تدّعي الفئة النّخبة بأنّ التّلميذ في المرحلة الابتدائية يصعب عليه أن يفهم لغةً جديدة، وبخاصّة العربيةَ الفصيحةَ التي هي لغة صعبة؛

ــ تدّعي هذه الفئة/ اللّجنة المُنتقاة أشياء لا علاقة لها بالعلمية، ويمكن أن نقول عن هذه الفئة بعض المَقُول، ولدينا ما هو مستور، ونتركه للاحق من الزّمان

♥ــ إذا سلّمنا بهذا الأمر، بأنّ اللّغة الدارجة تعمل على ترقية الفصحى، فهل يُعقل بأنّ مناطق المازيغيين في الجزائر: القبائل+ الشّاوية+ الطوارق+ الميزاب+ بني سنوس+ الشّنوة، وهم يتكلّمون بلسانهم المحلي في محيطهم، ويقضون بها مصالحهم المرسلة دون أن تتدخّل في التّدريس. وعندما يدخل أولادهم إلى المدرسة ينتقلون إلى لسان جديد، ويتعاملون معه بصورة عفوية بعد أسبوعين، ودون صعوبة ولا مشكلة في استعمال العربية بعد الممارسة. فكيف يترقّى المستوى اللّغوي بلغة بعيدة عن لغة التدريس. ولدينا حقيقة لا مفرَّ منه؛ حيث نجد منطقة تيزي– وزو تحرز على أعلى نسبة في النّجاح في البكالوريا لسبع سنوات (7) متتاليات، فهل القبائلية (لغة أمّ) بالمنطقة هي التي فعلت فعلَها في العربية الفصحى؟ أو هي التي هيّأت التلاميذ للتلقي الجيّد وبذلك أحرزوا الرّقم واحد في النّجاح؟ وهل القبائلية مستوى من مستويات العربية الفصحى؟ وهل القبائلية هي اللّغة الدارجة؟ أليس كلام من يقول بأنّ الدوارج تعمل على تسهيل وتهيئة الفهم، يدخل في باب التّضليل، والكلام الذي ليس له محلّ. فهل يمكن تبرير فشل تدبير البرامج ومشاريع الإصلاح بهذا الأمر؟ أو ليس ذلك باب من باب عودة الفرنسية لتصبح لغة التّدريس، فعلى من تُمَوِّهُون؟

وسوف تظهر الأشياء الحقيقية للشعب الجزائري الذي علّم هذه الفئة من ضرائبه وأصبحت هذه اللّجنة تُملي عليه تيارات وخلفيات إيديولوجية لا علاقة لها بالواقع الوطني، ويمكن التّفصيل في الأمر كما يلي:

يمكن أن نسلّم بالأمر الذي اقترحته هذه الفئة/ اللّجنة المُحترمة إذا كانت من أهل الاختصاص، وهل هم من رجال التربية الذين قدّموا أفكاراً، وأنتجوا كتباً يشهد لهم العالم بذلك، وحتى إذا كان ذلك كذلك، فإنّنا نشتمّ في هذه المقترحات أنّها مستخلصة من مقترحات/ توصيات تلك النّدوة التي عُقدت في سفارة أجنبية بالجزائر حول (**الدارجة في الجزائر**) وكانت تحت إمرة (كاردينال الجزائر) هذا من جهّة، ومن جهّة ثانية، فإنّ المستوى الدارج الذي يتحدّثون عنها حقّ أُريدَ به باطلٌ. فإنّ المستوى الأدنى للعربية غير موجود في الجزائر ولا في دولة عربية أخرى؛ فنحن لا نُمارس إلاّ التّهجين اللّغوي، فلا نُمارس ذلك المستوى اللّغوي الذي يُسمّيه الأستاذ (الحاج صالح) **مستوى الأُنْس**، وهو موجود في القراءات القرآنية (القراءة الحَدرية). فماذا نستعمل في المستوى الدارج؟ نستعمل العربية البسيطة بمصطلحات فرنسية في المغرب العربي، وبمصطلحات إنكليزية في المشرق العربي. وإذا سلّمنا بهذا فإنّه يجب أن نُعدّ نُصوصاً للتّلميذ ليستعملَها في القراءة ونمثّل لذلك بتقديم درس حول واقعه اليومي، من مثل هذين النّصين المسجّلين لتلميذ سُئل ما يلي: صِفْ لنا كيف تستعد للمدرسة صباحاً؟ فقال:

1ــ نُوضتْ أصباحْ، أغسلتْ وجهي، رُوحتْ ألكوزينا، أقعدت على الطابلا دارتْ لي ماما أُومليتْ في الطبسي، أكليت حتى أشبعتْ، ألبستْ مئزري ودرت الكارطابلْ على ظهري، ورُوحت لَليكول.

وسُئل بعد ذلك ما يلي: صِفْ كيف تكون في الساحة؟ فقال:

2ــ أدخلتْ لَليكولْ قبلْ الوقت، ألعبتْ في الساحة، بعد ما جاتْ الشّيخة وصُونَاتْ لاكلوشْ، دخلنا، واقرينا درس الرياضيات. وعلى العاشرا صونَاتْ أخرجنا نلعبوا، وشوفتْ زوجْ أصحابي يداگوا، وصفّقنا أَلْهُومْ بزّافْ.

تأمّلوا هذين النّصين، وهما مُستوحيان من استعمال التّلميذ، فلا توجد إلاّ كلمات بسيطات من العربية: (مئزري) (السّاحة) (رياضيات) والباقي هي كلمات **فرنسية مُحرّفة**، فهل هذه الدارجة التي تنزع من مستوى الفصحى؟ أين العقل والمعقول؟ أين هذا المستوى البسيط الذي تتحدّث عنه اللّجنة المحترمة؟ وإذا لم نفهم هذا عندنا، فماذا يقول المشارقةُ في هذين النّصين طلاسم على طلاسم. أليس هذا مهزلة كبيرة، أليست هذه دعوة إلى غلق المدارس، فماذا يأخذ التّلميذ إذاً من المدرسة، إذا لم تكن المدرسة تعمل على ترقية المسموع، وإذا لم تصحّح له الخطأ. وفي هذا الصدّد يقول: عمر حواش في كتابه Citoyen quelle langue parle-tu? Je parle algérienne! ويرى أنّ لغة الشارع ملوّثة بكلمات فرنسية، وأنّ الفرنسية هي الطاغية، فهي ليست لغتنا، ويجب أن يتجنّبها، وهذا وقول صحيح نوافقه عليه، ولا نوافقه في تحليله القائم على الدعوة إلى استعمال وتدريس **(الجزائرية)** التي هي –في نظره– هي اللّغة المستعملة من قبل 90% من الجزائريين، وهي المازيغية، باعتبار أنّه حيث ذهبتَ وسألتَ أيّ جزائري من أنت؟ يقول: أنا مازيغي. ومن هما يقول صاحب الكتاب، ندعو إلى تريس (الجزائرية) وهي المازيغية المنمّطة. يبدو لي أنّ صاحب العمل لا يخرج من البيت، فإنّ الذي يقول: **أنا مازيغي**، يواصل قوله: **عرّبني الإسلام، ولغتي العربية.** وأنّ الاستعمال اللّغوي الطاغي في الشارع هو استعمال العربية الدارجة بما فيها مناطق القبائل التي تستعمل العربية الدارجة في الشوارع، إلاّ في القرى فتستعمل المازيغية. إذاً المازيغية ليست مشتركة، وليست لغة جامعة. والمازيغيون هم الذين أحلّوا العربية مكان الصدارة قبل لغتهم (البربرية) وهذا عن رضا ودراية ومن هنا، يبدو لي أنّ هذا الطرح ليس في محلّه إن لم يكن يجاري من يقول: تدريس العربية باللّهجات. فأيّة جزائرية تقصد أيّها القائل؟

إنّ الجزائرية في مفهوم العموم، هي العربية الدارجة، فهل نعمل على تدريس اللّهجة، وهي لغة غير علمية، ولدينا عربية علمية أدبية منمّطة، فلمَ التعطيل

والتأخير إذا كنّا نريد لبلدنا الخير؟ ليس صحيحاً من يقول بهذا الرأي لأنّ لغة العامّة لا يمكن أن تكون لغة أدبية ولا لغة علمية، بل هي لغة التواصل اليومي فهي محدودة وضيّقة، ولم تفعل هذا الشعوب التي قبلنا، إلاّ تلك اللّهجات التي خرجت من اللاتينية، فذلك وضع خاصّ، فلا نملك نفس الخصوصيات اللّغوية.

إذاً إنّ فكرة (الجزائرية) تدخل في إطار إيديولوجية معاصرة، وبذا يصنّف كتاب (المعني) ضمن الرّدة ضد العربية، وأمثال هذا الكلام يدخل في باب ديكتاتورية (أستالين) ويبدو لي أنّه يجهل أنّها (الديكتاتورية) عاثت في الاتّحاد السوفياتي سبعين (70) سنة وأصبحت في خبر كان، أو ربّما يصنّف ضمن إلغائية (أتوتورك) فهل أتاك نبأ العثمانيين المعاصرين الذين يعملون على القضاء على فلول الفرض والقهر. ومن هنا نلمس ثقافة الفرنسية التي تعمل على الفرض، وعلى النكران لفعل الأجداد، وهم لا يقرّون بها في بلادهم، ونحن نرفعها شعاراً حداثياً لتفتخر بنا الفرنكفونية. وإن كان هذا الباحث يدعو إلى المزوغة البربرية فالأحرى به أن يكتب كتابه المذكور بالمازيغية، أما أن يكتبه بالفرنسية، فهو في صفّ دعة الفرنكفونية الجديدة، ومن الذين يقولون ما لا يفعلون.

ونعود إلى فعل اللّجنة، فنقول: يعلم المختصّون بأنّ كلّ اللّغات في العالم لها مستويان، فالمستوى الأوّل هو المستوى الأدبي العلمي الراقي، والذي يختلف قليلاً عن المستوى الثاني. وهذا الأخير في بعض اللّغات يقرب إلى المستوى الأوّل عكس ما هو موجود عندنا في العربية، أو في لغة الشارع، أو في لغة الأمّ فالمستوى الذي تتحدّث عنه اللّجنة غائب، بل هناك شرخ بين المستويَيْن، بفعل الهجين اللّغوي الذي عَلِقَ بالعربية، وبفعل التّداخل اللّغوي ووجود اللّغات الأجنبية وتداخل اللّهجات الوطنية. إذاً، أيّتها اللّجنة، نريد كلاماً علمياً، لا ترداد كلام المستشرقين الذين قدّموا اقتراحات تغريبية للبلاد العربية، فأرادوا أن يُخلّصُوا البلاد العربية من لغته ودينه وتُراثه بهذا الكلام العسلي الذي تريد اللّجنة فرضَه على المجتمع الجزائري.

ومع ذلك فلا نزال نقول: هي لجنة مُتخصّصة، اقترحت هذا الفعل لصاحب القرار، وهذه اللّجنة التي كان يُفترَض أن تعودَ إلى المَرْجعيات الوطنية والحضارية والدينية والتّاريخية، وإلى ما قطعه الأجداد على أنفسهم؛ بأنّ العربية الفصحى/ الفصيحة لغة الأمّة من التّراث والحضارة، ومن الدين ومن الدّستور، فكيف بالله أيّتها اللّجنة تدُوسين على كلّ هذا؟ ألا تخاف اللّجنة أن يعود الشهداء يوماً ويسألونها عن هذه الفِعْلة الشّنعاء؟ أين أنتم يا أعضاء اللّجنة، وكيف تجرّؤون على هذا الاقتراح الذي يخرق الآفاق؟ وأضيف على هذا بعض المقول، وأقول:

ــ بعض من هذه الفئة/ اللّجنة المُتنوِّرة تنظر إلى الجزائر على أنّها لم تستقل بعدُ، وأنّ استقلالَها يجب أن يبقى تحت إمرة الأمّ فرنسا العظيمة، وأنّ الجزائري يجب أن يبقى تحت نيْر الاستعمار فقط؛ وكأنّي بهم William Marçais وGeorges Colin وBrunot الذين كانوا يدعون إلى الكتابة بالعامية، وهجران الفصيحة، فهي كلاسيكية لا تساير العصر... أحلام وردية تريد اللّجنة إحياءها؛

ــ بعض من هذه اللّجنة المعرّبة/ النّخبة الفرنكفونية كانت تعيش السّياحة السّياسية، فأكلتْ في الكثير من صحون الأحزاب، ولما ينتهي الأكل الشّهي تُغادر ولا يهمّها إلاّ نيل المصالح الضيّقة؛

ــ بعض من هذه الفئة الجديدة من الفرنكفونيين عَبَدَة الفرنسية، فهم لا يُبدون ما به يُؤمنون؛

ــ بعض من هذه الفئة لا تستعمل في خطابها الجامعي إلاّ اللّهجة؛

ــ أكثر هذه الفئة شبه مُعرّبين في الظاهر، ولكنّهم مُغربين في الروح؛

ــ بعض من هذه النّخبة الفرنكفونية الجديدة خدعت الشّعب الجزائري باسم عائلتها المشهود لها بالتّوجّه الوطني، والدفاع عن العربية؛

ــ بعض من هذه النّخبة سبقَ لها أن اعتلتْ مناصبَ استشارية في الوزارات الوطنية، وتنكّرت لها بعد أن انتهت المنفعة؛

ــ بعض من هذه النّخبة أغدقت عليها الدولةُ الجزائرية في تعليمها، وأخذت مِنَحاً لنيل أعلى الشهادات في كلّ من: فرنسا – مصر. وتنكّرت لكلّ ذلك؛

بعض من هذه النّخبة لا تفرّق بين المصطلحات، فأطرح عليها:

ــ ما هي اللّغة الأمّ/ لغة الأمّة في المفهوم الأكاديمي؟

ــ ما هي اللّهجة التي تدرّس بها العربية؟

ــ ما دور المدرسة إذاً عندما يعمل المدرس على استعمال اللّهجة المحلية والتي يعرفها التّلميذ؟

ــ كيف تحصل للتّلميذ تلك النّقلة إلى اللّغة الفصيحة في السّنة الثالثة، بعدما يترسّخ في نفسه منوال الدّوارج؟

ومن هنا، فإنّ الشكّ يعلق بنوايا اللّجنة، كما أنّ التوجيه نحو التغريب ظاهر في المسألة، دون استكناه بعض الأشياء البعيدة. فهل نظرت اللّجنة إلى المستقبل بعيون الاستفادة من أخطاء السّابقين، وهل تنفع ذات المنهجية التي أنتجت الفشل في إصلاح نريد منه إصلاحاً؟

أليس كلّ هذا هو تمهيد لِوَعْد قَطَعَه الفرنكفونيون الأوائل، بأنّ الفرنسية لا يجب أن تغادرَ الجزائر، بل يجب أن تكونَ هي اللّغة الرّسمية، وتعودَ إلى وضعها كما كانت أيام الكولون، فهل هؤلاء الأساتذة الذين يزعم أنّهم من المختصّين والخبراء هم المُبشّرون بعودة (Lavigerie/ لا ڤيجري).

أليس كلّ هذا هو إدخال المجتمع الجزائري في صراع لغوي، في ظلّ غياب لغة مشتركة، وبذلك نعيش دولة المماليك، فكلّ ولاية تستقلّ بلهجتها. ألا يجب التّعقّل في المسألة اللّغوية، ونبحث عن أسباب الفشل الدراسي، ونعمل على خلق آليات ترقية اللّغة العربية. وفي كلّ هذا، قد نختلف في منهجية تطوير اللّغة العربية، وقد نختلف في الآليات أو في الطرائق، **ولكن لا يجب أن نضع العربية الفصيحة مَحلّ مُناقشة مُطلقاً، فهي الرابط الذي يجمعنا وهي خطٌ أحمرُ لا يجب تجاوزُه. العربية الفصيحة ليست للبيع أيّتها النّخبة الفرنكفونية الجديدة.**

لا نطعن في هذه النّخبة/ اللّجنة في علمها، رغم أنّه يحقّ لنا أن نقول: لا بدّ من ضوابط علمية لعضوية لجنة الإصلاح التربوي، على غرار ما هو معمول به في العالم، فلا يجب أن نكون نكرات في خلق أوضاع غير طبيعية، ونأتي بأناس مارسوا التعليم، ونجعلهم خبراء لا يشقّ لهم غبار، ونعلّق على صدورهم مصطلح **(الخبير التربوي)** ما هكذا تفعل الأمم الناجحة يا إخوان. ولا بدّ من ضوابط علمية صارمة تتوفّر في عضو لجنة الإصلاح التربوي وهي:

- أن يكون عضو اللّجنة من الخبراء الديداكتيكيين.
- أن يكون عضو اللّجنة يتقن إتقاناً جيّداً لغة الأمّة؛
- أن يكون عضو اللّجنة منتخباً علمياً، لا منتخباً نقابياً، ولا منتقى من زملائه؛
- أن يكون عضو اللّجنة ذا توجّه وطني، ومرجعياته وطنية؛
- أن يكون كلُّ عضو فيها مشهوداً له في مجال التّربية، وصاحب نظرية لسانية؛
- أن يكون كلّ عضو فيها قد مارس التّعليم في كلّ مراحله.
- أن يكون كلّ عضو له مؤلّفات في مجال التّربية؛ تشهد على تضلّعه في علم التّربية والتّعليم؛
- أن يكون لكلّ عضو له كتب وإنتاج نوعي وكمي؛
- أن يكون لكلّ عضو مُريدون سبقَ أن عملوا على توسيع/ تكييف نظريته؛
- أن تكون تلك النّظرية قد طبّقت في مجال التّربية والتّعليم، ونالت النجاح وأثبتت التحسّن؛
- أن تكون نظرية العضو لها امتدادات في اللّغات، وفي القارات.

وهذه هي الشروط العلمية والموضوعية التي تشترط في عضو مختصّ في الإصلاح التربوي، وهذا معمول به في دول الغرب، وبخاصّة فرنسا التي لا تُسنِد ملف الإصلاح التّربوي إلاّ لشخصية أكاديمية رفيعة في العلم وصاحب نظرية ومارسَ التّعليم عبر مراحله، ومشهود له بالعلمية والموضوعية، وهو من القريبين

إلى مستوى ترشيحه لجائزة نوبل Nobel، **والشرط الأساس أن يكون ضليعاً في اللّغة الفرنسية.** ويمكــن أنــ نستعــرض بعــض الشخصيــات البيــداغوجية De Napoléon à Jules Ferry ومن جاء بعد فيري/ Ferry مروراً بتلك الإصلاحات العميقة التي عرفتها ثورة الطلبة في سنة 1968 وما تمخضّ عنها من تحسّن. ومع ذلك لا تزال تتوالى الإصلاحات إلى عصر وزيرة Najat Vallaud Belkacem التي تحظــى بالاحتــرام الكبير، وتعدّ ثالث وزير في حكومة Manuel Valls من حيث المكانة السّياسية والثّقافية. وقد حملت الوزيرة (ملف الإصلاح التربوي) وآخر إصلاح قامت به الوزيرة (نجاة) نالَ انتقاداً لاذعاً، ومرّ من ثقب الإبرة في المجلس الأعلى للتّربية، بل هناك من الأحزاب اليسارية التي لم تُوافق عليه وفي كلّ تلك الشخصيات نرى تلك المواصفات الأكاديمية العلمية والتّربوية متوفّرة في الشخصية التي تقود ملف الإصلاح التربوي، فنشير إلى أمثال:

- Vincent Peillon
- Jean Macé
- Philippe Meirieu
- Pierre Bourdieu
- Jean-Claude Passeron
- …

وبعض من هذه الشخصيات تولّت حقيبة التربية الوطنية، وبعضها كانت ضمن فريق الإصلاح التّربوي، أو صاحب فكرة الإصلاح، ويُضاف إلى ذلك أنّ الإصلاح التّربوي لا يمرّ في البرلمان أو في مجلس الوزراء قبل أن يُصادق عليه المجلس الأعلى للتّربية.

قامات فرنسية علمية وسياسية وثقافية واقتصادية... كان القاسم المشترك بينها هو الاحتكام إلى نظرية لغوية جيّدة، وفيها الحَكامة إلى نقد الذات، والرجوع إلى المرجعيات الوطنية، ومن ثمّ العمل على خدمة الشّأن الوطني، وهو التنظير للأجيال القادمة، وحمل أمانة خدمة الوطن، وهي أجلّ أمانة. والشأن العامّ لا يخدمه

إلاّ المثقّف العضوي، مثقّف يحمل الخصوصية، ويقول دائماً: أنا لا أساوي شيئاً بدون جاري. ولا يقول: أنا وبعدي الطوفان Après moi déluge، أو بمعناها عندنا: تَخْطّي رَاسِي.

فالعبرة من هنا، هو إنّ الإصلاح التّربوي لا يأتي من لجان ولائية ممثّلة، بل يأتي من قبل أكاديميين وتربويين أَكْفاء؛ لهم باعٌ علميٌ رصينٌ، وتضلّعٌ في علوم التّربية قويم، يعملون لفترة في تحضير الملف؛ عن طريق الاستشارات والنزول إلى الميدان، وتوزيع الاستبانات، وتكييف الوقائع، وتوسيع العيّنات... ومن وراء ذلك يقدّم الملف إلى الهيأة العليا في التربية من مثل مجالس لغات أو مجالس تربية ومن ثمّ يقدّمون للوزارة ملفّ الإصلاح التّربوي، وتعمل الوزارة على تقديم وجهة رأيها، ومن ثمّ يُرفع للسلطات السياسية.

وهل هذا نقوم به –نحن الجزائريين–؟ بكلّ أسف يسند ملف إصلاح التربية والتعليم لشخصيات لا يتوفّر الشرط الأساس وهو: **إتقان لغة الأمّة**، فهنا الكارثة فكيف يُصلِح شخصٌ التربيةَ والتّعليم وهو يهجّي لغة الأمّة، فجاهل لغة يكون عدواً لها، كيف ننتظر إصلاحاً من شخص لم يؤلّف كتاباً واحداً في التربية. لماذا لا نتّعظ من الفرنسيين الذين نأخذ منهم، ونتعلّم، فلمَ لا نتعلّم منهم أمثال هذه القضايا ذات العلاقة بخدمة لغة الأمّة؟ أو في الإصلاح التربوي؟ فعلينا أن نتعظّ **ونعتبر** من تلك الأفعال العلمية الفرنسية الناجحة، ونأخذ **العبرة** من الفرنسيين الذين ننظر إليهم على أنّهم أصحاب رأي. وبالفعل هم أصحاب رأي، ويحترمون أمّتهم الفرنسية وفي ذات الوقت يعبدون لغتهم الفرنسية؛ لغة الشعب الفرنسي. وإنّه لا يأتي الإصلاح من ندوة تُعقِد مُلتقاها لمدة يومين، فيحصل فيها تقديم الملف، ويُصادق عليه برفع الأيادي، فكفانا مهازل، من التّرقيع والتّأخير والتّفقير. يجب أن ننتقل في هذه المرحلة إلى إعطاء الملف لذويه، لا إلى أُناس ليس لهم منتوج، بل إنّ بعضهم كان **معلّم صبيان** لا يفقه في أمور التربية إلاّ تلقين بعض المبادئ البسيطة للأولاد وبقدرة قادر يصبح مَفتياً وخبيراً ومختصّاً في أمور التربية، بل يشرّع للشعب

الجزائري في أمور تخصّ مستقبل التربية، أليس هذا من المسخرة، بعض ممّن يدعون بالمختصّين ليس لهم ذكر في ميدان التّربية، فنعلّق عليهم مصيرَ أولادنا. علينا أن نُخرج أولادنا من مخابر التّجارب، فهم بشر، وكلّ خطأ هو إفراغ الوطن من كفاءاته، وكلّ تلاعب هو تأخير للتنمية الوطنية.

ونخلص من هذا بالقول التّالي: نرى هذه الاقتراحات الصادرة من لجنة الإصلاحات بخصوص تدريس الفصحى باللّهجة من سقطات الإعاداتِ، وفشلِ التّسييرات، وضعف التّوجيهاتِ، وإنشتاين يقول: **من الغباء أن نُكرّر ذات التّجارب الفاشلة، وبنفس المنهجيات، وننتظر نتائج جديدة**، وهذا ما أقدمتْ عليه هذه الفئةُ الجزائريةُ التي لم تستوعبِ الدرسَ، فهم يريدوننا أن نبقى في المربّع الأوّل دائماً ونكرّر التّجارب الفاشلة، ولا نخرج من الفشل، كأنّنا كُوّنا في مدرسة الفشل.

ولذلك لا نعدم قول الحقّ؛ بأنّ هذه النيّة أو الفعل الذي أُريد أن يحصل في جزائر الإصلاحات يعود إلى سياسة الكولونيالية التي تريد العودة من جديد. وفي الحقيقة هي لا تزال في بلادنا عن طريق هؤلاء الدُّعاة إلى التّدريس بالمحليات وهذا كلّه لإزاحة الفصحى من التّعليم ليس إلاّ. وهي دعوة قديمة دعا إليها الكولون، وتبنّاها بعض العرب من أمثال رفاعة راقع الطهطاوي تــ 1873م وهي دعوة تابعة للمستشرقين أمثال: Wilhem Spita وKarl Vollers ومن الكولون الذين كانوا في بلاد المغارب من أمثال Brunot الذي قال: "إنّنا قطعنا أيّ صلة باللّغة المُسمّاة كلاسيكية، فلغة محلية مثل العربية المغربية مُستقلّة عن الكلاسيكية استقلال الإيطالية عن لاتينية (شيشرون) ومن هنا أزحنا الخطّ العربي الذي وضع للغة قديمة وشرقية تمثّل إلى حدّ ما ماضياً لغوياً مجهولاً[1]". هذا هو الهدف الأساس الذي تراه اللّجنةُ من هذا المقترح الخطير، فهو لا ينطلي إلاّ على الأغبياء. ومع كلّ

1 ــ ع/ عبد القادر الفاسي الفهري، السياسة اللّغوية في البلاد العربية، بحثاً عن بيئة طبيعية عادلة، ديمقراطية وناجحة، ط1. بيروت: دار الكتاب الجديد المتّحدّة، ص 48.

ذلك المَخاض، وفي ظلّ ما تقدّمه أمثال هذه الفئات الضالة؛ فإنّ المدرسةَ الجزائريّةَ قامت على العربية الفصيحة، ولم تشتكِ ضعفاً إلاّ مع الضعف المعاصر الذي صاحب ذلك الفشل في الإصلاحات التي عرفتْها المنظومةُ التّربوية، وبخاصّة منذ التّسعينيات، وزاد الطين بلّة مع إصلاحات 2004/2003م.

إنّ المدرسة الجزائرية في عُنفوانها كبيرة وعظيمة، وهي التي درّستنا وفيها أخذنا أعلى الشهادات، وبتلك البرامج العلمية المتكاملة في سنوات السبعينيات تشبّعنا بخصائص العربية الفصحى، وبإبداعها ومبدعيها، وبتراثها الغني، واستطعنا التحكّم فيها بقوّة، وكانت برامج عالية في الوطن العربي. إنّ المدرسة الجزائرية أنتجت أساتذةً وعلماءَ ومُهندسين وخُبراءَ في المستوى العالمي، والمشهود لهم بالكفاءة، لكنّ التّحوّلات المُعاصرة والمُعولمة والتي اصطبغت بالصّبغة السّياسيّة أدّت إلى أن تختلط الأمورُ، وحدثت مُفارقاتٌ عجيبةٌ. ولم يكن هذا ليظهرَ لولا أنّ نخبتَنا التي علقت بها الازدواجيّةُ العقائديّةُ تريد أن تجعلَنا تابعين، كما لا نزال نُفكّر في لغة عدو الأمس، ولا نزال ندعو إلى التّدريس باللّهجات أحياناً، وأحياناً إلى ازدواجيّة بمفهوم البارحة، ولم نحسمِ الأمرَ لما في نفس النّخبة الضّاغطة من توجيه القرار، أو الوقوف دون صدوره أبداً.

نخبتنا الجديدة تُريد لنا أن نعيشَ الفرنكفونيّة بالغمر اللّغويّ/ الإغماس اللّغويّ Emersion linguistique إلى حدّ النّخاع، وهذا ليقلعَ أبناؤنا عن لغتهم وتراثهم ويستعملون اللّهجات المحلية، وهي غير علمية، ومن ثمّ يستعملون الفرنسية فقط وفي لاحقٍ من الزّمان سوف تُعلن وَفاةُ العربيّة في أوطانها، وهذه هي السّياسة الفرنسيّة الخبيثة التي لم تنتبه إليها نخبتُنا الغارقة في الوهْم. والغرابة التي نعيشها في الجزائر، أنّنا أكثر استعمالاً من كثير من هذه البلاد الفرنكفونيّة وهي على حقّ لأنّها تنتفع منها، ونحن لا ننتفع، ندافع عن الفرنسيّة، وندفع أموالاً من أجل تعليمها بل نعلّمها حتى للطّلبة القادمين إلى الجزائر في إطار المِنَح الطلابية، بَدَلَ أن نُعلّمهم العربيّةَ، أليس في الأمر ما يُريب؟ والغرابة الأخرى هو أنّ الفرنكفونيّة في

الجزائر نوع من اليأس الاستعماريّ على رأي الباحث (عبد المجيد مزيان) ولكنّنا نعبد اللّغة الفرنسيّة؛ بمعنى نعبد فرنسا، أضف إلى ذلك أنّ النّخبة الفرنكفونيّة شبه مَنبوذة، ولكنّها تواصل في ذات الاتّجاه، وتقبل أن تكونَ منبوذةً في مجتمعها والمهمّ أن ترضى عنها فرنسا، وتكون في بيت الطّاعة، وهذا ما يؤكّده الباحثون المخلصون رغم فرنكفونيتهم "وهكذا أصبحنا –نحن المثقّفين الجزائريّين النّاطقين بالفرنسيّة– مُهمّشين ومَنبوذين منذ ثلاثين عاماً... لذلك عشنا –نحن المثقّفين– حكماً بالنّفي المزدوج أيّاً كان المكان الذي تتواجد فيه، وكانت جريمتُنا الوحيدة هو رغبتنا أن نكون همزة وصل بسبب ثقافتنا المزدوجة. بين الشّعوب عبر البحر المتوسّط بفضل الفرنكفونيّة العربيّة التي تتّسم بها. إلاّ أنّ المحظورات أكثر شدّة على جانبي البحر المُتوسط في ما يتعلّق بهذه القضيّة، وخاصّة وأن الشّمال مُنشغل الآن بأموره الخاصّة. وأنّ الجنوب فَقَدَ عالم الشّمال بكلّ معاني الكلمة[1]". وهكذا نعلَم أنّنا لسنا بلداً فرنكوفونياً، ولكن توسّع الفرنسيّة تثير ما يُريبُ في الشّأن اللّغويّ.

وما يُريبُ المسألةَ اللّغويّةَ في الجزائر هو التّراجعُ عن بعض المُكتسبات أو الارتخاء في تطوير المُكتسبات إلى حين الراحة والتّقويم أو التّقييم، ويزداد الوضعُ سوءاً لنعودَ إلى أثر الازدواجيّة الفكريّة التي لا تزال فينا، بل ندافع عنها لتصبحَ قانوناً. وفي مسألة الازدواجيّة التي نحلم بها دائماً قال (أحمد طالب الإبراهيمي): "ولقد كَثُرَ الحديثُ عن الازدواجيّة اللّغويّة، ورأينا من ينتصر لها بكلّ حماس، ومن يُعارضها بكلّ شدّة، ولكنّنا لم نجد من حدّد مَضمونَها وأبعادَها، فإذا كان المقصودُ بذلك هو الازدواجيّة العقائديّة التي تتّخذ اللّغة العربيّة أداة للتّعامل بين العوام والجماهير الشّعبيّة، وتجعل من الفرنسيّة لغة المدرسة والنّخبة المثقّفة، فإنّنا لا نرضى بذلك أبداً؛ لأنّ هذه الازدواجيّة لا تستند إلى أيّ دليل من المنطق القويم

---

1 ــ سليمان بن عيسى "الفرنكفونيّة العربيّة كمستقبل آتي" © Arabofrancophonie L'HAMATTAN تر: جيهان عيسوي، ط1. القاهرة: 2005، المجلس الأعلى للثّقافة/ المشروع القومي للتّرجمة. عدد (الفرنكفونيّة العربيّة دراسات وشهادات) رقم 790، ص 31.

والعقل السّليم، وحتى في البلدان التي يتفاهم فيها النّاس بلغتين في البلد الواحد كثيراً ما أدّى إلى الانقسام. أما إذا كانت الازدواجيّة التي لا تقوم على أساس عقائدي، وكانت من الظّواهر التي تفرضها بعضُ الظّروف الطّارئة فينبغي حينئذ أن نقبل بها كظاهرة تاريخيّة مَحتومة ومُحدّدة العواقب أحياناً؛ لأنّها قد تُبيح لنا فرصة الاحتكاك بغيرنا[1]". وهكذا نرى في بلدنا بعد ثلاثة وخمسين (53) سنة من الاستقلال لا نزال نسير في عقدة التّبعيّة؛ بعدم حَسْمِنا في مسألة الازدواجيّة، فلماذا لا نزال نعيشها في برامجنا التّربويّة؟ أليس من الحَصَافة أن نتعاملَ مع المسألة اللّغويّة بكثير من الوعي، ونزيلَ فتيلَ هذه القنابل المَوقوتة؛ ليعيشَ أبناؤُنا في وئام؟... هي قنابل زَرَعَها الاستعمارُ، ولم نحسن تفكيكَها، فبقينا نعيش الانفصامَ الشّخصيَ. ويبدو لي أنّ المسألةَ لها أسبابُها، وتعود لعاملَيْن هما:

1ــ عامل الاستعمار: الذي غرس حبّ الاهتمام بلغته، والدفاع عن الازدواجيّة السّلبيّة. وهذا العامل يحمل صفة التّحامل على العربيّة، فغذّى النّعرات القبليّة ليكون الحَكَم في الأخير، وكان ينفي الحديث عن لغة الانسجام الجمعي الذي لا يكون إلاّ بلغة الأمّة/ الأمّ، وهذا هو المظهر العامّ الذي لم تتخلَّ عنه الدّول العظمى، فاللّغة الوطنية هي البيتُ المشترك، ومن الصّعب تحقيق الانسجام دون نهضة شاملة ودون لغة وطنية، وما يحدث من شرخ بين المُجتمعات يأتي من غياب الانسجام الفكري والثّقافي والسّياسي بين المجتمع، وهذا ما غَرَسَهُ فينا الاستعمار، وبقيَ ألغاماً مَوْقوتة، وسوف تنفجر في حينها، وما عرفناه في العَشْرية السّوداء جزء من لُغْمٍ موقوتٍ ضبطته فرنسا في إطار غرس تبعية لغوية، وخَلْق نُخبة راكعة لا تفهم إلاّ لغة المستعمر، ولا تريد التّنازل عنها. وفي هذه النّقطة "يُفسّر السيد (سليمان بن عيسى) عضو المجلس الأعلى للفرنكفونية، الحرب الأهلية التي عرفتها الجزائر

---

1 ــ ع/ أحمد بن نعمان، الازدواجيّة اللّغويّة في البلدان العربيّة بين الضّرورة الحضاريّة والخطورة المذهبيّة. الجزائر: د ت، دار الأمّة، سلسلة (المستقبل العربيّ) رقم 46، ص 128.

خلال التّسعينيات من القرن الماضي بالقول: إنّ "الحـــرب الجزائريـــة الحاليـــة تجد جزءاً كبيراً من تفسيرها في كونها حَرْباً بين اللّغـــات الراغبـــة في الهيمنة على السّاحة، أكثر من كونها حرباً دينيـــة... نحـــن الآن فـــي مواجهة الاختيار بين الفرنسية أو لغة القرآن" ويقول: إنّ (المتطرّفين) أو (الإرهابيين) لا يعترفون بأية لغة أخرى سوى لغـــة القرآن. (انظر مقالته ضمن كتاب: Arabofrancophonie éd l'Harmattan, les cahiers de l'arabophonie : un avenir وهي بعنوان Francophonie n 10 ونحن وإن كنّا لا نتّفق مع الكاتب في اختصار كلّ –أو أغلب– ما جرى في الجزائر من دماء خلال الفترة المذكورة، في كونه مُجرّد حرب لغوية بين مُنتصر للعربية، ومُنتصر للفرنسية. إلاّ أنّنا مع ذلك يمكن أن نقبل تفسير ما جرى بأنّه كان حرباً بين جبهتيْن داخل المجتمع الواحد فقسّمناه إلى (فُسطاطين) مُتصارعين ومُتناحِرين. ومرجع ذلك إلى أنّ كلاً منهما قد مَنَحَ من ثقافة معيّنة: واحدة غربية لائكية تعبِّر عن نفسها بالفرنسية، والثانية عربية إسلامية تعبِّر عن نفسها باللّغة الوطنية. وهذا ما يُجسّد حقاً التّفكك الاجتماعي الذي يؤدّي إليه التّعدّد اللّغوي أو الثّنائية غير المُتكافئة. ولو كان كلّ النّاس قد رضعوا لِبان ثقافتهم من ثدي واحدة، وتعلّموا بلغة وطنية جامعة ومُشتركة في مَدرسة مُوحّدة الأهداف والمرامي، لكان الانسجامُ الفكريُ والثّقافيُ والسّياسيُ بين أفراد المجتمع الواحد كبيراً جداً. ولكن الكاتب عوض أن يُراجع سياسة (فرّق تسدْ) التي زَرَعها الاستعمارُ في كلّ مكان وبكلّ الوسائل، وأهمّها وسيلة اللّغة، نراه يُعلّق المشكل كلّه على ظهر من يسمّيهم (المتطرّفين أو الأصوليين) (الأنتيگريست) وليس هؤلاء في نظره سوى المُعرّبين الواقفين ضد التّيار الفرنكفوني الذي هو أحد ألغام الاستعمار الثّقافي واللّغوي المزروعة في المنطقة[1]". وإذاً فإنّ ما حدث في الجزائر كان أحدَ أسبابها انفصام المجتمع لغوياً، وما حدث أدّى إلى الشرخ بسبب

1ــ ع/ عبد العلي الودغيري، لغة الأمّة ولغة الأمّ عن واقع اللّغة العربية في بيئتها الاجتماعية والثّقافية. بيروت: 2014 ــ دار الكتب العلمية، ص 28.

عدم التّناغم المجتمعي اللّغوي، ولذا لم ترتفع نسبةُ الانسجام الجمعي. فإذا لم يكن ذلك يصعب أن تتحقّق التّنمية المجتمعية الشّاملة، أو النّهضة العلمية في مُجتمع واحد. ومن وراء ذلك انعكست الآيةُ، وفسّرت المصالح الفرنكفونية بإفلاس المدرسة المُعرّبة، ووقع التّحاملُ على العربية الفصيحة بقوّة، ويقول الفاسي الفهري: "إنّ مصدر التّحامل على العربيّة يعود تاريخياً إلى فكر الاحتلال (سواء أكان تُركياً أو إنكليزياً أو فرنسياً) وإلى مواقف عدد من الباحثين الأجانب (وضِمْنَهُم المستشرقون) من العربيّة الذين قرنوها بالتّخلّف، وعدّوا لغتهم لغة العصر والعلوم التي ينبغي هَجْر العربيّة إليها. وقرنوا العاميّة بالحياة، والفصيحة بالضّعف والموت، ودَعَوا إلى اتّخاذها لغة تدريس للأمور العامّة بجانب لغة المُحتلّ قُدوتهم في ذلك ما حصل للاتينيّة حين صارعت لهجاتها في ازدواجيّة آلتْ لصالح ما أصبح يُعرف باللّغات الرومانيّة Romance، وقرنوا العاميّة بالفطريّة والفصيحة بالصّعوبة والاستعصاء، وطعنوا في الحرف العربيّ ومَجّدوا الحرف اللّاتيني، وأرادوا أن تكتب به العاميّة والفصيحة على السّواء، ونادوا بترجمة القرآن إلى العاميات إلخ[1]". وهكذا نرى فِعْلَ الفرنسيين في إحداث الشّقاق الدّاخلي، والعمل على الشّك في الهويّة الوطنيّة، دون أن تنتبه إلى احتقاره للغات المحليّة التي يُعدّونها من سقط المتاع.

2 ــ عامل النّخبة: التي لا تزال مُعلّقة في لغة المُستعْمِر، ولا تريد بديلاً لها ولا تهمّها اللّغات الوطنيّة. والمسألة التي تلجمنا عند حديثنا عن موقف بعض من نخبتنا هي التّغاضي عن الحقائق، ثمّ عبوديّة أفكار المدرسة الكولونياليّة، في أنّهم يُفاضلّون بين اللّغات المحليّة على أنّها مُتخلّفة، ولغات المستعمِر لغات علميّة ويتنكّرون بأنّه لا مُفاضلة علمياً بين اللّغات، أو ربّما يجهلون هذه الأمور، فإنّ

1 ــ عبد القادر الفاسي الفهري، أزمة اللّغة العربيّة في المغرب بين اختلالات التّعدّديّة وتعثّرات (التّرجمة) ط5. ليبيا: 2010، دار الكتاب الجديد المتّحدة، ص 60.

اللّغةَ التي وقعَ الاهتمامُ بها تترقّى، والتي اهتُجرت تنامُ، وقد تموتُ، **واللّغة وضع واستعمال**، فأنّى للّغة أن تنموَ إذا هجرَها أصحابُها، ولكن ننبّهُ النّخبةَ بأن يقرؤوا بعيون اللانتماء، ودون التّعصّب، وأن لا يلصقوا تُهَمَ العُنف والتّطرّف بالعرب وبالعربيّة وبالإسلام، ويدعوا النّاس إلى هجران الثّقافة العربيّة بدعوى أنّها حاملة للعُنف والشرّ "وفي الحقيقة لا مُفاضلة (عموماً) بينها من وجهة نظر العالم، كما أنّه لا مُفاضلة (عموماً) بين الثّقافات، فلا ثقافة/ حضارة يمكن أن تكون حاملة لـــ (الشّر) وحده مُجمّلاً، ولا ثقافة حاملة لـــ (الخير) وحده مُجمّلاً. ولا بدّ أن نَحْتاط من المُنطْلَقات (العنف) و(التّطرّف) فيوجد في مجتمعات وفي ثقافات مُغايرة، وهو ليس وليد ثقافة مسيحيّة أو إسلاميّة أو يهوديّة، ولا لغة تبعث على التّخلّف والانغلاق والابتعاد عن المعرفة والتّقدّم، سواء أكانت لغتنا أو لغة غيرنا[1]". وهذا ما نريد أن ينتبهَ إليه القارئ، فإنّ اللّغةَ الفرنسيّة تصنع من يُمجّدها مهما كانت مُخطئة وهذا ما لا نجده في الثّقافة الإنكليزيّة.

والمهمّ في كلّ هذا أنّ الفرنسيّة لا تزال تنال الإشعاع في غير البلدان التي لا تنضوي تحت لواء الفرنكفونيّة، ونشهد أنّ كثيراً من الدّول تُشارك في القِمَم الفرنكفونيّة كمراقبين، وتُقيم مَهرجانات علميّة بمناسبة 20 مارس من كلّ سنة بالاحتفاء بيوم الفرنكفونيّة، وتُنجز ندوات في كلّ المناسبات عن لغات العلوم... وهذا واقع بقوّة، ودليلنا الملموس في تلك الإصلاحات التي أَنْزَلَت تعليمَ الفرنسيّة في الجزائر إلى السّنة الثانيّة من التّعليم الابتدائي، ثم أرْجَعتْها إلى السّنة الثّالثة، كما لا يزال النّقاش مُشتعلاً في مَقَام اللّغات الوطنيّة، ولم نفصل الأمر في تحديد مُصطلح (اللّغات الاجنبيّة) فهل اللّغة الفرنسيّة لغة أجنبيّة، أو لغة أجنبيّة بمُعاملة خاصّة، وبموقع مُتقدّم على اللّغات الأجنبيّة الأخرى...

---

1 ــ عبد القادر الفاسي الفهري، أزمة اللّغة العربيّة في المغرب بين اختلالات التّعدّديّة وتعثّرات (التّرجمة) ص 12.

ولهذا فمسألة اللّغة الفرنسيّة لها جذور عميقة الأثر في الجزائر، وليست من السّهولة أن تُحلّ إلاّ عن طريق الحوار الوطنيّ الصّريح، وبتغليب المصلحة الوطنيّة، والنّظر إلى المستقبل، كي لا تضيع هذه الأجيال لمجرّد هَوَى النّخبة المُستفيدة من الفرنسيّة.

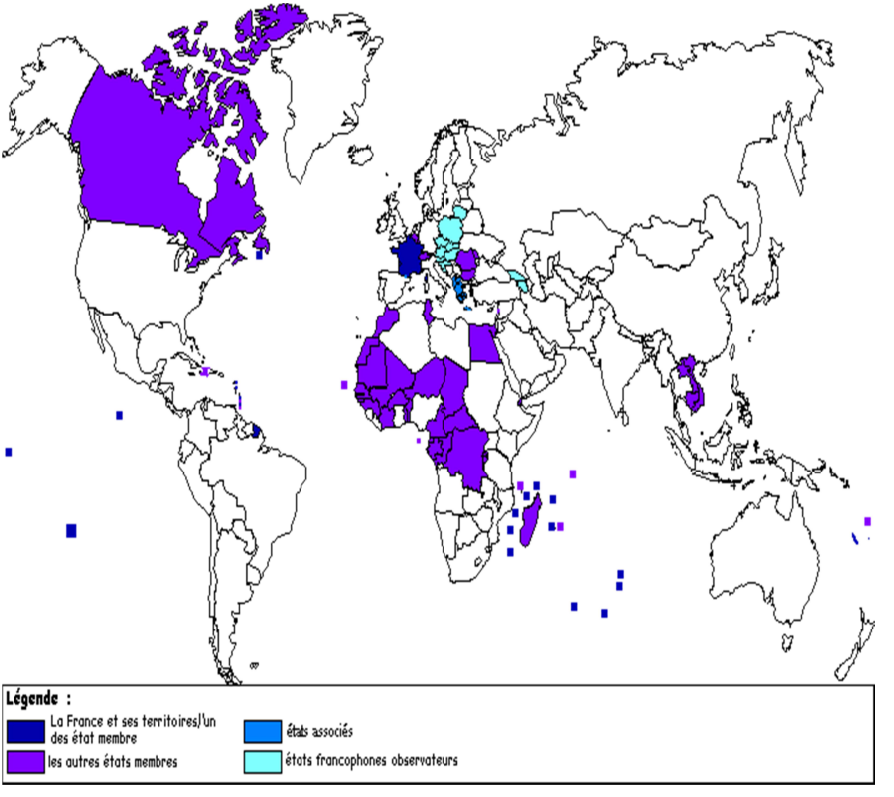

ومع هذا، فإنّ المنظّمة الفرنكفونيّة لها نشاطات عديدة في داخل فرنسا وخارجها، وبخاصّة في الدّول الفرنكفونيّة. **وأهمّ نشاط لا يتوقّف عندها هو العمل على نشر الفرنسيّة في الخارج**، بتفعيل كلّ آلياتها، وما لها من تسخير وتتعدّى حدود التّعليم؛ حيث تدخل مجال المرأة، وتعمل على تفعيلها في مجتمعات ما وراء البحار؛ باعتبار المرأةِ فرداً ومكسباً مُؤثّراً في خليّة الأسرة، إضافةً إلى محو الأُميّة باللّغة الفرنسيّة، فهو مكسب غالبيّة البسطاء، وكذا العمل على التّواصل في العالم

عن طريق تقديم الآليات العصريّة البرّاقة، وما يصحبها من مساعدات إنسانيّة وتسخير جمعيّات عالميّة من مثل: أطباء بلا حدود... **فهل نعتبر؟**

لا ننكر أنّ الفرنكفونيّة العميقة لا يزال ربيعُها يزهر بصورة جزئية، ففي كلّ 20 مارس من كلّ سنة؛ حيث يتبرّك الفرنكفوليون والفرنكفونيّون بالاحتفال باليوم العالمي للغة الفرنسيّة التي تنال الامتداد العالميّ، والأحقّ أن يُحتفى بها في يوم خالد، وهو بداية الرّبيع؛ كي يزدادَ أعضاءُ الدّول النّاطقة بالفرنسيّة، وتعيش دائماً الازدهار الجزئي؛ لأنّ العولمة اللّغويّة لم تترك لها مجال التّموقع؛ حيث اللّغة الصّاعدة (لغة العولمة الثّانيّة) هي الألمانيّة، ومن هنا نقول دائماً: إنّ الفرنسيّةَ تعيش الازدهارَ الجزئي، وربّما سيندثر هذا الجزء حسب التّقديرات المستقبليّة والتي تقول: إنّ اللّغة الفرنسيّة بعد خمسين (50) سنة لا مكان لها في أوربا وسوف يتقلّص دورُها في إفريقيا، وحتى في المُستعمرات القديمة. هناك حركات ثقافيّة تدعو إلى إحياء اللّغات المحليّة، فهي تعيش الحصار اللّغويّ على صُعُد كثيرة، وبخاصّة مع ميدان الشّابكة. ويقول مفكّر مرموق "إنّ الإنترنت آلة ضخمة (لنجلزة) العالم. وهو ما أكّدته الإحصائيات عموماً، وأعتقد أنّه إذا تأمّلنا هذه الحقيقة؛ فإنّ أسهل ردّ فعل وأكثرها تلقائية –وهو من دون شكّ ردُّ فعلٍ سلبيٍ بالنّسبة للعربي أو الفرنكفوني– هو الانغلاق والانكفاء على طريقة أستريكس؛ أي أنّه يتهدّد التّوسّع الرومانيّ القرية، فإنّ الحلّ الوحيد يكمن في مقاومة المدّ والتّقوقع داخل منطق الانغلاق والمقاومة. وهو فهم خاطئ لمنطق الثّورة المعلوماتيّة. فإذا كانت هذه الثّورة تمنح أفضليّة كبيرة في البدايّة للغة معيّنة، فإنّها قد تفسح المجال بعد ذلك ليس فقط أمام توسّع الاختلاف الثقافي وإنّما أيضاً للغات المهدّدة[1]".

1ــ غسّان سلامة "الفرنكفونيّة والعالم العربيّ حوار الثّقافات". المغرب: 2001 طبع الإيسيسكو 2001. ندوة 30–31 مايو/ أيار 2000. ص 247–248.

يجب العلم، بأنّ **(قُطب الفرنكفونيّة)** تنظيم سياسيّ تشترك فيه عدة دول ناطقة بالفرنسيّة؛ أُلّفت بينها رابطة لتحقيق مَصالح مُشتركة، وهي مُنظّمة خطيرة؛ حيث تضربُ جذورَها في أعماق طبيعة الإنسان بدعوى البُعد الثّقافيّ وهي بذلك تضرب الأصالةَ اللّغويّةَ في بُعدها العميق، وتقلع صفاتِ الانتماء للشّخص؛ ليصبح عُدوانياً تجاه جذوره، ومن ثمّ يسهل عليه استنزاف خيراته. ومع ذلك، فهناك مُقاومة للفرانكفونيّة، وهي مَلموسة عبر التّعريب في البلاد العربيّة، إضافةً إلى ما تقوم به بعضُ الجمعيّات الثّقافيّة والبرلمانات العربيّة وما تقوم به بعض الدّول التي خرجت من الاستعمار الفرنسيّ، بأن تَحُلّ مَحَلّ اللّغة الفرنسيّة لغاتها المحلّية، وهذا موجود على مُستوى بعض الدّول الإفريقيّة كذلك، وفي بعض الدول الآسيوية، مثل ذلك العمل الذي قامت به الفيتنام من الفتنمة السّريعة، وذات الشّيء قامت به كمبوديا واللاووس... ويصاحب ذلك ضُعفُ الفرنسيّة علمياً أمام الإنكليزيّة والألمانيّة ضُعفٌ ظاهر في المعلوماتيّة، وتقول الدّراسات بأنّها لا تَستَحْوِذ إلاّ على 3 % ممّا يُضَخّ في الشّابكة، وإنّ 75 % مـــن منشـــورات الاتّحاد الأوربيّ بالإنكليزيّة مقابل 1 % بالفرنسيّة، كما تشهد الفرنسيّة انحداراً يومياً في سوق العمل، وهذا ما جعل بعضَ الدّول التي استقلّت عن فرنسا تتّجه إلى الإنكليزيّة مثلما فعلت: سوريّة ورواندا، والفيتنام والكامبوج.

إذاً تتهاوَى الفرنسيّةُ في سوق اللّغات، ويمكن الإشارة إلى ما قاله الباحث المغربيّ الفاسي الفهري♥:

1ــ إنّ الفرنسيّة تتهاوى يومياً في فرنسا، وهذا منذ 1996 وهو يُحاضر في معظم كليات جامعات فرنسا، ويَحضر مؤتمراتٍ تُعقد في فرنسا، فكلّما يحاول

♥ــ في لقاء علميّ بمناسبة تنصيبه عُضواً مُراسلاً في مَجْمَـــع اللّغـــة العربيّـــة بطرابلس يوم: 14 ديسمبر 2009.

استعمالَ الفرنسيّة يُطلب منه استعمال الإنكليزيّة كلغة علميّة عالميّة ولغة المؤتمرات الدّوليّة؛

2 ــ يقول الفاسي الفهري في لقاء علميّ بجامعة (ليل Lille) عام (2008) أُلقِيَتْ كلُّ البحوث باللّغة الإنكليزيّة عدا أستاذة فرنسيّة واحدة قالت قبل إلقاء مداخلتها بالفرنسيّة: **اسمحوا لي سأكون الغبيّة الوحيدة التي أُلقي مُداخلتي بالفرنسيّة؛**

3 ــ كلّ مراكز البحوث الدّيداكتيكيّة في فرنسا تجد فيها تسعة (9) باحثين أجانب من أصل عشرة (10). يعني في كلّ مركز بحث يوجد فرنسيّ واحد فقط يعمل لصالح لغته؛

4 ــ كلّ المراكز العلميّة ذات السّمعة الدّولية والمراكز المُتخصّصة في فرنسا تستعمل في أبحاثها وفي مجلاتها البُحوث المَكتوبة بالإنكليزيّة؛

5 ــ تُعاني فرنسا حالياً من نقص الأستاذ المدرّس للغة الفرنسيّة، ومن يدرّس الفرنسيّة الآن أكثرهم مغاربة؛

6 ــ تُكتَسح الفرنسيّةُ في الوقت الحالي من قبل الإسپانيّة في اجتماعات الاتّحاد الأوربي، وهي أكثر انتشاراً في العالم بفعل عدد النّاطقين بها...

وكان يجب أن تعلم النّخبة الفرنسيّة في الوقت الحالي بأنّ عجلةَ الفرنسيّة شبه واقفة، فالفرنكفونيّة الوَهْم انتهى عصرُها، وانتهى عصر اللاءات، وانتهى وَهْمُ لغة المركز، فلا بدّ من إظهار الاحترام للتنوّع اللّغوي، وتحقيق عموميّة الأقطاب اللّغويّة، انتهى عصر الايديولوجيات اليالطات، سقطت الجدران الإسمنتيّة... الفرنكفونيّة بحاجة إلى ضيافة فرنكفونيّة Hospitalité Francophonienne لكسب ما يدور في فلكها. كما تقتضي المصالح المُرسَلة الخروج من البهْرَجة والأنانيّة والمحْوريّة والإملاءات الماضويّة. هناك أشياء جديدة قائمة، هناك حقوق لغويّة مُغيّبة، هناك أقوام واعيّة ترغب في أن لا بديل عن لغاتها. هناك صرخات ضد القهر اللّغويّ الفرنسي، هناك عُنف قادم على اغتصاب الحقوق اللّغويّة، ما كان

يجب أن نغضّ الطرف عن أمثال هذه المسائل، وما كان يجب أن نتركَ أولادَنا يتناحرون في لاحقٍ من الزمان...

يجب على الفرنكفونيّة التّخلص من إلصاق صفات التّحقير على اللّغات المَحَلِيات ولا تُعدّها من الرّطانات Pidgin أو نوعاً من اللّغات الطُّفيليّة التي لا يجب أن تحيا. على فرنسا الحضارة أن تتعامل مع البلدان الفرنكفونيّة بكرم الضّيافة أمام الاجتياح العالمي للإنكليزيّة والأمريكيّة، ألا يعرف الفرنسيّون أنّ لغتهم تتقهقر "أمام الاجتياح العالمي للغة الإنكليزية والأمريكيّة، في حين يشتكي النّاطقون بالفرنسيّة ويقولون: إنّ عاصمة الفرنكفونيّة تتجاهلهم بشدّة. إلاّ أنّ اللّغتيْن: الإنكليزيّة والأمريكيّة قد تمّ توحيدهُما على جميع المستويات، سواء كانت صناعيّة أو تكنولوجيّة أو سياسيّة أو دبلوماسيّة أو ثقافيّة أو إعلاميّة... لقد انتشرت هذه اللّغة بسرعة لأنّها (اللّغة المُتداولة) حيث أصبحت أداةً لازمةً للحاسب الآلي؛ أي رموزاً رقميّة وقياسيّة؛ بمعنى أنّها أصبحت تقنيّة لإنتاج الزّمن باعتباره ذاكرة صناعيّة. إنّ الكتابَ هو الصّورة الأولى التي نقلت لنا الكتب المقدّسة، لكنّه الآن قد فقد مكانته في نقل المعرفة؛ حيث يتعيّن عليه أن يكون مجرّد عنصر للبثّ الإعلامي أي محطّة للواجهة التّقنيّة الدّاخليّة[1]". ومع ما قيل من حقيقة، وما نقلناه من أقوال النّزيهين تبقى الفرنسيّة من بين عشر (10) لغات أكثر استعمالاً في الشّابكة، وهذا يزيد من قيمتها العلميّة والانتشاريّة، وموقعها في الرّتبة الثّامنة، وهذا ما يبيّنه الرّسم الموالي المأخوذ من مُحرّك بحث Google بتاريخ: 10 أكتوبر 2014م.

1ــ عبد الكبير خطيبي "اللّغة الفرنسيّة كلغة حبّ" © L'HAMATTAN Arabofrancophonie تر: جيهان عيسوي، ط1. القاهرة: 2005، المجلس الأعلى للثّقافة/ المشروع القومي للتّرجمة. عدد (الفرنكفونيّة العربيّة دراسات وشهادات) رقم 790، ص 172-173.

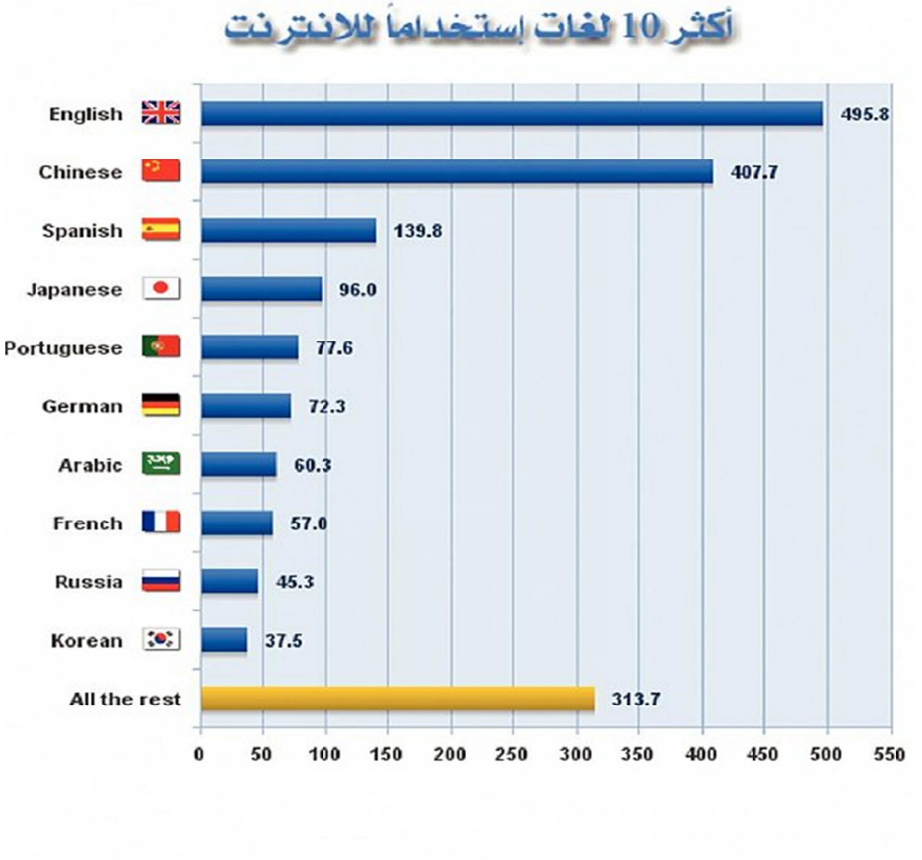

وفي الجدول السّابق يبدو لي بأنّ العربيّة في الوقت الحالي تعيش صعوداً معتبراً، وبخاصّة في ميدان المعلوميّات، وهذا ما نراه في الشّابكة، ففي سنة 2011 كانت رتبتها السّابعة، وهذا ما نقلناه من موقع ويكيبيديا:

Internet users by language (2011)[6]

Rank	Language	Internet	
1	English	565,004,000	27%
2	Chinese	509,965,000	25%
3	Spanish	164,969,000	8%
4	Japanese	99,182,000	5%
5	Portuguese	82,587,000	4%
6	German	75,423,000	4%
7	Arabic	65,365,000	3%

8	French	59,779,000	3%
9	Russian	59,700,000	3%
10	Korean	39,440,000	2%
36–11	Others	350,557,000	%17

ولكن بعد سنتين (2) حصل تغييرٌ كبير، حيث قفزت من الرتبة السّابعة (7) إلى الرتبة الرابعة (4) في موقعها في الشّابكة، والفرنسيّة تأتي مُتأخرّة عنها، ولاحِظْ هذا في الجدول الموالي:

(Number of Internet Users by Language)

TOP TEN LANGUAGES IN THE INTERNET	Internet Users by Language	Internet Penetration (% Population)	Users Growth in Internet (2000 - 2013)	Internet Users % of World Total (Participation)	World Population for this Language (2014 Estimate)
English	800,625,314	58.4 %	468.8 %	28.6 %	1,370,977,116
Chinese	649,375,491	46.6 %	1,910.3 %	23.2 %	1,392,320,407
Spanish	222,406,379	50.6 %	1,123.3 %	7.9 %	439,320,916
Arabic	135,610,819	36.9 %	5,296.6 %	4.8 %	367,465,766
Portuguese	121,779,703	46.7 %	1,507.4 %	4.3 %	260,874,775
Japanese	109,626,672	86.2 %	132.9 %	3.9 %	127,103,388
Russian	87,476,747	61.4 %	2,721.8 %	3.1 %	142,470,272
German	81,139,942	85.7 %	194.9 %	2.9 %	94,652,582
French	78,891,813	20.9 %	557.5 %	2.8 %	377,424,669
Malay	75,459,025	26.6 %	1,216.9 %	2.7 %	284,105,671
TOP 10 LANGUAGES	2,362,391,905	48.5 %	696.1 %	84.3 %	4,856,715,562
Rest of the Languages	440,087,029	19.0 %	585.2 %	15.7 %	2,325,143,057
WORLD TOTAL	2,802,478,934	39.0 %	676.3 %	100.0 %	7,181,858,619

NOTES: (1) Top Ten Languages Internet Stats were updated for December 31 2013. (2) Internet Penetration is the ratio between the sum of Internet users speaking a language and the total population estimate that speaks that specific language. (3) The most recent Internet usage information comes from data published by Nielsen Online, International Telecommunications Union, GfK, and other reliable sources. (4) World population information comes mainly from the U.S. Census Bureau . (5) For definitions, methodology and navigation help, see the Site Surfing Guide. (6) Stats may be cited, stating the source and establishing an active link back to Internet World Stats. Copyright © 2014, Miniwatts Marketing Group. All rights reserved worldwide.

Top 10 Languages

Internet World Stats presents its latest estimates for Internet Users by Language

Because of the importance of this research, and due to the lack of other sources, Internet

World Stats publishes several tables and charts featuring analysis and details here below for the top ten languages and also for the detailed world languages in use by country.

Top 10 Internet Languages

كما أنّ العربيّة لها مواقع مُتقدّمة في الاستعمال، وهي تقفز يومياً لتنالَ الصّدارة بما تحمله من دين في المقام الأول، ودون أن نقول: إنّ جيوشاً كبيرة تردّدها على ألسنتها. ونلاحظ في الخريطة الموالية أنّها تقدّمت بشكل مُعتبر عمّا كانت عليه في سنة 2011م.

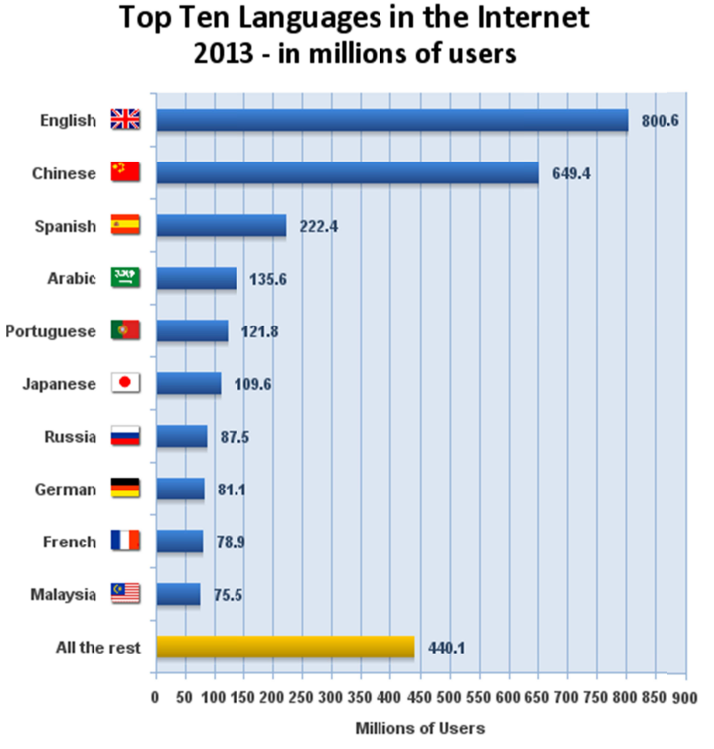

ويعني هذا أنّ العربيّة في وقتنا الحالي تعيش الازدهارَ والنّماءَ والفرنسيّة تنهار وباستمرار، والمغاربة يتمسّكون بها وفيها، وأما الفرنسيّون فَهُمْ يتّجهون الآن علانيّة إلى اللّغة العالميّة العلميّة وهي الإنكليزيّة، وللأسف نحن ما نزال نتشبّث بالفرنسيّة رُغم شهادات الاحتضار التي يُسجّلها أهلُها. ومن هنا ليس عجباً أن نقرأ لـ (كاتب ياسين) يقول: إنّ الفرنسيّة غنيمةُ حربٍ **La langue française est un butin de guerre** طعنةٌ صدقناها، صدرت في إطار الانبهار والعَمَى الحضاري الذي جعله يقول: (محمد خُذْ حقيبتَك) والعربيّة لغة شبه الجزيرة العربيّة؛ بمعنى إنّها لغة أجنبيّة في الجزائر، وهي أفكارٌ عُدوانيّة أكثر ممّا هي أفكارٌ حضاريّةٌ، ولا تدخل حتى في حرية التّعبير. ويبدو لي بأنّ كاتب ياسين منساقٌ في تلك المقولات التي صدرت من الرّئيس السّنغالي السّابق (ليوبولد صولدا سنغور) أحد صنّاع قطب الفرنكفونيّة بأنّ اللّغة الفرنسيّة هي لغة الحضارة والمقام العالي، ونيل المناصب الرّفيعة، والتّفتّح على العالميّة:

Le français, parce qu'il fut la langue qui nous a habitué à vivre avec les Français, leurs pensées et leurs cultures. En l'assimilant sans être assimilés ; les français, parce que c'est une langue mondiale et qu'elle nous ouvre sur l'extérieur. La Francophonie, porte ouverte sur l'Universel[1].

وإنّ أمثالَ هذه الكتابات التي صَدَرَت من بعض الواهمين الذين لبسوا لُبوسَ غيرهم، فهم مَعذورون، ولهم ظُروفهم الماضيّة التي قد نقول عنها: إنّها ظروف الجهل المُطبَق، وما بقيت إلاّ الفرنسيّةُ التي كانت المتنفّس آنذاك والدّليل أنّ الذي قال: (محمدٌ خذْ حقيبتَكَ) استدركَ وقالَ: إنّ الفرنسيّة لسانُ الذئب، وقال أيضاً: **أكتب بالفرنسيّة لأقول للفرنسيّين: إنّي لا أحبّكم[2].**

1- Christian Valantin, La jeunesse entre l'authenticité et le monde actuel revue (La jeunesse entre l'authenticité et le monde actuel) Alger : 2008, Haut conseil Islamique, p 90.

2 ــ ع: عبد السلام المسدّي، العرب والانتحار اللّغويّ، ط1. ليبيا: 2010، دار الكتاب الجديد المتّحدة، ص 109.

كما **J'écris en français pour dire aux français ; je ne vous aime pas.** يمكن أن نبرّر ذلك بأنّ اللّغة الفرنسية هي الوسيلة الوحيدة التي بقيت متنفساً للحرية، والكتابة بها عي التي ستعيد الإنسان إلى نفسه، بل إنّ ذلك مَدعاة للإبداع في الحرية المنشودة، وهذه وظيفة اللّغة الفرنسية في ذلك الزمان؛ حيث كانت الكتابة بها فرض للعيش في الهوية الوطنية دون استعمال اللّغة الوطنية التي كانت مغيّبة قهراً.

وأما في واقعنا المعاصر، فإذا جارَيْناهم في أقوالهم وفي ما قدّموه للغة الفرنسيّة، ونقدّم ربّما أكثر، ونتماهى في التّبعيّة فنكون من الواهِمين المُغفلين؛ لأنّ واقعَ العربيّة الآن يمكن لهم أن يبدعوا بها، ولن يكون له موقع على غرار السّلف؛ لأنّ المُعطيات الجيوسياسيّة تغيّرت، لن تحتفي بك الفرنكفونيّة أبداً، وتبقى أنت حيث أنت مهما أتيت من مَوْهبة "وسيأتي اليوم الذي يشعر فيه الكاتب أنّه أصبح نسبياً أكثر ثقة بأدواته، فيمتلك اللّغة الفرنسيّة وينسبها إلى نفسه، إنّه يفعل ذلك على طريقته؛ أي بحماسة كبيرة، ويبدو وكأنّ شيئاً جديداً قد انطلق من ماضٍ مليءٍ بالمُعجزات. شيء جديد لا يمكن وصفه ولا تحديده ربّما تكون تلك هي (موْهبة) وستكشف هذه الموهبة لهذا الكاتب الغافل أنّ أيّة لغة تخضع لقوانين السّوق[1]".

وهكذا تظلّ اللّغة الفرنسيّة/ الأجنبيّة عاملاً من عوامل التّأثير والتّأثّر، ولا يمكن استئصال جذورها إلا باستئصال ثقافتها، وصَدَقَ (هُو شِي مِينُو) عندما قال: **لا انتصارَ لنا على العدو إلاّ بالعودة إلى ثقافتنا القوميّة ولغتنا الأمّ، كما أنّ المحافظةَ على الاستقلال لا يكمن في إخراج المُحتلّ، بل في مقاومة ثقافة المُحتلّ**، وهذا هو الاحتلال الثّقافيّ (الغزو الثّقافيّ) الذي ما يزال يَعْلَق في ذهن بعض النّخبة؛ والذين أصبحوا نماذج في الرّدة. وإنّ إخراج ثقافة المحتلّ لا يعني رميَ لغةِ المُحتلّ في

---

1 ــ عبد الكبير خطيبي "اللّغة الفرنسيّة كلغة حبّ"© L'HAMATTAN Arabofrancophonie تر: جيهان عيسوي، ط1. القاهرة: 2005، المجلس الأعلى للثّقافة/ المشروع القومي للتّرجمة. عدد (الفرنكفونيّة العربيّة دراسات وشهادات) رقم 790، ص 168.

البحر، بل نهتمّ بها لتخدمنا وتخدم لغتنا فقط؛ يعني هذا الانتفاع منها مثلها مثل اللّغات الأخرى، ولكن ما كان يجب أن ندفع الأموال من أجل تعليمها، يعني نتعلّمها ولا نُعلّم بها، وإلاّ ما موقع لغتنا القوميّة، أليس تعلّم اللّغة الأجنبيّة إضافة وقوّة للغة الوطنيّة، وتعليم اللّغة الأجنبيّة عندنا زيادة وانتشار لتلك للغة، وإضعاف للغة القوميّة.

إنّ قُطب الفرنكفونيّة جاء ليكون سداً أمام قُطب الكومنولث Commonwealth وكلّ منهما له منحى لغويّ؛ إلاّ أنّ قطبَ الفرنكفونيّة أشدّ تشبّثاً بالجانب اللّغويّ حيث يركّز على الثّقافة، ولهذا نرى الثّقافة الفرنسيّة قطعيّة جازمة وتحمل صفّة التّميّز؛ حيث العالم هو فرنسا، والتّاريخ هو فرنسا، والقوّة في فرنسا، عكس الثّقافة الإنكليزيّة لا نجد من ينافح عنها، ولا من يُمجّد الثّقافة الأنكلو–ساكسونيّة بالمعنى الإلغائي للغات الآخرين، ولا نجد المؤنكلزين يصفون المُعرّبين بالتّخلّف، بل إنّ ثقافتهم ثقافة تعايش، ويقبلون بثقافة البلد المستعمَر، وبلغة الآخر، وهذا ما يُلمس عندهم بأنّهم لم يقضوا على الهُويّة اللّغويّة حيث تواجد الإنكليز، بل عملوا على تدريس العربيّة، وحدث هذا في المشرق حين أحلّ الإنكليز اللّغة الإنكليزيّة محلّ العربيّة، "وحلّت الإنكليزيّة محلّ العربيّة في تدريس كافّة المواد الدّراسيّة، وحين تذمّر الأهالي من إهمال اللّغة العربيّة لجأ الإنكليز إلى تدريس المواد باللّغة العربيّة على أن يقومَ بذلك مُدرّسون بريطانيّون[1]". وهذا هو الفرق بين الاستعماريْن. وإذا وضعنا وجه المُقارنة بين الاستعماريْن، فهما مِلَّةٌ واحدة بفروق مُتفاوتة، ونصل إلى الآتي:

الاستعمار الفرنسيّ	**الاستعمار الإنكليزيّ**
تضمّ الفرنكفونيّة 56 دولةً عضواً بعضها شبه مُستقلّة.	تضمّ 67 دولةً مستقلة، بعضها لا يزال تحت العرش البريطاني.

1ــ كمال بشر، خاطرات مُؤتلفات في اللّغة والثّقافة. القاهرة: 1995، دار غريب، ص 175.

استعمار عسكريّ وثقافيّ واقتصاديّ.	استعمار اقتصاديّ.
مسخ+ تنصير+ إلغاء.	عدم المساس بالهُويّة الوطنيّة.
فرنسا مهوسة بتحقيق مشروع الفرنكفونيّة.	بريطانيا لم تهتمّ بمجال الأنگلوفونيّة بتاتاً.
الفرنكفونيّة إكراه رمزيّ ماديّ خارجيّ.	الكمنويلث اختيار لسانيّ طوعيّ.
إكراه محمول على حوامل أجنبيّة ووطنيّة.	اختيار محمول على حوامل وطنيّة.
ربط ديني كاثوليكي عصّي على الفصم.	حريّة الدين والمُعتقد.
لا يفتح لك **نوافذ** العلم المعاصر	يفتح لك **باب** العلم المعاصر.
فرنسا تمارس الحجر اللّغويّ وتنفي الرّشد اللّغويّ على الشّعوب المستعمرَة.	بريطانيا لا تتدخّل في القضايا اللّغويّة إلاّ قليلاً.
تحول الفرنكفونيّة دون النّهوض باللّغات الرّسميّة.	لا دخل لها إلاّ في وجود الإنگليزيّة كلغة علم.
جيوش جرّارة وضعوا لخدمة الفرنكفونيّة.	عمال أجراء وضعوا لخدمة الكمنويلث.
حماقات عسكريّة استعماريّة: ڤيتنام ــ الجزائر.	لم تتركب حماقات سياسيّة انتحاريّة.
النّخبة استتباع عبيد لسيّد.	النّخبة قضاء مصالح مرسلة.
النّخبة ركبتها موجةُ الإيديولوجيّة	النّخبة بقيت مُواليّة للوطن.
نجحت في استقطاب النّخبة.	نجحت في استقطاب النّخبة.
لا تنظر إلى المستقبل.	عارفة ومدركة للتغيّرات القادمة.
علاقة (تبعيّة) مع دول الفرنكفونيّة.	علاقة (شراكة) مع دول الكمنويلث.
تعمل على إحداث شرخ بين ساكنة البلد المستعمِر.	لا تتدخّل في خصائص ساكنة البلد المستعمِر.

تدخّلت في قضايا: التربيّة ــ القضاء ــ الجنسيّة ــ التّسيير المحلي.	لم يكن لها أثر في مجال التّسيير المحلي.
خطاب فرنسا تجاه الفرنكفونيّة حاد.	خطاب بريطانيا يتّجه نحو تبادل المصالح.
الفرنكفونيّة لغة وثقافة وإيديولوجيّة.	الكمنويلث لغة واقتصاد ومصالح.
الفرنكفونيّة تضايق في كثير من الدّول، وخاصّة البلدان التي عرفت الاستعمار الفرنسيّ.	الإنكليزيّة لا تُضايق، بل يُطلب ودّها باستمرار.
مصطلح (الفرنكفونيّة) حالياً أضحى من التّاريخ، مرتبط بالقهر.	مصطلح (الكمنويلث) أصبح موضة العصر، مرتبط بالحداثة.
الفرنكفونيّة ما تزال تُثير الخلاف والجدل والنّبش في التّاريخ.	الكمنويلث ليست له إلاّ تبعات العصر، وما له علاقة بالعولمة.
شغلها تغيّير فكر المستعمِر أولاً، ثمّ نهب خيراته.	شغلها نهب اقتصاده.
أفرغتْ جهدَها في استماتة العقل واللّسان والوجدان.	أفرغتْ جهدَها في ملء الجيوب وإضعاف الاقتصاد.
نجحت في ترْك بصماتها في البلدان المستعمر.	لم تترك إلاّ قليلاً من لغتها.
الفرنكفونيّة تحتضر.	الكمنويلث يزداد تألّقاً.

وإذا وضعنا هذه التّرسيمة للمقارنة، فإنّنا نقصد من ورائها أنّ الاعتماد لا يقع إلاّ على الذات الوطنية، فإذا لم يكن لنا خيار الآن، فنحن نتّجه لاحقاً إلى البحث عن المصلحة الذاتية للعرب، أو المصلحة المشتركة، ونقول: إنّ المصلحة المشتركة في الفرنكفونية سراب، فقد عشنا أوهاماً من خلالها مشاريعها على الورق، والمطلوب الآن ضمانات واقعية قابلة للتنفيذ، ضمانات بعيدة عن إغراءات الفرنكفونية

وامتيازات الكمنويلية. ولا تكون هذه الضمانات إلاّ في تلك المساعدات التقنية التي نروم تقديمها دون فرْض أو رقابة أو توجيه.

مرةً أخرى نقول: ظهرَ قطبُ الفرنكفونيّة كقوّة ثقافيّة سياسيّة اقتصاديّة بعد التّحرّر الوطنيّ الذي نالته أغلبُ الدّول الإفريقيّة، وسطع نجمُه في أوائل السّبعينيّات، بقيادة النّخبة الإفريقيّة والعربيّة والآسيويّة: بولدا صولدا سنغور+ حمَّاني ديُوري+ عبده ضيوف+ الحبيب بورقيبة+ بُطرس بطرس غالي+ نوردوم سيهانوك+... وقبلْنا بالخُدعة التي جاءت تحمل الازدواجيّة اللّغويّة وفي منظورها:

ــ الفرنسيّة مقابل العربيّة.

ــ الفرنسيّة مقابل اللّغات الإفريقيّة.

ــ الفرنسيّة مقابل لغات آسيا.

وهذا التّقابل ما كان له أثر في أن يكون في فرنسا:

ــ العربيّة مقابل الفرنسيّة.

ــ اللّغات الإفريقيّة مقابل الفرنسيّة.

ــ اللّغات الآسيويّة مقابل الفرنسيّة.

وهذا هو المفهوم العامّ للازدواجيّة في مفهوم الثّقافة الفرنسيّة؛ حيث الفرنسيّة موجودة دون غيرها من اللّغات الأجنبيّة، وتعني عندهم تعزيز الفرنسيّة والرّفع من مكانتها، ومن خلال ذلك نجد دولَ المغرب العربي تقبل بالازدواجيّة أو تُفرض عليها، وليس لها خيار الرّفض، وكذا معظم الدّول الإفريقيّة، ولا نجد للازدواجيّة أثراً في بلد فرنسا. وهنا الغرابة، **فهل نعتبر؟ ونرى الدّول المنضويّة تحت نظام الفرنكفونيّة مزدوجة اللّغة ما عدا فرنسا فهي أحادية اللّغة**، فعلى من يضحكون؟

وفي المقابل، هناك في (كندا) من لا يسيرون في منحى الفرنكفونيّين فيقولون: رجال عظام أولئك الذين يُدافعون عن الهُويّة اللّغويّة في (Québec) وفي غير الكيبيك، ونفتخر بأولئك الذين يُنزِلون لغاتهم منزلتَها اللائقة، ولا نقرّ بتلك النُّخبة التي تتلاغَى بما لا يفهمه الفلاح البسيط. وكما نعرف عن (كندا) التي تستعمل فيها

اللّغتين: الإنكليزيّة+ الفرنسيّة، وهذه الأخيرة موجودة في مقاطعة الكيبيك، وكم من مرّة تريد الانفصال عن كندا النّاطقة بالإنكليزيّة، ولم يحدث أنّ النّاطقين بالإنكليزيّة (وهم الكثرة) راوَدَهُم الانفصال، وهذا كلّه بسبب الثّقافة الفرنسيّة وما تحمله من فكر ريادِيّ خاصّ، وفكر عدائيّ من نوع الإقصاء للغات الآخرين، ولا تريد أن يكون لها مُكافئ. ولذا تعمل المقاطعة الفرنسية على إلزام الجميع باستخدام اللغة الفرنسية في المعاملات الرسمية.. وتغيير علامات وأسماء الشوارع.. وفرض قانون يلزم أولياء الأمور بإلحاق أبنائهم في مدارس فرنسية، وبذلك اكتسبت المدينة، بل والمقاطعة بأكملها ثوباً فرنسياً أكّد هويتها في شمال أمريكا، وهذا في مواجهة باقي المقاطعات الإنكليزية وسط وغرب كندا. بل والأكثر من ذلك أنّ (كيبيك) رفضت التوقيع علي دستور (كندا) مما أوجد أزمة دستورية مازالت مستمرة في البلاد، برغم المزايا العديدة التي حصلت عليها المقاطعة في إقرار اللّغة الفرنسية كلغة رسمية. ولا يجب أن يغيب عن البال بأنّ المعارك اللّغوية في (كندا) متواصلة ولا تنقطع؛ لأنّ الفرنسية لا تريد لغات تزاحمها في المقاطعة والآن تشدّ معركة حرب لغوية مع العربية، فقد طفت علي السطح ظاهرة تزايد الطلب على اللّغة العربية باعتبارها اللّغة الأكثر أهمية من حيث الاستخدام في مدارس كيبيك، ومردها ارتفاع أعداد المهاجرين العرب الناطقين باللّغة العربية. وهنا فاجعة الفرنسيين الذين لا يريدون ضرّة للغتهم، فكيف يتدبّرون الأمر؟

وهكذا، في الوقت الذي كانت تدور فيه "معركة في المحكمة العليا الكندية بخصوص اللّغة الفرنسية في مقاطعة كيبيك، خرجت الصحف المحلية لتقول إنّ اللّغة العربية أصبحت ثاني أهمّ لغة في المدارس الفرنسية، وليس اللّغة الإنكليزية أو الإسبانية.. في المعركة الأولي ذهب أولياء أمور الطلبة مع محاميهم إلى المحكمة العليا، يطلبون تعديل القانون 101 الذي يفرض علي كلّ الأسر الفرانكفونية الناطقة بالفرنسية أن يلحقوا أبناءهم بمدارس فرنسية، إذ ليس من المسموح لأية أسرة ناطقة بالفرنسية من ناحية الأب والأم، سواء فرنسيين أو

كنديين أو من دول المغرب العربي، أو حتي من هاييتي، أن يقدموا لأبنائهم في مدارس إنكليزية والأسباب وراء صدور هذا القانون طويلة وتاريخية. فقد دار الصراع علي الأرض والنفوذ والقوة في كندا بين الفرنسيين المهاجرين والانجليز وكلٌّ يحاول أن يمدّ سيطرته على الأرض إلى أبعد حدّ، وذلك منذ أن بدأت الهجرة إلى تلك المنطقة من شمال أمريكا منذ 400 عام. وتعرض الفرنسيون إلى محاولات قمع استمرت سنوات طويلة للثّقافة واللّغة. بل ومحاولات للسيطرة علي الأرض. إلى أن تمكّن الفرنسيون الكنديون أخيراً من إعلان ثورة صامتة في مدينة مونتريال قلب مقاطعة كيبيك في نهاية الستينيات تم بموجبها فرض الفرنسية علي المدينة بالكامل.. وعلي لغة الإدارة الحكومية والمحلية". وهذه هي الخطورة التي تحملها اللّغة، فاللّغة لها حمولة ثقافيّة وتوجيه، وهي التي تُكسِب المتعلّمَ أنماط السّلوك، والتّوجّه العامّ.

وإنّه يدّعي الفرنسيّون بأنّهم أصحابُ الثّالوث النّبيل: **الحرية والعدالة والأخوة** ولكنّهم يُطلقون العنان للفرانكفونيّة لاحتواء مُستعمري الأمس ويُغرّرون شبابَنا باللّغة الفرنسيّة على أنّها المُنقذ من التّخلّف، ولا يَقْطُر العلمُ إلاّ منها، وأنّ لغات العلم الأخرى لا تملك الحجّةَ العلميّةَ التي تملكها الفرنسيّةُ، وأنّ الفرنسيّةَ لغة السّحر والجمال... وهكذا ندرك مرامي أخطبوط الفرنكفونيّة وسياسة فرنسا الكولونياليّة أليس الرّئيس (Charles De Gaules/ شارل دو گول) الذي قال: **إنّ الفرنسيّة اخترقتِ الشّعوبَ العربيّةَ وغير العربيّة فحقّقت أكثر ما حقّقته الجيوش.** ومع ما يُعرف عن (دو گول) بأنّه صاحب المَهَمَّات الخَطِرَة القذرة، فإنّه أعطى الأهميّة للغة الفرنسية؛ كي تبقى الفرنسية في البلاد المستعمَرَة، وكان تركيزُه على بلديْن هما:

1ــ الڤيتنام: خرجت فرنسا بالقوّة من الڤيتنام، بل خرجت مُسرعة مع معركة (ديان بيان فو) وتركت لغتها. ولكن زعماء الثّورة الڤيتنامية قالوا: مثلما طُرد المستعمِرُ الفرنسي، تُطرَد لغتُه الفرنسية، فلا مجالَ لها في الڤيتنام في كلّ

المجالات. وبالفعل سنة بعد الاستقلال أصحبت الڤيتنامية كاملة السّيادة. ولم يعد المجال للمناقشة بفضل القرار السّياسي المُلزم للجميع، ويسجّل هذا الفعل على الرّئيس (هُو شِي مِينُو).

2ــ الجزائر: خرجتْ فرنسا من الجزائر، وبدأتِ العربيةُ تنال مَحالها في كثير من المؤسّسات، ولم تنل موقعَها في الأمور المالية والتّسيير الإداري. وحصلت طفرةٌ جيّدةٌ في تطبيق التّعريب، وفي الأخير صاحبَها تراجعٌ كبير. وبقيت الفرنسيةُ بعد ذلك تعود من موقع القوّة بعوامل:

ــ دعوة النّخبة للتفتح على الفرنسية على أنّها لغة العلم؛

ــ عدم ربط التّعريب بالسياسة العامّة للبلاد؛

ــ عدم تقويم المراحل التي مرّ بها التّعريب، واستخلاص مواطن الضعف؛

ــ فشل التّعريب بسبب الضعف اللّغوي للمسيّرين؛

ــ دخول الجزائر في صراع داخلي بسبب القلاقل الداخلية؛

ــ ربط العربية بالإرهاب.

وبالفعل، فقد نجح (دو گول) وأتباعُه في الإبقاء على الفرنسية في الجزائر وعوّضَ فشلَه في الڤيتنام بنجاحه في الجزائر. (دو گول) العسكري لم يتسامح في الفرنسية، وهي تنال خريطةَ فرنسا الاستعمارية التوسّعية، وأفضل من سياسة العَسْكَرَة. (دو گول) العسكري يفضّل بقاء الفرنسية في الجزائر من الحصول على البترول، ويعرف بأنّ بقاء لغته سوف تأتي بالكثير من الخَيْرات فهل **نعتبر؟** ويأتيه ريع البترول بعود ذلك بسهولة. وهل نعتبر من تلك المرأة الجزائرية التّلمسانية التي قالت في (دو گول):

دِيگولْ مَا هُو أَيْلِيقْ لَلْهَّمَا نِيفُو أَطْوِيلْ أَيْلِيقْ لَشَّمَا

بالفعل، يجب العلمُ بأنّ الثّقافة الفرنسية خطيرة جداً، فهي ثقافة وسياسة استئصال، وقضاء على اللّغات الوطنيّة، وهي عقيدة يتعلّمها الفرنسيون في مدارسهم، وكلّ من يأتي للتدبير يمارسها ممارسة عفوية لتحقيق المصالح الفرنسية باللّغة الفرنسية، وفي إطار الفرنكفونية، وهي غير بريئة من السيطرة مهما كان نوعها "هي سياسة فرنسا اللّغويّة والثّقافيّة التي تختفي وراء مصالح اقتصاديّة

ورغبة في الهيمنة على الشّعوب، وكيف انطلت هذه الخدعة الاستعماريّة الخبيثة على الكثيرين حتى على بعض مُثقفي هذه الشّعوب المغلوبة أنفسهم[1]". وهكذا نرى أنّ اللّغة ليست بريئة، أو كما يُقال: اللّغة وسيلة التّواصل فقط، نعم هي وسيلة التّواصل، ولكن هذه الوسيلة التّواصلية لها أغراض وأهداف، وتحمل شُحْنات خاصّة، ولها حمولة ثقافيّة تعمل على التّأثير في الفرد المُتعلّم لها. فلا توجد البراءةُ في لغة من اللّغات، كما لا توجد لغةٌ إلاّ ولها توجّهٌ سياسيٌّ وثقافيٌّ وعلميٌّ.

ولقد تولّد من قطب الفرنكفونيّة ما يسمّى **(الفرنكوفوبيا):** وهو الخوف من الاستحواذ اللّغوي الفرنسيّ؛ وهي إيديولوجيّة استعماريّة في عهد ما بعد الكولونياليّة، أو استعمار ثقافيّ بديل للاستعمار العسكريّ؛ لأنّ فرنسا انسحبت شكلياً من مُستعمراتها، ولكنّها أبقت على مَصالحها الاستراتيجيّة، وبخاصّة الثّقافيّةَ منها؛ وهو نوع من التّبعيّة العمياء، فالفرنسيّون يريدون أن يكون لهم أتباع، وبخاصّة النّخبةَ السّياسيةَ الحاكمةَ؛ بهدف إخضاع نفوس الأجانب والمُستعمرات، وتطويع عقولهم بغية إخضاع الأجساد بالأمر والطّاعة العمياء، ويقول عبد الله ركيبي "... الفرنكفونيّة اليوم أصبحت قوّة فكريّة ولغويّة وثقافيّة، بل وسياسيّة واقتصاديّة، بعد أن تقلّص ظلّها (العسكري) وبرزتْ في ثوب جديد، وبتنظير مختلف عن السّابق وكشفت عن أنيابها التي غلّفتها بقشرة من ذَهَبٍ مُصطنع برّاق، ولكنّه مُضلّل خادع[2]". ويجب التّفريق بين الفرنسيّة كلغة علميّة لها مَقامها، وتنتمي إلى قُطب اللّغات المُتقدّمة، وبين الفرنكفونيّة كحركة أو إيديولوجيّة تسعى لتحقيق مصالح استعماريّة وتوسعيّة ثقافيّة كانت أو اقتصاديّة؛ بغرض الإلحاق والسّيطرة، والتّمكين للفرنسيّة في غير موطنها ومحاربة اللّغات المُنافسة لها، وبخاصّة لغاتِ المستعمِر.

وعلى العموم، فإنّ الخوفَ قائمٌ من أخطبوط الفرنكفونيّة التي غلّفت قناعها بوجْه آخر؛ وجْه مُزيّف، وله أغراضٌ وأطماعُ هيمنة، وإنّنا مُطالبون اليوم باتّخاذ

---

1 ــ عبد العلي الودغيري "الفرنكفونيّة في إفريقيا" مجلة الموقف. المغرب: 1992، العدد 13 ــ 14.

2 ــ عبد اللّه ركيبي، الفرنكفونيّة مَشْرِقاً ومَغْرِباً. الجزائر: 2009، دار الكتاب العربيّ، ص 7.

موقف منها، والوقوف عملياً ضد سياستها التّبعيّة، ومنطلقها الهيغموني نظراً للعوامل التّاليّة، وما يتفرّع عنها:

"أ- لأنّ (الفرنكفونيّة) تعمل كسياسة لغويّة رسمية اكتساحيّة، وكصنف من الغلوتوفاجيا أو (الافتراس اللّساني).

ب – لأنّها تسيء من حيث لا تعلم – وعلى المدى المُتوسّط أو البعيد- إلى اللّغة الفرنسيّة، وذلك من حيث إنّها تخلق أولويّة التّحفّظ، بل النّفور منها.

ج – لأنّها تضرب في الصّميم البُعدَ الكياني والنّسيج الثّقافيّ والوجدانيّ للمجتمعات التي تستهدفها.

د – لأنّها مع كلّ الحكومات الجمهوريّة الفرنسيّة الخامسة، ومع كلّ الرّؤساء باستثناء (ديغول) إلى حدّ كبير، بقيت كفكرة ثابتة لا تزداد مع الوقت إلاّ رُسُوخاً وعُلُواً.

هـ – لأنّها تُمارس سياسة الكيل بمكيالين، على نحو مستكبر مفضوح فتعمل على تمنيع فرنسا ضد ما تسعى إلى خلقه في مستعمراتها القديمة؛ أي الانشطار اللّغوي أو التّشقق اللّسانيّ، كحالة انفصام وتمزّق في الإدراك والحساسيّة والنّفس والتّعبير؛ أي كحالة مرضيّة من شأنها أن تصيب مجتمعاً في الصّميم بالكسر والتّصدّع في قنواته التّواصليّة، ونسيجه الثّقافي[1]". وفي هذا المقام ندمج مقالاً له علاقة بالموضوع للباحث (عمر النمري) عنوانه: أيّ مصلحة لدول المغرب العربي في التّشبث بالفرنكوفونية؟ وهذا ضمن عنوان كبير: **الفرنكفونية استعمارٌ أم استخرابٌ؟** فيقول: أمام هذا الانحسار المريع للفرنكفونية، وأمام هذا الزحف الهائل للغة الإنكليزية وما تحمله معها من بشائر للمنظومة الإنكلوفونية متمثّلة أساساً في أمريكا وبريطانيا؛ خاصّة بعد انخرام ميزان المعادلة الدولية لصالح أميركا بسقوط القطب الروسي وانتهاء الحرب الباردة، وتزعم أمريكا لنظام العولمة الجديد. أقول: لم يعُد هناك أيّ مسوِّغ للدول المغاربية للتشبّث بالفرنكوفونية

1ــ إدريس الكتّاني، ثمانون عاماً من الحرب ضد الإسلام واللّغة العربيّة. الرّباط: 2000 منشورات نادي الفكر الإسلامي، ص 212.

والدفاع عنها، وتبنّيها على صورتها التّقليدية المعروفة. إنّ هذا التّحوّل في ميزان المعادلة الدولية ليلقي بظلاله دون شكّ، على نوع وطبيعة العلاقات الخارجية التي يمكن أن تتحقّق في ضوئها مصالحُ الدول المغاربية. وإنّها لفرصةٌ سانحةٌ أمام هذه الدول للتخلّص من الهيمنة الفرنسية ولو جزئياً، في اتّجاه تحقيق بعض الاستقلال عنها إن كانت تملك قرارها لتدور بعلاقاتها الخارجية: السّياسية والاقتصادية مع دوران مصالحها الحيوية والوطنية.

لم يعد هناك أي مُسوِّغ ولا أي مصلحة في الاستمرار في اعتماد سياسة التّعليم المزدوج على الإطلاق، وينبغي وضع حد لسياسة التذيّل، والتّبعية والإلحاق الثّقافي والحضاري هذه. ولم تعُد هناك أية حجّة لكي تحافظ اللّغة الفرنسية على هذه المكانة المرموقة في المناهج التّعليمية بالدول المغاربية؛ في الوقت الذي تحتل فيه المرتبة التاسعة بين اللّغات الأجنبية على الصعيد العالمي؛ مقارنة باللّغة الإنكليزية التي تحتل موقع الصدارة من حيث عدد المتكلمين بها، ومن حيث عدد البحوث العلمية التي تنشر بها.

لقد آن الأوان لمراجعة هذه السياسة التّعليمية؛ بحيث توضع اللّغة الفرنسية في **موضعها الذي يليق بها بين اللّغات الحية**، لا أكثر ولا أقل، لتفسح المجال واسعاً أمام اللّغة الأم لتحتل محلها الطبيعي في مرحلة التّعليم الأساسي من دون منافس.

والحقيقة أنّ الشّعوب المغاربية، بل الشّعوب العربية والإسلامية، جميعها تشهد اليوم أوبْة صادقة إلى ثوابتها التاريخية والحضارية ممثّلة في: اللّغة والدين والتاريخ؛ بما لا يدع مجالاً لحُكامها للسير بها في الاتّجاه المعاكس لولا أنّ النّخب العلمانية المتفرنسة، والمتحكّمة في مقدرات الدولة استطاعت بما تتوفّر عليه من نفوذ وسلطة أن تحمي سياسة ازدواجية التّعليم، وأن تحفظ لفرنسا دور الهيمنة ومكانة الامتياز في الدول المغاربية.

لقد أصبح تعريب التّعليم، والكفّ عن سياسة ازدواجية اللّغة في مناهج التّعليم مطلباً لا مناصَ منه. وهذا هو المَكمن الذي تعتمده فرنسا بأنّها لا تُفرَض الفرنسية بصورة علانية على الشعوب المستعمرة بالأمس، ولا على الشعوب التي تستعمل الفرنسية كلغة علم، بل تأتيها المطالب من نخبة البلاد بضرورة العمل على تدريس

الفرنسية خارج وطنها، وأنّها لغة العلم والعالم، فلا تكفّ عن الاحتجاج بهذه الأفكار.

ومن الأفكار المُغرية التي يُروّجها أنصارُ الفرنكوفونية من المُراقبين والصِّحافيين الفرنسيين والكنديين أن تتحوّل المنظمةُ الفرنكوفونيةُ إلى مجموعة من الدول تجمع بينها مصلحة مشتركة؛ تتمثّل في الدفاع عن الاستثناء الثّقافي بما يعنيه من تنوّع ثقافي، وتعددية لغوية في مواجهة الاجتياح الإنكلوفوني لحفظ مكانة اللّغة الفرنسية كلغة عالمية، ولبناء مجتمع عالمي لا يقوم على التّماثل الثّقافي الذي تفرضه العولمة الأمريكية. وعلى الرّغم من بريق هذه الفكرة وإغراءاتها ببناء تكتّل دولي في مواجهة التماثل الثّقافي في غلاف اللّغة الإنكليزية والذي يدعو إليه النّظام العالمي الجديد بقيادة أميركا، كما يعني في الحقيقة هيمنة الثّقافة الأمريكية ورفعها إلى مرتبة العالمية والأُممية. على الرغم من وجاهة هذه الفكرة، إلاّ أنّها في الحقيقة تصبّ في مصلحة فرنسا وتستصحب في خفاياها هيمنة فرنسية على هذه المجموعة الفرنكوفونية لتستقوي بها على التكتّل الإنكلوفوني. وليس من العسير على المرء أن يكتشف أنّ التّكتّل الحقيقي الذي تنتمي إليه فرنسا هو الاتّحاد الأروبي، كما أنّ التكتّل المُناسب لدول المغرب العربي هو التّكتّل العربي الإسلامي لا الكتلة الفرنكوفونية بزعامة فرنسا. وفي هذا المجال يرى الباحث (بنسالم عميش) أنّ لا مستقبل للفرنكفونية في المنطقة العربية لأنها تهدّد تجانسها، ويذهب في الإسهاب في كتابه (الفرنكفونية ومأساة أدبنا الفرنسي) أنّ "قضية الفرنكفونية كإيديولوجيا ذات بنية خطابية ووظائف وغايات محدّدة، وكمؤسّسة ذات سياسة رسمية مخصوصة وهيئات وفروع ودعم واعتمادات. ولم يقف الدارس في هذه الدراسة عند المستوى الرصدي الوصفي وحده لإظهار الفكرة الفرنكفونية في حجمها ونشأتها وفي بعدها الصراعي فحسب، وإنّما قصد أيضاً إلى وضعها على محكّ النظر والتأويل للبحث في مفارقاتها وتناقضاتها الذاتية قياسا إلى مرجعية تعمد أن تكون فرنسية المنبت والمأتى، ألا وهي الديكارتية ومبادؤها الفلسفية المعروفة... ويذهب المؤلّف ليعيد إلى الأذهان أنّ هنالك فوائد للازدواجية اللّغوية كأداة مقاربة لثقافتين مختلفتين من حيث الأصل والهُوية، ويرى أنّ هذه الأداة تتيح لهم فعلاً أن يضعوا منظومة ثقافية في

مرآة منظومة أخرى، وأن ينسبوا وبالتالي يغنوا الواحدة بالأخرى، ومن هنا، مبدئياً يكون المتمكن من لغتين فأكثر قادراً على تلمّس الشمولية في تكامل الثّقافات واستعدادها لاكتساب مهارات التواصل والتبادل، وذلك بحكم تموقعه في خطوط الوصل بين ثقافتين: واحدة له بالأصل والانتماء، وأخرى بالاستعارة والتبنّي. ولكنّه على صعيد آخر يؤكّد أنّ هنالك حدوداً للازدواجية اللّغوية ــ كما يمكننا رصدها في بلدان المغرب ــ تأخذ في الظهور ما إن يعتور عبارات التعايش بين لغتين نوع من التّدهور، جرّاء مَيْل واحدة إلى الحَجْر على الأخرى أو إلى إقحامها في صراع هيمنة ونفوذ لا تكافؤ فيه بين الوسائل والقوى. كما أنّ هنالك حدوداً أخرى لتلك الازدواجية يجوز التأكيد عليها في مجال ثقافة الإبداع الأدبي... ذلك لكون ثقافة البحث في العلوم الإنسانية والطبيعية إذا كانت تتطلّب لغتين فأكثر، فإنّ الأمر مختلف في شتى فنون الابداع من شعر ورواية ومسرح وسينما، حيث تكون السيادة كلّها للغة الواحدة كنظام استيعاب وتمثّل، وكنمط تحقيق وإنجاز. وهكذا فإنّ كل أدب إنّما ينتمي إلى لغته وتاريخها، سواء كانت هذه اللّغة أصلية أم مقتبسة. ومن هنا تصحّ إعادة النظر نقدياً في تسميات من صنّف الأدب المغاربي المكتوب بالفرنسية، على سبيل المثال البالغ حدّ الظاهرة اللافتة للنظر أدباً عربياً... ويشير إلى حالة انحباس وحرمان ذات بعد نموذجي، يعبّر عنها (مالك حداد) بقوله: اللّغة الفرنسية هي منفاي. كما ينقل لنا ما قاله (إدريس شرايبي) منذ عشر سنوات ودماغي العربي المفكّر بالعربية يطحن مفاهيم أوروبية على نحو بالغ العبث بحيث يحوّلها إلى مرارة، فيعتلّ بها. وإن بقيَ مُستمراً فليس بفضل قاعدة التكيّف بل لأنّه، من كثر ما طحن على ذلك النّحو تحمل فوق ما يطيق من السحايا المتوالدة التي هي وحدها المتكيّفة مع العالم الغربي... وتوازيا مع خيبة آمال بعض الكتّاب من الفرنكفونية، يذهب إلى أنّ الكتاب المغربي عندما يقوم بإشارات وعروض لها ولا يتلقى منها إلاّ النزر اليسير، فإنّه لا يسعه إلا أن يشعر إزاءها بمرارة ممزوجة بالضغينة... فعبد الكبير الخطيبي كمنافس سيئ الحظّ للطاهر بن جلون له كلّ الدواعي للحقد على النّظام الفرنكفوني ووسائل إعلامه، التي يظهر أنّها لا تتبنى أكثر من عربي للخدمة، واحد لكلّ بلد أو مجموعة بلدان مخضعة المرشحين لهذا المنصب لتقاطع سلوكاتها في المحاسبة والتقتير".

وهكذا، ظلت بعض الدول الأوروبية محافظة على روابط مع مستعمراتها السابقة عن طريق هيئات ذات طابع دولي تحمي بها مصالحها وتحافظ على نفوذها. ومن أبرز تلك الهيئات رابطة الكومنولث ومنظمة الفرنكفونية نرى الصراع عل المصالح بين الغربيين، بين الفرنكفونية والكمنويلثية، فنحن في رحى الطحين نُهرَس، ولا مجال لنا في الوجود ما دمنا لا نولي لغتنا أهميتها ولا نعمل بها. فقد غيّبتنا القاعدة الذهبية وهي (أينما وجدت المصلحة فثمّ شرع الله) فأين تكمن مصالحنا الوقتية في هذين القطبين؟ بالفعل، ربّما لم تتّضح الصورة بالشكل الجيّد، لكنّنا لا نقول: إنّه يجب الانضمام إلى قطب دون آخر بل نبحث عن المصلحة المشتركة، للوصول إلى تحقيق القاعدة المذكورة.

ولكن يبدو لنا أنّ التعامل مع القطبين: الفرنكفونية المهيمنة، والصلف الأمريكي لا مناص منهما إلاّ الاستفادة من الطرفين، ومن ثمّ العمل على بناء حضارة إنسانية ذات صبغة أممية عولمية تعترف بتنوّع الثّقافات، وتعدد الهُويات الدينية واللّغوية لشعوب العالم، وتفتح باب الحوار بين الحضارات على مِصْراعيه ليدلي كلّ منها بعطاءاته المُتنوّعة، في اتّجاه بناء حضارة عالمية تتكامل فيها العطاءات بشتى أنواعها الثّقافية والحضارية، والروحية والمادية.

إنّ العولمة القسرية التي تقودها أمريكا ويشاركها فيها التّجمع الغربي ــ بمعنى من المعاني ــ لا يمكن أن تقود إلى حضارة إنسانية ينعم فيها بنو البشر بالعدل والسلم الدائمين. إنّ عولمة من هذا القبيل تقوم على القوة، والقهر والاضطهاد والقمع الدموي، والقمع المعنوي بما تروّجه من أكاذيب وأغاليط وخدَع؛ لا يمكن أن تقود العالم إلى شاطئ الأمان. إنّ الطريق الوحيد لبناء حضارة إنسانية عالمية يمرّ بالضرورة عبر الحوار الفكري، مُتسلحاً بقوة المنطق وحُجج العقل، لا قوةَ الساعدِ وصدأ الحديدِ. ولا يمكن التّعليق على هذا المقال إلاّ القول: **هل نعي وهل نعتبر؟!**

15ـ طرح أسئلة التّعدديّة اللّسانيّة

ــ **طرح أسئلة التّعدديّة:** علينا الإقرار بأنّ هناك دعوات إلى تعدّدية لسانية/ لغوية مُصاحبة للتّعدديّة السّياسيّة والثّقافيّة، وتدخل في حقوق الإنسان اللّغوية/ حقّ الأقليات/ حقّ اللّهجات واللّغات الوطنية/ حماية اللّغات من الانقراض/ حقّ لغة الأمّ/ حقّ لغات المنشأ. ومع ما تحمله التّعدّدية اللّسانية من مَحاسن/ مَضار، بل أمام الإجبار والخطر القادم، لا بدّ أن نطرح أسئلة التّعدّدية، وهي:

ــ هل التّعدّد اللّغوي قدرٌ لا مفرَّ منه؟

ــ هل للتّعدّدِ منافعُ، وما هيّ

ــ هل للتّعدّدِ مَضارٌ، وما هي؟

ــ هل هناك تجارب ناجحة، وضمن أيّة شروط؟

ــ هل الدّول المُتقدّمة تعمل بسياسة التّعدّدية؟

ــ هل للتّعدّد ضوابط؟

ــ **محاسن التّعدّد اللّساني:** هناك مجموعة من الأُطر التي نعتبرها محاسن تدخل في عملية الأداء اللّغوي المُتنوّع من مثل:

ــ غِنى الأفكار، والاطلاع على آخر الابتكارات، والمُزيد من التّعمق والتّفتح على الغير.

ــ تطوّر اللّغات الوطنية، والاستفادة من تجارب ولغات الشّعوب، وإحداث التّوازن والتّعايش السِّلمي، والحفاظ على الموروث الثّقافي من الانقراض.

ــ كلّما زاد عددُ الألسنة التي يُتقنها الفرد زادَ جدواه، وقلّ ضررُه، واتّسعت آفاقُه، وكلّ لسانٍ بإنسان.

ــ وكلّما تعدّدت الألسنةُ سهُلت على الإنسان الوظيفة.

ــ التّنوع داخل الوحدة فضيلة.

ــ أن يخرج من أفواه الشّعب عن طريق الحوار الوطني.

ــ رأي النّخبة الوطنية.
ــ البناء على لغة واحدة جامعة.
ــ الاهتمام باللّغات الوطنية.
ــ الاختيار المستقبلي للأجيال في اللّغات الأجنبية.
ــ اختيار اللّغة العلمية ذات الآفاق العلمية الدقيقة.
ــ مراجعة السّياسة اللّغوية بخصوص اللّغات الأجنبية (حيثما وُجِدت المصلحةُ؛ فثمّ شرع الله).
ــ القرار السياسي المُلزم، والتزام بما يصدر في الدستور.

ــ **مَضَارُ التّعدّد اللّساني:** يقضي على التّماسك المجتمعي، ويأتي على الإخلال بدولة المركز، ويخلّ بمنظومة Lingua franca والتّواصل الجمعي. تليه بعد ذاك المُطالبة بالانفصال، والقضاء على التّلاحم الوطني وظهور التّعصّب. كما أنّ تعدّد اللّغات انفصام في الشّخصية، ويحصل ضعف المستوى على حساب الكيْف؛ لأنّ التّعدّدَ يركّز على الكمّ لا على النّوع. وكذلك من ناحية المستوى اللّغوي؛ نجد لدى الفرد المُتعلّم للغات تحصيله يكون سطحياً عكس أحادي اللّغة يكون تحصيله عميقاً. إضافة إلى انعدام الأمن اللّغوي. كما تطرح قضية أخرى وهي، ما هي اللّغة العلمية التي تُعتمد، باعتبار أنّ العلمَ لا يوجد في لغة واحدة، واللّغات أقطاب، فمن أيّة لُغة نُترجم؟ وكم قيمة التّرجمة إذا أخذنا التّرجمة من كثير من اللّغات؟ ... وهنا تطرح قضية هامّة أخرى وهي ضرورة استنبات العِلم في اللّغة الوطنية التي تكفينا صُعوبة التّرجمة وكُلْفتها وتعدّدها، مثل الإنكليز الذين هم مُرتاحون الآن بين الأمريكيين والأوربيين؛ فكفَّتْهم لغتُهم الجريَ وراء التّرجمة. وفي هذه النّقطة كان يجب الاستفادة من التّجربة الفرنسية التي لم تُفكّر ذات يوم بأن يحصلَ فيها التّعدّدُ اللّغويُ، رغم ما فيها من أعْراقٍ لغوية، وما فيها من جُزر لغوية تُستعمل فيها اللّغاتُ الأخرى، بل لم تضعْ برامج تربوية لتدريس هذه اللّغات أو اللّهجات المحلية، ومُؤخّراً فُرض عليها إدخال لغة أو لغتين أوربيتين، فعملت على تحقيق

بعض التّغيير، وكان ذلك على الخيار، بل لم يحصل إلاّ في المدن الفرنسية الكبيرة. وفي الآونة الأخيرة قدّمت وزيرة التّربية الوطنية[1] مشروع إدخال الإنكليزية واللّغة اللاتينية في المنظومة التّربوية، فلقيتْ معارضةً كبيرةً من البرلمانيين، بل امتدّت المعارضة إلى الشارع الذي رفض هذا المقترح؛ بدعوى أنّه سيقضي على اللّغة الفرنسية الموحِّدة التي جسّدها فيهم السّلف، بل إنّ ذلك مَدعاة إلى فناء الفرنسية التي لا تستطيع مُقاومة الإنكليزية أو الألمانية أو الإسبانية. ونرى يدّ الوزيرة تمتدّ للمعارضة في قبول مشروعها بتعديل يراه البرلمانيون، ولكنّ المُختصّين والفرنسيين يرفضون كلّ مساس باللّغة الفرنسية المُقدّسة. **والعبرة** هنا، أنّ الفرنكفونية الحالية **تمنع التّعدّد اللّغوي في بلدها، وتدافع عنه لتحقيقه في غير بلادها**، أليس من الغباء علينا ألاّ نفهم هذا التّمويه، وهل تخفي علينا هذه الأعمال التّدميرية لبلداننا وللذات الوطنية التي لها الخُصوصية اللّغوية، وللأسف نجد بعض النّخبة عنجنا تصفّق لهذا الأمر لأنّه جاءها من فرنسا. ويبرّرون بأنّ في فرنسا حرية التّعبير، فهم أحرار في رَفْض مشروع الازدواجية أو التّعدّد اللّغوي. وأما بالنّسبة إلينا، فإنّ التّعدّد اللّغوي/ الازدواجية علينا الأخذ به لأنّه مُنقذنا من التّخلّف.

ــ **التّعدّد اللّساني المنبوذ:** إنّ التّعدّد اللّساني من حيث المبدأ جيّد، إلاّ أنّه يحتاج إلى تدبير، ويكون منبوذاً حالة ما:

ــ لم يجرِ على تدبير الشّأن اللّغوي؛

ــ لم يُنزل اللّغاتِ الوطنيةَ إنزالاً تراتبياً؛

ــ لم يضع حداً لهيمنة اللّغات الأجنبية؛

ــ لم يضع التّراتب بين اللّغات الأجنبية؛

ــ لم يقع الاهتمام بالتّرجمة؛

---

1 ــ وزيرة التّربية الفرنسية الحالية في حكومة هولاند، وهي مغربية الأصل Najet Vallaud Belakacem.

ــ لم يستنبت العلم في اللّغة الجامعة؛

ــ لم يهتم بالتّنمية البشرية.

ــ الملاحظات التي يجب أن تكون في البال:

1 ــ التّعدّد له مناحي مُتعدّدة.

2 ــ هناك بلاد ناجحة بالتّعدّد، وهناك بلاد فاشلة بالتّعدّد.

3 ــ التّعدّد اللّساني في الغالب مُصاحب للتّخلّف/ البلبلة اللّسانية/ الصّراعات/ الحكم الذاتي...

4 ــ القارات المتخلّفة قارات يكثر فيها التّعدّد اللساني: ونُلاحظ ذلك في هذا العدد: ــ أفريقيا: 2194 لغة ــ أمريكا 1060 ــ آسيا 2304 ــ أوقيانوسيا 1311 ــ أورپا 284.

5 ــ نمو وانتشار اللّغات الأكثر بشراً ودِيناً.

6 ــ نمو وانتشار اللّغات الأقوى اقتصاداً.

7 ــ اتّجاه العالم نحو التّوحيد اللّغوي (الأمركة/ الأنگلزة. حتى ضمن الاتّحاد الأورپي، يلتجئون حالة الضرورة إلى الإنگليزية فقط.

8 ــ التّعدّد اللّساني لا يعني المساواة المُتكافئة بين اللّغات المُوظّفة، لا قانونياً ولا تخصيص أموال.

9 ــ لا توجد تعدّدية تعني المساواة؛ لأنّ كلّ لغة لها: رمز اعتباري/ جانب حضاري/ تاريخي/ رابط روحي/ تاريخي/ عاطفي...

10 ــ هناك فروق يجب أن تُراعى، فإذا وقعت التّسوية؛ فكأنّنا سوينا بين البعوضة والفيل في رأي كالڤي/ Calvet، أو بين الأمي والعالِم.

11ــ وضع محاذير في الحسبان، وهي:

- ــ طغيان لغة على أخرى.
- ــ تشجيع لغة على أخرى.
- ــ الكُلفة المالية.

- ــ الصّراع اللّغوي/ حرب اللّغات.
- ــ التّوترات الاجتماعية بسبب عدم التّساوي اللّغوي/ إحــداث شرخ مجتمعي/ الصّراع بين اللّغة الرّسمية واللّغات الوطنية.
- ــ اللّجوء إلى لغة العدو، وهذه هي النّتيجة التي حصلت في كثير من التّجارب.

ــ **دول فُرِض عليها التّعدّد:** نجد هذه الدّول من الدّول المتخلّفة، فبعضها دول كرتون، دول تعمل على تركيب الآلات، لا قرارَ لها، دول تعيش صراعات داخلية وبعضها هي عبارة عن أوكار التّجار والرأسمال العالمي لا جيش يَحْميها، ولا قوّةَ تنقذها من العدو، فكلّما اشتدّت ظروفها تلتجئ إلى دول الجيران لتَحميَها. فأين معالمُ الدولة فيها. ومنها:

ــ **اللُوكسمبورغ:** دوقية لُوكسمبورغ/ دولة Cité-Etat بعدد نصف مليون من البشر/ 40 % أجانب، مَحصورة بين فرنسا ــ بلجيكا ــ ألمانية. ضغوط خارجية ومن السّاكنة، فتدرّس 6 لغات، وتنفق 50% من أموالها في المدرسة بسبب هذا التّعدّد.

ــ **سنغافورة:** بفعل الهجرات واستقرار التّجار من كلّ جنس، فهي فسيفساء جنسي، يعني لغوي، فرضت عليها أربع لغات: الصّينية ــ الماليزية ــ التاملية ــ الإنكليزية الموروثة.

ــ **غينيا كوناكري:** اختارت 8 لغات وطنية، حاولت أن تضعها بدل الفرنسية لم تفلح، وعادت إلى لغة المحتلّ بالأمس.

ــ **بوليفيا، وبوركينافاصو.** جرّبتا اعتماد اللّغات الوطنية فما أفلحتا.

ــ **جنوب إفريقيا** لها إحدى عشرة لغة (11) وطنية لم تفلح في صياغة لغة مشتركة، وعادت إلى لغة العدو.

ــ **نيجيريا:** اعتمدت 3 لغات: الهوسا+ اليوربا + الإيجبو من بين مئات اللّغات ولم تفلح، وعادت إلى اللّغة الإنكليزية.

ـ **الهند:** نصّ دستورها لعام 1949 الأول على أن تظل الإنكليزية لغة رسمية لمدة 15 سنة، ثمّ تحلّ الهندية، على أن تختار كلّ ولاية لغة تراها واختارت 19 لغة، وعملت بها منذ 1963، وبعد مدة لم تنجح، وعادت إلى الإنكليزية، واختارت فقط اللّغة الجامعة شكلياً، وهي Hindi، ولكنّها غير جامعة... ونلاحظ على هذه الدُّول أنّها دول لها الحُكْم المَحلي، ولم تعرف الازدهار التّنموي بالشّكل الحقيقي.

ـ **الدّول المُتعدّدة اللّغات:** نجد **سويسرا:** 4 لغات رسمية مُتساوية: الفرنسية+ الإيطالية+ الألمانية+ الرومانشية. **وبلجيكا:** 3 لغات: الفرنسية+ الفلامانية+ الألمانية. **وكندا:** الإنكليزية+ الفرنسية. **وهولاندا:**

ـ **التّعدّد اللّساني النّاجح:** هو الذي يُبنى على سياسة لغوية، وتخطيط علمي تربوي، يبدأ من المدرسة أولاً، مع ما يتبع ذلك من:

ـ تخطيط سياسة لغوية: تجنيد كلّ الأجهزة والوزارات؛

ـ التّخطيط على الآماد الثّلاث؛

ـ تخطيط السّياسة اللّغوية بإنزال تراتب لغوي فلكلّ اللّغات مقام؛

ـ الأولوية للغة الرّسمية: لغة الأمّة/ اللّغة الأمّ؛

ـ لا يؤدّي ذلك إلى التّبعية؛

ـ لا إفراط في المرجعيات الوطنية، ولا في الهُوية الوطنية، ولا في الدين؛

ـ ألا تكون كلفتها عالية؛

ـ ألا يؤدّي ذلك إلى هجين لغوي أو تأخّر البلاد.

ـ اعتماد التّرجمة في حدود المعقول، ولا يكون على حساب اللّغات الوطنية؛

ـ اختيار اللّغة العلمية العالية فقط، كلغة أجنبية دون غيرها من اللّغات الأجنبية؛

ـ أن يكون التّعدّد سبباً للاستقرار السّياسي أو الثّقافي؛

ـ ألا يؤدّي إلى بلقنة وبلبلة في البلاد أو أسطورة البرج البابلي (بلبلة الألسنة) وكلّ ما تجاوزَ الحدَ انقلبَ إلى الضدّ.

إذا لم تتوفّر هذه الشروط تتحوّل النّعمة إلى النّقمة، ومن المِنْحة إلى المِحْنة.

وإنّ الدّول النّاجحة في تدبير السّياسة قليلة جداً، بحيث اتّخذت تلك الشّروط التي ذكرناها سلفاً في سياستها اللّغوية، وحصل التّوازنُ الجمعي، وارتقت بفضل لغاتها فقط. أما اللّغات الأجنبية؛ فكانت من باب الفرض في عصر العولمة، أو بفعل ضغط السّاكنة الجُدد. وهذه الدّول هي: أمريكا+ فرنسا+ بريطانيا+ إسبانيا+ إيطاليا+ اليابان+ الصين+ روسيا+ كوريا لا تعتمد إلاّ لغة واحدة.

وبعد استعراضنا لما للتعدّدية اللّسانية من مَحاسن ومَضار، يمكن أن يقع التّمثيل بالجزائر، فهي في طريق بَيْنَ بَيْنَ، فمصيرها شبه مجهول، وإلى أين تتّجه؟ وكان لا بدّ من استعراض الوضع اللّغوي الحالي الذي نشهد فيه الكثير من العَدَميات وهي:

ــ غياب تخطيط لغوي/ سياسة لغوية/ فشل الإصلاحات التّربوية.

ــ هيمنة الفرنسية أكثر من ذي قبل.

ــ استفحال ظاهرة عدم إتقان أيّة لغة مدرسية/ تدهور المستوى اللّغوي.

ــ انكماش العربية في الآداب والعلوم الإنسانيّة، فأصبحت لا تُنشد في ذاتها.

ــ الإقبال على الفرنسية على اعتبار أنّها لغة المستقبل، ولغة العمل والخبز.

ــ شلل المؤسّسات العاملة على ترقية اللّغة العربية.

ــ مسايرة وسائل الإعلام للرداءة/ فشو الهجين اللّغوي.

ــ إسهام ظاهرة الفسبكة/ التّوترة/ اللُّوحية/ السمرتفونية/ الشّابكة في نشر الهجين، والحرف اللاتيني.

ــ السّرقات العلمية/ الملكية الفكرية دون وازع وضابط أخلاقي.

ــ غياب الاستنكار/ غياب الحلول/ غياب من يحمل الشّأن العامّ...

إذاً هل يمكن أن يكون التّعدّد اللّساني مُنقذاً لها من التّخلّف؟ وفي الحقيقة تعيش الجزائر وضْعاً لُغوياً ازدواجياً غير مُشاهد في الوثائق، ولكنّه مُمارس في التّعليم وفي الإدارة، فهل أخرجها من التّخلّف؟ لم يحصل أنّها عرفت التّراجع إلاّ مع التّسيّب الذي

ظهر في الإصلاحات التّربوية التي أقبرت التّعليم ووضعته في المُتحف. إصلاحاتٌ فاشلةٌ شقّتِ الشّعبَ الجزائري شقوقاً فأخرجت طلاباً لا هم يتقنون العربية ولا الفرنسية ولا المازيغية، ولا عندهم هُوية، فما هو هذا الجزائري في الإصلاحات التي لم تفصل في المسألة اللّغوية، بل زحزحت الفرنسيةَ إلى السّنة الثانية، ومن ثمّ إلى السنة الثّالثة كأنّ القضية في الفرنسية التي يعبُدُها الإصلاحيون، ويتعامَوْن عن لغات العلم. هنا الخطورة، وللأسف لا نتراجع عن الخطأ، ونبقى ندافع عنه ولو رفض الجميعُ المسألةَ ولأنّه هكذا أُمْلِيَ علينا. ومسألة أخرى نراها في ذلك الامتعاض الذي يُبديه الاتّحاد الأوربي المَشَكَّل من 28 دولة، فتصادفهم مشكلة كُلفة التّرجمة التي تستهلك نصف ميزانية الاتّحاد. واقترحوا إحياء الإسبرنتو أو اللاتينية أو الإنكليزية. ووقع الاتّفاق على ثلاث لغات فقط في اجتماع البرلمانيين: الإنكليزية+ الفرنسية+ الألمانية. على أنّ الجلسات تدار بـــ 24 لغة، فهي كُلفة كبيرة، وسوء التّفاهم كبير. تمّ اقتراح تدريس كلّ دولة في الاتّحاد لغة/ لغتين أوربيتين في لاحقٍ من الزّمان، وكان هذا مرفوض في المرحلة الابتدائية عندهم. ولكنّ الزّمان كفيل بأن يعودوا إلى اعتماد لغة واحدة؛ تكون المخرج من ذلك التّبلبل. **فهل نعتبر؟**

وفي وضعنا المعاصر، يجبّ أن نقرّ أنّ الأصل في المجتمع المُنسجم أن تحكمه وتسود فيه لغةٌ واحدةٌ، إلاّ أنّ مُعطيات العولمة تحتمّ تعدديةً لغويةً، وهي في الحقيقة موجودة، قبل العولمة؛ باعتبارنا مُجتمعاً مُتعددّ اللّغات الوطنية. ولهذا، فنحن لا نرفض التّعدّدية ولا نحاربها، بل يجب أن نعمل على إنزال كلّ لغة منزلتها، وهذا هو الخيار السّهل؛ والذي يُنجينا من حرب اللّغات. فلا يجب أن نُسْجِن أنفسَنا داخل لغتنا؛ علينا أن ننفتح على الخارج وفق شروطنا وثوابتنا وخصائصنا، **ونضع في الاعتبار المحافظة على اللّغة الجامعة خطاً أحمرَ لا يجب تجاوزُه.** ولهذا نحتاج إلى توسيع دائرة استعمال العربية؛ فاللّغة يُحييها الاستعمالُ ويقتلها الإهمالُ، وعلينا إدراك بأنّ هُويتنا هي سجل ماضينا وحاضرنا ومستقبلنا، وبها تتحقّق لنا السيادة والوَلاء والوَحْدة والمواطنة.

16ـ التّدريس باللّغات الأجنبيّة

إنّ تعلّمَ اللّغاتِ الأجنبيّةِ ضرورةٌ لا محيدَ عنها، وأما التّعليمُ باللّغات الأجنبيّة فهو زيادةٌ فيها، ونقصٌ في اللّغات الوطنيّة، وفي شخصيتنا وفي ثقافتنا، فلماذا لا نفعل مثلما تفعل فرنسا التي هي (قُدوتُنا). وهي التي ترى بأنّ التّعليم باللّغات الأجنبيّة يُضعِف الفهمَ والاستيعابَ باللّغة الأمّ/ لغة الأمّة الفرنسية، سواء في ذلك في فَهْمِ المسموع أو في فَهْمِ المقروء؛ فالمُتعلّم ينشطر إلى قسميْن:

1ــ **قسم** لفهم اللّغة الأجنبيّة؛ ويعيش المُتعلّم شطْراً من التّفكير بلغة وكيفيات العيش داخل الشّبكة المفاهيمية لذات اللّغة؛

2 ــ قسم للتّرجمة من لغته إلى الأجنبيّة، وفيها تقع آليات التّرجمة التي لا تفي الموضوعَ حقَّه مهما أُوتِي الإنسانُ من إتقان للغتين "ولهذا فإنّ الذي يدرّس نصّاً علمياً بغير لغته، يتعامل مع مُفردات النّص مُفردة مُفردة، باذلاً جهدَه في فَهْم كلّ منها على حدة، بغض النّظر عن سياقها، فهو ينصرف إلى دراسة تفاصيل العبارة لكنّه يخفق في أن يستخرج المعنى الكامن في الجملة ككلّ – إنّه كما قيل– ينظر إلى الشّجرة، لكنّه لا يُبصر الغابةَ[1]" ولهذا نجد الأمم التي تحترم نفسها لا يمكنها أن تدرّس باللّغة الأجنبيّة مهما كان مستوى تدنّي لغتها إلاّ عند العرب، فنجد العكسَ والقابليّةَ للتّعليم باللّغات الأجنبيّة وهو عندهم أفضلُ من التّعليم بالعربيّة "وإنّ ما

1ــ علي أحمد مدكور "الآثار اللّغويّة والمعرفيّة للتّعليم باللّغات الأجنبيّة" أعمال مؤتمر حول (التّعليم باللّغات الأجنبيّة في العالم العربيّ). القاهرة: 14ــ 15 فبراير 2006، جامعة القاهرة كليّة دار العلوم، ص 151.

سبق يفسّر إصرار الأمم المُتقدّمة بلا استثناء على أن تعلّم أبناءها بلغتها، فقد صحّ علمياً أنّ الطّالب يتلقّى العلمَ تلقياً أفضل بلغته الأمّ التي ارتضعَ لبانَها مع لبن أمّه وأنّ الأستاذ يُجيد توصيلَ العلم بلغته الأمّ كذلك. وأنّ التّواصل يكون أنجح بين الأستاذ والطّالب بتلك اللّغة السّاريّة في عروقهما، وأنّ الذّهن يتمزّق إذا كان التّوازن بين طُوفان المعلومات ومغاليق اللّغة إذا كان الإنسان يستخدم لغةً أجنبيّة[1]".

ومن هنا، فإنّ التعليم باللّغات الأجنبية لا يعمل على توطين العلم، كما لا يعمل على توصيل المعارف الدقيقة، وهذا ما لا يجب أن يحصل في التّربية والتّعليم، وأنّ خصوصية اللّغة هي أن تُتعلّم لذاتها وفي ذاتها، وأن ينغمس المتعلّم فيها بالممارسة حتى تستقرّ فيه أنماط التراكيب التي تصبح مسكوكات تعمل على تماثل الأنماط والأمثال والشعر، وما له علاقة بالثقافة عامّة. ولهذا، لا ترى فرنسا ضرورة تعليم اللّغات الأجنبية إلاّ في مراحل متأخّرة.

ومن هذا المنطلق، فنحن لا نعمل بهذه الممارسة اللّغوية التي أبانت عن نتائج هامّة بل ننزل اللّغات الأجنبية في السنوات الأولى، ومن ثمّ نجد ذلك يعمل على إدخال الضيم على اللّغات الوطنية، فيصبح المتعلّم لا يتحكّم في لغته، ولا يبدع باللّغة الأجنبية. وفي الحقيقة لدينا تجارب ناجحة لكلّ من: سورية والسودان وليبيا واليمن، وقد حقّقت هذه البلدان أهدافها بصورة كاملة في الاحتكام في اللّغة العربية، مع مجموعة من الضّوابط العلميّة التي رُوعيت في التّدريس بالعربيّة، ومَفاد هذه التّجارب:

ــ سرعة استيعاب الطّلبة للمادة العلميّة؛

1ــ علي أحمد مدكور "الآثار اللّغويّة والمعرفيّة للتّعليم باللّغات الأجنبيّة" أعمال مؤتمر حول (التّعليم باللّغات الأجنبيّة في العالم العربيّ) ص 152.

ــ ارتفاع مستوى اللّغة العربيّة لدى الطّلبة؛

ــ فتح التّعريب لمجال التّأليف والتّرجمة العلميّة؛

ــ حصول انسجام علميّ ونفسيّ بين المُدرّس والطّالب؛

ــ انخفاض نسبة الرّسوب في الانتقال السّنويّ؛

ــ فتح التّجربة لباب التّنافس بين الأساتذة، وأدّى ذلك إلى ظهور مُترجمين ومُبدعين؛

ــ ظهور وَرْشات وأعمال جماعيّة ومخابر، وأدّى ذلك إلى نشاط نوعيّ داخل الجامعات[1].

والحقيقة التي يجب قولها، إنّ سياسة فرنسا الفرنكفونيّة لا تزال قائمة وآمرة ولكن لا ننكر فشلَ النّظام التّربويّ في بلاد المغارب في تحديد مقام اللّغات، هو الذي أدّى إلى فشل العربيّة في المدرسة وفي الإعلام وفي الإدارة ومع هذا نقول: إنّ سياسةَ فرنسا ناجحةٌ في تخطيطاتها خارج بلادها، فقد فسحتِ المجالَ لتعدّديّة لغويّة خليط، ولهجين لغويّ ليس له مثيل، وهذا ليس في بلادها، بل في بلاد المغارب على الخصوص. كما يمكن أن نُؤكّد نجاحَ سياسة فرنسا في هذا المجال بما أنزلته من مكانة للغتها في دولنا المغاربيّة فالفرنسيّة لها مكانتها العُليا، فأصبح النّاسُ الآن لا ينظرون إليها على أنّها (لغة أجنبيّة) بل هي اللّغة الرّسميّة لما لها من مقام في الاستعمال، فلا ينظر إليها على أنّها لغة الجلاّد بالأمس، بل يُنظر إليها

1ــ ينظر: عبد النّور محمد الماحي "تجربة التّعليم باللّغة العربيّة في الجامعات السودانيّة" أعمال مؤتمر حول (التّعليم باللّغات الأجنبيّة في العالم العربيّ). القاهرة: 14ــ 15 فبراير 2006، جامعة القاهرة، كليّة دار العلوم.

الآن على أنّها لغةُ العِلْم؛ فالعِلمُ يُنشَد من لغة العلم، والفرنسيّة لغةُ العلم، وهي لغةٌ تسمح بالتّقارب مع الشّعب الفرنسيّ، ولأنّها لم تعُد لغةَ الفرنسيّين، بل لغة المدّ الفرانكفونيّ. وأنّ المدّ الفرنكفوني مدٌّ ثقافيٌ لا يلبس لباسَ المستعمر بالأمس، وأنّ التاريخ ليس له اعتبار في واقع اليوم، وهو واقع العولمة، بل كان هناك من يرفع شعار: **التاريخ في المَزْبلة.**

17ـ ما هِيَ العِبَرُ التي تُسْتنبَطُ من التّجربةِ الفرنسيّةِ النّاجحةِ؟

يجب العلمُ بأنّ العربيةَ سبقَ لها أن اخترقتْ بصورة قوية القارّةَ العجوزَ عبر الدول المُتشاطئة على ضفتي المُتوسّط، فحصل الأخذُ والعطاءُ، وظهر ذلك الأثرُ عبر التّبادل الفيلولوجي؛ في أن وَجَدْنا في المعاجم العربية وفي المعاجم الفرنسية مُصطلحات مُتبادلة، جاءت عن طريق انتقال الكلمات وهجرانها في التشاطئ الذي حدث بين الضفتين، وكما حصل التّبادلُ اللّغوي بين العربية واليونانية، وبين العربية والإسپانية، وبين العربية والمالطية... وقصدي من هذا أن نعمل بسياسة فرنسا، كما يلي:

1ــ **الاهتمام بالتّنمية الوطنية** ولا تكون بغير اللّغة الرسمية/ لغة الأمّة ولا بدّ من تشريح القول في مسألة **التّنمية الوطنية التي لا تكون إلاّ باللّغة الوطنية**، وهذا ما أبانته الدراساتُ القديمةُ والحديثةُ، فلا تنميةَ وطنية خارج اللّغات الوطنية. فاللّغة العربية الفصيحة في البلاد العربية هي لغة الجميع فهي الوحيدة التي يتطابق معها مصطلح (اللّغة الأمّ+ لغة الأمّة). وبحكم أنّها لغة الأمّة لا تُعامل معاملة اللّغات الأخرى، فلها التّفضيل، ولا بدّ أنّ الجانب السياسي يغلّبها على اللّغات الوطنية واللّغات الأجنبية، وهذا يستدعي تدبيراً عقلانياً يُراعي التّعدّد بحسب المقام؛ والذي يحافظ على التّماسك والتّعايش. وما دامَ الأمر قائماً على المصالح المُرسلة، من حقّ: التاجر/ المعلّم/ السائق/ السائح/ الإداري... أن يسأل عن لغة فيها منفعته وهي أسئلة مشروعة، فأين هذه اللّغة التي لها وزن في سوق التّداول؟

وقد يحسب البعض أنّه يمكن أن تحصل التّنمية الاقتصادية باللّغة الأجنبية فنقول: يمكن ذلك، ولكن تأمّلْ معي هذه الشّبكة، واستخلصُ وحدَك النّتيجةَ:

التّنمية البشريّة	التّنمية الاقتصاديّة
تحصل باللّغة الأمّ.	تحصل باللّغة الأمّ وبغير اللّغة الأمّ.
تكافؤ الفرص.	الغلبة للرأسمال.
تنمية أفقيّة وعموديّة.	تنمية عموديّة.
يحصل الرّخاء العامّ.	يحصل الرّخاء مع الفقر.
ينعدم الفقراء.	يكون الفقراء.
كوريا/ اليابان/ ماليزيا/ المجر/ هنغاريا... نماذج.	جنوب إفريقيا/ سنغافورة نماذج.
تحصل الصناعة المحلية.	طغيان الصناعة الأجنبية وتعدّد رأس المال.
انعدام الطبقية.	وجود الطبقية.
وسيلة النهوض للشّعوب الفقيرة.	وسيلة ازدهار رأس مال الدول الاستعماريّة.
يحصل الأمن العامّ.	تحصل الاضطرابات.

ولذا على الشّعوب العربيّة أن تنشد التّنمية البشريّة التي لا تكون إلاّ بتحقّق الآتي:

1ــ الديمقراطيّة الفعليّة تنظيراً وتطبيقاً؛

2ــ التّعليم الإلزاميّ المجانيّ الحكوميّ؛

3ــ التّشديد في فتح المدارس والثّانويات والجامعات الخاصّة.

وهكذا، فاللّغة سلاح اللّغة ذو حدين: يمكن أن تُوظّف من أجل لُحمة المجتمع كما يمكن أن تُستعمل لتمزيقه، وفي هذا المخاض، لا بدّ من طرح **سؤال التّنمية المتكاملة** والتي تمسّ كلّ الجوانب، وتأتي بنفع عام، والتّنمية تفضي إلى تنمية القدرات الذهنية، والرّفع من المستوى التّعليمي والخبرة والثّقافة والوعي. وركائزها:

1ــ "رأسمال بشري.

2 ــ رأسمال معرفي.

3 ــ توطين المعرفة[1]".

وهكذا ينمو الرأسمالُ المعرفيُ بقدر نمو الثّقافة والوعي، ولا تُحقّقه إلاّ اللّغة الوطنية المشتركة القادرة على تعميم التّعليم وإنتاج المعرفة ونقلها وتبسيطها وتوطينها وتعميق جذورها في المجتمع، والمعرفة لا تستورد كلّها بل يمكن استيراد بعضها، ومادام أنّه يستورد بعضها، فإنّه عالة على الآخرين أو في حُكم غير الموجود. استيراد المعرفة من لغات الآخرين يكمن في خطرين:

ــ خطر التّماهي مع لغة واحدة تأخذ منها، ويدخل هذا في الاستعمار اللّغوي.

ــ خطر الأخذ من كلّ اللّغات (العلم يوجد في كثير من اللّغات، فأية لغة يؤخذ منها؟) وهنا يحدث الانشطار او الانفصام الشخصي للمجتمع الذي يستورد المعرفة والطريق الأمثل هنا هو نقل المعرفة إلى اللّغة الوطنية المشتركة بتكثيف حركة التّرجمة، وفق برامج مخطّطة تواكب حركة الإنتاج المعرفي، والرّفع من عدد البعثات، وهضم المعرفة العلمية بلغاتها الأصل، ثمّ ترجمتها. وإنّه صدق بيرم التونسي الذي قال: "**إذا علّمتَ شخصاً بلغته نقلتَ العلمَ إلى تلك اللّغة، أما إذا علّمته بلغة أخرى فلم تزد على أنّك نقلتَ ذلك الشّخص إليها**". وهكذا، فالمعرفة تُستنبَت في بيئتها وفي عقول أبنائها، ثمّ إنّ استيراد المعرفة مُكلِفة جداً، ثمّ هي مُتطوّرة دائماً، فما هي المعرفة التي تُستورَد؟ استيراد المعرفة يمكن أن تحصل بصورة سطحية، وما هو ليس مُتجذراً؛ يكون سهل الاقتلاع والزّوال، استيراد المعرفة بلغاتها؛ بمعنى توسيع تلك اللّغة في وطنك على حساب اللّغات الوطنية؛

1 ــ عبد العلي الودغيري، لغة الأمّة ولغة الأمّ عن واقع اللّغة العربية في بيئتها الاجتماعية والثّقافية. بيروت: 2014، دار الكتب العلمية، ص 19-37.

ويعني ذلك تبعية لغوية، كما يعني خلق نخبة وفئة تتقن اللّغات الأجنبية. وهكذا يجب أن نعلمَ بأنّ التكنولوجيا أن تُفيدَ من الغير، وتعملَ على الإضافة من لغتك.

ليس هناك من وسيلة لتعميم المعرفة وتطوير سلوك المجتمع إلاّ استعمال اللّغة الوطنية، والتّنمية لا تحصل إلاّ بتماسك اجتماعي، والمجتمع المنسجم لغوياً هو الأقوى، وغير المنسجم يصبح مُنحلاً، ويساعد على خلق جوٍّ من التّبعية، وما حدثَ في الجزائر في العشرية الأخيرة من القرن الماضي كان أحدَ أسبابه الانقسامُ اللّغوي بين فئتين: فئة فرنكفونية تتماهَى في الفرنسية التي لا ترى لها بديلاً، وفئة معرّبة تنتصر للعربية المغلوبة في وطنها، وهذا ما أحدث الشّرخ الذي أدّى إلى ما لا يُحمد عُقباه، وهذا بسبب غياب الانسجام الفكري والثّقافي والسّياسي بين المجتمع، بل هو ذلك اللّغم الموقوت الذي خلّفته الفرنكفونية. وإنّه كلّما حدث انسجامٌ وتناغمٌ بين الناس ازداد تحقيق التّنمية والوحدة اللّغوية، وارتفعت نسبة الانسجام، ولهذا فإنّ اختيار اللّغة الرّسمية للوطن لا تؤخذ هكذا، بل هناك مبرُرات تأخذها الشّعوب، وهي:

"1ــ أن تكون اللّغة الأكثر انتشاراً من حيث الاستعمال والأكثر تجذّراً في وجدان المجتمع.

2 ــ أن تكون حاملة للمعرفة أو مُؤهّلة لذلك أكثر من غيرها.

3 ــ أن تكون ذات حمولة ثقافية ورمزية وتاريخية وحضارية عميقة وتجربة طويلة.

4 ــ أن تكون الأكثر من بين اللّغات المستعملة قدرة على مواجهة اللّغات الأجنبية، والوقوف في مواجهتها نِداً للنِّد، وذلك حتى لا يسهل افتراسها والقضاء عليها، كما حدث لعدد من اللّغات الصغرى في إفريقيا وغيرها من البلاد؛ حين عجزت تلك اللّغات عن الصمود في وجه لغات الاحتلال من مثل الفرنسية والإنجليزية، فانتهت إلى الخضوع التامّ والاستسلام الكامل.

5 ــ أن تكون صالحة للتواصل بين أكبر عدد ممكن من أبناء الشّعوب العربية الإسلامية؛ لأنّ كلّ بلد عربي هو جزء لا يتجزّأ ماضياً وحاضراً ومستقبلاً من هذه الأمّة.

6 ــ أن تكون صالحة للاستعمال في التّعليم والإدارة والاقتصاد والإعلام وكلّ مرافق الحياة العامّة والخاصّة.

7 ــ أن تكون مؤهّلة للاستعمال لتُستعمل في توطين المعرفة وإنتاجها وتوليدها.

8 ــ أن تكون بمثابة الأمّ الحاضنة للجميع والبيت المشترك الذي يسكنه الجميع وكأنّهم أفراد أسرة واحدة مُتضامنة، ويَتَسَاوى فيه الجميعُ دون إحساس أحد منهم بالتّهميش أو النّقص أو الإبعاد. ومن المأثور عن الفيلسوف الألماني (مارتن هيدجر) أنّه كان يقول: اللّغة هي بيت الإنسان الذي يأوي إليه ويقيم فيه[1]". ومن هنا، فإنّ اللّغة الوطنية هي البيت المشترك، فلها مقامها ووظائفها التي تقوم بها وأما اللّغات الأجنبية نحتاجها عند الضرورة، ونلجأ إليها في ربط المجتمع بالعالم الخارجي لمواكبة التّطوّر، ومعرفة الحاجات المُلحّة والإفادة منها، شرطَ أن تتمّ إعادةُ إنتاج ما يُستفاد من اللّغات الأجنبية إلى العربية؛ بإعادة التّعبير عنها بالعربية الجامعة.

2 ــ الاستثمار في العربية خارج أوطانها؛ على اعتبار أنّ أوربا بلا حدود وقوانينها لا تمنع إنشاء المدارس الخاصّة، فيكون للعرب تأسيسُ مدارس لتدريس العربية، ويكون ذلك قد لعبوا دور تثبيت العرب المهاجرين على لغتهم، وفي ذات الوقت أن يحصلَ تعليمُ العربية للأوربيين، فهو نوع من التّنافس التّجاري. فلا بدّ من المغامرة، فلا مكان للعواطف في الجدوى الاقتصادية للاستثمار. فالرأسمال الجبان لا يتقدّم، فلا بدّ من الاقتدار، وجعل الرأسمال العربي خارج موطنه في

---

1 ــ عبد العلي الودغيري، لغة الأمّة ولغة الأمّ عن واقع اللّغة العربية في بيئتها الاجتماعية والثّقافية. بيروت: 2014، دار الكتب العلمية، ص 35.

سوق تفاعل لغوي، وهذا ما تقوم به فرنسا خارج موطنها، فتستثمر في الفرنسية التي تدرّ عليا أموالاً وأمخاخاً، فالبداهة هنا ليس النّظر إلى ما يدرّه الصندوق من أموال، بل إلى تلك الإضافة المعنوية والاعتبارية التي هي جزء من الاستثمار النّافع "وهي تحقّق العائد المعنوي والإنساني الذي ينعكس في المدى البعيد عائداً مادياً وتجارياً رابحاً، إلى جانب الأرباح الأخرى في الاستثمار[1]". وهذا نموذج فرنسي رائع، كيف استثمرت في لغتها؛ بأن تنالَ مواقعَ خارج فرنسا. وفرنسا التي لا مثيل لها في هذا المجال، رغم أنّ كثيراً من الدّول تهتمّ بلغتها، لكن ليست بتلك الطريقة أو المنهجية الفرنسية الفذّة.

3 ــ ربط مركزية القرار الفرنسي، بمركزية القرار العربي؛ أي أن تُعطى صلاحيات القرار والفصل لجامعة الدول العربية، وعلى السّلطة التّنفيذية التّطبيق. ويكون ذلك عن طريق:

- الرّبط البيني الاقتصادي.
- الرّبط البيني بالسكك الحديدية.
- الرّبط البيني الكهربائي.
- الرّبط البيني المائي.
- الرّبط البيني التّواصلي.

وهذا موجود في **دول مجلس التّعاون الخليجي**، ويحتاج إلى رفع بين الصّعوبات الاقتصادية من مثل التّعريفة الجمركية، وتفعيل القرارات، وتوسيع التّعاون؛ ليمسّ الدول العربية المجاورة، والدول المغاربية.

4 ــ العبرة من نجاحات فرنسا المركزية، **بنجاحات دول مجلس التّعاون الخليجي في القضايا الاقتصادية**، وهذه النّجاحات تحتاج إلى لغة عربية علمية

---

1 ــ محمد حبش "العربية في أوربا" كتاب المؤتمر. دبي: 2015، المؤتمر الدّولي الرّابع للغة العربية، رقم 8، ص 557.

تسير بها كلّ المسائل الاقتصادية. رغم أنّ التّواصلَ العربي البيني سهلٌ جداً قياساً بأوربا مثلاً؛ التي فيها: 24 لغة+ 14 ديانة+ 27 دولة. فـــالدُّول العربيـــة فيها: 22 دولة+ لغة واحدة+ ديانتان. فالأمر ليس مُعقّداً.

5 ــ إدراك معنى التّوحيد اللّغوي: فرنسا كانت تعرف مدى ما يحصل من التّوحيد اللّغوي، وهذا مجال حيوي، فهو الذي يرفع من القيمة المضافة للعملة العربية، بل يمكن أن يصل إلى عُملة واحدة، أو على الأقلّ إلى عُمْلات جهوية ويزيل عقبات الجمارك والحدود، ويعمل على توحيد المؤسّسات العربية، بل يكون ذلك مَدعاة إلى التّخفيف أو التّقليل منها، فيكون لدينا مثلاً مَجْمع واحد يفتي في اختصاصه، وعلى المؤسّسات الثّقافية في الدول العربية اتّباع فتاويه فقط، والعبرة من المَجْمَع الفرنسي/ L'académie française الواحد الذي تخضع له كلّ الدول الناطقة بالفرنسية، أو من المَجْمَع العلمي القشتالي الواحد الذي تخضع له كلّ الدول الناطقة بالإسبانية.

6 ــ صُنْع القرار الفرنسي حَصَلَ دون تردّد، وهذا هو الناقص عندنا، فهل يصنعُ العربُ القرارَ؟ لا مجالَ للتردّد، ولا مجالَ للتّسويف، ولا مجالَ للتأجيل فالعصر عصر السرعة، وعصر التّطبيق، فنحتاج إلى قرار عربي يُشبه القرار الفرنسي الذي يُتْبَع بالتّطبيق من الأجهزة التّنفيذية دون تردّد. وهذا هو العامل الحاسم إلى يؤدّي بنا إلى الأمن في جوانبه المختلفة: كهربائي+ مائي+ غذائي+ تواصلي[1]...

وهكذا نريد أن نعتبر من هذه التّجربة الفرنسية التي لقيتِ النجاحَ، بل عملت على التّوحيد اللّغوي، وعلى توحيد الفرنسيين الذين كانوا شتاتاً متناحرين، وكان الحَزْم اللّغوي هو الذي أدّى بهم إلى إقامة دولة مركزية قويّة لها مكانة في العالم

1 ــ عد إلى كتابنا، وعنوانه: لماذا نجح القرار السياسي في الڤيتنام، وفشل في... الجزائر: 2010، دار هومة للطبع والنّشر والتّوزيع.

بل يُحسب لها ألف حساب، وكان لها ذات وقت امتداد كبير في كثير من القارات. وهذه التّجربة التي وقع التّركيز عليها ليست الوحيدة في العالم، بل تجربة فذّة وناجحة، وهناك تجارب أخرى، ولكنها ليست في مستوى الحماس والقوّة التي استعملتها فرنسا تجاه لغتها، ونشير إلى بعضها إشارات مُقتضبة:

ــ **بلد النّمسا:** نقرأ بأنّ بلد (النمسا) وهي دولة صغيرة؛ فإنّها وضعت سلسلة من القوانين لحماية لغتها الجامعة، رغم أنّ فيها أكثر من ستّ لغات وكلّها من اللّغات التي تهتمّ بها، إلاّ أنّ اللّغة المشتركة لها الرّتبة التي لا تُدانيها تلك اللّغات المحلية.

ــ **بلد بلجيكا** البسيطة التي تعرف هزّات سياسية بسبب الثنائية اللّغوية؛ إلاّ أنّها مؤخّراً بدأت تُعزّز كفة الفرنسية باعتبارها لغة العاصمة. رغم ما للفنلامانية من موقع، إلاّ أنّ طغيان الأجانب من الدول التي استعمرتها فرنسا جعلت كفّة الفرنسية تتغلّب، وبخاصّة في العاصمة (بروكسيل Bruxelles).

ــ **بلد إسپانيا** مع ما تعرفه من لغات: Le basque/ Le catalan/ Le galican وهذا انفتاح على اللّغات الجهوية، ولكن هناك لغة جامعة (الإسپانية). ومع ذلك فإنّنا نُنوّه بدور الإسپان في صيانة لغتهم على أساس أنّها أختُ الفرنسيّة، ففي بلد (الفردوس المفقود) نجد الإسپان يُعطوننا درساً هامّاً في الاهتمام باللّغة القشتاليّة دون غيرها، رغم الإقرار باللّغات المحليّة، فنراهم لا يُنْزِلون اللّغات المحليّة أدنى مقام في الرّسميات "وفي إسپانيا اجتمع أعضاء البرلمان بعد انتخاب (خوسيه لويس ثاباتيرو) رئيساً للحكومة الإسپانيّة في 14 آذار 2004 تحت قُبّة البرلمان، وحاول مُمَثلو إقليم كاطالونيا استعمال اللّغة المحليّة، غير أنّهم فوجئوا بالرّفض الشّديد من (مانويل مارين) رئيس البرلمان الذي منعهم من استعمال اللّغة المحليّة لما تمثّله من خطر من شأنه أن يهدّد اللّغة الإسپانيّة الرّسميّة، وقد استشهد رئيس البرلمان بالمادة الثّالثة من الدّستور الإسپاني التي تنصّ على أنّ اللّغة الإسپانيّة هي اللّغة الرّسميّة

التي ينبغي لجميع أبناء الشّعب استعمالها[1]". ومع إقرارهم بلغتهم، ولكنّه لا يشمّون اللّغة العربيّة بتاتاً، وحتى في الإقليمين المُغتصبين عُنوة من المملكة المغربيّة، وهذا برفضهم ترسيم اللّغة العربيّة لغة ثانية في سبتة ومليلة "رفض إدارة الاحتلال لمشروع ترسيم اللّغة العربيّة لغة ثانيّة في المدينتين الذي سبق أن تقدّمت به جمعيّة مسلمي سبتة للبرلمان الإسباني، إضافة إلى الاهتمام المُتزايد أوربياً بإحياء الحديث عن الدارجة المغربيّة وتدريسها وعقد النّدوات والمؤتمرات للتّبشير بأهميتها. فهذه الأمثلة تؤكّد أنّ الأمر لا يتعلّق بدفاع عن لغة التّداول اليومي، بقدر ما يرتبط بمخططات خارجيّة ودوائر أكبر تستهدف التّفتيت لا المزايدة الهُوياتيّة[2]". إذاً هي إسبانيا النّموذج في الديمقراطية الداخلية، بما لها من برلمانات محليّة، وما تنحوه بخصوص التّنمية الوطنية، ولكن ما يتعدّى الحدود الوطنية، أو دخول ما ليس في القانون العامّ، يفضلون أن يعود (فرانكو) الدكتاتوري على أن يُمسوا الخطوط الحمراء، وبخاصّة ما له علاقة بالمطالب اللّغويّة للجهات الوطنيّة، وهو مَرفوض سلفاً، ولا يدخل في جدول العمل "... فقد اجتمعت كلمةُ نخبتها التي ضمّها برلمانٌ حقيقيٌ، وهو نتيجة أول انتخابات نقيّة حقاً عرفتها إسبانيا في تاريخها المليء بالتّوت وتمّ التّوصّل إلى التّوافق بفضل لجوء المُعتدلين من كلّ جانب إلى إقناع المُتطرّفين من مُعسكره بفضيلة الاتّفاق على النّتيجة التي ترضي كلّ جانب بنيل ما هو أساسي عنده، وترك الجزئيات إلى تسويات قادمة. وكانت النّقطة التي أوصلتِ الاختلافاتِ إلى أوّجها هي مسألة المطالب الوطنية في كلّ من كاتالونيا والباسك وكان المخرج هو التّوجّه إلى ما يسمّى أسلوب (تقديم القهوة للجميع) أي تعميم

---

1 ــ محمود أحمد السّيد، اللّغة العربيّة وتحدّيات العصر. دمشق: 2008، وزارة الثّقافة الهيأة العامّة السّوريّة للكتاب، ص 170.

2 ــ سلمان بونعمان، النّهضة اللّغوية وخطاب التّلهيج الفرنكفوني في نقد الاستعمار اللّغوي الجديد حالة المغرب، ط1. بيروت: 2014، مركز نماء للبحوث والدراسات سلسلة: مراجعات في الفكر العربي المعاصر (6)، ص 198-199.

نظام الحُكم الذاتي على الجميع، وليس كامتياز لجهتين مُعينتين. وذلك بإقامة هيكل للدولة يقوم على السّماح لكلّ مجموعة من المحافظات تأنس من نفسها التّجانس في المصالح أن تقيم وفق شروط حُكم ذاتي خاصّ بها. وها هي إسپانيا تتشكّل الآن من 17 أقليمَ حُكمٍ ذاتيٍ، بالإضافة إلى صيغة أقيمت في المدينتين المحتلتين سبتة ومليلة[1]". هي نموذج للديمقراطية المسؤولة بما تراه يخصُّها. والعِبْرة هنا أنّ القرار أخذ في توسيع الديمقراطية بشرط عدم المَسَاس بالخصوصية اللّغوية؛ بخصوص مَنْع ما له علاقة بالإقليميْن خوفاً من عودة العربية إلى الفردوس المفقود.

ــ **بلد ألمانيا:** وأما ألمانيا الاتّحادية، فإنّها عملت على استصدار قوانين ضابطة:

أ- "اللّغة الرّسمية للإجراءات هي الألمانية (هذا مع الإشارة على أنّ الدستور الألماني لا ينصّ على لغة رسمية للبلاد.

ب- في حال توسّل لغة أجنبية لتقديم استدعاء أو عريضة وللإدلاء بشهادة ولإبراز مُستند أمام السّلطات، على هذه الأخيرة أن تفرض إرفاقها بترجمة إلى الألمانية.

ت- لا تسري المُهَل الزمانية بوجه السلطات الملتزمة بعمل ما إلاّ من تاريخ لإيداع ترجمة عن الطلبات المحرّرة بلغة أجنبية.

وانسجاماً مع الاتجاه ذاته صدر بتاريخ 2004/7/30 قانون يتعلّق بالهجرة ويرمي في جملة ما يرمي إليه إلى تشجيع دمج الأجانب ذوي الإقامة الشرعية في الحياة الاقتصادية والثّقافية والاجتماعية في الجمهورية الفيدرالية الألمانية وإلى

---

1 ــ محمد العربي المساري "هل تُصلح السياسةُ أخطاءَها؟" ندوة الأكاديمية. الرباط" 2014ــ ندوة الأكاديمية الملكية المغربية في: 21- 22 محرّم 1435 هــ/ 25-26 نونبر 2013، سلسلة "النّدوات" عدد (تخليق الحياة العامّة في المغرب) مطبعة المعارف الجديدة، ص 428.

جعلهم يُتابعون دروساً توجيهية تمكّنهم من التآلف مع لغة ألمانية ونظامها القانوني وثقافتها وتاريخها، وتمكّنهم كذلك من الحصول على ترخيص الإقامة في ألمانيا[1]".

ــ **بلد الإنكليز:** ونضيف إلى هذه النّماذج المثال الإنكليزي الحيّ، ونعرج أولاً على صِنْوَ الاهتمام باللّغة الوطنيّة، فلقد "سبق للنورمانديّين أن غزَوْا عام 1066 للميلاد بلادَ الإنكليز، وأحلوا لغتَهم محلّ لغة أهل البلاد، ودام الأمرُ زهاء القرنين وظلّت مقاومةُ لغة المُحتل قائمة، ولما تحرّرت جاء (خطاب العرش) عامّ 1362 باللّغة الإنكليزية حَدَثاً رمزياً بالغ الإفصاح، وصدر في العامّ نفسه قرار سياسي جعلَ اللّغة الإنكليزية لغةَ المحاكم، ولم يأتِ عام 1385 حتى عمّت اللّغة الوطنية كافةَ مُؤسّسات التّعليم، وبدأت تتقلّص حالة الفوضى اللّغوية؛ إذ أصبحت لغة الوسط الشرقي لإنكلترا التي انبثقت عنها لغة العاصمة (لندن) هي اللّغة الجامعة، ولم يكد يحلّ القرن الخامس عشر حتى سادت الإنكليزية، وانحسرت تماماً لغة النورمانديّين الغُزاة[2]".

ــ **بلد الكيان الصهيوني:** كما لنا مثال حيّ للعدو الصهيوني الذي أسّس مَجْمعاً علمياً بعد خمس سنوات من اغتصابه فلسطين، كما أسّس المجلس الأعلى للغة العبرية "وبه أربعون لجنة مُتخصّصة في كلّ الفروع... تهتمّ بمسايرة اللّغة للتطوّر المستمرّ، واستحداث المصطلحات والمفردات العبرية التي تغطّي الحاجة في كلّ المجالات، وما يتّفق عليه منها ينشر في الجريدة الرّسمية، ويصبح العمل به إجبارياً في الدوائر الحكومية والمؤسّسات المدنية والجماعات، ودور التّعليم ووسائل الإعلام بأنواعها، ويعاقب القانون كلّ من يخالف ذلك ولا يلتزمه. وبذلك استطاعوا أن يبعثوا الحياة في اللّغة العبرية بعد أن شبعتْ مَوْتاً، وخلقوا لها كياناً بعد أن كانت أثراً من آثار التّاريخ، وهم يقولون: إنّ اللّغة العبرية هي المُعبّرة عن

---

1 ــ مؤسّسة الفكر العربي، لننهض بلغتنا، ط1. بيروت: 2012، ص 191.

2 ــ عبد السّلام المسدي، العرب والانتحار اللّغوي، ط1. بيروت: 2011، دار الكتاب الجديد المتحدة، ص 61-64 (بتصرّف).

شخصيتهم وثقافتهم وتاريخهم والجامعة لكيانهم المشتّت، والصّاهرة لكلّ اختلافاتهم الفكرية والرابطة لوحدتهم وتضامنهم[1]". **وهل نعتبر بعد هذا الأمر؟**

وأما **العبرة** الأهمّ، وسوف يقع التّكرار في هذه المسألة لنأخذ منها **الاعتبار** فهي **العبرة** من الفرنسيين الذين يعتبرون لغتهم الإسمنت الذي يجمعهم، ويوحّد شتاتهم؛ فالفرنسيّة لغة Île de France وحدها دون غيرها من اللّهجات المَحليّة، ولا من اللّغات العالميّة التي تُقدّس وتُصان، ولا تعلو فوقها أيّةُ لغة. ومن ذلك وضعوا **للفرنسيّة الجامعة** قوانين صارمة لدرجة أنّهم فرضوا العقوبات على كلّ من تُسوّلُ له نفسُه المساسَ بها، بل هناك عقوبة تؤدّي إلى السّجن، وهذا نتيجة شغفهم الكبير بحبّ الفرنسيّة "إنّ للبُعد التّاريخيّ في اللّغة رقماً خاصّاً عند الفرنسيّين؛ وهم المَعرُوفون بشغفهم بكلّ ما يتعلّق باللّغة وأشيائها[2]" وما يُعرف عن الفرنسيّين أنّهم يعاقبة Jacobites نفعيون تجاه لغتهم الفرنسيّة التي فَرَضُوها فَرْضاً، وشعارهم مَربوط باستبعاد الكنيسة عن العلم، واستبعاد اللاتينيّة واللّهجات عن التّرقيّة والاستعمال، **فهل نعتبر؟** كما لنا في اليابان مثالاً صارخاً وهي تئن من كلّ جروحها، ولكن لم تقبل المساس بما له علاقة باللّغة، فقبلت كلّ شروط الاستسلام من مثل "... تغيير الدّستور وحلّ الجيش، ونزع السّلاح... إلخ، وقد قبلت جميع تلك الشّروط ما عدا شرطاً واحداً لم تقبلْ به؛ وهو التّخلّي عن لغتها القوميّة في التّعليم، فكانت اللّغة اليابانيّةُ منطلقَ نهضتها العلميّة والصّناعيّة[3]". كما تذكر لنا كتب موثوقة بأنّ إمبراطور اليابان عندما استسلم جِيءَ له بوثيقة استسلام لتوقيعها ورآها مكتوبة بالإنكليزيّة فقال: تأخذون ثروتنا نعم، تبقون في أرضنا نعم، نحن

---

1 ــ ينظر: صالح بلعيد، في المواطنة اللّغوية وأشياء أخرى. الجزائر: 2008، دار هومة للطّبع والنّشر والتّوزيع.

2 ــ Marie Treps، الكلمات المسافرة، تر: منصور نجم حُديفي. دمشق: 2008، مركز التّعريب والتّرجمة والتّأليف والنّشر، ص 18.

3 ــ محمود أحمد السّيد، اللّغة العربية وتحدّيات العصر، ص 167ــ168.

مغلوبون على أمرنا، أما أن أَمْضِيَ على وثيقة غير مكتوبة بلغة شعبنا، فهذا ما لا أقبله، **والشّعب الياباني وحده هو الذي يستطيع فِعْلَ ذلك**، وأعرف أنّه لا يفعل. فأنا لا أمضي وثيقة الاستسلام مكتوبة بلغتكم، ولو تكلفني تقديم رقبتي. فلم يمضِها إلاّ بعد أن جيءَ بها مُدوّنة بلغتين: **اليابانيّة أولاً**، ثمّ بالإنكليزيّة. ويبدو لي بأنّ المقام يتطلّب منّي الوقوف عند تلك التّجارب النّاجحة لاستلهام مواطن العمل المنهجيّ والأكاديميّ، وما يمكن أخذه **عبرة** في الاهتمام بلغتنا العربيّة في لاحقٍ من الزّمان.

قد يقول قائل: إنّ العربيّةَ بخير، ولها أوطانٌ ودُوَلٌ، وعواصمُ، ومدارسٌ ومؤسّساتٌ، ومجامعُ، ولها توسّع عالميّ، نعم بالتّأكيد هذا موجود بالقوّة، ولكن ليس موجوداً بالفعل، فالموجود بالقوّة مَحْدود، والموجود بالفعل غير مَمدود ونحن نسعى للمَمدود؛ فهو غير مردود في الواقع. كما أنّ الحديث عن كذا مؤسّسة دون ما يتمخّضُ عنها من مَردود مَقبول فلا خيرَ فيها، ولا فائدةَ من كذا مُؤَسَّسَة وهي غيرُ مُؤسِّسَة؟ وكان علينا اقتراحُ أفكارِ التّمكينِ لهذه اللّغة في بلدانها، بوَصْفات التّطويرِ في عواملها الدّاخليّة والخارجيّة، واقتراحِ بدائل الامتداد والتّحسين[1].

لقد عاشت العربيّةُ بعضَ التّجارب النّاجحة في تدريس العلوم، وفي تعميمها وربّما عصفت ببعضها رياحُ عدمِ الوصول إلى برّ الأمان؛ وهذا لعدمِ المتابعة والتّقويم، وعدمِ تلاحق مَسَارات مراحل التّعريب، فعِشْنا تجاربَ فاشلةً، ولكنّ الاهتمامَ باللّغة كلٌّ مُتكامل؛ وهي من الشّأن العامّ، والمسؤولية مُشتركة، وليست مُلقاةً على وزارة التّربيّة والتّعليم خاصّة. فالقضيّة إذاً مرتبطةٌ بالجماعة النّاطقة بتلك اللّغة التي نريد إصلاحَها أو ترقيتَها، والتّجارب مُعلّقة على متابعتها وتوفير مُستلزماتها. ولنا **العبرةُ في فرنسا** كيف نهضت بلغتها، بتلك الأرمادة من القوانين

1ــ ينظر كتابي: يزع بالحاكم ما لا يزع بالعالم. الجزائر: 2011، دار هومة للطّبع والنّشر والتّوزيع.

والتّجنيد العامّ، والمال الفرنسيّ من أجل استعمال الفرنسيّة بالقوّة والفعل، ومن أجلّ جمال نطقها، وتوسيعها في الخارج.

وفي هذه النّقطة، يمكن التّعرّض إلى فِعْل الدّول الضّعيفة والمُتخلّفة ذات زمان وأضحت الآن من الدّول المُتقدّمة، ولتكون لنا عبرة بأنّها انمازت في ظرف قصير بلغاتها، ورفعتِ التّحدّي بها، وجعلتْها لغةَ البحث والإنتاج المُنافس. فما هي الوصفات العلميّة التي اعتمدتها في تطوير لغاتها:

ــ **كندا** (مقاطعة Québec الكيبيك النّاطقة بالفرنسيّة) وهي تجربة مُتميّزة في الدّفاع عن اللّغة القوميّة؛ بمقاضاة المُعتدين على اللّغة، وفَرْض الفرنسيّة في وسائط الإعلام، والعمل بالتّرجمة الفوريّة في الأشرطة والأفلام ومنْح الجوائز القيّمة للمُتفوّقين في الفرنسيّة كلّ سنة، وعقْد المهرجانات المُمَجّدة للفرنسيّة في كلّ المناسبات العامّة، وتخصيص أسبوع كامل للاحتفاء باللّغة الفرنسيّة، ونَصْبِ لوحات في الشّوارع تقول: **إنّني أحبّ اللّغات جميعاً ولكنّي أفضلّ لغتي عليها جميعاً**. بل يصل بمقاطعة الكيبيك أن تتشدّد أكثر في المسألة اللّغويّة لما لهيمنة الإنكليزيّة واكتساحها كلّ المجالات، وبذلك يصل بها الأمر وبساكني المقاطعة إلى المطالبة بالاستقلال عن كندا الأمّ؛ للحفاظ على اللّغة الفرنسيّة، وتفشل المقاطعة في الاستفتاء الذي جرى منذ سنوات ومع ذلك فإنّ تلك المجموعات النّاطقة بالفرنسيّة لا تزال تتشبثّ بهذا المطلب حباً فيها وفي مَنْ يستعملها.

وجدير بالذكر بأنّ المقاطعة الناطقة بالفرنسية تعمل جاهدة منذ ستينيات القرن الماضي على عدّة محطات رئيسية؛ حيث حدث أنّ حكومة (جان ليسا) شدّدت في أوّل أمرها على منع وضع اللافتات في الأماكن العامّة بغير الفرنسية، ومن ثمّ تراخت وسمحت بذلك. ولكن بعد ذلك تأتي سلسلة من المراسيم من مثل مرسوم صدر في نوفمبر 1969 رقم 63، والذي يدعّم اللّغة الفرنسية فقط. وفي صيف 1974 أصدرت الحكومة الليبرالية تحت قيادة (روبرت بوراسا) القانون رقم22 والذي أعلن اللّغة الفرنسية لغة رسمية لكيبيك. وفي أغسطس1977 أصدرت حكومة الحزب الكيبكي تحت قيادة (رينيه لافيك) القانون 101 والذي عمل على جعل كيبيك مجتمعاً فرنسيَ الهوية. وفي ديسمبر 1985 قرّرت المحكمة العليا لكندا أنّ القسم 58 و69 من القانون101 يُخالف ميثاق الحقوق والحريات الكندي وميثاق كيبيك لحقوق الانسان والذي يضمن حرية التّعبير. وفي 8 أفريل من عام 1993 قرّرت لجنة حقوق الإنسان في الأمم المتّحدة أنّ القانون 178 يخالف الاتّفاق الدولي حول الحقوق المدنية والسياسية. وفي يونيو 1993 أصدرت الحكومة الليبرالية قانوناً جديداً للعلاقات التجارية؛ يسمح فيه باستخدام اللّغتين مادامت الفرنسية لها السيادة. وفي يونيو 1997 أعادت الحكومة إنشاء لجنة حماية اللّغة

الفرنسية، بعد اعتماد الجمعية الوطنية للقانون رقم 40. وفي يونيو 2002، تمّ إقرار القانون 104 والذي يهدف إلى غلق الثغرات أمام تسرّب التلاميذ إلى المدارس الإنكليزية.

ــ **تعليق:** ما يُمكن مُلاحظته في هذا البلد أنّه من البلاد المُنغلقة على ثقافة فرنسيّة، وعلى أداء الفرنسيّة بشكل خاصّ مُخالف للصفاء الفرنسي الذي نستعمله في بلاد المغارب، أو في فرنسا. مقاطعة كندا كيبيك عضوة فرنكفونيّة في قارّة أمريكا الشّماليّة، وتنصر للفرنسيّة التي تراها تقيم له الذّاتية والخصوصيّة، ولم يكفِهِ الحُكم الذّاتي، بل يسعى السّاكنة للانفصال عن النّاطقين بالإنكليزيّة، وهذا حبّاً في الإبقاء على الفرنسيّة، بدلَ أن تنالَ الإنكليزيةُ موقعَها.

ــ **ماليزيا:** ماذا أقول عن هذا البلد العجيب الذي يمكن أن ينطبق عليه القول: ما لا عين رَأَتْ، ولا أذنٌ سَمِعَتْ، ولا خَطَرَ على قَلْبِ بشر. بلد (ماليزيا) إلى غاية 1980 كانت جزيرة مُتخلّفة، ولكن بتخطيطاتها وببرامجها التّنمويّة الشّاملة وعمادها تعميم المعرفة، حصلت فيها نقْلات نوعية فأصبحت من الدّول المُتقدّمة خلال عشرين (20) سنة، وهي بلد إسلاميّ؛ تصنع السيّارات والجرّارات، وتبيع الثّلاجات، وتتحكّم في النانوتكنولوجيّ، وهي دولة حضاريّة راقيّة نظيفة.

وما يُسجّل على (ماليزيا) أنّها استثمرت في التّربية والتّعليم، واعتمدت لغة هجين من مجموعة من اللّغات الوطنية، وأصبحت لغة الجميع، واستثمرت فيها إلى جانب التّفتّح على الإنكليزية كلغة أجنبية واحدة، وهي لغة العلم التي تُعتمد في مراكز البحوث المتقدّمة، هذا من جهّة، ومن جهة ثانية، فقد سنّت خُططاً على الآماد الثلاث، وتُطبّقها حرْفياً، وتتمّ المراجعات والتّقويمات أثناء التّطبيق ودن مشكل يُذكر، وبذلك تَصدَّرتْ الدول الضعيفة، ومن ثمّ لحقت الدُّول المُتقدّمة.

فماليزيا من الدّول التي يرتفع اقتصادُها بشكل دائم، رغم أنّها لا تتوفّر على الثّروات الباطنيّة، ولكنّها تتوفّر على عقل مُخطّط مُنتج، عقل (مُحمد مَهاتير) وأمثاله من المُجدّدين والدّاعين إلى الاعتماد على الذّات الوطنيّة واحترام

المُبادرات، والتّخطيط العلميّ المبنيّ على الثّروات المحليّة، وعلى الكفاءات الوطنيّة، وعدم الاعتماد على الخارج إلاّ في الضّرورات الكماليّة التي هي من الرّفاهيّة، ويمكن الاستغناء عنها عند الضّرورة.

ــ **تعليق:** إذا نظرنا في هذه الخريطة لا نرى فيها إلاّ جزيرتين صغيرتين في قلب البحر، وعلى مساحة ضيّقة جداً، وليس لها تلك المساحات التي تستوعب ذلك البشر، ولكن ذلك هو الذي أعطى للشّعب الماليزي صورةَ التّفرّد والنّظام والاحترام والإنتاج والمنافسة.

ــ **إندونيسيا:** لا نغادر (ماليزيا) قبل أن نشير إلى (إندونيسيا) التي قفزت قفزات تنافسيّة في دول آسيا العَشْر الرّاقية، والآن هي من الدّول المنافسة للصّين والهند رغم كثرة البشر، وقلّة التّراب. ونلاحظ هذا التّناثر الأرخبيلي في جُزُرها الكثيرة، ومع ذلك فهي تملك العقلَ والتّدبيرَ، ومن الحكمة ما لها من توازن في ساكنة هذه الجزر. وإندونيسيا لها لغتها الخاصّة، تعتمدها لغة العلم والإنتاج، وبها تدرّس كلّ العلوم، ولم تنغلق عليها، بل تعتمد الإنكليزية في البحث المتقدّمة جداً جداً.

ــ **تعليق:** كما قلنا في (ماليزيا) نقول في (إندونيسيا) بل أكثر من هذا، فإنّ (إندونيسيا) عبارة عن عديد من الجُزُر المتناثرة، ويصعب الاتّصالُ بينها، مع كثرة الفيضانات الفصليّة، ولكن استطاعت التّقنية في هذا البلد العجيب أن تحلّ في كلّ مكان، بل إنّ ناطحات السّحاب مبثوثة بشكل عِمْرانيّ جميل ومُدهش وكلّ ذلك بأيادي أبناء الوطن الإندونيسيين الذين يعملون بإخلاص وبجدّ وتفان، وهو بلد مسلم بامتياز، ورائده العمل، والعمل ثمّ العمل.

ــ **إيران:** تستثمر في التّنميّة البشريّة وفي لغتها وبلغتها، وتُرسِل المُتفوّقين إلى الخارج للتّعلم، ويعودون إلى بلدهم، ويُترجِمون أبحاثَهم إلى لغتهم ويعبدون لغتهم أيّما عبادة، ولا يمكن التّفكير في استبدالها بلغة من اللّغات الأجنبيّة، أو التّدريس باللّغات الأجنبيّة في المدارس الإيرانيّة، إلاّ لغير الإيرانيّين. إيران تُخطّط باستمرار لعمليّات التّدريس القائمة على اللّغة الإيرانيّة (الفارسيّة) فهي مُقدّسة، وتقرب في قدسيّتها من القرآن الكريم، علماً أنّ الفارسيّة تُكتَب بالحروف العربيّة، وفيها 60 % من الألفاظ العربيّة، ولغة إيران الآن في الرّتبة الرّابعة في الشّابكة، وتُتَرْجِم كلّ العلوم إلى لغتها من شتّى اللّغات وتسعى أن تكون اللّغة العلميّة العالميّة الثّالثة بعد الإنكليزيّة والألمانيّة. وكانت (إيران) إلى غاية 1980 دولةً بوليسيّةً متخلّفة وفقيرة دولة طبقيّة كان يسيطر عليها (السافاك) بِعُنْف، والآن تُصَدّر إلى فيدراليّة روسيا

طائرات بدون طيّار، وتصنع سيّارات خاصّة، وبلد نَوَوِي بامتياز، فبماذا كانت تَنْتُج هذه العلوم؟ بالطّبع كلّ ذلك يتمّ باللّغة الإيرانيّة وحدَها.

ــ **تعليق:** لم تكن (إيران) إلاّ بلداً فقيراً، ولكن الغلبة التي وضعتها الدّولة والقوانين الصّارمة هي التي جعلت منها دولة صناعيّة ونوويّة، وهي الآن تنافس العالم في الصّناعة الثّقيلة، ويحسب لها الغربُ ألفَ حساب.

ــ **فَنْلَنْدا:** دولة صغيرة تغطّيها الغابات، ولا تنقطع عنها الثّلوج والأمطار والسّحب، وليس لها ثروات باطنيّة إلاّ العقل البشريّ الفنلنديّ، وكانت إلى سنة 1960 دولةً مُتخلّفةً، وتتفوّق عليها (مصر وتونس) ولكن الآن تقدّمت (فنلندا) فهي رقم واحد (1) في التّنميّة البشريّة، وفيها أفضل الجامعات العالميّة (جامعة أراهوس) وتبيع للعالم أفضل أجهزة النّقال NOKIA عالميّاً. تأخّرت (تونس ومصر) بل لا وجودَ لهما في خريطة التّصنيف الدّوليّ، رغم أنّه في سنوات السّبعينيّات كانت هاتان الدّولتان العربيّتان مُتقدّمتيْن على (فنلندا) دولة (مصر) منذ السّتينيّات تُجَمّع سيّارة FIAT ولحدّ الآن لم تستطعْ صُنعَ قطعةٍ واحدة في بلدها وإذا حاولتْ أن تصنعَ قُفلاً تقلّد تقليداً بدائياً، فيخرج المنتوج الوطنيّ المصريّ لا يُنافس المنتوج الأجنبيّ، فتكسد البضاعةُ المصريّةُ. وهناك تركيب سيّارات RENAULT في (تونس) ولكن لم تستطعْ صنعَ قفلٍ واحد، وإذا صنعتْ القفل لا تصنعه بذات الجودة في البلد الأصل فرنسا، فتغيب التّقنيّة لأنّها لا تملك العقليّةَ المُبدعةَ، أو لا وجودَ لعقليّة تونسية مُصنّعة مُنتجة؛ عقليّة عربيّة عفا عليها الزّمان

عقليّة تركيب لا إضافة ولا إنتاج، عقليّة العيش على الخارج، عقليّة التّبعية المُطلقة.

والآن هناك تركيب DACIA في (المغرب) وتركيب RENAULT في (الجزائر) وهما مقيّدتان باتّفاقية التّركيب مدّة زمنية كبيرة، ولا يسمح لهما بصنع قِفْل مهما كان حجمُه. ولنفرض أنّهما يستطيعان صُنع تلك الأقفال والشماطيط، فهل تنجحان في صُنع قفل يُنافس الصناعة الأوربية؟ فهنا السّؤال الأوّل، والسّؤال الثاني وما يتشظّى عنه: متى تتخلّص الشّعوب العربية التي تعمل على تركيب الآلات دون صنعها؟ ومتى تعمل بسياسة الدوّل الناجحة؛ وهي التّخلّي عن التّركيب بعد مدّة زمنية مَحدودة؟ ولماذا لا تعمل الدّولُ العربية على الإنتاج النّسبي لسنوات ومن ثمّ يحصل الإنتاج الكلّي؟ وهذا ما ليس مُدرجاً في تخطيطاتنا على غرار تلك الدّول النامية، فإلى متى لا نصحو من النوبة الطويلة!

وبأية لغة تُنتج (فنلندا) هذه التكنولوجيات؟ والجواب واضح، هو باللّغة الفنلندية وليس باللّغات الأجنبية، ونجد في هذا البلد ستّ (6) لغات محلية ولكن فيها **لغة فنلندية** هي الحَكَم؛ وهي لغة التّعليم والإدارة، رغم ما يُشكّله الأجانب من نسبة ترتفع باستمرار. ولكن اللّغة الفنلندية لا تناقش ولا يُطرح البديل عنها. وفنلندا بها تعطي المثال في الصناعة المتقنة، وتنافس دائماً العالم في هذا الجانب. ومن الأمثال التي يتناولها الفنلنديون قولهم: **إذا كان السويديون ينتجون سيارة ڤولڤو Volvo النّفيسة، فنحن ننتج نوكيا Nokia الرّفيعة.**

ــ **تعليق:** وقع اختيارنا على صورة مصنع (NOKIA) لغرض في أنفسنا فيَجني لها هذا المصنع العالميّ ما لا يجنيه البترول لبعض الدّول العربيّة؛ باعتبار أنّ البترول زائل، والمصنع يزداد ويتحكّم في التّقنيات التي لا تضرّ البيئة، والعالم الآن يسير نحو الطّاقات المُتجدّدة، وهذا ما تُنشده هذه الدّولة التي تحتلّ جامعاتها رقم واحد (1) في الجامعات العالميّة.

ــ **كوريا الجنوبيّة:** كوريا عرفت الاستعمار الياباني المُدمّر، وهي في شبه الجزيرة الكوريّة: البحر من جانبيْها، وكوريا الشّمالية من أمامها، وقاعدة أمريكا من ورائها. ويذكر لنا التّاريخ بأنّه عقب خروج الاستعمار الياباني أُصدِر فيها أوّلُ مرسوم يمنع استعمال اللّغة اليابانية، وهذا حقّ طبيعيّ، وكذلك فعلتِ جمهوريةُ الصين الشّعبية بعد ثورتها عام 1949م حيث تخلّت عن الإنكليزية، واعتمدت لغة (بكين) وهذا كلّه يدخل في إطار إعطاء اللّغة الوطنية الصّدارة والاعتزاز.

ونعود إلى (كوريا الجنوبية) التي عرفت كيف تتأقلّم مع هذه الصّعوبات واعتمدت على الذات الوطنيّة فتطوّرت، وكانت قبل ثلاثين (30) سنة أفقرَ بلدٍ في آسيا، وثالثَ أفقرِ دولةٍ في العالم، ومع ذلك نهضت بعبقريتها؛ وبتخطيط أبنائها فأضحت دولةً صناعيّةً كبيرةً؛ بنظريّة عقلانيّة نسبيّة بالسّنوات على التّوالي وبتحديد الآماد لكلّ مشروع إلى الصّناعة التّامّة الخاصّة. وكلّ ذلك يتمّ باللّغة

الكوريّة المُشتركة؛ وهي لغة المدرسة والإعلام، ولغة ساكنة المُدُن الحضاريّة، فلم يبقَ فيها الرّيف، وكلّ الرّيف مسّته الحضارة والرّفاه الاجتماعيّ. ونحن ننظر إلى حروفها على أنّها من الصّعوبة بمكان أن تُشفّر ولكن بتلك الحروف/ الرّسوم أضحت من أقوى اقتصاديّات العالم؛ فيحتلّ اقتصادُها الرّتبةَ التّاسعةَ عالمياً. وفي كوريا الآن أكثر من مئة (100) قناة تلفازيّة للخواصّ، وقناة واحدة (1) للدّولة وتبثّ كلّ تلك القنوات برامجها كلّها باللّغة الكوريّة، أو تُترجم إلى الكوريّة، وكلّ القنوات تنشد خدمة الوطن بمنهجيّات تنافسيّة للوصول إلى هدف واحد، ولم يكن يحصل ذلك إلاّ بفضل تلك السّياسة العلميّة وعمادها: **التّنافس ــ الحرّيّة ــ عبادة اللّغة الكوريّة ــ احترام الوقت ــ خدمة الوطن.** ولذلك يحدث في هذا البلد العَجَب ويتمثّل ذلك بأنّها قفزت في التّنميّة البشريّة قفزات جبّارة؛ فبعدما كانت لا مكانَ لها في تقارير التّنميّة البشريّة، والآن تُنافس الدّول المُتقدّمة "كوريا الآن تحتلّ الرّتبة الثّانية عشرة (12) في سلّم دليل التّنميّة البشريّة... إنّها تتقدّم على دول أوربيّة عريقة في التّقدّم مثل سويسرا التي تحتلّ الرتبة الثّالثة عشر (13) فرنسا تحتلّ الرّابعة عشرة (14) بلجيكا تحتلّ الثّامنة عشرة (18) وإيطاليا تحتلّ الثّالثةَ والعشرين (23) ولا يوجد أمّي واحد في كوريا، فكلّهم يجيدون قراءة وكتابة اللّغة الكوريّة المشتركة التي تعدّ لغة نفاذ إلى مصادر المعلومات، وكثير منهم يجيدون لغات أجنبيّة مختلفة". كوريا الجنوبيّة بدأت بالتّركيب الصنـــاعيّ النّسبيّ وخلال عشر (10) سنوات أصبحت دولة مُنتجة لسيّارات وطنيّة مئة في المئة بماركات عالميّة مشهورة. لمَ لا يكون العمل بمنهجية هذه النّمور عندنا؛ لنصنع السّيارات والجرّارات والحافلات والقطارات، وكلّ ما يخدم البنيّة التّحتيّة الوطنيّة من آليات. كوريا الجنوبيّة **عبرة** لنا فهي دولة حديثة جداً مقارنة بكثير من الدّول العربيّة التي لها قرون من التّواجد، دُوَل عربيّة لم تتعرّض للاستعمار، ولكنّها مُتخلّفة، رُغم ما عرفته من طفرات البترول الذي لم تُحسِن استغلاله.

ــ **تعليق:** وقع اختيارُنا على هذه الصّورة لنقول: إنّ تجربةَ كوريا الجنوبيّة في صناعة السّيارات رائدة، فقد بدأت في التّركيب، ومن ثمّ عبر السنوات العشر (10) استطاعت أن تنتجَ كلّ السيارات ذات المَارْكات العالميّة 100% وصناعة كوريّة. وما ينطبق على السّيارات ينطبق على كلّ الآلات الأخرى وهي الآن تغزو الأسواق العالميّة، بل تنافس الآلات الغربيّة في الجودة والصّلابة والسّعر.

ــ **اليابان:** بلد (اليابان) انْهارَ كلّياً منذ الحرب العالميّة الثّانيّة، ولكنّه نهض بلغته وبرجاله الذين أقاموا جسور الاستفادة الجزئيّة من النّظريّات الغربيّة والعمل على إدماجها، والخروج بنظريّة مُستقلّة يابانيّة. لقد استطاعَ هذا البلدُ النّهوض ثانيّة رغم جُزُره المُتناثرة، والزّلازل المُدمّرة، وأن يُصَدّر الكثير من السيّارات، ومن الشّاحنات الضّخمة، ومن الصّناعات الدّقيقة إلى العالم العربيّ، وهي صناعات ذات جودة عالميّة، وتنافس الصّناعات الفرنسيّة من حيث التّقنيّة.

بلد (اليابان) الجامع بين الأصالة والمعاصرة، بين القدّيس كونفوشيوس والتّعاليم المعاصرة، بين الإمبراطور المقدّس، وناطحات السّحب المتحرّكة واليابان في كلّ سنة يتطوّر. اليابان لا يملك البترول، ولا يملك الأرض الزّراعيّة، ويعيش في جُزُر زلزاليّة، ولكنّه يملك عقل الياباني المنتج، عقل دقيق عماده: **احترام الوقت، حبّ العمل، الفنّ في الإنتاج، الإتقان في العمل.**

ــ **تعليق:** إنّ (اليابان) له ثقافة أصيلة متفتّحة؛ حيث نراه يستثمر في التّنميّة البشريّة بقوّة واستطاع أن يكون عملاقاً في التّقانات الدّقيقة، بل يحتلّ الرتبة الأولى بامتياز.

أقف كثيراً عند التّجربة اليابانية بغرض مقارنتها بالفشل الذي عاشته جمهورية مصر العربية، فأقول: لماذا عرفت تجربة (اليابان) النّجاح، وعرفت تجربة (مصر) الفشل؟ لقد تقدّمت (اليابان) وتراجعت (مصر) لأنّ (مصر) اختارت اتّباع النّموذج الغربي في أغلب مُكوّناته، واستعاضت عن بُناها الثّقافية والاجتماعية والسّياسية؛ فناقضت نفسَها وفَشِلَت. كما فَشِلَت (مصر) وفشِلَت كلّ الدّول العربية في النّهوض؛ لأنّها اهتمّت باستيراد التّكنولوجية الغربية دون استيعابها أو العمل على تطويرها فأضحت بذلك تابعة. فشلت الإصلاحات العربية لأنّها لم تعمل على تنمية البشر ولم تهتمّ بالإصلاحات السّياسية، ودعم سلطة القانون، وغاب التّركيز على المنافسة العلمية، وضاعَت تعزيز القيم الدينية، وخاب بناء فكر المجتمع المدني.

لقد توهّمت البلادُ العربيةُ من خلال إصلاحاتها أنّها سوف تعمل على تحويل مُجتمع العرب إلى مُجتمع مُتقدّم، فلم يحصل ذلك لبُعدنا عن خصائصنا الذاتية مثلما فعلت اليابان "ظلّت اليابان إمبراطورية تقليدية متخلّفة إلى أواسط القرن التّاسع

عشر، وقد أثبتت كثير من الدراسات في التّاريخ الاقتصادي المقارن أنّ مصر كانت أكثرَ تقدّماً من اليابان في أواسط القرن التاسع عشر وكان اقتصادُها أكثرَ تطوّراً من الاقتصاد الياباني. وقد سبقت إصلاحات (محمد علي) الإصلاحات اليابانية في عصر الإمبراطور (مايجي) بأكثر من ثلاثة عقود على الأقلّ كان اليابانيون فيها يعانون الجوع والفقر إلى درجة اضطرتهم لبيع بناتهم لِدُور البغاء[1]". نجحت التّجربة اليابانية رغم ما علِق بها من الفكر البوذي والكونفوسيوشي والمُعتقدات الأخرى، ولم ترَ في ذلك ما يتعارض مع الصناعة والتّحوّل نحو مجتمع المعرفة "ورغم أنّ بعض الأبحاث الاجتماعية الفرنكفونية خاصّة، عكس الأبحاث الأنكلوساكسونية قد بيّنت أنّ الدين ونظام القيم الذي يتفرّع عنه يتعارضان مع التّصنيع والتمدّن، فإنّ الدين لا يزال مصدراً لقيم كثيرة في مجتمعات صناعية مختلفة، وبيّنت كثير من الدراسات التي اهتمّت بالممارسات الدينية في المُجتمعات الصناعية العلمانية المُعاصرة غير المتديّنة ليس سوى أسطورة، ويبحث المُفكّرون اليابانيون اليوم في إمكانية جعْل الدين مُقوّماً من مُقوّمات التّنمية المُستدامة، في حين يُهمّش كلّ المقاربات الدينية للمجتمع والاقتصاد والسياسة سواء كانت إسلامية أو مسيحية في المجتمعات العربية[2]". إنّ اليابانيين لم يبتعدوا عن الشنتو والبوذية وما كانوا يُؤمنون به من ديانات غَرَسُوها في أولادهم وهي: **التّضحية في العمل ــ الإضراب زيادة في الإنتاج ــ الطاعة والولاء والإخلاص واجب تجاه الوطن ــ الارتباط المطلق بالعائلة...** تأصيلات متلاحقات وعبر ثلاثة عقود انطلقت اليابان

1ــ المبروك المنصور "الهُويــة والقيــم الدينيــة في التّجارب التّحديثيــة اليابانية والعربية دراسة مقارنة تركّز على الإسلام والشنتو" مجلة موارد. تونس: 2009، جامعة سوسة، العدد 14 ص 14.

2 ــ المبروك المنصور "الهوية والقيم الدينية في التّجارب التّحديثية اليابانية والعربية، دراسة مقارنة تركّز على الإسلام والشنتو" مجلة موارد. تونــس: 2009 جامعــة سوســة، العدد 14 ص 45-46. ع/ Takeshi Kimara, Religion Science and Sustrainability Osaka : Union Press2008.

حتى أصبحت الآن ثاني أكبر اقتصاد عالمي، وأكثر المجتمعات تقدّماً في النانوتكنولوجي. لم يكن ينظر اليابانيون إلى فصل الدين عن الدولة، بقدر ما كانوا يربطون الأفكار الدينية بالحداثة؛ لأنّها أصالتهم وخريطة طريقهم للتّقدّم والمحافظة على الخصوصية. إنّ اليابانيين لم يتّجهوا في مبدإ أمرهم إلى الاهتمام بالمُنتجات المادية المباشرة، بل اتّجهوا إلى الفلسفة والعلوم، وكانت المدرسة اليابانية تُساير الأحداث بزرع ثقافة تقديس الأرض اليابانية والاستعداد للموت دفاعاً عنها، ونشر الأفكار التي تروّج للوحدة الوطنية، وكان (الساموراي) الضامن الوفيّ للقائد العسكري، والاستعداد للموت في سبيل الوطن.

لقد فشلت الإصلاحات العربية لأنّها توهّمت أنّ نقل التّكنولوجية ستعمل على تقدّمها، وهي لا تعرف كيف تُدير آلاتها، ولا كيف تَستبدِل قطعةً مُعطّلة لأنّ العقل كان يجب أن ينطلق في البداية من معرفة ما يستعمله، وأين يستعمله وكيف يسيطر عليه، ولم يحصل ذلك، بأنّ ركبنا التكنولوجية التي لم نُسيطر عليها، فتعطلنا كلية. وبذلك بقينا نعيش أزمات عديدة؛ أزمة التّبعية، أزمة تبخيس الذات، أزمة شتم الهُوية الوطنية، أزمة أصل الوجود، أزمة الذات الثّقافية، أزمة عدم الفصل في الهُوية اللّغوية... وهذا ناتج عن الحضارة المظهرية التي نقول: إنّنا نعيشها، ونعلم أنّنا نعيش على الاستيراد، وهذا غير موجود في المجتمعات المُتقدّمة والمُتطوّرة التي نشدت الرّقي، وعملت على الرُّقي فترقَّتْ.

ــ **تركيا:** دولة ناميّة تعمل على الاعتزاز بلغتها، ولا تزال تفتخر بتخطيط (أتاتورك) المُعلّم؛ الذي يقرّ بعظمة تركيا واللّغة التّركيّة، وبجهد الأوگليّ العثمانيّ فهي دولة نصف صناعيّة، ومن الكبار العشرين اقتصادياً، وبلد تجميع السّيارات والشّهرة العالميّة في صناعة الحديد. وتركيا حالياً تشهد قفزةً في بناء مصانع حديد عملاقة في وطنها وفي خارج (تركيا) ولها تجارب ناجحة في الصناعات الخفيفة بل إنّ سِلَعَها منافسةٌ في الأسعار والجودة لكثير من السِّلَع الغربية. والغريب في تركيا أنّها بلد سياحيّ بامتياز، ومع الاعتزاز العثمانيّ؛ فإنّ اللّغات الأجنبيّة لا مكان

لها في تركيا، وعلى السّائح أن يتدبّر أمره لفهم التّركيّة، لا التّنازل لصالح لغات الأجانب، وكلّ اللاّفتات والإشارات والمحلاّت مكتوبة بالتّركيّة فقط... ومن الصّعوبة أن تجد مُترجماً يفهم اللّغات، وحتى في الأماكن السّياحيّة التي يفترض وجودُهم بالقوّة، وهم لا يُولُون اللّغات الأجنبيّة أيّة قيمة، بل يتركون السّائح يتعلّم لغتهم، وهذا ما يتجسّد في جاليتهم التي تقرب إلى ثلاثة (3) ملايين تُركي، فهم لا يتقنون الألمانيّة بقوّة، ويُدرّسون لغتَهم في المهجر، بل يدفعون أموالاً كبيرة على مدرسي اللّغة التّركيّة، وهمّهم في كلّ ذلك مسألة سيادة اللّغة التّركيّة بين أولادهم وهم في المهجر، وهي وسيلتهم للاندماج في المجتمع التّركي في لاحقٍ من حياتهم أو بعد عودتهم لبلدهم تركيا الأمّ. ويبدو لي بأنّهم يُجسّدون مقولة (Vossler فوسلر) القائلة: "من حُرم وطنُه على الأرض فَلَهُ في لغته القوميّة وهي وطنٌ روحيٌ يُؤويهِ. كما أنّ الأتراك يقرّون بأنّ لغة قوم هي تلك اللّغة التي بها يفكّرون، فلا يفكّرون بلغة الأمّ، ثمّ يَجْرُون عمليّة التّرجمة الذّهنية إلى اللّغة الموظّفة؛ بدعوى أنّها لغة العلم، فلمَ كلّ هذا العناء ولغتي يمكن أن تفعل هذا إذا حاولت ذلك. وفي هذا المقام يمكن أن نقول: **إنّ كبار العلماء الغربيّين والذين يتقنون اللّغات الأجنبيّة لا يكتبون بها، بل يكتبون بلغاتهم الأمّ؛ حيث يُضيفون العلوم إلى لغاتهم عن طريق التّرجمة من تلك اللّغات التي يُتقنونها فهم لا يريدون الانتقال إلى تلك اللّغات، بل ينقلون العلم إلى لغاتهم، وهذه سنّتهم منذ أن فهموا دور اللّغة القوميّة في التّنمية البشريّة.**

ــ **تعليق:** تفتخر (تركيا) أنّها من البلاد التي يأتيها السّياح بقوّة، فتستقبل سنوياً ما يزيد عن اثني عشر (12) مليون سائح، كما تفتخر أنّ لغتها على كلّ الواجهات ولا تستعمل اللّغات الأجنبيّة؛ بقصد أنّ السّائح عندما يزور بلدهم يعود حاملاً بعض مصطلحات اللّغة التّركيّة، وهذا مظهر اعتزاز قوّي لا يمكن التّسامح فيه، فهل **نعتبرُ أيّها العربُ؟** فإنّ بلادكم يأتيها ما يأتيها من العمال والسّياح سنوياً، فهلا تعتزّون بلغتنا كي يتعلّمها هؤلاء السّياح وتفرضوها على العمالة الأجنبية.

ــ **كوبا:** لا أغفل تجربة (كوبا) في صناعة الطبّ؛ حيث تستثمر في تخريج طبيب كوبيّ ماهر؛ يستجيب لكلّ الحالات الطبّية، ورغم المُضايقات التي تعانيها من حصار أمريكا، ومن عدم وجود الموارد الطّبيعيّة، فهي جزيرة من العدم وتضربها الأعاصير باستمرار؛ إلاّ أنّها تُنتج أفضل الأطّباء والجَرَّاحين في العالم ويُخطَب وُدُّهُم في الدّول المُتقدّمة. ويضاف إلى ذلك بأنّ التّنميّة البشريّة تعمل على محْو الأميّة، فكوبا بلد= صفر (0) أمّي، فقد استطاعت مَحْوَ أميّة كلّ الكوبيّين بفضل برنامج استعجاليّ؛ جنّدت فيه كلّ السّلطات والقوى الحيّة فلم يبقَ (أُمّيٌّ) فيها منذ 2006م. ولا يمكن أن نضع (كوبا) في الدّول المُتقدّمة، ولكن من الوجهة

التّخطيطيّة يمكن أن أقول: إنّها من الدّول التّي استثمرت في التّنميّة البشريّة وخطت خطواتٍ جيّدةً ومضمونةَ النّجاح وقد استثمرت في جانب **تنميّة الطّب** على أنّه عُملة يُدرّ عليها –تقريباً– مقدار ما يُدرّه البترول على بعض الدّول العربيّة، وقد حصل لها هذا بفضل لغتها الإسبانيّة.

ــ **تعليق:** كوبا بلد الأعاصير، وجزيرة فقيرة مُعدمة، ولكن إرادة الكوبيّين، أمام الخنق/ القهر الأمريكي استطاعت أن تخلق بلغتها الأطباء المَهَرَة، والذين أصبحوا يُغَطّون العجزَ المالي الذي تعيشه جرّاء الحصار، وقلّة الموارد.

فإذا حلّلتُ نجاح هذه التّجارب، **أعتبر كلّ الاعتبار من هذه التّجارب النّاجحة** وأقول: ما أكثر الاعتبارات، وما أقلّ العِبَر، وأستخلص نقطتين هامّتَيْن هما:

ــ **النّقطة الأولى:** ربط علاقة تكامليّة بين امتلاك المعرفة ومعدّلات التّنميّة الاقتصاديّة والاجتماعيّة، وبين الاهتمام بالصّناعة والإغداق على صاحب الصّناعة. بين التّخطيط المرحليّ والتّنميّة المُستديمة. بين التّحكّم في العلم وبين تطبيق آليات العلم... وفي هذه الدّول عائدات الاستثمار في البشر أعلى بكثير من الاستثمار في الصّناعة الثّقيلة، وبذلك زادت هذه الدّول في مُعدّلات نمو مُرتفعة.

ــ **النّقطة الثّانية:** دُوَل اهتمّت بالتّنميّة البشريّة، **وراهنت على اللّغات الوطنيّة دون غيرها من اللّغات الأجنبيّة، فنجحت أيّما نجاح،** ودافعها في هذا ما يلي:

1ــ دولٌ تحمّست إلى لغاتها وكان من إحساس تاريخيّ وعلميّ بضرورة التّجاوب مع المُعطيات المُستجدّة؛ إذ تشكّل اللّغة الوطنيّة دعامة وجودها، وأداة انفتاحها على العالم؛

2ــ دُوَلٌ نالت التّقدّمَ بلغاتها، وكان هذا التّقدّم جديراً عندها بما أبدعت بلغاتها وبما عملت على صيانة لغاتها؛ لأنّها وسيلتها للمحافظة على ثوابت الأمّة؛

3ــ دُوَلٌ جنّدت كلَّ طاقاتها لخدمة لغاتها؛ بخطط واضحة المَعالم من مستوى التّصوّر إلى الإنجاز بالقوّة والفعل؛

4ــ دُوَلٌ أولتِ الضّبطَ المنهجيّ والعلميّ الأهميّة المطلوبة، ثمّ عملت على الحضور العلميّ الموازيّ الجامع بين البعد النّظريّ والتّطبيقيّ؛

5ــ دُوَلٌ بقيت عاملةً ولا تزال تجنّد طاقاتها الماديّة والبشريّة، لحماية لغاتها والعمل على تطويرها، وإمدادها بالإمكانيّات المطلوبة.

وفي ظلّ هذا العمل العلميّ والمنهجيّ، وفي باب الاعتزاز الوطنيّ، نلاحظ أنّ الكثيرَ من الدّول الضّعيفة مثلنا، أنزلت لغاتِها الوطنيّةَ مكانةً أولى في كلّ المقامات كما أنّ ميزانياتها في للتّربيّة والتّعليم تقرب إلى 20% من الميزانيّة العامّة للدّولة وبذلك ارتقتْ علمياً واجتماعياً، وخرجت من الدّول الفقيرة وأضحت تلك الدّول تُنافس الدّول المُتقدّمة في الصّناعة والزّراعة. ولم يحصل لها هذا قبل سنوات السّتينيات، عندما كانت تعتمد اللّغات الأجنبيّة بديلاً عن لغاتها، أضف إلى ذلك الحَرَاك الشّعبيّ الذي كان يُقرّ بأنّ اللّغة الوطنيّة هي جسمُ الوطن ومُخُّه الذي يسير به، وبدون اللّغة الوطنيّة يبقى المجتمعُ يعيش أزماتٍ نفسيّةً داخليّةً كأنّه مُنْبَتٌّ عن واقعه ومُحيطه، فلا يحسّ المواطنُ بوطنيته إلاّ داخل لغته؛ فاللّغة الوطنيّة هي التي تُعطيه المواطنةَ والأمنَ والسّكينةَ، بل تعمل على وَحْدَة التّجانس الاجتماعيّ، ومن هنا وقع تقديسُ اللّغة الوطنيّة باعتبارها مُقوماً اجتماعياً.

إنّ التّجارب والمرافعات النّاجحة تحتاج منّا أن تكون نماذج تُحتذى ونقول بأنّ الفرنسيّة كلغة نستفيد منها ولتخدمَنا لا لنخدمَها، ولكنّها لا تكون قبل العربيّة، نعم نتعلّمها ولا ندفع الأموال من أجل تعميمها، ودفعنا الأموال من أجلها يعدّ انفلاتاً لغوياً لا مثيل له، وكان علينا محاربة هذا الانفلات اللّغويّ المشاهد في واقعنا

العربيّ؛ فلا لغةَ تجمعُنا في ظلّ العولمة، فكيف يكون مستقبلُنا! وهل لنا مكانٌ نتموقع فيه في ظلّ مجتمع المعرفة، أو **هل العربُ يعيشون مجتمعَ المعرفة Société Savante؟** بالنّفي ليس بعد، وهذا لبُعدهم عن السّيطرة على عولمة المعلومات، وتفشّي الأميّة واعتمادهم على استيراد التّكنولوجيا التي لا تكرّس إلاّ نخبة أسيرة؛ مرجعيّتها غربيّة وتابعة لقوى الهيمنة، أضف إلى ذلك تقديسهم للغات الآخرين، وعدم إيلاء المدرسة القيمة التي يجب أن تنالَها في المحيط. ولكي يعيشَ العربُ **مجتمعَ المعرفة** ويتمثّلونه؛ كان عليهم العمل على نهضة عربيّة معرفيّة يتمّ فيها:

ــ محو الأميّة بشكل كلّي؛

ــ الاشتغال على الصّناعات الدّقيقة؛

ــ بناء اقتصاد قويّ؛

ــ الاستفادة من ريع البترول في تطوير التّنميّة البشريّة.

ولذا يُطالب العرب في الوقت الحالي بـــ:

1ــ تنشئة الطّفل العربيّ تنشئة تفاعليّة باستيعاب المكوّنات اللّغويّة والقيم والتّوجّهات؛

2ــ مجاراة المدرسة للمحيط من خلال السّلوكات المرغوبة لدى الطّفل بتعزيز الكفايات اللّغويّة المكتسبة؛

3ــ نمذجة التّعليم العامّ والمجانيّ على أساس الجودة؛

4ــ الرّفاه الصّحي المُصاحب للّنمذجة.

إنّ مجتمع المعرفة يركّز بقوّة على **تحديث المدرسة؛ باعتبارها قوّة ومحرّك المجتمع**، وعلينا إذاً أن نسارع إلى بناء مدرسة عقلانيّة حديثة لنحتكم فيها إلى سُلطان العقل، وإلى اكتساب المنهجيّات العقليّة الصّارمة التي تتيح السّيطرة على الظّواهر والاقتدار المعرفيّ الطّليق، ونعمل على نشر ثقافة الإنجاز والإتقان ونمحو ثقافة تدبير الحال المؤقّت، ومُتَع الاستهلاك. وهنا يقع التّأكيد على تنميّة طفل مُجتمع المعرفة من خلال التّعليم الذي هو عمل جوهريّ؛ وهو الذي يُحدّد ظروفَ حياة الفرد ومستوى وعيه العلميّ والثّقافيّ. وعلى المدرسة أن تُمكّن الطفلَ

أنماطَ التّفكير، والعمل على تحديث مناهج البحث في القضايا المعرفيّة التي تطرح عليه في شكل وضعيّات ومشاكل حقيقة؛ ليستخرج منها معلومات تسمح له بدراستها وفق قدراته وكفاياته. ومن هنا نروم أن ينشأ الطّفل العربيّ على برنامج متكامل؛ يُحقّق ذاته من خلال بناء هُويته في مختلف أبعادها؛ فالطّفل كائن إيجابيّ يبحث عن النّماء وبناء الاقتدار الذاتيّ، وعلى المعلّم أن يهيئه لمجتمع المعرفة بغرس الدّافعيّة، وإبعاده عن الممارسة العقيمة. وعلى صاحب القرار الابتعاد عن استيراد العَمَالة المعرفيّة الأجنبيّة؛ فهي التي تُعيق العَمالة المعرفيّة الوطنيّة، بل هي التي تُعيق التّمكين المعرفيّ المعاصر لهؤلاء الشّباب الذين يتعاظم أعدادُهم في العالم العربي؛ فإذا لم تحتويهم المدرسةُ سوف يكونون وقوداً للعنف الاجتماعيّ.

وإنّه لا بدّ من دخول مجتمع المعرفة **والذي لا يكون بغير اللّغة الوطنيّة** وإنّ التّعليم باللّغات الأجنبيّة يُضعِف الحاجةَ إلى ترجمة العلوم والبحوث الجديدة إليها وضعف التّرجمة يؤدّي إلى صعوبة الدّخول في مُجتمع المعرفة. والدّخول إلى مُجتمع المعرفة يتطلّب منّا **أن ننقل العلمَ إلى لساننا بدلاً من نقل أبنائنا إلى لغات الآخرين**. وإنّ التّعليم باللّغات الأجنبيّة عبارة عن حواجز لا تنتهي أمام التّقدم، فلا يمكن رفعُ تلك الحواجز إلاّ بفتح حدود المعرفة والإنجاز للغتنا، وعند ذلك تحصل لنا القدرةُ على البقاء والإبداع، وإلاّ سنبقى قطيعاً يُساق إلى حيث لا يدري؛ لأنّنا لا نملك الفكر، ولا نقدر على المنع، فالقابليّة للانقياد ثابتة، والخضوع للمقُود راسخة والطّاعة لمن يحمل الأفكار واضحة.

وإنّه قد أصبحت المعرفةُ في مجتمع المعرفة مصدر الإنتاج الأساسيّ بدلاً من العمل التّقليديّ، والمعرفة مكوّن أساس في أيّ نشاط إنسانيّ، باعتبارها القوّة الخلاّقة وهي السّلطة والمال والهندسة الوراثيّة والتّكنولوجيّة الحربيّة فأغنى المُجتمعات هي التي تملك وتوظّف المعرفةَ الأكثرَ تقدّماً من خلال سيطرتها على الشّابكة، وزيادة الابتكارات، والآن من يملك المعرفةَ يملك القوّةَ والسّلطةَ؛ وبهما سيكون سيّدَ العالم. ولذا فرأسُ المال المعرفيّ يمثّل مجمل الكفايات المعرفيّة التي يمتلكها أفراد المجتمع، وتشمل مختلف المهارات الذّهنيّة التي تكتسب من التّعلّم

والتّعليم، وهذا ما يُلمس في بلد منشأ مجتمع المعرفة "أميركا والغرب والنّمور الجُدد".

وعوداً إلى التّجارب النّاجحة فهي تعطي لنا **سُبُل الاعتبار**، وكذا **اقتراح بدائل** ترقيّة العربيّة، وكيفيّة تمكينها في بلدانها، وما استخلصناه من التّجربة الفرنسيّة أقوى بكثير من تلك التّجارب التي عملت بها البلدان الأخرى؛ باعتبار تجربة فرنسا رائدة، ولها مُنافحات وتصحيحات وتراكمات بفعل ما كانت تقوم به من مدّ لغتها خارج فرنسا. ويجب أن يعلم القارئ بأنّ فرنسا هي الدّولة الوحيدة التي أقامت ذات وقت وزارة للفرنكفونيّة، ورصدت لها ميزانيّة تفوق ميزانيّة وزارة الدّفاع الفرنسيّ، ومن الأهميّة بمكان أنّها –في كثير من الأحيان– تُسْنِد حقيبةَ التّربيّة والتّعليم إلى مُتجنسّين من وراء البحار، وهذا في إطار التّجنيس المشروط بإتقان الفرنسيّة. دون أن ننسى بأنّه **لا يوجد بلدٌ في العالم يغدق على لغته مثل فرنسا** فهي تعطي مِنَحاً للأجانب، وتأويهم في رحلات علميّة داخل فرنسا، وتقيم ملتقيات للغة الفرنسيّة في الدّاخل وفي الخارج وتستجلب الأجانب المُحبّين للفرنسيّة، وتمنح لهم المزايا، وقد سنّت الإقامات الطّلابيّة لدى العائلات لتعلّم الفرنسيّة، وتمنح الهبات الممثّلة في الكتب الفرنسيّة، كما أبدعت في وضع المنهجيّات المعاصرة لتعلّم الفرنسيّة في أقصر وقت، كما لا تغيب عن المعارض العالميّة لبيع منتوجها كما تغدق على المُترجمين من الفرنسيّة إلى اللّغات الأجنبيّة... أرمادة من التّخطيطات والمشاريع، والمهمّ أن يكون للفرنسيّة موقعٌ خارج فرنسا، **فهل نعتبر؟**

ومن خلال هذا الفعل الفرنسيّ العلميّ والصّارم، وهو من الأهميّة بمكان أن يكونَ خريطةُ طريق تُستلهم منه أفكارُ النّجاح. ولا يعني هذا أنّنا نعود إلى البدائيّة الأولى في التّهيئة اللّغويّة، فالعربيّة مُهيّأة، وتحتاج إلى مراحل تكميل فقط، كما أنّ العربيّة لها مُؤسّسات، وما ينقصها هي تفعيل المُؤسّسات. إنّ العربيّة لها مقام عالٍ في الخريطة اللّغويّة العالميّة، وتحتاج فقط إلى مَنهج ومِنهاج التّواجد.

إنّ العربيّة ليست مثل الفرنسيّة التي عرفت مراحل صعبة في مراحلها التّأسيسيّة، العربيّة مُؤسَّسة، فتنقصها العقليّة المسيّرة، ولها رؤوس أموال كبيرة... ومن هنا، فنحن لا نستلهم من التّجربة الفرنسيّة إلاّ ما هو حداثي ويدخل في باب

العولمة اللّغويّة، وتفعيل آليات التّواصل المعاصر، وما له علاقة بالوسائط المُعاصرة في مجال التّعليم، والتّخزين الآلي، وخوض ميدان المعلوماتيّة، وتفعيل التّرجمة، وما له علاقة بميدان الآليّة للتّعبير عن العلم؛ لأنّ اللّغة التي لا تحمل العلم، ليست لغة، فكيف لنا بأن نعيد للعربيّة عِلْمِيّتها ونُفعّلها في مُحيطها وفي غير مُحيطها، وهذا ليس ببعيد إن استلهمنا التّجارب النّاجحة، ولذا نرى ضرورة استلهام بعض التّخطيطات لتطوير عربيّتنا، وهي:

1/17ــ العملُ بالمشاريع الكبرى: إنّ العربيّةَ بحاجة إلى التّمكين في أوطانها؛ باعتبارها اللّغة الرّسميّةَ لها حقوقها فــ "وَجَبَ العملُ على أن تكون لغةً قادرةً على مواكبة التّطوّر الحديث، خصوصاً، وأنّ هناك دولاً عديدة رسّمتها في دساتيرها. وهنا وجبَ السؤالُ: **لماذا هذا التّرسيم؟** فالدّول عادة لا ترسّم إلاّ اللّغات التي تعتقد أنّها قادرةٌ على البناء والتّنميّة فهل هذا الاعتقاد سليم؟" لا ننكرُ أنّ هناك مشاريعَ طموحة تحتكمُ إليها الكثير من النّخبةُ العربيةُ ولكن كيف نجعلُ تلك المشاريع تنالُ التّطبيقَ؟ وما هي الأهدافُ المَرسُومةُ لها؟ وكيف تُترجَم تلك المشاريع على مساحات الدّول العربيّة المُتناثرة؟ وكيف نجعلُ من المُنجز المُتفرّق واحداً؟ ... وإنّي أعلم أنّ هاجسَ حمايةِ العربيّة يقُضُّ مضاجعَ المُختصّين، ولكن الحلّ يبدأ منهم بتقديم تصاميم المشاريع الكبرى لتخطّي الصّعاب قبل التّفكير في وضعِ ترسانةِ القوانين؛ لأنّ القوانينَ لا تُرقي اللّغة إذا كانت فقيرة، ولا يخدمها أهلُها وتنعدم فيها المشاريع. ومن هنا فإنّ حمايةَ العربيّة والدّفاع عنها يكون بالمشاريع الكبرى؛ وهذا بتحديد أهداف مُوحّدة؛ ترسم معالمَ كلِّ المشاريعِ المتفرّقةِ في الوطن العربيّ؛ بحيث تخدم بعضها البعض، وتعطيها روحَها الجماعيّة، مع وضع مدّة زمنية للإنجاز. وزيادة على هذا، فإنّ هذا الحديثَ يجرُّنا إلى تلك المشاريع العملاقة والطّموحة والتي تُراوح مكانها، وأذكر مشروعيْن هاميْن؛ ولكنّهما متعثران وهما:

1ــ مشروع المعجم التّاريخي للغة العربيّة: فهو مَشْروع مُتعثّر، الذي اعتمده اتّحاد المجامع اللّغويّة العربيّة منذ سنوات، فلا يزالُ يراوحُ مكانَه، فأين مكامنُ التّعثّر؟

2ــ مشروعَ الذّخيرة اللّغويّة: مشروع عجزت الدولُ العربيّةُ مُجتمعةً على تحريكه؟ فأين ربطُ المال العربيّ بتمثّل مشاريع عربيّة كبرى؟ وأين المجامع اللّغوية التي تشرّع دون تطبيق؟ وأين مراكزُ البحث العملاقة التي تظهر بأسماء برّاقة؟ ... مشاريعُ عربيّة تُقام في كثير من البلاد العربيّة، لكن دون متابعةٍ ودون تنسيق. فالمشاريع تحتاج إلى دراسة جدوى، وإلى التّغطيّة الماليّة الكافيّة، وتحديد المدّة الزّمانيّة، والمتابعة، والتّقويم. فهل أخضعنا مشاريعنا لما تتطلّبه المشاريع من معايير ومواصفاتiso ؟ وفي هذا المجال تأتي الإجابةُ الصّريحةُ عن الهُويّة اللّغويّة، ولا بدّ من تجسيدها كما هي، وإلاّ ما الفائدة أن نعيشَ التيْهَ اللّغويَ على مدى القرون الماضيّة، ونبقى في ذلك التيْهِ حائرين، ولا نستطيع تقديمَ بدائل الخروج من الأزمة سالمِين.

2/17ــ بناء مَكانِز عربيّة مُفهرَسَة: وتكون قاعدةً سهلةً للباحث، يعود إليها في مشاريعه، وفي هذا المجال أن تكونَ العربيّةُ معياريةً خاضعةً للتِقانة وفيها رصدٌ للمُصطلحات، والمُختصرات والمُختزلات، والأرقام العلميّة التي تخضع لها كلّ اللّغات المُتقدّمة، وإخضاع المُؤسّسات العربيّة للمعايير الدّوليّة في بناء المُصطلحات العلميّة. ومن هنا نسأل هل أَقَمْنا مَراصدَ للمُصطلحات اللّغويّة والعلميّة؟ وهل أنْجَزْنا المَكانز التي تجعل لغتَنَا موجودةً بقوّة في الشّابكة، وفي بناء البَرْمَجِيات وفي كلِّ وسائل التّواصل الاجتماعي؟ لا شكّ أنّ هذه المرحلةَ في طوْر التّنامي لأنّ العربيةَ الآن لها الرّتبة السّادسة في استعمال هذه الوسائط، وأنّ عددَ المُستخدمين للشّابكة يتجاوز اثنين وسبعين 72 مليون، والعدد في نموٍ وازديادٍ، فلا نعدم هذا النّهوض، ولكن في ذات الوقت لا ننسى أن نقول: هناك مُضايقات تقنيّة من مثل وقوع الصّائت على الصّامت، وتطوير الخطّ العربيّ للاستجابة للمصطلحات الجديدة، والتّفعيل داخل عالم البرمجيّات، والهندسة الصّوتيّة والآليّة ورفع باب اللّبس في القراءة... وكان على النّخبة العربيّة الاستثمار باقتراح الحلول، فإنْ أعجزَهم هذا عليهم أن يفتحوا باب المُناقصة الدّوليّة لمن يقدّم طريقة مثلى في حلّ القضايا العالقة، وبخاصّة التّقنيّةَ منها. وفي هذه النّقطة أن يكون التّركيزُ على مسألة الخطّ العربيّ الذي هو ليس مُنزّلاً، ولكنّه ليس كَيْساً أو وَرَقاً

نضع فيه أيّة لغة، بل لكلّ لغة خطّها الذي تُعرف به، فلا يمكن التّنازلُ عن خطّ اللّغة العربيّة بدعوى نَقْصِه، بقدر ما يعجزنا البحثُ في تطويره، ولا يجب أن يخطرَ بالبال تلك الأفكار الهدّامة؛ بإعادة كتابةِ تراثنا بخطّ لا يعيشُ هذه الإكراهات.

3/17ــ إعادةُ النّظر في مناهج تّدريس العربيّة وتسهيلُ طرائقها: وللإجابة عمّا يلي: نقول: لماذا يقع نحاريرُ اللّغة العربيّة في الأخطاء، ولا يكون ذلك في اللّغات الأخرى، وفي اللّهجات؟ ولهذا أفضّل أن يكون التّركيزُ على البُعد التّربويّ أو المدرسيّ؛ باعتباره الحضنَ الأساسَ للغة، وتأكيد تلازم العلاقة بين مسألة الهُويّة والمسألة التّربويّة، فالتّربيّة هي باب الإقلاع العلميّ وميدانه الإصلاح اللّغويّ والعلميّ، ولا يكون بغير الإغداق الماديّ. ولذا فإنّنا نحتاج إلى إصلاح لغويّ يتمّ في إطار الاستمراريّة؛ كي لا نقع في التّجارب الفاشلة، ولا بدّ من السّير المرحليّ ومراجعة كلّ مرحلة قبل الانتقال لمرحلة مُواليّة. إنّنا بحاجة إلى مُراجعةٍ جذريةٍ لما يُقدَّم للتّلميذ من مَواد يُعوّل عليها في تكوينه، وهذا يجرّنا للقول: إنّه لا بدّ من تأهيل العربيّة في المجالَ التّربويَ الذي يعمل على الأمن اللّغويّ، والمحافظة على السّيادة، فأنْ تستعملَ لغةَ الأجنبيّ في بلدك فمن حقّ الأجنبيّ أن يتدخّل في بلدك بدعوى المحافظة على لغته. وهنا لا نقول: **أن نمنعَ استعمالَ اللّغات الأجنبيّة وهذا ليس في مستوى المقبول، بقدر ما نريد المحلّ الأوفر للغات الوطنيّة قبل كلّ شيء.** وليكون التّمكينُ للغات الوطنيّة علينا السّير في باب الإصلاح التّربويّ والعمل على أن نُنتجَ كتاباً مَدْرَسياً راقياً ضمن المُستندات التّربويّة المُنافسة عالمياً؛ ويكون جيّداً في المضمون، ويعمل على التّحسيس بالانتماء للوطن، ويحمل التّاريخَ المجيدَ، ويُؤسّس للبُعد الهُوياتي، وحبِّ العربيّة.

4/17 ــ خوض جانب المُضايقات التّقنيّة: لا ننكر أنّ التّخلّف والتّأخّر أدّى بوضع اللّغة العربيّة إلى عدم مُلاحقة المُتغيّرات الحضاريّة التي تعيشها اللّغات المُتقدّمة، ولذا نجد مُضايقات كثيرة تعيشها اللّغة العربيّة، من مثل: نقص علميّة اللّغة العربيّة، قلّة توظيف المُختصرات، ضعف إنتاج المصطلح العلميّ، نقص حروف جديدة لمنظومة الخِطاطة العربيّة، نقص تواجد العربيّة في الشّابكة وفي محرّكات البحث، اللّبس في المنطوق بسبب عدم الشّكل نقص التّرجمة، وبخاصّة

الآليّةَ، عدم توظيف الآلات المُعاصرة في التّدريس... أمور تقنيّة شبه مُنعدمة في لغتنا، وفي جانبها فُتُور في آفاق التّقارب البيني وفي تبادل التّجارب، ضعفُ تعليم العربيّة للأجانب، استهتارٌ بتنشيط المراكز الثّقافيّة العربيّة، وعدمُ إقامة شراكة مع الدّول الغربيّة، وإهمالُ تمكين المهاجرين العرب من تعلّم لغتهم العربيّة... وهذه الأمور من الأشياء التي يتحمّلها المثقّف العربيّ (النّخبة) مع الحِرْفِيين والصُنّاع والمُهندسين وأهل المعلوماتيّة، وكلّ من يهتمّ بالشّأن العربيّ بُغية النّهوض. ويُفترض في النُّخبة أنّها تشير إلى مَواقع الخلل، فتحمل الأفكارَ إلى صاحب القرار وتقدّم الحلولَ البعيدةَ عن الاجترار.

5/17 ــ التّرجمة من وإلى العربيّة: وفي هذا الميدان لا تغيب عنّا قيمةُ وأهميةُ التّرجمة، وما تدرّه على اللّغة من أموال، ويكفي أن نضربَ مثلاً بتلك السّيولة الماليّة التي تديرُها اللّغة الإنكليزيّة على بريطانيا، وهذه السّيولة استثمار لا يديره البترولُ على دولة عربيّة. فالتّرجمة –كما نعلم– تعمل على تطعيم العربيّة بحصائل جديدة من لغات أجنبيّة، وفيها يحصل الاحتكاكُ المتبادلُ: تأثير وتأثّر، واقتراض واستقبال، أخذ وإعطاء، تجسير الروابط العلميّة بين ثقافتيْن... وهذه سُبُل من سُبُلِ التّنميّةِ اللّغويّة. ولكنّنا في واقع الحال عاجزون على قبول الآخر، وقبول التّعدّد "إنّنا انطوائيون أو اهتجاريون، وقليل منّا مُترجمون. التّرجمة كمّا وكيفاً مُؤشّر على التّقدّم، والقدرة على معاينة الذّات ومعينة الآخر، وإنشاء شروط المثاقفة والحوار. أرقام الدّول الرّاقيّة مرتفعة، وأرقامنا هزيلة. وثقافتنا إمّا عتيقة وإما مُستنسخة، ولا سبيلَ إلى التّقدّم والمبادرة والمنافسة والحوار عند البِدَوني[1]". وبكلّ أسف لا نزال في المرحلة الأولى من التّرجمة الشّخصيّة، وتصادفنا عثرات، بَلْهَ الحديثَ عن التّرجمة الآليّة التي هي علم المستقبل، ففي هذا يجب الإفادةُ من البرمجيّات التي تُوضَع في مجال المصطلحات الوظيفيّة في لغات التّخصّص، ومحاولة تمثّل ذلك في مشاريعنا الأولى لبناء ترجمةٍ آليةٍ بحسب مُقتضياتنا وحاجياتنا: في النّقل، في

1 ــ عبد القادر الفاسي الفهري، أزمة اللّغة العربيّة في المغرب بين اختلالات التّعدّديّة وتعثّرات (التّرجمة) ط5. ليبيا: 2010، دار الكتاب الجديد المتّحدة، ص 14.

لغة التّواصل اليوميّ، في معلومات التّرحيب، في مُصطلحات التّواصل العلميّ، في مواد التّخصّص، بل يمكن بناء أدلّة جيبيّة للمصطلحات العلميّة حسب الطّلب، ولمَ لا تكون أجهزة ناطقة وظيفيّة حاملة للمفردات والمسكوكات المُوظّفة في قطاع ما وهذا ليس صعباً، فعلينا تخصيصَ فريقٍ في الميدان، وتوظيف برمجيّات موجودة ويبقى تغذيتها بكلّ المطلوب سهلاً؛ إذا توفّرت نوايا الإصلاح، وأُعطيَ الوقتُ اللازمُ لذلك.

وإنّنا نعلم بأنّ اللّغة ممارسة، والممارسة إبداع، فإذا مارَسْنا العربيّةَ في العلوم سوف تدخل غمارَه، وتعبّر عن دقائقه، أما إذا لم نمارسْ بها العلمَ تبقى العربية بعيدةً عن التّوظيف والعلميّة، وتلك شهادةُ وَفاتِها، ونبصّم عليها بأنفسنا فلا نلومُها أو نلومُ الغير أو ندّعي مزاحمة اللّغات الأجنبيّة. وإنّ المطلوبَ منّا في هذا الظّرف السّماع من الآخر المُتقدّم، وقبول المُبادرات والمَشاريع العلميّة وإخضاعها للمحكّ ثمّ العملُ على تقديم دراساتِ جدوى صادقة، هدفُها التّغييرُ والتّطويرُ، وغايتها الوصولُ إلى لغة عربيّة علميّة. ولا بدّ من الخُروج من المُزايدات التي جعلتنا نفكّرُ في المشاريع التي لا نُحقّقها حتى في الأحلام.

ومن نافلةِ القولِ أقول: إنّ تقدّم الدّولة يُقاس بانخفاض مُستوى الأميّة وانتشار التّغطيةِ الصّحيّة، وتعميم مجانيةِ التّعليم وجودته، وانخفاضِ البطالة. ولكي نحقّق هذا، علينا الاستثمارَ في التّنميّة البشريّة وعمادُها: **التّعليمُ باللّغة الوطنيّة بالمَجان وللجميع**، والصحةُ بالمَجان وللجميع، وتدريبُ الموارد البشريّة على آخر طراز المعاصرة، والأخذُ بآخر مُعطياتِ العلمِ والتّكنولوجيا واتّخاذُ العربيّة لغةَ الإعلام مع اللّغات المحليّة كلّ في مواقعِها، والتّرجمة من وإلى العربيّة بقوّة، والانفتاحُ على التّعدّد اللّغوي الأجنبيّ، والعملُ بالنّفعيّة اللّغويّة تطبيقاً للقاعدة الفقهيّة "**حيثُما وُجدتِ المصلحةُ العامةُ فثمَّ شرعُ الله**".

وإنّه يجب تأهيل العربيّة تقنياً، وجعلها تلاحق اللّغاتِ الأجنبيّةَ، فإذا لم يقع التّأهيل التّقنيّ، يبقى الكلامُ السّابقُ بأنّ العربيّة لا محلّ لها في العلوم، وتبقى الحُجج قائمةً، ولكي لا تبقى قائمةً، نقول: على من يهمّه الأمر أن يصنع القرار؛ برفع هذه المُضايقات التي وقع عَرْضُها. ومع هذا؛ فإنّ تعاضدَ الجميع في التّعاون من أجل

رفع المُضايقات ضرورةٌ لازمةٌ، ولو بالتّحسيس بمسألة العلاج، ولا يكون مَقصوراً على دولة عربيّة، بقدر ما تتحمّل كلّ الدّول العربيّة تبعات الأزمات المَنُوطة باللّغة العربيّة، وكلّنا مُسْهِمون في تمطيط الأزمة بشكل أو بآخر، وكلّنا مَعنيون برفع المُضايقات، والدّفع وبالعربية نحو التّحسّن.

وإنّه كما رأينا من فعل الفرنكفونية الذي يطمح للمزيد ولا يستكين ولا يضعف بل هو خميرة تنتفخ باستمرار، فما هو البديل؟ إنّ البديل هو تحريك فِعْل العربية والعروبة في إقامة منظومة ثقافية علمية، عروبة غير إثنية ولا مُتعصّبة، وإنّما هي عُروبة من نوع قول رسول الله ﷺ "ليست العربيةُ بأحدكم من أب ولا أمٍّ، وإنّما هي اللّسانُ، فمن تكلّمَ العربيةَ فهو عربيٌ، ألا إنّ العربيةَ اللّسانُ، ألا إنّ العربيةَ هي اللّسانُ" عُروبة أصيلة في فضاء جامع، عُروبة الخروج من العبودية كما قال جرير:

قالوا: اشْتروا جزراً منّا، فقلتُ لهم: بِيعُوا الموالي واستعينوا بالعَرَب

وقد آن الأوان لنقول بأنّنا نريد تطبيق قرارات اليونسكو التي توصي دائماً –وفق التقارير التي يعدّها خبراؤها– بأن **تدرّس كلّ أمّة العلم لأبنائها بلغتها؛ لكي تظلّ مبدعةً ومنتجةً**، ونقول: كلّما كانت لغةُ العلم هي لغة التّفكير والخطاب اليومي، كان ذلك أفضلَ وأجودَ لرسُوخ العلم لدى المُتعلّم؛ حيث لا يحتاج إلى وسيط، كما يجب أن ننظر إلى التّعريب على أنّه إصلاح تربوي وطني، ونفهم جميعاً بأنّ مسألة التّعريب هي المُصالحة مع الذات العربية ومُصالحة مع من يتقن فقط اللّغات الأجنبية، ولا يجب منهم النّظر باحتقار المعرّبين أو النّظر إلى العربية على أنّها سوف تُقصيهم. يجب كسر حالة التّغريب الحالية، **وفهم التّعريب على أنّه سيادة وطنية، واستكمال لمسار الخروج من الذات الأجنبية التي تُملي علينا خططها، وتنظر إلينا بالنّقص.** يجب أن نفهم التّعريب بصورة علمية عملية في الوقت نفسه. يجب القطع في مسألة عدم استكمال مسار التّعريب على أنّه نقيصة يجب أن تسدّ على مراحل وأن ترفع كلّ العثرات التي تعرقله، ويكون علمياً لا تقع فيه أخطاء التّعريب في مراحل المدّ القومي "ما يزال التّعريب مُتعثّراً في العملية التّعليمية التّعلّمية في التّعليم العالي في جامعات الوطن العربي. وإذا كان وزراء

التّعليم العالي ووزراء الصحة العرب قد أصدروا توصية في اجتماعهم في مطلع الثّمانينيات من القرن الماضي في سورية أن يكون عام 2000 هو إنجاز التّعريب وتعليم المواد العلمية والطبية والهندسية في الجامعات [...] وفي المغرب أشارت بعض البحوث إلى أنّ التّعليم العالي قلعة حصينة للتّعليم بالفرنسية، وأنّ مُعظم المُشرفين على التّعليم العالي من أساتذة وإداريين في المغرب العربي لم يتخلّصوا من هيمنة اللّغة الفرنسية، ويقفون في وجه العربية. وأنّ ثمّة تشجيعاً للأمازيغية وقد ورد في إحدى الوثائق بوزارة الخارجية الفرنسية أنّ برنامج شمال إفريقيا كما يدرّس الآن تزييف وتحريف، ويجب على البربر أن يتّحدوا ضد جريمة نكراء اسمها العُروبة[1]". ويكفي أنّ هذا هو التّدخّل السافر لفرنسا في فرض لغتها على بلاد المغارب، وتغلّف ذلك بدعوة إثارة البربر للنّهوض ضد دولهم، أليس هذا منافياً لكلّ الأعراف؟

ويبدو لي بأنّنا –نحن العرب– نسعى أن تسودَ لغتُنا العربيةُ في كلّ مُؤسّساتنا التّربوية، وأن تكونَ لها السّيادةُ في مجتمعنا، نريد لغةً **عُروبةً** بدل لغة فرنكفونية أو عولمية، عربية تقوم على إنتاج الأفكار والمشاريع، **عُروبة** الانتماء وتسامح الإسلام، **عُروبة** حقوق اللّغات الوطنية التي يجب أن تدرّس ويكون لها المقام عروبة لا تجعلنا نضيع في التّفكيك والمناقشات الإيديولوجية، **عُروبة** تقينا من الخطر الطائفي، وما يتبعها من فِتَن الأصولية، **عُروبة** التّنوير ومُخطّطات حُسن التّدبير، **عُروبة** العيش معاً بلغتنا العربية. **عُروبة** لغة عربية جامعة دون نكران للغات التّراثية المكمّلة، ولا جُحود للغات الأجنبية.

1ــ محمود السيد "أثر اللّغة في الكيان العربي" أعمال مؤتمر العروبة والمستقبل. دمشق: 2010 بتاريخ: 15-19 2010، ص 89-90.

18ـ الاعتبارُ + مشاريع النّهوض

لقد ركبتنا حِرفةُ الدّعوة إلى النّهوض بالعربية، وآنسنا من عمل الفرنسيين المُغامرةَ والمُكابرةَ؛ وهي التي أوصلتهم إلى المُناصرة، وقبلْنا بها، وقُلنا بعد تبصّر من خلال ما رجعْنا إليه: إنّها تجربة فرنسية ناجحة، و**عبرة** لنا، فهل **نعتبر**. هي تجربة ناجحة بالمقاييس العلمية، ومن الأمور الجميلة والجيّدة وبها قَضَوْا على كلّ الأعاصير، واستعملوا المُغريات والنّوادر، من أجل أن تنال لغتُهم المواقع الأوائل. فمن أجل لغتهم التي لم يتّخذُوها هُزؤاً وسُخرياً حتى جعلوها نُدرةً ونديا، وأحسّوا أنّها الحياة في البريّة، وأنّها الجنسية في العلانية، وأنّ وجودَهم لا يكون بسواها ولا تقوم لهم قائمة دون غناها. فأقاموا لها المشاريع بالمثابرة، مصحوبة بالعلمية والمُكابرة. وبكلّ ذلك حصلت لهم الطفرةُ الوافيةُ، وكانت لهم تلك السّمة الواعية؛ لقوم لا مثيلَ لهم في المُنافحات، ولا تُعادلُهم أمّةٌ في الحماسيات، فأَنْعِمْ به من أمّة فرنسية؛ وأجْمِلْ بهم من قوم فرنسيين؛ يمُوتون في لغتهم، وأكْرِمْ بهم من أمّة يعيشون من أجل لغتهم!

بعد إعمال النّظر في تلك الأفكار، وفي ذلك الحماس الفيّاض، تجاه اللّغات الوطنية، وتلك الدافعية للفرنسيين في أن تنالَ الفرنسيةُ الإشعاعَ في الداخل وفي الخارج، لم يبقَ لنا ما يُمكن أن **نعتبرَ** به، لأنّ **الاعتبار** إذا لم يكن مَغروساً في ثقافتنا فلن **نعتبر**، وكيف **نعتبرُ**، ونحن نتسامح في المواطنة اللّغوية، التي لا تقرّ **بالاعتبار** في حالة التّسامح والنّكران. قد **نعتبر** الآن بتقديم مشاريع النّهوض، وهذا هو المخرج من الفرنكفونية أو الكمنويلثية التي تعيشها الأمّة العربية. وإذا كان ذلك من مُتطلبات الاعتبار، فإنّي أجملها في النّقاط التالية:

ــ النقطة الأولى: **ضرورة إيلاء اللّغة الجامعة كلّ الأهمية والعُلو:** ويكون المنطلق من ضرورة الاهتمام باللّغة الجامعة/ لغة الأمّة، فيجب أن نتّعظّ من أن يثار موضوع (ضرورة الاهتمام باللّغات الوطنية وجودة التّعليم) في مؤتمر

(داڤوس) ويُلقى تقرير هامّ حول الجودة في التّعليم؛ وهو عبارة عن دراسة ميدانية تنحو منحى التّوبيخ للعرب؛ باعتبارهم في سلّم الترتيب. هي دراسة شملت 140 دولة، وكان ترتيب بعض الدول العربية كما يلي:

ــ قطر: الرّتبة 4؛

ــ الإمارات: الرّتبة 10؛

ــ لبنان: الرّتبة 25؛

ــ البحرين: الرّتبة 33؛

ــ الأردن: الرّتبة 45؛

ــ تونس: الرّتبة 84؛

ــ الجزائر: الرّتبة 119؛

ــ المغرب: الرّتبة 140؛

ــ مصر: الرّتبة 142.

ــ ليبيا+ اليمن+ السودان+ سوريا خارج التّرتيب/ التّصنيف.

ويكفي أن نقول: إنّ هذه الدراسة الميدانية الواقعية هي لفتة جديرة بإعادة النظر في منظوماتنا التّربوية في الوطن العربي، وكان لا بدّ أن نكون في مستوى الاعتراف بالنّقائص، ونعمل على التّغيير، بل أن نكون في مستوى العلمي والعالمية لمتطلبات العلم والبحث العلمي والتّربوي. لقد عارضت (المغرب) رُتبها التي تأتي تقريباً في المؤخّرة، وأما (مصر) فلم تبدِ أية معارضة، وتعرف حجم ما تنفقه على التّربية والتّعليم. كما نجد في هذه الدراسة رتبة إسرائيل السابعة والأربعين (47). ويمكن أن يقع التّعليق على الخطر الذي تعيشه المنظومات التّعليمية في الوطن العربي؛ بسبب عدم الاهتمام بالتّنمية البشرية، فنجد (قطر+ الإمارات) تأتي في الرّتب المُتصدّرة وهذا بسبب الاهتمام والإنفاق الذي تغدقانه على التّعليم، وكذلك لاستخدامهما فُروع كبريات الجامعات الأمريكية والغربية.

وإنّ هذه الرّتبة المتأخّرة للدول العربية يُعيدها التقرير إلى ما يلي:

1ــ اهتمام العرب بالأمن العسكري الذي يُنفقون عليه أكثر من التّعليم وقال: إنّ هاجس الأمن يسكن العربَ، فهم عسكرتاريون، فنَسوْا أنّ الأمن اللّغوي فوق الأمن العسكري، ووضع التّقريرُ بعضَ الدول العربية في خانة الضوء الأحمر.

2 ــ شُحّ أو قلّة الاستثمار المادي في قطاع التّربية والتّمهين.

3 ــ الارتكاز على النّظم التّربوية التّقليدية، وغياب الجودة، فضاعت معايير الجودة في أغلب المنظومات التربوية العربية.

4 ــ عدم إنزال التّعليم ضمن التّطوير المجتمعي المتشابك، وغياب المشاريع ذات العلاقة بالتّربية المجتمعية.

5 ــ ضعف الإبداع، والاعتماد على النّقل من الغرب دون تكييف.

6 ــ عدم تدريس العلوم باللّغات الوطنية.

وفي الحقيقة إنّ التّعليم واجهة الأمّة، فإذا كان ضعيفاً أو سيئاً، فالأمّة ضعيفة وسيئّة، ولهذا كان علينا أن نعتبر من أمثال هذه الدراسات للعمل على الخروج من التّصنيفات المتأخّرة، ويقع الاهتمام بجودة التّعليم، ويكون ذلك بالإنفاق المادي الكبير، **فمهما نُنفق في اللّغة الوطنية الجامعة فهو قليل وزهيد**؛ لأنّه سيعطينا أكبرَ عائدِ استثمار على المدى البعيد؛ باعتبار اللّغة الجامعة ثروة اقتصادية، وتراكم المعرفة فيها وبها يعادل تراكم الثروة المادية في باطن الأرض، أو في خزائن البنوك الوطنية.

يجب العلم بأنّ اللّغة الوطنية اقتصاد مُربح، وهي ثروة لما تحمله من مكاسب معنوية ومادية، فيمكن أن يؤمّنها الاستثمار؛ باعتبارها ذاكرة جماعية للأمّة والحافظة على خلاصة تجربتها في التّاريخ، وحصيلة ما أسّست لنفسها من أساليب النّظر والفكر والتّقويم. ولهذا لا ضير من الاستثمار في المشاريع الرِّبحية في اللّغة العربية شرط ألاّ يطغى الجانبُ المادي على الجانب العلمي وإلاّ سوف يُقبَر العلمُ وتظهر الأنانيةُ والتّفكير المادي البحت. ولذا على الدول والحكومات العربية توفير الأرضية اللائقة، والإمكانات المادية في إقامة النّدوات والملتقيات، وهذا ما يُساعد

على البحث دون التّركيز على قضية التّمويل بشكل عميق. ولماذا كلّ هذا؛ لأنّ للعربية خصوصيات، فهي فوق التّمويل، وما ينفق في سبيلها فهو رخيص وبسيط؛ نظراً لما لها من خصوصيات لا تتوفّر في اللّغات الأخرى، وهي:

"1 ــ اللّغة العربية هي اللّغة التي نزل بها القرآن الكريم. إنّها اللّغة التي اختارها الله تعالى ليوحي بها على الرسول الكريم محمد ﷺ قولاً باقياً على مدى الأزمان ﴿إنّا نحنُ نزّلنا الذكرَ وإنّا لهُ لَحَافِظُون﴾ الحجر 9.

2 ــ هي الرّكن الأساس للقومية العربية، فهي الحبل الواصل بين الشّعوب العربية في الوطن العربي من الخليج إلى المحيط؛ يتواصل بها أبناء هذه الشّعوب ولولاها لفقدنا أداة التّواصل بيننا.

3 ــ هي لغة الكتب وتراثنا المعرفي كلّه منذ أربعة عشر قرناً.

4 ــ هي لغة المعرفة في عصرنا الحاضر؛ أي إنّها لغة التّعليم والتّعلّم في المدارس الابتدائية والإعدادية والثّانوية في الوطن العربي كلّه من أقصى قرية في المغرب إلى المحيط الأطلسي، وإلى أقصى قرية في المشرق إلى الخليج العربي ومن أقصى قرية في شمال بلاد الشّام، إلى أقصى قرية في جنوب اليمن والسودان.

5 ــ هي لغة التّعليم في الجامعات السُّورية والسودان في التّخصّصات جميعها بما في ذلك العلوم والطبّ والهندسة والحاسوب. وهي لغة العلم والتّعلّم في تخصّصات العلوم الإنسانية في الجامعات العربية كلّها، وهي لغة العلم والتّعليم في دُورِ المُعلّمين والمُعلّمات في أرجاء الوطن العربي.

6ــ هي لغة الكتب والمجلات والصحف في الأقطار العربية جميعها.

7ــ هي لغة نشرات الأخبار والمُحاضرات والبرامج المُختلفة في الإذاعات وقنوات التلفاز الجادة الصادرة عن البلدان العربية.

8ــ هي لغة الإذاعات وقنوات التلفاز غير العربية الموجّهة إلى العالم العربي.

9ــ هي لغة المُسلسلات التّاريخية والأفلام المُدبلجة والأفلام الكارتونية في الإذاعات، وقنوات التّلفاز على امتداد الوطن العربي.

10ــ هي إحدى اللّغات الأساسية في هيئة الأمم المتحدة[1]".

11ــ هي من بين اللّغات العالمية الأكثر انتشاراً، بل ويزداد انتشارها كلّ يوم فيمكن أن ننظر إلى ترتيبها العالمي من خلال هذين الرّسمين من موقع الشّابكة ومقامها بين اللّغات العلمية والعالمة والحضارية:

الشكل الأوّل

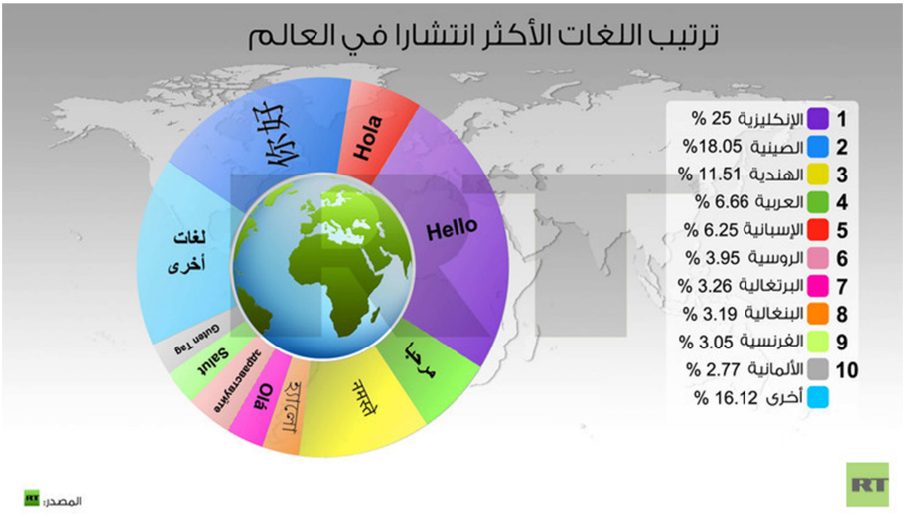

1ــ عبد الله الدّنان "الإنجازات التّطبيقية لنظرية اللّغة العربية بالفطرة والممارسة تاريخها وتطوّرها وانتشارها" مجلة المجلس العربي للطفولة والتّنمية. القاهرة: 2008، دار العلوم للنّشر والتّوزيع، عدد (لغة الطفل العربي في عصر العولمة) ص 821–822.

الشكل الثاني

12ــ هي لغة لها من الخصوصيات ما لا يوجد إلاّ في اللّغات العلمية، أو ما يسمّى (لغات العِلْم والعلوم) والفرق أنّ تلك اللّغات العلمية وقع الاهتمام بها فترقّت والعربية لم يقع الاهتمام بها فتدنّت، وفي ذلك أسباب كثيرات، منها:

- للعربية ربّ يحميها؛
- التّسامح اللّغوي؛
- ضعف الوازع الأخلاقي؛
- قلّة الاعتزاز الهُوَياتي؛
- عدم الوعي بالمسألة اللّغوية؛
- غياب الحزم؛
- تسويف المسائل اللّغوية والثّقافية إلى أجل لا يأتي؛

- ضعف التّخطيط اللّغوي والتّربوي؛
- للعرب دول كثيرة متناثرة متصارعة؛
- ليس للعربية عاصمة تَحْميها؛
- لها مؤسّسات كثيرات مُتخالفة؛
- قبول النّخبة الانصياع للآخر؛
- تجزئة الأفكار البينية؛
- ضعف التّفكير في صناعة المستقبل؛
- النظر على لغة المستعمر بالتّقديس؛
- ضعف الإرادة السّياسية؛
- نقص مشاريع التّنمية البشرية؛
- رداءة التّعليم العربي؛
- نقص مشاريع النّهوض؛
- خذلان النّخبة العربية؛
- عدم النّظر إلى المسائل اللّغوية على أنّها من الأمن العامّ؛
- عدم صدور القرار السّياسي؛
- ...

هي عَدَمِيات كثيرات، وما ذكرنا إلاّ ما هو سطحي، وتفوح منه رائحة الفوضى والفراغ والعدم وانعدام الاستشراف. ولكن لا نعدم تلك المشاريع الجيّدة، وهي كثيرة، فإذا أعملنا النّظر فيها نجد مخارج مُتنوّعة للنّهوض بلغتنا. فالأمل قائمٌ فينا وفي الجيل القادم، وأدعو هذا الأخير للنّظر في تلك المشاريع المُقدّمة من قبل:

1 ــ مشاريع المجامع اللّغوية والعلمية العربية.

2 ــ مشاريع جمعيات حماية اللّغة العربية.

3 ــ مشاريع الجمعيات اللّسانية.

4 ــ مشاريع معاهد التّرجمة.

5 ــ مشاريع/ الدراسات الأكاديمية المتخصّصة.

6 ــ مشروع المعجم التّاريخي في كلّ من: اتّحاد المجامع اللّغوية+ مشروع المعجم التّاريخي في قطر+ مشروع المعجم التّاريخي في الجزائر.

7 ــ مشروع الذخيرة اللّغوية.

8ــ مشروع المكنز العربي.

9 ــ مشاريع مركز الملك عبد الله بن عبد العزيز لخدمة اللّغة العربية.

10 ــ مشاريع مؤسّسات التّحقيق.

11 ــ مشاريع المجلس الدولي للغة العربية.

12 ــ مشاريع مكتب تنسيق التعريب في المعاجم الموحّدة/ المعجم التفاعلي.

13 ــ مشاريع معهد الدراسات والأبحاث للتعريب.

14 ــ مشاريع الأكاديميات العربية.

15 ــ مشاريع المركز العلمي والتقني لترقية اللّغة العربية.

16 ــ مشاريع المجالس العليا للغة العربية.

17 ــ مشاريع مؤسّسة الفكر العربي.

18 ــ مشاريع الألكسو.

19 ــ مشاريع اليونسكو.

20 ــ مشاريع الأفراد في بلاد العرب.

21 ــ مشاريع الأفراد في بلاد الغرب.

22 ــ مشاريع المؤسّسات العلمية: التّراث+ صخر+ العالمية+ باسم...

23 ــ مشاريع الدول الإسلامية في خدمة العربية.

24 ــ مشاريع مخابر اللّغات.

25 ــ مشاريع حوسبة العربية.

26 ــ مشاريع الشّركات الكبرى في المعلوميات.

27 ــ مشاريع وحدات البحث في معظم الجامعات العربية.

28 ــ مشاريع المعاجم الفردية والجماعية.

29 ــ مشاريع الجامعات العربية.

30 ــ مشاريع الجامعات الإسلامية والغربية.

31 ــ مشاريع من أمثال (افتح يا سمسم/ باسم/ طيور الجنة/ حديقة النّحو).

32 ــ مشاريع مختلف الفنّون ذات العلاقة بترقية اللّغة العربية.

33 ــ مشاريع المسلسلات التّاريخية الكبرى.

34 ــ مشاريع التّعريب في كلّ من: العراق/ الجزائر/ الأردن.

35 ــ مشاريع الرصيد اللّغوي الوظيفي.

36 ــ مشاريع مراصد المصطلحات العلمية.

37 ــ مشروع الرصيد اللّغوي الإعلامي.

38 ــ مشروع لجنة التّمكين للغة العربية في سورية.

39 ــ مشاريع اللّجنة الوطنية الأردنية للنهوض باللّغة العربية للتوجّه نحو مجتمع المعرفة.

40 ــ مشاريع النّهوض بالعربية الصادرة عن قمتي جامعة الدول العربية في العامين: 2008 في سورية، و 2009 في قطر.

41 ــ مشاريع سدّ الفجوة الرقمية لكلّ من:

- وزارة الاتّصالات المصرية في المحتوى العربي الرّقمي.
- مشاريع السعودية في: الحفاظ على الهُوية والتراث/ تعزيز تطوّر صناعة المحتوى الرّقمي العربي في حاضنات تكنولوجيا المعلومات والاتّصالات.
- مشاريع مؤسّسة الكويت للتقدّم العلم.
- مشاريع الحكومات الإلكترونية.
- مشاريع هيأة الحكومة الإلكترونية بمملكة البحرين.
- مشاريع مؤسّسة محمد بن راشد آل مكتوم.
- مشروع تطوير أرشيف رقمي للنّصوص العربية.

- مشروع جائزة عُمان الرقمية.
- مشروع المؤتمر الوطني لصناعة المحتوى الرقمي العربي http/acnc.sy/site/acnc
- مشاريع المُعالجة الآلية للغة العربية.
- مشروع اللّجنة الاقتصادية والاجتماعية لغرب آسيا (الإسكوا).
- مشاريع إنجاز المكانز باللّغة العربية.
- المكنز الدولي للغة العربية.
- مكانز نيملار.
- مكنز العربية العلمية العامّة General Scientific Arabic Corpus
- مكنز العربية المعاصرة المنطوقة.
- مشروع برامج التّشكيل والتّصحيح الآلي.
- برامج تلقيب ووصف أجزاء الكلام.
- برامج التّحليل الصرفي.
- برامج التّنقيب في النّصوص.
- برامج معالجة الكلام المنطوق.
- برامج التّرجمة الآلية.
- مشروع رقمنة المعاجم اللّغوية.
- مشروع قاعدة معطيات المعجم التاريخي.

42 ــ مشاريع المنظّمة العالمية للنّهوض باللّغة العربية بالدوحة؛

43 ــ ...

هي مشاريع كثيرة يصعب أن نأتي على ذكرها، **والعبرة** في كيفية الإفادة منها وجعلها واقعية، والعمل على أجرأتها في مجتمعاتنا. كما لا يمكن أن نقف عند هذه المشاريع، بقدر ما يُمكن أن نقول: يجب النّزولُ بالعربية إلى مستوى المُستعمِلين لها، وإلى التّجنيد العربي، وإلى حَمْلات تطوّعية على مُستوى التّعليم والإدارة

والمَشافي، وفي المُدن وفي الأرياف، وإلى حَمَلات تحمل شعارات التّحسيس، من مثل:

ــ لغتي وطني.
ــ أستهلك منتوج بلادي، إذاً أستعمل لغتي.
ــ كلّ اللّغات جميلة، ولغتي أجمل.
ــ لغتي فوق كلّ اعتبار.
ــ لغتي حياتي.
ــ ...

هي مشاريع وحملات يمكن أن تتواصل، وهي كثيرة، فلا تنتهي قائمتها، وهي جديرة بإعمال النظر، وبتقديم الدراسات فيها، ومن خلالها يمكن استخلاص ما يعمل على تقديم مشاريع النّهوض بالعربية. وماذا لو تقع دراسات لجمع هذه المشاريع، واستخلاص مواطن الاتّفاق، ويتقدّم بها إلى اجتماع جامعة الدول العربية في الاجتماع السّنوي، كما يمكن أن يتقدّم به إلى ملوك ورؤساء الدول الإسلامية وإلى اليونسكو، والأمم المتّحدة؛ لتكون عضدنا فيها.

وأجزم بأنّ تلك المشاريع هامّة جداً، وتحتاج من الباحثين الدراسة وتثمين ما جاء فيها من أفكار، ومن ثمّ التّخطيط لها في صورة التّجسيد على مراحل. وكان لا بدّ من تحويل الأفكار إلى ملموس، ومن ثمّ إلى التّنفيذ عبر مُؤسّسات تخدم الوعي الجديد؛ وعي النّهوض الوطني والقومي والحضاري. الوعي بضرورة التّغيير السّلمي عبر الاستثمار في التّربية والتّعليم، ولا بدّ من تشكيل الواقع اللّغوي على نحو يُناسب المستقبل. وعلينا جميعاً التّضحية من أجل اللّغة العربية، فهي اللّغة الجامعة التي تأوينا وتقبل بنا بمختلف تأدياتنا اللّغوية.

وعلى العموم، لا نكون مُتفائلين ولا مُتشائمين من هذه المشاريع الطّموحة ومن تلك المُؤسّسات الكثيرة، ولكنّ **العبرة** في مدى استثمار كلّ هذه الأرمادة من المشاريع في اللّغة العربية، **فالعبرة** في إنزال هذه الأفكار منزلة التّطبيق ونقترح ما

يُمكن أن يكون من واقع الحال، فيتصوّر المُقترحُ نفسه هو المُنفّذ؛ لأنّ القضية التي نُعانيها باستمرار، بل عنّانا الأمر مراراً، كما أعيانا البحث تكراراً دون أن نجد الإجابةَ الموضوعيةَ، ومن المسؤول عن هذا؟ حيث في كلّ مرة نُعلّق اللّوم أو الواجب أو المُستلزم أو ... على الحكومات/ الدول/ صُنع القرار السياسي... ولو نكون في الموقع ربّما لا نفعل إلاّ الجزء اليسير، ولهذا من سوالف الأمور أن ننظر حيث نضعُ أرجلَنا فقط، وهذا بيت القصيد كما يقول العرب. وليس على ما هو في مخزون ما نقرأه من الكتب، فهي كثيرة، وبعضها افتراضي تصوّري، وبعضها من فذلكات الزمان، كما قال الشاعر ذات يوم:

ما العلمُ مخزونُ كتب لدينا منها الكثير

فللدجاجة ريـــــشٌ لكن لا تطيـــــر

ولكن ما نريد التّأكيد عليه، هو أن ننظر وتنظر الدول العربية إلى اللّغة العربية على أنّها من أهمّ رؤوس الأموال التي نعمل على إيلائها كلّ العناية لتحقيق الفائدة فيقع التّفكيرُ في الكيفيات المنهجية للاستثمار فيها مثلما تعمل فرنسا التي تستثمر في لغتها، وتنال مساحات في الكثير من الدول، وتدرّ عليها الأصدقاء والمحبّين والمتعلّمين والعُملة الصَّعْبة، بالإضافة إلى التّبعية الفكرية؛ وهي أعظم استثمار تقرّ به فرنسا منذ الجنرال (دو گول).

النقطة الثانية: ضعف التّخطيط اللّغوي، وعدم الاهتمام بالسّياسة اللّغوية: وهذا مردّه إلى عدم النّظر في الآماد البعيدة، ومعالجة القضايا المستعجلة وهذه الأمور تنكرها السياسات التّربوية التي تنظر إلى ضرورة التّخطيط على الآماد الثلاث: المستعجل+ المتوسط المدة+ البعيد المدّة. وهكذا كانت تفعل فرنسا التي اعتبرناها نموذجاً في النّجاح. وبالفعل لوحظ في البلاد العربية غياب السياسة اللّغوية التي تهتمّ باللّغة الفصيحة، وما يصحبها من أدوات العصر "إنّ أيّة سياسة لغوية قويمة في الوطن العربي ينبغي أن تسعى إلى تنمية اللّغة العربية الفصيحة المشتركة وتمكين جميع أفراد المجتمع من امتلاكها استيعاباً وتعبيراً عن طريق نشر التّعليم

الإلزامي الجيّد بها، وتعميم استعمالها في وسائل الإعلام والشّابكة (الإنترنت) وتشجيع النّشر الورقي والإلكتروني بها والتّرجمة منها وإليها، وإطلاق البحوث اللّغوية والتّربوية لتيسير قواعدها وكتابتها وتعليمها للناطقين بها ولغيرهم، ودعم المؤسّسات التي تُعنى بتنميتها كالمجامع اللّغوية وإعداد أدوات استيعابها كالمعاجم على اختلاف أنواعها، وأخيراً وليس آخراً إمدادها بما يستجدّ من مصطلحات علمية وفنيّة وإنسانية لتوا كب العصر وتطوراته المتلاحقة[1]". ولذا، فكلّما غاب التّخطيط يدخل التّشبيك في المهام، وفي الوصول إلى غير المطلوب، وتضيع الأفكار وسط الزّحام الذي ليس له أمل التّقويم.

النقطة الثالثة: **الاعتبار من عمل السلف:** وفي هذه النقطة يقع التركيز على فعل السلف الصالح في دولة الجزائر التي أخذناها مثالاً، ويكون ذلك من خلال تلك الأعمال التي قدّمتها (جمعية العلماء المسلمين الجزائريين) في سنوات التأسيس حتى الآن؛ فنرى قلّة المال والحال، ومحاربة الاستعمار، وضعف المردود، ومع ذلك حافظت على الهُوية اللّغوية الوطنية للشعب الجزائري، بأن زرعت مدارسَ في كلّ ربوع الوطن. وكانت الإرادة تحدوها، والعزيمة تدفعها، والإخلاص مبدؤها، حتى وصلت إلى التمسّك بمستلزمات الهُوية وحافظت عليها بالنواجذ. وكانت منهجيتها بسيطةً، ولكن النيّة كبيرة، وفي كلّ ذلك كان الإيمان بأنّ العربية في وطنها، ويجب أن تعود إلى موطنها، وتكون لها الرّيادة والحَكامة، وهي لغة الأمّة التي لا بديل لها. ووراء كلّ ذلك رجال مؤمنون بأنّ لغة الأمّة فوق كلّ اللّغات، وكان الإخلاص رائدهم، ومما يروى عن الشيخ (العربي التبسي) أنّ له بنتين، فطلبتا منه أن يُدخلهما المدرسة الفرنسية، وقالتا له: نرى أولاد القوم المحترمين يُعلّمون أولادهم الفرنسية، فلِمَ لا تسجّلنا معهم لدراسة الفرنسية؟ فقال

1ــ علي القاسمي، لغة الطفل العربي، دراسات في السياسة اللّغوية وعلم اللّغة النّفسي. بيروت: 2009، مكتبة لبنان ناشرون، ص 13-31.

لهما: أعلمكما لغةً لا تزول في هذا البلد، فلا أعلّمكما لغةً سوف تزول من هذا البلد طال الزمنُ أو قصُر. فعهد نفسه على أن لا يدخلا المدرسة الفرنسية أبداً، فكان ذلك حقاً تطبيقاً لما آمن به. وإذا قلنا هذا بالنّسبة لرجل من أعضاء جمعية العلماء المسلمين الجزائريين فإنّهم سطّروا خريطة الترقي للغة العربية بمنهجية رائدها التّخطيط والتّطبيق بدءاً من ذواتهم، وكانت النوايا صادقة، حتى وصلوا إلى المحافظة على هويتنا اللّغوية بفعل تلك المنهجيات البسيطة، ولكنّ النِّيات مُخلصة. لنا **عِبَرٌ** من ذواتنا ولكن يبدو لنا أنّنا لا **نعتبر** إلاّ من غيرنا، من هنا، جعلنا التّجربة الفرنسية هي النّموذج، ونحن نبتغي النّموذج الفرنسي، **ولكن هل نعتبر؟**

الخاتمة

وفي الخاتمة يمكن القول، بأنّنا استعرضنا الكثير من النقاط التي تعمل الفرنكفونية على تحقيقها، ووقفنا عند الكثير من الأشياء التي نريد تثمينها في الفرنكفونية؛ وهي تخْلص للفرنسية عبر مسار زماني قديم، لا تكاسلَ فيه ولا تواني. ومن ذلك خلقت لغة فرنسية لها المقام العالي في سوق اللّغات العالمية لما لها من علم ونجاح في ميادين الصناعة والتطبيب والصّحافة والقوانين... وبدا لنا ذلك بأنّ الفعل الفرنكفوني مثالاً جيّداً في التمثيل، وفي الاستئناس بغية الوصول بلغتنا إلى تثبيت الأساس. ومن ذلك الباب أثبتنا ذلك في فرع العنوان الموضوع بين مدّتين –العبرة من الفرنسيين– هذا من جهّة، ومن جهة أخرى، فإنّنا كشفنا الغطاء عن خطر الفرنفكونية الحاملة للوهم الثّقافي، ونبّهنا إلى خطورتها، وهذا من باب اتّقاء الخطر، وعدم الانبهار بالأمور التي تُزيّنها تلك الكلمات التي تقوم على الترويج الفرنكفوني. فبيّنا مناطق الخطر، وأثبتنا بالدليل خطورة الفرنكفونية عبر مسارها التي عاثت فيه فساداً في كلّ بلد دخلته إلاّ وتركت أزمة لغوية ليس لها حلّ.

ومن ذلك يُخطِئ من يقول بإيجابية الفرنكفونية؛ لأنّها تحمل لغة (الكولون) فإذا أردنا تعريف الكولون؛ فهو الإلغاء والاحتواء ومصادرة أراضي الأهالي والحرق والتّدمير والمسخ والتّنصير، وتطبيق سياسة الأرض المحروقة والإذلال والركوع والإهانة... فلا يمكن للغة هذا الكولون أن تكون لغة حضارة؛ تعمل على خير الأفراد، أو على تحضير المجتمعات التي تعتنقها، ولمَ لم تُحضّرها قبل هذا، بل لماذا استعبدتها لقرون؟ إذاً، إنّ الفرنكفونية هي الاحتواء في معناها العامّ، وهي **المحرقة الاستئصالية للشعوب المنضوية تحت قطبها.**

ومن خلال هذا، ندعو نخبتنا في مختلف مواقعها إلى إعادة النّظر في الإشادة بإيجابيات الفرنكفونية، أو العمل على تجميلها، وهي لا تملك الوجه الجميل.

فالفرنسية ليست غنيمة حرب، ولا لغة لا يجب التسامح فيها، ولا هي لغة الانفتاح الوحيدة. فنريد من نخبتنا العربية، وبخاصّة المغاربية الانفتاح اللّغوي من جديد وبناء **العربفونية** الذي تكون فيه العربية مستفيدة رابحة وإلى **العربسكسونية** التي تكون فيه العربية مستفيدة رابحة مضيفة للعلوم وإلى **العربصينية** وتكون فيه العربية مستفيدة من الصين وحضارته، وتكون النتيجة كلّنا مستفيد، وكلّ يقبل بلغة الآخر.

إنّنا في عالم لا يقبل الانغلاق، ونحن نسعى إلى الاختراق، ولكن من أبواب مختلف اللّغات، والخروج من طوق الأقطاب والاحتواء مهما كان شكله أو لغته. ونروم تجسيد سياسة لغوية مستفيد مستفيد/ رابح رابح، بالمحافظة على الخصوصيات والإنيات والعقائد واللّغات. ومطمحنا العمل على نيل مقام بين الشعوب ننأى فيه عن الاحتواء، وتكون فيه العربية لغة الحاضر، كما كانت لغة المستقبل، وتعود إلى مجدها الأثيل. ولا يكون ذلك سهلاً، بل علينا العمل على حسن تعليمها والعمل على ترقيتها، وجعلها لغة الأمّة الجامعة، وبها يكون لنا مقام تحت الشمس على غرار تلك الشعوب التي حافظت على أصالتها، وما ذابت في غيرها، فنالت الاحترام، وتقدّمت بلغتها فقط.

ندعو النّخبة أن تعيد النظر في تمجيد الفرنسية، فتمجيدها يعني تمجيد الاستعمار، علماً أنّ فرنسا الحضارة هي التي تطالب الآن دولة (تركيا) أن تعتذر عن استئصال الأرمن في القرن التاسع عشر، وهي لم تعتذر للشعوب التي دمّرت بنيتها وعقليتها، فقتلت ما قتلت، ولم تعترف بالمحارق التي قامت بها في كلّ الدول التي استعمرتها، بل ترى إنّها قد حضّرتها، ونحن ننسى هذا الفعل، ونقبل بتعليم لغتها، وندفع عنها الأموال الكبيرة من أجل أن تنال التوسّع ولا يجب في كلّ مرة أن نقول: هذا من التاريخ، ودع التاريخ، بل إنّ حاضرنا يُبني على تاريخنا، ومن لا تاريخ له، لا مستقبل له.

يجب الحزم في المسألة اللّغوية، والدراية بفكر فرنسا القائم على لغة الجبروت والتعالي على الآخرين، فكيف يعقل أن ندّعي بإيجابية الفرنكفونية التي تنظر على أنّنا فئران تجري علينا التجارب، فمخطئ من يقول: إنّ للفرنكفونية منافع، أو هي التي حضّرتنا، وعلينا الاندماج فيها. فنحتاج إلى رجل رشيد تكون له صرامة (هُو شي مِنُو) الذي قال: كما أخرجنا فرنسا علينا أن نخرج لغة فرنسا من بلدنا، فهي التي تعيق عملية التنمية. وهذا ما نرومه من ساستنا بإظهار الإرادة السياسية التي تعمل على تغليب المصالح الوطنية، وهي فوق منطق النُّخبة، وهذا ما ننشده في الدعوة إلى استصدار القرار السياسي. ولكن يبدو لنا بأنّ مسألة **الإرادة السّياسية** في الوطن العربي والتي تستصدر القرار السياسي شبهُ غائبةٍ، بل ليست مطلوبةً في واقعنا، رغم القرارات الكثيرة في مجال التّعريب، ولو كانت الإرادة من قبل أصحاب القــرار لَحَصَلَ التّغيّيرُ في المسألــة اللّغوية، ورجّحتْ كفّةُ تواجد العربية/ **لغة الأمّة** في دواليب دُولنا العربية جميعاً.

ويدعونا الموقف أن نضرب مِثالاً حياً حول فِعْل (الڤيتنام) في هذه المسألة فقد استعمرتْها فرنسا مثل الدُّول المغاربية، ولما خرجتْ فرنسا بقيت لغتُها في كلّ دواليب الدّولة الڤيتنامية، لكنّ الإرادة السّياسية الڤيتنامية استطاعت فَتْنَمَة الحياة العامّة في مدّة وجيزة جداً؛ رُغم ما للغة الفرنسية من شأن في الحياة اليومية للمواطن الڤيتنامي، بلهَ الحديثَ عن النُّخبة الڤيتنامية التي كانت تعبدُ الفرنسيةَ، ولكن حُسِم القرار لصالح اللّغة الوطنية الڤيتنامية، وانتهى الصراع وما كان للفرنسية الوجود إلاّ كتاريخ. بينما هذا لا يوجد في بلاد المغارب؛ حيث خرج المستعمِر الفرنسي؛ ولم تكن لغته تُستعمل إلاّ من فئة النّخبة؛ أي ما لا يتجاوز ثُلث الساكنة ولكن اشتعلت الفرنسية في دُوَل الاستقلال أضعاف دولة الاحتلال فأضحى المغاربةُ فرنسيين لغوياً، بل الأدهي من هذا، أنّ السّياسيين المغاربة عندما يلتقون الڤيتناميين يكلّمونهم بالفرنسية، والڤيتناميون يكلّمونهم بلغتهم الوطنية، رغم أنّهم يُحسنون استعمال الفرنسية بالفعل لا بالقوّة. فانظر إلى ضعف الإرادة السّياسية فينا كيف

تفعل فعلَها، وكيف تُعطّل التّنمية ولا تعطي للغة الوطنية الأهميّة. ومن ثمّ انظر إلى ضعف الإرادة لدى المغاربة الذين لا يزالون يركبون لغة العدو، بل يتباهون أنّها نافذتهم للخارج، وكأنّها الوحي الذي لا يأتي العلم إلاّ من خلالها.

وإذا ذكرنا هذا، لا ننسى الجانب الاقتصادي الذي قامت به **اللّغة الوطنية** في الڤيتنام، وذلك الحماس العملي الذي يقوم به (الڤيتنامي الصغير الحجم) (الكبير العقل) من تعزيز وتقديم خدمات؛ حيث تُصنّف الڤيتنام الآن في الرّتبة الثّالثة (3) عالمياً في تصدير الأرز، والدَّولة الثانية في تصدير القهوة. هذا البلد العظيم بعظمة رجاله ولغته يُصدّر سنوياً ما قيمته 70 مليار دولار. بلد به أكثر من 50 % من ساكنته يعيشون عائمين فوق الماء؛ نظراً لقلّة الأراضي، ولكن الإرادة الجماعية قهرت الجبالَ، فقد استطاع الڤيتنامُ أن يدخُل منظمة التّجارة الدولية، ويجعل سلعَه تُنافس سلعَ الدّول القديمة في تكنولوجية العلم، بل أصبح من مُصدري التّكنولوجية الحديثة، وبماذا يُنتج ويَقفز هذه القفزات؟ ما هي اللّغة التي يستعملها في مصانعه؟ كلّ ذلك لم يكن إلاّ بالإرادة السّياسية التي قطعت الشكّ والتّردّد، وبالعمل الوطني وباللّغة الڤيتنامية الذي قال فيها الرئيس الرّمز عندهم: لأتكلم لغتي، وأستهلك منتوجي، **فهل نعتبر؟**

ومن هنا، نريد تأكيدُ مسألة اهتمام الأمم بلغاتها، ووجود التّعدّدية اللّغوية عند بعضها، ولكنّها لم تكن عائقاً أمام النّجاح المُتميّز، فلم يكن ذلك إلاّ بالممارسة الديمقراطية المتجليّة في صورة المواطنة، والتي ترسّخت فيها قِيَم العدالة والحرية والمساواة، فنالت تلك الأممّ الدَّرَجَات العُلا، عكس ما نجده عندنا في غياب الممارسة الديمقراطية، ولذلك لم نستطع تقويم أنفسنا، ولم نُقِم دولَنا على قيم الحقّ رغم قلّة الإثنيات والعِرْقيات، وعدم وجود اختلاف في اللّغات، لكن تكرّس فينا الاستبداد؛ الذي أسهم في تثبيت مَفاهيم مُنحرفة للمواطنة، ووقع التّركيز على أداء الواجبات دون نَيْل الحقوق، حتى ظهرت العبوديةُ والسُّكوتُ على مُنعكساتها على أنّها قدر لا يُناقش؛ تطبيقاً لتلك النّظرية القائلة بأنّ "الوطن الذي لا يستوعب

مُكوّناته الثّقافية والعرقية والإثنية والدينية، ولا يدعّم حقوق الأفراد وحرياتهم في إطار من الأمن والاستقرار؛ يؤدّي إلى اختلالات تقتل روح المواطنة، وتكرّس الفرقة والتّطاحن داخل المجتمع الواحد".

وإنّنا نجهل بأنّ تدبير التنوّع الفكري بصورة ديمقراطية بعيداً عن الإقصاء والتّهميش؛ هو المدخل الفعّال لطرح كلّ التّناقضات والاختلافات. وعلى السّاسة العرب أن يفهموا المسيرة الحضارية في إطار مُتجدّد؛ يستند إلى قاعدة تراثية ما تزال في الجيل القديم، والاستماع إلى الجيل الجديد المُنفتح على ابتكارات العالم وتجاربه النّاجحة، والعمل على تمكينهم من تلبية مطالبهم المعقولة. ولا ننفي أنّ هناك قاعدة حضارية لنا، ولنا تنظيمات ودُول، ولنا اتّحادات وتجارب، ولنا صُعوبات ومُضايقات وإكراهات العصر، وتوجّهات سياسية مُختلفة؛ تعمل أحياناً على إحداث قلاقل بيننا وبين العالم الآخر. وكلّ هذه الأمور تحتاج إلى عمليات تنظيمية عقلية تتمركز في:

"1ــ استعادة الثّقة والعمل على توظيف إمكانات الأمّة البشرية والمادية.

2ــ التّركيز على العمل العربي المشترك الذي بدأ في الجامعة العربية ولم يكتمل.

3ــ الارتقاء في التّعامل من حيث تبنّي مفاهيم ومبادئ حرية الفرد والعمل الديمقراطي المدني.

4ــ المزاوجة بين الاختراعات الأوربية (الغربية) وبين الأخلاقية الاجتماعية العربية، مستذكرين ما قاله الباحث الياباني (كووابرا تاكيو) "وقد يكون الغرب مُتفوّقاً في العلوم والتكنولوجيا، لكن الشّرق يتفوّق عليه في تعاليمه الخلقية، مُشيرين هنا إلى قولة (أحمد شوقي) الشاعرة:

إنّما الأُمم الأخلاقُ ما بقيتْ فإنْ هُم ذهبتْ أخلاقُهم ذَهبُوا

وهو ما يجب التّأكيد عليه، وبخاصّة أنّ النّظام (كما يُفترض) هو جزء من قيمنا الأخلاقية والدينية[1]". فإذا وقعَ تأكيدُ هذه المسائل، وهي من المُستلزمات فإنّ المَسألةَ اللّغويةَ لا تكون مُشكلة، بل لا تُطرح بتاتاً؛ لأنّها تدخل في إطار أداء الواجب نحو اللّغة الأمّ/ لغة الأمّة التي لا ينكرها مواطن مُحترم، له مواطنته الكاملة. وهكذا تتنزّل الأمور عند الغربيين، رغم التّباعد اللّغوي والإثني، لكن المدينة تجمعهم واللّغة توحّدهم، **فهل نعتبر**.

وإنّنا قد رأينا أن نلمح في النّهاية بِمُلَح من العِبَر والأدب، إمتاعاً لذوي الألباب والأرب، فالمسألة اللّغوية في أوطاننا العربية تكاد تكون قضيةً دولية لا تحلّ حتى تتدخّل الأمم المتّحدة، ويا وَيْلَهُ من كلّ من يرفع الدعوة في المسألة اللّغوية، وإذا رُفعت على من تُرفع؟ فالمسألة تُعلَّق على مشاجب الكثير من الأطراف، فأصبحنا نعيش التَّيَهَان في متاهات العُميان، وكأنّنا نرى الرجل الأخرس الذي قال للرجل الأطرش: إنّي شاهدت رجلاً مُعوّقاً؛ يجري خلف رجلٍ مَشْلولٍ؛ ليمنعَه من شدّ رأس رجلٍ أصلع... وتستمرّ الحكاية، في هذه المتاهة، وبلا نهاية، ودون الوصول إلى الخلاصة، التي ليس لها بداية، ولا تكون لها النّهاية، فأين تكمن المُشكلة، التي هي مُعضلة، واتْركْها للزمان، يفعل فعلَه الحَيْران، وقد يأتي بالحلّ من دون عُقْدان.

أيّها القارئ لا تَمُلْنا من كثرة مناشدتك التّعاون معنا في سبيل خدمة الشّأن العامّ ولا تكن نفسك مَلولاً، ولا تكن سكوتاً، ولا تجعل قلبَك مُميتاً. فلكلّ بداية عواقب كما أنّ صاحب الحقّ دائماً يعلو، ولو لزمن قصير يكبو، وهكذا الحال بنا أصحاب الحقّ، فلن تستطيع تلك الرياح العاتية أن تقلعنا، وما استطاعت تلك الرياحُ الهوجاءُ

1ــ أحمد حلواني "هل من تجدّد حضاري عربي؟" مجلة أفق. بيروت: 2014، عدد خاصّ، رقم 13، ص 39.

أن تُحرّك الماء في قاع بئر، كما أيقظت الأمواجُ الكبيرةُ الماءَ في البحار؛ لأنّها سطحية، فنحن الأصل، ويبقى الأصل أصلاً، فستُواجَه في البداية بكلّ التّهجمات ولكن لا تتزعج ولا تنكسر، ففي البداية يتجاهلونك ثمّ يستهزئون بك، ثمّ يُحاربونك ثمّ تنتصر. فالنّصرُ قادمٌ لا محالةَ؛ لأنّ قضيةَ اللّغة العربية لها جذور عميقة، فَأَنْعِمْ بها من أصل! فنحن العرب كنّا دائماً نُعطي، وإن كنّا دائماً نُجْحَد، ولكن علينا أن نُعطيَ، وسنبقى نُعطي؛ لأنّنا أهل الحقّ، وعلى صواب كنّا ولا نزال. **وهذه كلّها عِبَر، ولكن ما أكثر العِبَر، وما أقلّ الاعتبار، والمشكلة كيف نعتبر من قلّة الاعتبار؟**

إنّ العِبْرَةَ من التّجربة الفرنسيّة النّاجحة تقودنا إلى الاتّعاظ بأنّ كلّ اللّغات التي عرفت قفزةً نوعيّةً وراءها علماءُ ومُخطّطون يقترحون الأفكار، ورجالُ سياسة يَصْنعون القرار. إنّ اللّغة الفرنسية وراءها رجالٌ احتفظَ لهم التّاريخُ بموقع مُميّز بين العلماء العظام، رجالٌ تركوا بصمات وتجارب ناجحة أصبحت تُدرّس في المعاهد العُليا، لمعرفة أسرار النّجاح. وأكثرُ التّجارب وراءها باحثون، وفي ذات الوقت هناك دولة وقانون ومسؤولون؛ يسهرون على تطبيق القانون إضافة إلى السّند المجتمعيّ؛ وهو المجتمع المَدَنيّ الذي كان يُسهم بأفكاره العاملةِ على التّغييّر؛ وهو مُجتمع مَدَني يُنتج الأفكار، مُجتمع مَدَني يهمّه الشّأن العامّ، ووراء هذا المُجتمع المَدَني أجهزةُ الدّولة التي تعمل على تجسيد ما يُبدعه العلماء، وما يُخطّطه السّياسيون. وإنّ بعض التّجارب اتّعظتْ من الهزائم التي لحقتها، وعملتْ على تجاوز المِحَن، والإصرار على التّطوّر، وبعض الأمم جرّبت استعمال اللّغات الأجنبيّة، ولم تجنِ من ورائها إلاّ الأشواك؛ **فغيّرت الاتّجاه إلى اللّغة الوطنيّة التي**

هي العمود الصّحيح الذي لا يتزحزح ولا ينكسر. وبذلك نجحت، وعاد لها البريق الذي كانت تنتظره من اللّغات الأجنبية الذي لم يأت إلاّ بالسراب.

و**العبرة** التي يمكن استخلاصها –نحن العرب– هي ضرورة الاهتمام بلغتنا العربيّة/ اللّغة الأمّ/ لغة الأمّة/ اللّغة الرّسمية، إلى حدّ التفاني في الاعتزاز بها وخدمتها، إضافة إلى لزوم التّغيّير الجذريّ في طريقة النّظر إلى التّطوّر اللّغويّ والتّقعيد لهذا التّطوّر، وضرورة إعادة تقديم اللّغة العربيّة لمُتعلّميها وفقاً لتصوّرات جديدة لتقريب اللّغة إلى عقول مُتعلّميها وإلى قلوبهم. وفي هذا الوقت نحتاج إلى حوار ساخن وعلميّ حول القضايا اللّغويّة خارج اللّغة الوطنيّة، تكون أطرافُه من المُهتمين بقضايا التّراث، وعلوم الدين، ومن النّحاة ورجال الاختصاص، ورجال الصّحافة، والمجتمع المدنيّ. كما أنّنا الآن في حاجة إلى جهد قوميّ مُنظّم في المنهجيّة، وفي الإعداد، وفي التّنفيذ؛ حيث يُنظر إلى العربيّة في جانبها التّعليميّ فتُتعلّم اللّغة لذاتها وفي ذاتها، **وننقل العربيّة من وجود خيار إلى وجود فرض** والتّحليق بها للبعيد بفكّ الشّفرات ودخول عالَم البرمجيّات، واقتحام عالَم الصّناعات بمختلف تخصّصاتها.

وعلى العموم فإنّ **العِبَر** من وراء هذا أنّ النّجاح اللّغويّ لدى الأمم الحيّة والرّاقيّة كان بفضل:

1 ــ المناهج الحديثة، وبالإرادة التي لا تتواني، وبالرّجال المُؤمنين وبالأفكار النيِّرة، وبالحكومات الصّادقة، وبالمُخطّطين الواعدين، وبالاقتصاد القويّ؛

2 ــ تحصين الهُوية اللّغويّة عن طريق التّحسيس والتّجنيد، مع تعاضد مختلف أجهزة الدّولة لما للدولة من سلطة وقوانين ردع؛

3 ــ الحزم والتّغريم؛ حيث صدق العزمُ والحسمُ –في دولة عربيّة– في إلزام السّائقين استعمالَ حزام الأمن في ظرف قياسيّ، ورأينا كيف احترمَ السائقون السّرعة لوجود أجهزة الرادار، وكيف مُنِعَ الباعةُ من استعمال الكيس البلاستيكي الأسْوَد في زمن قياسيّ، وكيف استطاعتْ دولةٌ عربيّةٌ تجنيدَ 11000 شاب لمناصرة فريق كرة القدم؛ وهو يلعب خارج بلده؛

4 ــ النّجاح الذي لَقِيَه التّعريب في سنوات المدّ القومي، نال بعض المساحات التي تربّعت عليها اللّغةُ العربيّة الآن، ولقد حصلَ في ذلك الوقت تكاملٌ بين القولِ والفعلِ، فحصلَ النّجاحُ؛

5 ــ التّجارب الناجحة في كلّ من سورية والسّودان، وفي بعض الجامعات في ليبيا واليمن، وفي العراق، وفي بعض المدارس العُليا في الجزائر، وكان النّصيب المُتداول الآن، والذي نفتخر به في بعض المَحال.

وهذه النّجاحات تمثّل بعضها في التّركيز على الهُوية اللّغويّة التي لا تخرج عن العِرْق واللّغة؛ فالفرنسيّون يُركّزون على أنّ الهُويّة تتمثّل في الإرادة والغَلَبَة فلغتُهم صانَها الحماسُ، وحَمَتْها القوانينُ، وهناك بعض النّجاحات اللّغويّة حصلت في لغات الأمم، فارتقت دون قرار سياسي مثل الإنكليزيّة والألمانيّة، ونجاحات أخرى سَيَّرَها القرارُ السّياسيُّ، ونجاحاتٌ حدثَ فيها القرارُ السّياسي لكنّها مُنِيَتْ بالفَشَل.

وإنّ الوقوف عند التّجربة الفرنسيّة، والتعرّض لبعض التّجارب كان بغرض القول بأنّه:

ــ لا تنميّة اقتصاديّة دون تنمية بشريّة؛

ــ لا تنميّة بشريّة دون الاهتمام بالحريّات الفرديّة؛

ــ لا اهتمام بالحريّات الفرديّة دون الاهتمام بالبحث العلميّ؛

ــ لا اهتمام بالبحث العلميّ دون الإغداق الماديّ؛

ــ لا تقدّم دون استعمال اللّغة الوطنيّة.

ــ النّتيجة: لا تقدّم نوعيّ دون ترقية اللّغة الوطنيّة. ولا تقدّم للعرب دون استعمال اللّغة العربيّة.

ونختم لنقول: لقد أغفلنا ما يتعلّق بالسّيادة والكرامة والمواطنة، وتناسيْنا بأنّ توظيف اللّغة الجامعة (العربيّة) عُملةٌ صعبةٌ؛ فكلّما وقع استعمالها وقع عليها الطّلب، وجنى أصحابها الفوائد الماديّة، مثل الإنكليزيّة التي تَجْنِي لأصحابها ما يفوق اثني عشر (12) مليار دولار سنوياً، وفوائد انتشار الإنكليزيّة تدرّ على مُعلّميها أموالاً كبيرة، وهو استثمار على عديد من الصّعد: استثمار ماديّ ملموس واستثمار عقليّ محسوس، وكلّ هذا حصل بما هو مدروس، في لغة شكسبير العلميّة، بما لها من آليّة، ومن تجنيد بشرية. ولكن عندنا ما يزال ربيعُنا أجنبياً ونعدّ أنّ العلوم غربية، فلا ينضح إلاّ منها طوْعاً وبذا، فنحن في بريقها نموت وعليها كلّ الصوت، وعلقنا بلغتنا العربيّة مجموعةً من الصّعوبات بفعل تناسينا لها وعدم العمل على ترقيتها. ولكن كلّ ذلك يَهُون، وسيجد الحلولَ إذا صدقتِ النيّاتُ **وتمّت غلبةُ الدّول العربيّة بالسّيادة والاقتصاد والإنتاج والتّبادل والتّنميّة والرّأسمال...** وإنّه لم يَعُدْ مقْبــولاً لا أخلاقيــاً ولا سياسيــاً أن تَتــرك الجمهوريّةُ/ الدّولةُ/ المملكةُ/ الإمارةُ/ السّلطنةُ لغتَها وشأنَها، ولم يَعُد مقبولاً أن ينصّ في الدّساتير العربيّة على رسمية/ ترسيم العربيّة دون التّخطيط والتّشريع والمتابعة والتقويم ومن ثمّ التّغريم، ودون إصدار الأحكام في المُنازعات اللّغويّة ودون استشارة النُّخب الوطنيّة.

أليس مَهزَلة أن يحصُلَ غيابُ التّخطيط الاستراتيجيّ البعيد المدى الذي يضع السّياسةَ اللّغويّة التي يحميها الشّعب، وتعمل النّخبةُ على تحقيقها وتذود عنها، هذا في المقام الأوّل، وفي المقام الثّانيّ، يجب العلم بأنّ البقاء للأعلم في مجتمع المعرفة؛ باعتبار اللّغة وعاءَ المعارف والعلوم، ووسيلةَ التّأثير في العمل والشّعور وأداةَ التّفاهم والإبداع، وأنّ هُويّة الأمّة هي لغتها، كما أنّ المُجتمع المُعاصر يقرّ بالحقوق اللّغويّة والديمقراطيّة، والتي لا تتحقّق لدى شعب لا يمكنه التّحدّث علمياً بلغته، أو لشعب سُلبت منه لغتُه، فكأنّه سُلبت منه ذاتُه، أو لشعب لا يستعمل الوسائل المُعاصرة في حياته اليوميّة، وبلغته الأمّ المعهودة، فما مصيرُه في الراهن وفي المستقبل. فنحن في وضعنا الحالي **أحياناً رؤوس بلا أجساد، وأحياناً أجساد بلا رؤوس**؛ باعتبارنا قليلي استعمال لغتنا في العلوم، هذا في المقام الأوّل، وفي المقام الثاني، فإنّ بعض مسؤولينا لا يجيدون ولا يستعملون ولا يعتزّون بلغاتنا الوطنية، وأنّ أكثرَ نُخبتنا لا تستعمل لغة الشّعب، فهم الرّؤوس التي لا تلتقي بالأجساد في الأفكار وفي التّوجّهات المشتركة، وهذا بسبب عدم استعمال لغة مشتركة، فكيف يحصل الانسجامُ الجمعيُّ بوجود خلاف في استعمال اللّغات بدل اللّغة المشتركة؟ هنا الإشكال والمعضلة بين المسؤول والشّعب، علماً أنّ اللّغة في عمومها ليست أداةً للاتّصال واكتساب المعرفة فحسب، بل هي مظهرٌ أساسُ للذاتيّة الثّقافيّة وتتجسّد في السّاسة والنّخبة في المقام الأوّل، ثمّ تظهر في المقام الثّاني في تعزيزها الذي يكون عن طريق الاستعمال، فهل هذا مُجسّد عندنا؟ كما أنّ الغرابة التي هي من الواقع اللّغوي أنّ الاستعمار وحّدنا عن طريق تجهيلنا بل جعلنا كتلة مُلتحمة في لغة واحدة هي (اللّغة العربية) ولا نرى لها بديلاً في الوقت الذي شتــّتنا الإصلاحاتُ التّربوية، وبدّدتْ أفكارَنا شَذَرَ مَذَرَ، وجعلتنا نعيد النّظرَ في

تاريخنا، هذا من جهة النّكران، ومن جهة تناسينا لحضارتنا وتشكيكنا في تاريخنا. والحقّ يقال: بأنّ الإصلاحات التّربوية لم تعمل على **تقوية إنيتِنا في لغة جامعة وهي العربية كما كانت في الماضي.**

فهنا موطن الخلل الذي وقع فيه التّسامح من قبل المسؤول في المقام الأوّل وهنا تظهر صلاحية مقولة (عثمان بن عفان) "**يزع بالسّلطان ما لا يزع بالقرآن**" بالفعل وقعَ التّسامحُ والتّهاونُ، كما أوقعت العولمةُ فعلتَها فينا، وما كنّا ندري مخاطرَها، فبدل أن نفتح لها النّوافذ بحَذَر، خَلَعْنا لها الأبوابَ بجَهْر وقَلَعْنا لها السّقوفَ بفخْر، وهنا الخُطورة التي قد تكون مُدمّرة على مجتمعاتنا بل إنّ كلّ ذلك قد يكون سبباً في المُطالبة بالاستقلال الذاتي/ الحكم الكونفدرالي/ القطيعة مع الأخوة في كلّ مكان، القطيعة مع العرب... وذلك باب من أبواب الصّراع السّياسي الذي يفتح أبواب الصراعِ البَيْنِيِّ.

ونعود لتأكيد دور الدّولة الوطنية المركزية في تعزيز الهُوية اللّغوية، فهي المسؤولة في المقام الأوّل عمّا يحيط بنا من مخاطر النّسيان، وتجاهل التّاريخ. الدول العربية مسؤولة عن النّظام التّربوي الذي كان يجب أن يُبنى على **لغة جامعة**، والتي لا تعني الانغلاق، بل يكون هناك تراتب لغوي منطقي واقعي.

إنّ الدَّول العربية مسؤولة عن تنشيط المؤسّسات التي أقامتها، والكثير منها عبارة عن هياكل دون روح، هياكل فارغة لا تعطي المطلوبَ منها. الدّول العربية مسؤولة عن الفراغ اللّغوي والتّذبذب الذي تعيشه الشّبيبة في اللاهُوية وتعيش اللامبالاة بفعل ذلك المنهج والمنهاج المدرسي الهشّ، الذي لا يُربِّي روحَ المواطنة ولا روحَ التّماسك الجمعي. إنّ الدّول العربية مسؤولة عما يُطرح في الواقع من العنف والتّطرّف، بفعل سوء النّظام التّربوي الذي لم يراعِ الخصوصيات اللّغوية

كما لم يراعِ المرجعيات الحضارية والتّاريخية والعلمية لوطننا. إنّ الدّول العربية مسؤولة عن تلك الفجوة بين القول الذي لا يُصاحبه العمل، بين الفرق بين ولَدَيْن من وطن واحد: أحدهما يتعلّم اللّغة الأجنبية ويصبح من النّخبة، وتفتح له كلّ الأبواب، ثمّ يصير مَسؤولاً، والآخر يتعلّم اللّغة العربية، ويبقى من الدّهماء والغوغاء، ومن خُدّام الهامش، فتسدّ أمامه كلُّ الأبواب، فلا حظوظَ له. أليس هذا انكسار في الهُوية وفي الوطن وفي المُواطنة، وفي مُستلزمات اللّغة الجامعة التي لم تحصل بعد.

فمن هنا، نروم استراتيجيّةً وطنيّةً وعربية أشبه بالدّستور الذي يجب أن تتبنّاه وزارات التّربيّة، والتّعليم العاليّ، والثّقافة، والشّؤون الدينيّة، والداخليّة؛ وتأخذ في الحُسْبان الثّغراتِ ذات العلاقة بالإصلاح التّربويّ ذي البنيّة العميقة، وما له علاقة بتكنولوجيا العلوم، وكيفية استدراك التّأخير، وتعمل كلُّ الدول العربية على تعميم اللّغة العربيّة في قضايا العلم.

المُقْتَرَحَاتُ:

1ــ تَعزيزُ الوعي اللّغويّ والانتماء إلى لغة الأمّة العربيّة، ولغة الأمّة اللّغة العربية الفصيحة.

2 ــ رَفعُ ملف الوضع اللّغويّ المُتدهور إلى القمة العربيّة لأخذ القرار المُلزم والإجباري.

3 ــ إصدارُ النّصوص المُلزِمة لحماية اللّغة العربيّة.

4 ــ القيامُ بتخطيطٍ لغويٍّ مُتدرّجٍ، ووضعُ سياسةٍ لغويّةٍ وطنيّةٍ وقوميّةٍ بما يُولي اللّغة العربيّةّ الصّدارةَ؛

5 ــ ضرورةُ تكثيف اللّقاءات العلميّة، ودعوة أصحاب القرار لحضورها.

6 ــ كَسبُ وسائل الإعلام الثّقيلة للرّواج للغة العربيّة في كلّ يوم.

7 ــ ضرورةُ التّدريس باللّغة العربيّة في كلّ مراحل التّعليم.

8 ــ الرّفعُ من سويّة اللّغة العربيّة؛ بالاهتمام بترقيتها علمياً.

8 العملُ على رفع المُضايقات التّقنيّة؛ بالاستفادة من اللّغات المُتقدّمة.

9 ــ مَحوُ كلّ ما يعترض بناء مجتمع المعرفة في ظلّ التّحدّيات المعاصرة.

10 ــ العملُ على توطين العِلم، وبناء قدرة ذاتيّة في البحث والتّطوير الثّقافي في جميع النّشاطات المجتمعيّة.

11ــ العملُ على ردم الفجوة المعلوماتيّة، وإنتاج نموذج معرفيّ ذي خصوصيّة ثقافيّة عربيّة.

12ــ البدءُ بإقامة هياكل الحكومات العربيّة الإلكترونيّة.

13ــ ضرورةُ اعتماد التّرجمة من اللّغات المُتقدمة، ومُلاحقة آخر ما يصدر في لغة العولمة.

مراجع الكتاب

ــ الكتب:

1 ــ أحمد بن نعمان، الازدواجيّة اللّغويّة في البلدان العربيّة بين الضّرورة الحضاريّة والخطورة المذهبيّة. الجزائر: د ت، دار الأمّة، سلسلة (المستقبل العربيّ) رقم 46.

2 ــ أحمد توفيق المدني، جغرافية القطر الجزائري. القاهرة: 1963، مكتبة النّهضة.

3 ــ أحمد درويش، إنقاذ العربيّة إنقاذ الهويّة... تطوير اللّغة العربيّة، ط1. القاهرة: 2006، شركة نهضة مصر للطّباعة والنّشر والتّوزيع.

4 ــ إدريس الكتاتي، ثمانون عاماً من الحرب الفرنكفونية ضد الإسلام واللّغة العربية. الرباط: 2000، منشورات نادي الفكر الإسلامي.

5 ــ حافيظ الإسماعيلي العلوي، عبد القادر الفاسي الفهري، حوار اللّغة. المغرب: 2007، منشورات الزاويّة.

6 ــ حمدان خوجة، المرآة، تح وتقديم: العربي الزُّبيري. الجزائر: 1975 الشّركة الوطنية للنّشر والإشهار.

7ــ سلمان بونعمان، النّهضة اللّغويّة وخطاب التّلهيج الفرنكفوني في نقد الاستعمار اللّغوي الجديد حالة المغرب، ط1. بيروت والسعوديّة: 2014، مركز نماء للبحوث والدّراسات.

8 ــ صالح بلعيد، هموم لغويّة. الجزائر: 2012، منشورات مختبر الممارسات اللّغويّة بالجزائر، جامعة تيزي–وزو.

9 ــ = = ، علم اللّغة النّفسي. الجزائر: 2008، دار هومة للطّبع والنّشر والتّوزيع.

10 ــ = = ، في المواطنة اللّغوية وأشياء أخرى. الجزائر: 2008، دار هومة للطبع والنّشر والتّوزيع.

11 ــ = = ، في الأمن اللّغويّ. الجزائر: 2012، دار هومة للطّبع والنّشر والتّوزيع.

12 ــ = = ، لماذا نجح القرار السياسي في الڤيتنام، وفَشِل في... الجزائر: 2010 دار هومة للطبع والنّشر والتّوزيع.

13 ــ = = ، في المواطنة اللّغوية وأشياء أخرى. الجزائر: 2008، دار هومة للطّبع والنّشر والتّوزيع.

14 ــ = = ، يزع بالحاكم ما لا يزع بالعالم. الجزائر: 2011، دار هومة للطّبع والنّشر والتّوزيع.

15 ــ عبد الإله بلقزيز، الفرنكفونيّة إيديولوجيا، سياسات. تحدٍ ثقافيّ– لغويّ، ط1. بيروت: 2011، مركز دراسات الوَحْدة العربيّة.

16 ــ عبد السلام المسدّي، العرب والانتحار اللّغويّ، ط1. ليبيا: 2010، دار الكتاب الجديد المتّحدة.

17 ــ عبد الصبور شاهين، في علم اللّغة العام، ط4. سورية: 1984، مؤسّسة الرسالة.

18 ــ عبد العلي الودغيري، اللّغة والدّين والهُويّة، ط1. المغرب: 2000، مطبعة النّجاح الجديدة بالدّار البيضاء.

19 ــ = = ، لغة الأمّة ولغة الأمّ عن واقع اللّغة العربية في بيئتها الاجتماعية والثّقافية. بيروت: 2024، دار الكتب العلمية.

20ــ عبد القادر الفاسي الفهري، السّياسة اللّغويّة في البلاد العربيّة، ط1. ليبيا: 2013، دار الكتاب الجديد المتّحدة.

21 ــ = = ، أزمة اللّغة العربيّة في المغرب بين اختلالات التّعدّديّة وتعثّرات (التّرجمة) ط5. ليبيا: 2010، دار الكتاب الجديد المتّحدة.

22 ــ = = = = ، السياسة اللّغوية في البلاد العربية، بحثاً عن بيئة طبيعية، عادلة ديمقراطية وناجحة، ط1. بيروت: دار الكتاب الجديد المتّحدّة.

23 ــ عبد الله ركيبي، الفرنكفونيّة مَشرقاً ومَغرباً. الجزائر: 2009، دار الكتاب العربيّ.

24 ــ علي القاسمي، السّياسة الثّقافية في العالم العربي. بيروت: 2012، مكتبة لبنان ناشرون، دار صايغ.

25 ــ = = ، لغة الطفل العربي، دراسات في السياسة اللّغوية وعلم اللّغة النّفسي. بيروت: 2009، مكتبة لبنان ناشرون.

26 ــ فؤاد بوعلي، مقاربات في المسألة اللّغوية بالمغرب، ط1. الرباط: 2015 مطبعة طوب بريس.

27 ــ كمال بشر، خاطرات مُؤتلفات في اللّغة والثّقافة. القاهرة: 1995، دار غريب.

28 ــ أبو بكر محمد بن الحسن الإشبيلي الزّبيدي، طبقات النّحويين واللّغويين، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم، ط2. القاهرة: 1973، د د ن.

29 ــ محمد الذّوادي، الازدواجيّة اللّغويّة الأمّارة: ارتباك الهُويّة وتصدّعها– المغرب– في المغرب والمشرق، ط1. تونس: 2013، منشورات تِبْر الزّمان.

30 ــ محمد المختار العرباوي، البربر مشارقة في المغرب. المغرب: 2012 المطبعة والورّاقة الوطنية الداوديات بمراكش.

31 ــ محمود أحمد السّيد، اللّغة العربيّة وتحدّيّات العصر. دمشق: 2008، وزارة الثّقافة الهيأة العامّة السّوريّة للكتاب.

32 ــ = = ، اللّغة العربية وتحدّيات العصر.

33 ــ ممدوح خسارة، قضايا لغويّة معاصرة. دمشق: 2003، الدّار الوطنيّة الجديدة للنّشر والتّوزيع.

34 ــ محمود فهمي حجازي، اتّجاهات السياسة اللّغوية، ط1. الرياض: 2015 مركز الملك عبد الله بن عبد العزيز لخدمة اللّغة العربية.

35ــ ميلود التوري، الأمازيغية والفينيقية –وبينهما العبرية واليونانية– ط1. الرباط: 2009، مطبعة نت.

ــ الكتب المترجمة:

1ــ أحمد بوكوس، مسار اللّغة الأمازيغية، تعريب: فؤاد ساعة. الرباط: 2012 منشورات المعهد الملكي للثّقافة الأمازيغية.

2 ــ أحمد مُعتصم "وضع تدريس اللّغة العربيّة في فرنسا"© L'HAMATTAN Arabofrancophonie تر: جيهان عيسوي، ط1. القاهرة: 2005، المجلس الأعلى للثّقافة/ المشروع القومي للتّرجمة. عدد (الفرنكفونيّة العربيّة دراسات وشهادات) رقم 790.

3 ــ جان لوي كالفي، السّياسة اللّغويّة، تر: محمد يحياتن، ط1. لبنان: 2009، الدار العربيّة للعلوم ناشرون، ص 121 ــ 122.

4 ــ جلبير غرانغيوم، اللّغة والسّلطة والمجتمع في المغرب العربيّ، تر: محمد أسليم. المغرب: 1995، الفارابي للنّشر بمكناس.

5 ــ سليمان بن عيسى "الفرنكفونيّة العربيّة كمستقبل آتي" © Arabofrancophonie L'HAMATTAN تر: جيهان عيسوي، ط1. القاهرة: 2005، المجلس الأعلى للثّقافة/ المشروع القومي للتّرجمة. عدد (الفرنكفونيّة العربيّة دراسات وشهادات) رقم 790.

6 ــ سوزان جاس+ لاري سلينكر، تعلّم اللّغة الثّانية، تر: محمد الشرقاوي، ط1. القاهرة: المجلس الأعلى للثقافة، المشروع القومي للترجمة، رقم 53.

7 ــ عبد العلي الودغيري، كتاب مُترجم عنوانه: الفرنكفونيّة والسّياسة اللّغويّة والتّعليميّة الفرنسيّة بالمغرب. وهناك كِتاب يقرب لهذا لـــ (جود فروي Demonbynes ديمونبين) موسومL'œuvre française en matière de l'enseignement.

8 ــ عبد الكبير خطيبي "اللّغة الفرنسيّة كلغة حبّ" © Arabofrancophonie L'HAMATTAN تر: جيهان عيسوي، ط1. القاهرة: 2005، المجلس الأعلى للثّقافة/ المشروع القومي للتّرجمة. عدد (الفرنكفونيّة العربيّة دراسات وشهادات) رقم 790.

9ــ علي إبراهيم "المركز الثّقافي السوي بباريس والفرنكفونيّة" L'HAMATTAN Arabofrancophonie © تر: جيهان عيسوي. القاهرة: 2001 المجلس الأعلى للثّقافة/ المشروع القومي للتّرجمة. عدد (الفرنكفونيّة العربيّة دراسات وشهادات) رقم 790.

10 ــ Camille Cabana "معهد العالم العربي" © Arabofrancophonie L'HAMATTAN تر: جيهان عيسوي، ط1. القاهرة: 2005، المجلس الأعلى للثّقافة/ المشروع القومي للتّرجمة. عدد (الفرنكفونيّة العربيّة دراسات وشهادات) رقم 790.

11 ــ Marie Treps، الكلمات المُسافرة، تر: منصور نجم حُديفي. دمشق: 2008 مركز التّعريب والتّرجمة والتّأليف والنّشر.

ــ الأعمال الجماعية:

1 ــ اللّغة الأمّ. مقال: صالح بلعيد "اللّغة الأمّ، والواقع اللّغوي في الجزائر". الجزائر: 2004، دار هومة للطّبع والنّشر والتّوزيع.

2ــ الأمم الحيّة أمم قوية بلغاتها. الجزائر: 2012، مخبر الممارسات اللّغوية بالجزائر، جامعة تيزي–وزو.

ــ المجلات:

1ــ مجلة الاجتهاد، مقال لــ: لؤى صافيّ "المثقّف والنّهضة جدليّة الأصالة والنّهوض". بيروت: 2002، العددان: 52ــ53.

2ــ = = ، ــ مجلة الاجتهاد ، مقال لــ: الفضل شلق "الدّولة السّياسيّة والدّولة الاقتصاديّة". بيروت: 2002، العددان: 55 ــ 56.

3ــ مجلة التسامح مقال: فيصل الحفيان "اللّغة والهوية إشكالية المفاهيم وجدلية العلاقة". عُمان: 2004، العدد 5.

4ــ مجلة التنوير "نور الدّين الصّغير "القوميّة والحداثة في المجتمع العربيّ زمن الإصلاحيّة الأول ⅓ χ ومطلع ق χχ". تونس: 1993، المعهد الأعلى لأصول الدين بجامعة الزّيتونة، العدد الأول.

5ــ مجلة حوليات، مقال لــ: لطيف زيتوني. لبنان: 2014، اللّجنة الوطنيّة اللبنانيّة.

6ــ جامعة القاهرة، كلية دار العلوم، مقال لــ: علي أحمد مدكور "الآثار اللّغويّة والمعرفيّة للتّعليم باللّغات الأجنبيّة". أعمال مؤتمر حول (التّعليم باللّغات الأجنبيّة في العالم العربيّ). القاهرة: 14ــ 15 فبراير 2006.

7ــ = = = = ، مقال لــ: عبد النّور محمد الماحي "تجربة التّعليم باللّغة العربيّة في الجامعات السودانيّة" أعمال مؤتمر حول (التّعليم باللّغات الأجنبيّة في العالم العربيّ). القاهرة: 14ــ 15 فبراير 2006.

8ــ مجلة علوم التربية، ــ مقال لــ: الحسن مادي "السّياسة التّعليميّة ورِهانات المُستقبل". الرّباط: د ت.

9ــ مجلة معلومات، ذاكرة الثّورة الجزائرية. بيروت: 2012، عدد (ذاكرة الثّورة الجزائرية) رقم 103.

10ــ المنظّمة العربيّة للتّربية والثّقافة والعلوم "الثّقافة مستودع الهُويّة والأصالة" مجلة المنظّمة. تونس: 1990، عدد: الخطّة الشّاملة للثّقافة العربيّة، ص 50ــ51.

110ــ = = = = ، مقال لــ: محمد صالح الجابري "قراءات في واقع الثّقافة العربيّة". مجلة المنظمة. تونس: 1998، العدد 11.

12ــ مجلة معلومات، مقال لــ: مسعود ضاهر "قيم الثورة الجزائرية وتحديات عصر العولمة". بيروت: 2012، عدد (ذاكرة الثورة الجزائرية) رقم 103.

13ــ معهد الدراسات والأبحاث للتعريب، مجلة اللّغة والتواصل، مقال لــ: يحيى اليحياوي "اللّغة العربية والإنترنت ومجتمعات المعرفة في ظلّ العولمة". الرباط: 2011.

14ــ المجلس الأعلى للتّعليم، مقال لــ: حماني أقفلي "اللّغة والسّلطان السّياسي" مجلة المدرسة المغربيّة. المغرب: 2011، العدد 3 (اللّغات في المدرسة المغربيّة).

15ــ مجلة الملتقى، الصادرة بمراكش: 2013، العدد 29.

16ــ مجلة الموقف، مقال لــ: عبد العلي الودغيري "الفرنكفونيّة في إفريقيا". المغرب: 1992، العدد 13 ــ 14.

17ــ مجلة نوافذ، مقال: "الأمازيغية والمنظومة التّربوية". المغرب: 2002، عدد 17–18 يتناول (المسألة الأمازيغية في المغرب).

18ــ مجلة المؤتمر الدولي للغة العربية، مقال لــ: سوسن الصّدفي "أي مناهج تعليميّة، وأيّ استراتيجيّة تربويّة للّغة العربيّة بفرنسا؟". المؤتمر الدولي الثالث. دُبَي: 2014، الجزء الرّابع.

19ــ = = = = ، مقال لــ: بشير فايد "جمعية العلماء المسلمين الجزائريين ودورها في إحياء اللّغة العربية والثّقافة الإسلامية 1931–1956". دبي: 2015، المؤتمر الدولي الرابع للغة العربية، رقم 5.

20ــ = = = = ، مقال لــ: آمال منصور "منفى اللّغة وأسئلة الانشطار الهُووي في الرّواية الجزائرية (مالك حداد أنموذجاً)". 2015، المؤتمر الدولي الرابع للغة العربية العدد 5.

21ــ = = = = = ، مقال لــ: محمد حبش "العربية في أوربا" كتاب المؤتمر. دبي: 2015، المؤتمر الدّولي الرّابع للغة العربية، رقم 8.

22ــ مجلة موارد، مقال لــ: لمبروك المنصور "الهوية والقيم الدينية في التّجارب التّحديثية اليابانية والعربية دراسة مقارنة تركّز على الإسلام والشنتو". تونس: 2009 جامعة سوسة، العدد 14.

23ــ مجلة الوحدة، مقال لــ: الشّاذلي الفيتوري "الازدواجيّة اللّغويّة والازدواجيّة الثّقافيّة في الوطن العربي" تر وتلخيص: رشيد بناني. الرّباط: 1989، المجلس القوميّ للثّقافة العربيّة، العدد 61ــ62.

24ــ = = = ، مقال لــ: أبو يعرب المرزوقي "النّهضة المستحيلة: قراءة المستقبل بعيون الماضي" قراءة: رضوان زيادة. بيروت: 2002، العدد 54.

ــ مقالات لم تُنشر:

1ــ عبد الرحمن الحاج صالح "العاميات العربية ولغة التّخاطب الفصيحة" محاضرة أُلقيت في ملتقى المجلس الأعلى للغة العربية. الجزائر 4ــ5 جوان 2007، ملتقى: الفصحى وعامياتها.

2ــ عثمان سعدي، مقالة لم تطبع موسومة: البربريست.

3ــ مها حسن يوسف القصراوي، مقالة مطبوعة. "واقع اللّغة العربية بين التفكير والتعبير وأثره في الهوية" بحث قدّم لكلية التربية والتعليم بجامعة العين للعلوم والتكنولوجيا. الإمارات العربية المتحدة: 2010.

ــ منشورات المؤسّسات والوزارات:

1 ــ الأكاديمية المَلَكِية المغربية، مقال لــ: عبد الهادي بوطالب "لا بدّ من تكامل العولمة والهويّة ليكون العالم واحداً ومُتعدداً". الرباط: 1997، أعمال النّدوة: 27-29 ذو الحجة 1417 هــ/ 5-7 مايو 1997، عدد (العولمة والهويّة، سلسلة "الدورات".

2 ــ = = = = = ، مقال لــ: بنسالم حميش "في إشكاليّة الهُويّة المزدوجة الأدب المغاربيّ المكتوب بالفرنسيّة نموذجاً". الرّباط: 1997، عدد (مستقبل الهُويّة المغربيّة أمام التّحديّات المعاصرة) سلسلة (ندوات).

3 ــ = = = = = ، مقال لــ: أحمد بوكوس "التّعدّد اللّغويّ الثّقافيّ والتّنميّة البشريّة". الرباط: 2006، عدد (الوطن والمواطنة وآفاق التّنميّة البشريّة) سلسلة (ندوات).

4 ــ = = = = = ، مقال لــ: محمد الإدريسيّ المشيشيّ "دعم المواطنة بتأهيل المواطن المسؤول في دولة الحقّ". الرباط: 2006، سلسلة (ندوات) عدد يتناول أعمال ندوة (الوطن والمواطنة وآفاق التّنمية البشريّة).

5 ــ = = = = = ، مقال لــ: عبّاس الجراري "أسباب تقدّم المسلمين وتأخّرهم من خلال تقرير جاسوس بريطاني في أوائل القرن الثامن عشر". الرّباط: 2008، العدد 25.

6 ــ = = = = = ، مقال لــ: بنسالم حميش "في إشكاليّة الهويّة المزدوجة الأدب المغاربي المكتوب بالفرنسيّة نموذجاً". الرّباط: 1997، عدد (مستقبل الهويّة المغربيّة أمام التّحديّات المعاصرة) سلسلة (ندوات).

7 ــ = = = = = ، مقال لــ: محمد العربي المساري "هل تُصلح السياسةُ أخطاءَها؟" ندوة الأكاديمية. الرباط" 2014ــ في: 21- 22 محرّم 1435 هــ/ 25-26 نونبر 2013، سلسلة "النّدوات" عدد (تخليق الحياة العامّة في المغرب) مطبعة المعارف الجديدة.

8 ــ الإيسيسكو، مقال لــ: بطرس بطرس غالي "خطاب المدير العامّ لمنظّمة الفرنكفونيّة" المغرب: 2001، ندوة (الفرنكفونيّة والعالم العربيّ حوار الثّقافات) بتاريخ: 30-31 مايو/ أيار 2000.

9 ــ = = ، توصيات ندوة الفرنكفونيّة والعالم العربيّ حوار الثّقافات، جرت فعالياتها في 30–31 مايو/ أيار 2000. المغرب: 2001.

10 ــ = = ، مقال لــ: غسّان سلامة "الفرنكفونيّة والعالم العربيّ حوار الثّقافات". المغرب: 2001: 2001. ندوة 30–31 مايو/ أيار 2000.

11 ــ جمعيــة الدعوة الإسلامية، علي عقلة عرسان، دراسات في الثّقافة العربيّة. ليبيا: د ت.

12 ــ = = = ، أعمال ندوة (التاريخ الإسلامي وأزمة الهُوية) مقال لــ: عبد الودود شلبي "الهُوية الإسلامية جــذور المُشكلــة وتطوّرهــا". ليبيــا: 1430 من ميلاد الرسول/ 2000 إفرنجي.

13 ــ = = = ، أعمال ندوة (التّاريخ الإسلامي وأزمة الهويّة) مقال لــ: زكريا محمّد الرّبّاني "الفرنكفونيّة والعلمية والهُويّة الإسلامية قراءة في التّناقض النيجري". ليبيا: 1430 من ميلاد الرسولﷺ/ 2000 إفرنجي.

14ــ سيد قطب، في ظلال القرآن، ط34. بيروت– القاهرة: 2004م، دار الشروق، ج1.

15 ــ مجمع اللغة العربية، مقال لــ: محمود السّيد "التّمكين للغة العربيّة" مجلة مجمع اللّغة العربيّة. دمشق: 2008، المجلّد 83.

16 ــ محمود السيد "أثر اللّغة في الكيان العربي" أعمال مؤتمر العروبة والمستقبل. دمشق: 2010، بتاريخ: 15–19– 2010.

17ــ مركز الملك عبد الله بن عبد العزيز لخدمة اللّغة العربية. مقال لــ: أحمد بن محمد الضبيب، مجلة مُستقبل اللّغة العربيّة، ط1. السّعوديّة:2014، (سلسلة: ندوات رقم3).

18 ــ = = = = = ، مقال لــ: حسين بن علي الزراعي "الاستثمار في اللّغة العربية من خلال اقتصاديات اللّغة". السعودية: 2015، عدد (الاستثمار في اللّغة العربية).

19 ــ = = = = = ، مقال لــ: عبد القادر الفاسي الفهري، السّياسة اللّغوية والتّخطيط مَسَارٌ ونماذج، ط1. الرياض: 2014.

20 ــ = = = = ، مقال لــ: ولي اللّه كندو "السياسة اللّغوية لدى الأُمم الحيّة" السنة الأولى، العدد الأول.

21 ــ مركز دراسات الوحدة العربية، مجلة الوحدة، مقال لــ: عبد الكريم غلاّب "أزمة المفاهيم وانحراف التّفكير". لبنان: 1998.

22 ــ = = = = = ، مقال لــ: عبد السّلام المسدّي "الفرنكفونيّة إيديولوجيا سياسات. تحدٍ ثقافي– لغويّ، ط1. لبنان: 2011.

23 ــ = = = = = ، مقال لــ: ياسين فاروق "الفرنكفونيّة إيديولوجيا، سياسات. تحدٍ ثقافي– لغويّ" ط1. بيروت: 2011.

24 ــ = = = = = ، مقال لــ: بشير نافع& سمير الشميري & علي خليفة الكواري "المواطنة والديمقراطية في البلدان العربية". بيروت: 2001.

25 ــ = = = = = ، مقال لــ: أمّ الخير تومي "ازدواجية النّخبة في الجزائر، النّخبة الإعلامية كمثال". بيروت: 2013، عدد (الجزائر إشكاليات الواقع ورُؤى المستقبل).

26 ــ = = = = = ، مقال لــ: أحمد بن نعمان "الازدواجيّة اللّغويّة في البلدان العربيّة بين الضّرورة الحضاريّة والخطورة المذهبيّة" عدد (اللّغة العربيّة أسئلة التطوّر الذّاتي والمستقبل) بيروت: 2005.

27 ــ مركز جمعة الماجد للثقافة والتراث، مقال لــ هاني إسماعيل محمد "دور تعليم اللّغة العربية لغير الناطقين بها في ترسيخ الهوية العربية رؤية استشرافية"، الإمارات العربية المتحدة: 2015، العدد الحادي والتسعون.

28 ــ مركز دراسات المعرفة والحضارة، سعيد شبار، النّخبة والإيديولوجيا والحداثة في الخطاب العربي المعاصر، ط2. المغرب: 2012، مركز دراسات المعرفة والحضارة بكلية الآداب بني ملاّل، سلسلة (دراسات وأبحاث فكرية①).

29 ــ مؤسّسة الفكر العربي، لننهض بلغتنا مشروع لاستشراف مستقبل اللّغة العربية ط1. بيروت: 2012.

30 ــ = = = ، التّقرير العربي السّابع للتّنمية الثّقافية، ط1. بيروت: 2014.

310 ــ مؤسّسة الكويت للتّقدّم العلمي، مجلة العلوم. الكويت: 2015، المجلد 31 العدد: 2/1، ملف (التّعليم في العصر الرقمي) ص 13.

32 ــ الجمهوريّة العربية السّورية، لجنة تمكين اللّغة العربيّة، ط1. سورية: 2008.

33 ــ وزارة الاتّصال، مديرية الإعلام، الجزائر بتاريخ: 11 أفريل 2013.

34 ــ وزارة الشّؤون الدّينية والأوقاف، مولود قاسم نايت بلقاسم المفكّر الجزائري الموسوعي. الجزائر: 2013، سلسلة أعلام الجزائر (1).

ــ الكتب الأجنبية:

1- Christian Valantin, La jeunesse entre l'authenticité et le monde actuel revue (La jeunesse entre l'authenticité et le monde actuel) Alger : 2008, Haut conseil Islamique.

2- Edward Sapir, Language An Introduction to the study of speech . London: 1970.

3 - Haddab Mustapha, Education et changements soucio-culturels : les Moniteurs de l'enseignement élémentaire en Algérie. Alger : 1979 office des publications universitaires.

4- Louise Dabène, Repère sociolinguistique pour l'enseignement des langues. Paris : 1994, Hachette livre.

5 - L Hjelmslev, prolégomènes à une théorie du langage. Paris : 1956.

6- J Louis Calvet, La guerre des langues.

7- Malek Haddad, Les zéros tournent rond. Paris : 1961, ed Maspero.

8- Robert Grand Guillaume, Arabisation et langue française au Maghreb, un aspect sociolinguistique des dilemmes du développement. Puf 1993.

9- Omar Haouache, Citoyen quelle langue parle-tu? Je parle algérienne! Alger:2015, ANEP.

10- Stéphane Gsell, Histoire ancienne de l'Afrique du nord. Ed : librairie Hachette et C Paris : 1914, 2 eme ed .

ــ مواقع الشابكة:

1 ــ موقع Google بتاريخ 14 مايو 2014.

2 ــ موقع Google البحث في Etat-Nation بتاريخ 12 أكتوبر 2015.

3 ــ سليمان إبراهيم العسكري "العربفونيّة في عصر العولمة" مقال في Google بتاريخ 9 أكتوبر 2014.

4 ــ موقع الجمعية الدولية لمترجمي العربية.

http/www.atinternational. org/forums/index

5 ــ ويكيبيديا الموسوعة الحرّة، عن Google بتاريخ: 28/ 09/ 2014م.

6 ــ موقع Wikipédia، La francophonie، بتاريخ: 10 أكتوبر 2015.

7 ــ نقلاً عن Google في موضوع Solidarité et Progrès لصاحبه: Pierre Beaudry بتاريخ 12 أكتوبر 2015.

8 ــ See more at: http://www.algerie-focus.com/blog/2012/10/algerie-et-francophonie-je-taime-moi-non-plus/#sthash.k10eRF3A.dpuf.

9- http://www.islamtoday.net/articles/show_articles_content.cfm?id=102&catid=105&artid=8387

الجرائد:

1ــ جريدة Le Monde لو موند مقال: Europe et le défi des langues أوربا وتحدّي اللّغات. بتاريخ: 14 سبتمبر 1989.